أفلا تعقلون

تأليف

الكاتب والباحث والمؤرخ
ضياء فاضل محمد الخزرجي

تحت إشراف ومساعدة
الدكتور صباح حسن عباس
دكتوراه في البحوث الإسلامية

الجزء الأول

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ
الَّذِينَ مِن دُونِهِ
بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ





الدكتور الشيخ صباح حسن عباس دكتوراه في البحوث الاسلامية خريج جامعة الازهر

كتاب
{ أفلا تعقلون }

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ
بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ

الجزء الأول

تأليف
الكاتب والباحث والمؤرخ
ضياء فاضل محمد علي الخزرجي

تحت إشراف ومساعدة

الدكتور
صباح حسن عباس الجبوري
دكتوراه في البحوث الإسلامية
خريج جامعة الأزهر الشريف

١٤٤٤هجري --- ٢٠٢٣م
م/ ١٦٣/ت / ٣٢٤

المقدمة :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ودبر عباده على ما تقتضيه حكمته وكان بهم لطيفا خبيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وكان على كل شيء قديرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة وبشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله علـــيه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد :

نحن مهما تأملنا في مختلف الظواهر الموجودة حولنا سوف نرى عظمة الخالق تظهر في كل شيء موجود سواء كائنات حية أو دواب صغيرة.
فالله عز وجل لم يخلق أي دابة في هذه الأرض بدون هدف، فالله عز وجــل قد خلق هذا الكون به الكثير من المظاهر الإبداعية العظيمة.
التي لا يمكن أن يأتي مثلها، فمهما قد قدم الإنسان من عظمة وإبـــهار في هذا الكون، فلا يمكن أن يأتي ما يمثل قدر بسيط من قدرة الخالق، في خــــلق هذا الكون.

لقد خلق الله هذا الكون في مراحل مختلفة ولم يخلقه في لحظة.
بالرغم من قدرة الله عز وجل في أن يخلق الكون وما عليه قبل أن يغمض البصر.
لكن الله لم يفعل أي شيء في هذا الكون بدون حكمة، بل أن الله قد خــــلق هذا الكون بمراحل لهدف.
حيث قد مر بمراحل لكي يعلم الإنسان الصبر والإتقان، في القيام بأي شـــيء قد يقوم به.
فلا يهم أن يتم تقديم الشيء بصورة عشوائية، بقدر ما يمثل من أهمــــية في تقديمه بصورة إبداعية منظمة.
نحن عندما وجدنا على هذه الأرض، قد وجدنا أن الكون مكتمل عليــه كل شيء من أرض وسماء وماء وبشر.

لكن عندما يتجلى الإنسان، ويصل إلى مرحلة التأمل فقد يرى، أن الله عـز وجل قد خلق عظمة توضح فيها قدرة الخالق .
بداية من السماء الصافية التي تغطي الكون بالكامل، ترتفع عن الأرض بغـــير عمد لكي تثبت بها.
ولا يوجد بها أي شقوق أو عيوب موجودة فيها، وإن نظر المرء إليها ألف مرة لم يجد بها أي عيب.

فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ
{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ} (سورة الملك آية ٣ ـ ٤).

وقد يشرح الله عز وجل من خلال تلك الآية العظمة الخالق.

فهو الخالق وهو المتصرف بها، والرافع لها من غير عمد من يستطيع فعل هذا مهما بلغ من العلم . كما أن الله عز وجل قد أثنى على المتأملين المتـفكرين بما فيها من وجود الشمس والقمر والليل والنهار. فقد نرى من خـــــــلال الآيات القرآنية التي قد قدمها الله أنها تارة تتحدث عن عظمة الـــــــخالق، في خلقه للسماوات والأرض وسعتها . وتارة أخرى عن الإرشاد إلى خالقـــــها فهي لم تستقر على حالة واحدة أو اتجاه معين بعينه. وفي تارة أخرى تسـتدل بها على الأحداث التي ستحدث يوم القيامة.
وما هي المشاهد التي قد تظهر فيها، ليوضح فيها الله عز وجل، أن السـماء لم تخلق من أجل التأمل فقط.

أخي القارئ : أعلم إن الله خلق كل شيء بنظام :
بل إن الله عز وجل كل شيء قد خلقه في هذا الكون قد خلقه لــــهدف، قوي ولا يوجد دابة مهما قد كانت صغيرة إلا ولها غاية.
فحتى أن الأتربة التي قد تحمل بالرياح وتتلون باللون الأصفر وبــــــها الرمال.

ونحن قد نكره وجودها فهي لهدف وغاية تستطيع من خلالها أن تــقضي على الحشرات الصغيرة التي تنتشر في نهاية الفصل . وعندما يقوم الله عـــز وجل بتوجيه هذه الرياح الغير محبوبة إلينا، لم تكن إلا لخدمة البشرية لهذا لم يخلق الله شيء بدون غاية . ويدل هذا على وحدانية الله، تعالى وعظمته وقــــدرته، وحكمته ونعمه على عباده. فقد خلق الله السماء لحكمه وقدرة منه، فلم يكن هذا الخلق عبثاً ويتضح هذا من خلال قوله تعالى في كتابه العزيز.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } (سورة ص آية ٢٧) .

ويتضح من خلال ذلك دلالة القادر على كل شيء، والقادر على صنع ما لا يقدر عليه بشر. ومن يخلق ويبدع في هذا الخلق، قادراً على أن يحيي الـــــموتى والعظام وهي رميم .

فمن هنا سوف أبين في الأبواب الآتية مع الفصول المقسمة لكل باب حـــول كل إنسان ملحد ومشرك بالله سبحانه وتعالى وبالأدلة الثابتة مـــــن القرآن والسنة . وأقول أفلا تعقلون :

وبالرغم من مؤلفات ودروس وخطب حول هذا الموضوع . أحببت أن أشارك معهم بهذا الموضوع الخطير . لعالمنا عالم الإسلام المحمدي:
وبمساعدة الأخ الغالي الدكتور الشيخ صباح حسن عباس الجــبوري دكتوراه في البحوث الإسلامية خريج جامعة الأزهر الشريف .

الكاتب والباحث والمؤرخ
ضياء فاضل محمد الخزرجي

كلمات الكاتب والباحث والمؤرخ . والدكتور صباح حسن عباس : حول لماذا نتطرق لهذا الموضوع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي كان بعباده خبيراً بصيراً، وتبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً.

أما بعد : نتطرق لهذا الكتاب تحت عنوان { أفلا تعقلون } .هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } لأسباب كثيرة منها :

أولا : قلة الكتب التي تتحدث عن هذا الجانب العظيم، جانب الدعوة إلى الله في وسائل الإعلام وخطب الجمعة والدروس والمحاضرات، بل العكس كثر المثبطون، وهناك ولله الحمد أناس كثر يعملون لدين الله من الرجال والنساء فالدين منصور .

ثانيًا : نحن في زمن الدعوة شئنا أم أبينا، فالكل يدعو إلى دينه ومذهبه، أطلق بصرك وأرخ سمعك لتجد ذلك واضحًا دون عناء وصعوبة، بل وحتى أصحاب البضائع التجارية اتخذوا من وسائل الإعلام دعوة إلى منتجاتهم فيما يسمى بالإعلان التجاري .

ثالثًا : أن الله –عز وجل- أنعم علينا بالعلم، ويبقى العمل ثم الدعوة إلى هذا العلم الذي تعلمناه وعرفناه .

رابعًا : أننا نحب الإسلام ولا نشك في ذلك؛ لكن هذا ادعاء محبة (إذا أردنا أن نعبر بدقة) فالمحبة دون عمل كيف تكون ؟ نحب الإسلام لكن لا نعمل له، ولهذا فإن التطرق لهذا الكتاب مطلب ملح لتحريك الهمم وتقوية العزائم في أوساط الشباب والبيوت والأسر .

خامسًا : الأصل أن يكون هذا العمل (أعني الدعوة إلى الله) ديدن المسلم في يومه وليلته، يذكر إذا نسى ويقوى إذا وهن ويحتاج إلى زاد في هذا الطريق الطويل، فلعل هذا الكتاب من الزاد على قلته .

سادسًا : كثرة من يعمل حولنا في الساحة من أصحاب الأفكار المـــــــــنحرفة والديانات الباطلة، فحري بنا أن نتفقد أمرنا ونقوم بواجبنا حتى تبرأ الذمم أمام الله –عز وجل- .

سابعًا : بعض الإخوة يتحرقون شوقًا إلى خدمة الدين والقيام بأمـر الدعوة إلى الله وهم يبحثون عن الوسائل والطرق المعينة لذلك لعلنا سويًا نقدم شيئًا يستفاد منه .

ثامنًا : أن البعض يمر بمرحلة فتور وتواكل وانتظار النتائج من أعــمال الغير، وهنا وقفة فإن الله –عز وجل- لما ذكر حال مريم في كتابه الكريم قال : {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا} (١) كيف بامــــــــــــرأة في هذه الحال وتهز نخلة ؟ لكنه الأمر ببذل الأسباب، ولو اجتمعنا نحن جميعًا لمــــا استطعنا أن نحرك جذع النخلة لكننا أمرنا ببذل الأسباب وهكذا الدعــوة إلى الله نتلمس الأسباب المعينة عليها .

تاسعاً : انصراف الناس إلى الدنيا من تجارة وأسهم وعقار حتى طغــت على حياتهم ونسوا ما خلقوا له {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} (٢).

أما الغاية من خلق الكون :

خلق الله تعالى الكون وأبدع فيه وأتقن، وفي خلقه للكون إعجازٌ مشهودٌ، حيث قال: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ،(٣)

وبذلك يتعلّم الإنسان الدقّة والإتقان، ويصبح التدبّر جزءاً من تسخير الإنسان في الأرض، كما أنّ الآية السابقة تدلّ على أنّ الله تعالى سخّر الإنسان في الأرض، وبذلك تتكامل العلاقة بين الإنسان والكون، فخلق الكون بما فيه من آياتٍ ومعجزاتٍ من أجل الإنسان، فالكواكب في السماء من آيات الله الجميلة التي يتغنّى بها الإنسان، كما أنّها تسخيراً للإنسان، حيث قال الله تعالى: {وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ،(٤)

ومن آيات الله في الكون؛

خلق الأنعام والبهائم؛ للركوب والارتحال، وللتفكّر في خلقها وجمالها، حيث قال الله عزّ وجلّ: {وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ،(٥)

والنبات خلقه الله تعالى؛ للتزوّد منه بالطعام، والتأمّل في خَلقها، حيث قال: {انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}،(٦)
ومن الجدير بالذكر أنّ جسد الإنسان لا ينفصل عن روحه، وبذلك ينظر الإسلام إلى الإنسان، فالإنسان مزيجٌ من نفخ الروح فيه وطينة الأرض، حيث قال الله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي}،(٧)

والروح في الآية السابقة مضافةٌ إلى الله تعالى؛ تشريفاً له وتعظيماً، وبتأمّل الإنسان في خَلق الله تعالى للكون، يشعر بأنّه منتظمٌ معه، ويشعر أيضاً بأنّه مسبّحٌ لله تعالى مع ما في الكون، حيث قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ}،(٨)

فالله تعالى أوكل الإنسان مهمّة الاستخلاف في الأرض، ورزقه لذلك النجدين.

وأما آيات الله في الكون :

أثبت القرآن الكريم العديد من أنواع إعجاز الله تعالى في خلقه للإنسان والكون، وفي ذلك دلالةٌ على عظيم خَلق الله عزّ وجلّ، وفيما يأتي بيان بعـــــض صور إعجاز الله تعالى في الكون الدالة على قدرته:

الإعجاز في وحدة الأرض؛ حيث إنّ الأرض كانت جزءاً من المجموعــــــــة الشمسيّة، ثمّ انفصلت عنها، وبردت، وتهيّأت الأسباب فيها لتكون صالحـــــةً لعيش الإنسان عليها، ودليل ذلك البراكين الموجودة على الأرض، والـــــمواد المشتعلة الموجودة في باطن الأرض، كما أنّ الأرض تقذف بين الحين والآخر بعض الحمم المشتعلة، وذلك ممّا بيّنه الله تعالى في القرآن الكريم.

الإعجاز في نشأة الكون؛ حيث بيّن العالم جينز أنّ مادة الكون كانت في البداية غازًا منتشرًا في الفضاء بشكلٍ منتظمٍ ومتناسقٍ، وعندما تكاثف الــغاز تشكّلت المجموعات الفلكية، وقال الدكتور جامبو ما يدلّ على كلام العالم جيــنز، وبيّن الله تعالى ذلك في القرآن الكريم، حيث قال: {ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}؛ (٩)

فالآية السابقة دلّت على أنّ الدخان هو مصدر وأساس خَلق الكون، حيث ذكر ذلك؛ لأنّ الدخان يعدّ بمستوى فهم الإنسان الأميّ الذي لا يدرك أيّ شيءٍ من علوم الكون.

الإعجاز في شكل الأرض؛ فاستدارة الأرض بشكلٍ بيضاويٍّ تدلّ على عدّة معانٍ، منها؛ تعاقب الليل والنهار، وذلك ما أثبته العلم الحديث من أنّ المســــــافة بين قطري الأرض متناقضةٌ ومطّردةٌ، وذلك ما دلّ عليه قول الله تعــالى: {بَلْ مَتَّعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}. (١٠)

الإعجاز في حركة الأرض؛ حيث أثبتت العديد من آيات القرآن الكريم أنّ الأرض تدور حول نفسها، ومن ذلك: تكوير الليل والنهار، والنهار الذي يظهر ببطءٍ نسبةً إلى حركة الأرض، كما أنّه ورد ذكر كلٍّ من الشمس والقمر والليل والنهار في آيةٍ واحدةٍ تبيّن الحركة الدائبة في الأفلاك.

إعجاز الجبال؛ حيث إنّ الله تعالى جعل الجبال مثبّتةً للأرض، وبذلك فإنّ الأرض لا تضطرب ولا تتحرك، كما أنّ العلماء صرّحوا بأنّ حجم الجبال تحت الأرض يزيد عمّا فوق الأرض .

أما الغاية من خلق الإنسان :

إنّ الغاية التي خَلق الله -عز وجل- من أجلها الجنّ والإنس هي عبادته وحده، قال الله - تعالى- في كتابه الكريم: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ* مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}، (١١)

وهو - سبحانه- غير محتاج لهذه العبادة، فهو الخالق الرازق ذو القوّة المتين،

وهذا الكون يدلّ على قدرته وعلمه -سبحانه-، وكل ما في هذا الكون يسبّحه ويعبده، فإن عرف الإنسان ذلك قام بالغاية التي خلقه الله من أجلها، وحقّق عبوديته لربه،

ووقوع الخطأ والمعصية من الإنسان أمرٌ طبيعيّ، لكن عليه أن يبادر إلى التوبة والاستغفار والرجوع إلى الله، ثمّ إن الذنوب قد تكون سبباً للرجوع إلى الله والإقبال عليه لأنّها تدفع الإنسان لِأن يطلب العفو من الله ويتذلّل بين يديه.

حاجة الإنسان للعبادة :

تتجلّى أهميّة العبادة كونها الغاية التي خُلق الإنسان من أجلها والتي أرسل الله. سبحانه وتعالى- من أجلها الرسل، قال الله -تعالى-: { وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّـهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ }،(١٢)

وبها وصف الله الملائكة، فقال ـسبحانه ـ: {وَلَهُ مَن فِي السَّمَـــاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَن عِندَهُ لا يَستَكبِرونَ عَن عِبادَتِهِ وَلا يَستَحسِرونَ}، (١٣)

وكذلك وصف الله بها عباده المقرّبون، وبيّن من خلال الآيات القرآنيـــة أنّ الإنسان هو المستفيد من عبادته لربّه، وأنّ الله لا حاجة له بذلك، فهو الغنيّ الذي يفرّج الهمّ، ويكشف الغمّ، وينفّس الكرب، ويقضي الحاجات، ووعـــد . سبحانه ـ عباده بالراحة والطمأنينة والسعادة، فقال: {الَّذينَ آمَنوا وَتَطمَئِــنُّ قُلوبُهُم بِذِكرِ الله أَلا بِذِكرِ الله تَطمَئِنُّ القُلوبُ}. (١٤)

والدّافع الأول الذي يدفع العبد للعبادة هو أنّ الله وحده المستحقّ للعبادة لا غيره، ثمّ إنّ نفع العبادة يعود على العبد بالخير.

ويتكوّن الإنسان من جسدٍ وروحٍ، ولكلٍّ منهما حاجته من أجل البقاء، فالجســد بحاجة مستمرة إلى الطعام والشراب والملبس، والرّوح بحاجة إلى الـــغذاء، وغذاؤها هو قربها من خالقها في كل أحوالها، وهذا القرب مبني عــلى الإيمان والأعمال الصالحة المتمثلة بالعبادة، قال ـتعالى ـ: {وَلَقَد نَعلَمُ أَنَّكَ يَضيقُ صَدرُكَ بِما يَقولونَ* فَسَبِّح بِحَمدِ رَبِّكَ وَكُن مِنَ السّاجِدينَ* وَاعبُد رَبَّكَ حَتّــى يَأتِيَكَ اليَقينُ}، (١٥)

فإنْ حقّق العبد عبوديّته لربّه فقد تحرّر من العبودية لغيره، مما يشعره بالسكينة والطمأنينة وعزّة النفس.

وقد جعل الله ـسبحانه ـ الحياة الدنيا دار ابتلاءٍ ليُمحّص إيمان الــمؤمن فيها، والتي تظهر من خلال عبادته لربّه والالتزام بأوامره، قال ـتعالى ـ: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}، (١٦)

وهذا يحّقق صلاح الفرد الذي يمتدّ بدوره إلى صلاح المجتمعات، ويرى الأصفاني أنّ العبادة هي أساس الإنسانية، فمن اعتني بها فقد حقّق إنسانيته، ومن رفضها فقد خرج من طَوْر الإنسانية، معتمداً في كلامه على قول الله -تعالى-: { إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا}، (١٧)

وذلك لأنّ العبادة حاجة فطريّة مثلها مثل ما يحتاجه الجسد من باقي الاحتياجات اللازمة له.

الشمولية في مفهوم العبادة :

تتمثّل العبادة لله - تعالى- من خلال الإقرار بأنّه واحدٌ أحدٌ لا شريك له، وليس كمثله شيء، فهو الخالق الرازق المدبّر المريد، ومن خلال تحقيق الغايات التي من أجلها خلق الله الإنسان وكرّمه وفضّله على غيره من المخلوقات، فيقوم بواجب الخلافة في الأرض وعمارتها واستثمار خيراتها وثرواتها، والأخذ بالأسباب والتوكّل على الله -عز وجل-، فالعبادة بمفهومها تشمل الحياة بجميع جوانبها ولجميع المخلوقات، كما لا تقتصر العبادة على ما يقوم به المسلم من الصلاة والصيام والحج وغيرها من الفروض، بل تشمل كل ما يقوم به الإنسان من الأعمال صغيرها وكبيرها إن احتسبها لله -تعالى-، وكل امتناعٍ عمّا نهى الله عنه يعدّ من العبادة أيضاً.

ثمّ إن جميع الأعمال الصالحة والأعمال الأخرى التي يقوم بها الإنسان في معيشته تتحول إلى عبادات إن أخلص فاعلها نيّته لله -تعالى-، وقام بها بإحسان وإتقان، مع الحرص أن لا تكون هذه الأعمال سبباً لانشغال العبد عن القيام بما أوجبه الله عليه. وعرّف ابن تيمية -رحمه الله- العبادة بأنّها كل ما يحبّه الله -تعالى-، لذا فهي تشمل العبادات المحضة؛ أي التي جاءت النّصوص الشّرعيّة بتحديدها، وعدم جواز صرفها لغير الله -تعالى-، وكذلك العبادات غير المحضة؛ أي التي تتحوّل إلى عبادة بالنيّة، فهي أفعال وأقوال ليست عبادة في أصل مشروعيتها، وفيما يأتي بيانهما:

أولا:

العبادات المحضة: وتشمل ما يأتي:

العبادات القلبيّة: وهناك عبادات قلبيّة اعتقاديّة وعمليّة، فمن الاعتقاديّة: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله وباقي الأركان، ومن العمليّة: أعمال القلب؛ كالإخلاص والتّوكّل والخوف والرّجاء.

العبادات القوليّة: مثل قراءة القرآن وذكر الله -تعالى-.

العبادات البدنيّة: كالصّلاة والحجّ والصّيام.

العبادات الماليّة: كالزّكاة والصّدقة.

ثانياً: العبادات غير المحضة:

وتشمل واجبات ومندوبات المسلم التي لا تُعَدُّ في ذاتها من العبادات؛ كالإنفاق على الزوجة والأبناء، والهدية، ومساعدة كبير السنّ للوصول إلى بيته وتخفيف تعبه، ويضمّ هذا النوع من العبادات جميع جوانب البرّ والإحسان تجاه النّفس والآخرين، كقول رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم-: (إنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بهَا وجْهَ اللَّهِ إلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حتَّى ما تَجْعَلُ في فَمِ امْرَأَتِكَ} . (١٨)

وتشمل الابتعاد عمّا نهى الله عنه امتثالاً لأوامره، واحتساباً للأجر والثّواب، كالابتعاد عن السّرقة والرّبا، فقد قال رسول الله -صلّى الله عليه وسلّم- فيما يرويه عن ربّه -تعالى-: (إذا أرادَ عَبْدِي أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فلا تَكْتُبُوها عليه حتَّى يَعْمَلَها، فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها مِن أجْلِي فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، وإذا أرادَ أنْ يَعْمَلَ حَسَنَةً فَلَمْ يَعْمَلْها فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها له بعَشْرِ أمْثالِها إلى سَبْعِ مِئَةِ ضِعْفٍ)،(١٩) ومنه أيضاً؛ فعل المباحات وإخلاصها لله -تعالى-، كالأكل والنّوم والبيع والشّراء، فإن فعلها المسلم بنيّة التقوّي على طاعة الله نال أجرها.

وأخيراً وليس أخراً : أقول للمشككين والملحدين (أفلا تعقلون) :

ومن هنا أقول :
لم يستطع العلم الحديث بكل القرون التواصل لمعرفة خلق الكون والأصل المادي لتركيبته، ويدهش كبار العلماء في الذرة والفيزياء والرياضيات عندما يتعمقون في السر الكامن وراء تلك التركيبة الخلاقة والمبدعة ويصلون لحقيقة الإيمان بقدرة الواحد القادر سبحانه وتعالى، وبالمقابل تجد من أبناء الأمة الإسلامية نفسها من كفر بنعمة الله وفضله عليه في اختياره من هذه الأمة لأسباب عاطفية أو نفسية أو مادية أو اجتماعية أو ظروف سياسية وأمنية وعلى هؤلاء جميعاً التفكر بنعم كثيرة منَّ الله بها علينا ونتذكر قدرة الله في كل وقت.

قال تعالى: { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (٢٠)

بدء الكون ومصيره:
شملت آيات الكتاب العزيز إشارات إلى ثلاث حقائق كونية في:

١ـ خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء.
٢ـ أصل الكون المادي من الدخان.
٣ـ الدورات التكوينية للأرض والسماء، ومجموعها ستة أيام.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية لا زالت تحبو للتعرف على أصل الكون ونشأته والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية وطريقة تشكيلها، ولقد درسوا ملياً ما يقع على الكرة الأرضية من خارج مجالها من النيازك والأتربة الكونية وما حصلوا عليه أخيراً من قطع من سطح القمر، كل ذلك

يؤكد وحدة أصل الكون المادي، وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمجرات، ولن يستطيعوا ذلك إلا ظناً وتخميناً، قال تعالى: { مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا } (٢١)

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح، قال تعالى: {أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } (٢٢) .

ويفصل في آيات غيرها مراحل الخلق والتكوين، فيقول المولى ﷻ:
{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اِئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (٢٣) .

وهكذا لم يصل العلم الحديث إلى الآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون على الرغم من توصل العلماء والمهندسون إلى نجاحات كبيرة في المسائل التطبيقية، واستفادته من دراسة خصائص المادة واستخدام الطاقات الكونية المختلفة، فنحن نعرف طرقاً شتى لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والإنارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات وغير ذلك من الاستخدامات، إلا أننا لا نعرف تماماً ما هي الكهرباء، وقل مثل ذلك في الضوء والحرارة، فنطلق على كل ذلك لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أودعت بين ثنايا الكون وأرجائه المختلفة.
وعلى الرغم من محاولة العلم الحديث التعرف على اللبنات الأولى التي ينبني عليها الكون المادي ومحاولة التعرف على الذرة إلا أنه لم يخرج بطائل من دراسته هذه، يقول العلم الحديث:

قوام الذرات جسيمات متناهية في الصغر تتشابه في جميع ذرات العناصر داخل كل ذرة ـ بالإضافة إلى النواة ـ نوع المادة أو العنصر، خلقت منه الأجـــــرام السماوية وتطورت عنه داخل الشموس والنجوم سائر المواد المعروفة، قد كان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد بين جمهرة العلماء أن الذرة غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها أو طاقاتها الأولية..

ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم بإمكان تقسيم الذرة وانطلاق طاقات عظمى مما يدخر بين ثناياها أساسها الطاقة التـــــي استخدمت في الأصل في ربط جسيماتها الأولية، فهل هذا الغاز الـــكوني هو الدخان الذي شكل أصل التكوين المادي؟ أو أن المراد بالدخان هـــي تلك السدم الغازية الملتهبة التي تتجمع في ساحات هائلة من الكون تشكل نـــــجوماً أو مجموعات منها؟

استطاع علماء الذرة في السنوات الأخيرة تجزئة الذرة وتقسيمها، وقد وجدوا أنها تحتوي على البروتون والنيترون والاليكترون بواسطة التجزئة اخترعوا القنبلة الذرية والهيدروجينية، قال تعالى: { وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ}(٢٤) .

فكلمة (أَصْغَرَ) من الذرة في الآية الكريمة تصريح جلي بإمكان تجزئتها، وفي قوله: { وَلاَ فِي السَّمَاء} بيان بأن خواص الذرات في الأرض هي نفـــس ذرات العناصر الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب الأخرى، فمن لمحمد بن عبد الله ﷺ وهو الأمي بعلم الذرة أن يعرف هذا، وهذا دليل واضح على أن الـــقرآن وحي من الله لرسوله محمد ﷺ.

والأمر الآخر في آيات { فُصلت} هو خلق الأرض، ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام، كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خـالق السماوات والأرض، لأن وسائل البشر محدودة فلا يستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب غيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية السابق منهـــا عن اللاحق.

وهنا لابد من الإشارة إلى آيات سورة { النازعات } فقد يفهم بعـــــضهم أنها تتعارض مع آيات سورة { فصلت } وقد ثار هذا الإشكال في عصر الـــصحابة رضوان الله عليهم. في صحيح البخاري قال: .. وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تخـتلف عليّ، قال: {فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ} (٢٥) .
{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ} (٢٦) .
{ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} (٢٧) .
{وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} (٢٨) .
فقد كتموا في هذه الآية. وقال تعالى: {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا} (٢٩) .
إلى قوله { وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا} (٣٠) .
فذكر خلق السماء قبل الأرض ثم قال تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} إلى قوله {طَائِعِين} (٣١) .
فذكر في هذه خـــلق الأرض قبل خلق السماء، قال:
{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (٣٢) {عَزِيزًا حَكِيمًا} { سَمِيـــــعًا بَصِيرًا}،
فكأنه كان ثم مضى.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: { فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءلُونَ}(٣٣) في النفخة الأولى { ثُمَّ نُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَــــــن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاء اللَّهُ } (٣٤) .
فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون بينـــهم وفي النفخة الأخرى:
{ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءلُونَ}(٣٥) .
وأما قوله {وَاللّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} (٣٦) . {وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} (٣٧) .
فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهــــــم فيقول المشركون تعالوا نقول لم نكن مشركين فيختم على أفواههم فــــــتنطق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً، { يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَـصَوُاْ الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِــــمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللّهَ حَدِيثًا} (٣٨) وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيها أن أخــــرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد .

والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى { دَحَاهَا}، وقوله { خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} (٣٩) فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين .

{ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا}(٤٠) سمى نفسه بذلك وذلك قوله: أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد فلا يختلقن عليك القرآن فإن كلاً من عند الله عز وجل.
إن خلق الأرض قبل السماء بالنص وإنما دُحيت بعد خلق السماء، بمعنى: أنه أخرج ما كان فيها بالقوة إلى الفعل وعن ابن عباس { دَحَاهَا} ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وشقق الأنهار، وجعل فيها الجبال والرمال والسبل والآكام.

وأما الحقيقة الثالثة في آيات سورة "فُصلت" فهي الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها في ستة أيام وقد اختلف المفسرون قديماً في مقدار اليوم المقصود في الآيات الكريمة، فاليوم الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك هو من مطلع الفجر أو الشمس إلى غروبها، إلا أن هذه المدة الزمنية المعينة لا تقدر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس ووجود دوراتهما في أفلاكهما. والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف نقدر قبل وجودهما؟

هذا ما دفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترة زمنية تتناسب مع أدوار التكوين، فعن مجاهد: يوم من الستة أيام كألف سنة مما تعدون وهو يشير إلى قوله تعالى: { وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ}(٤١)

وجاء في سورة المعارج قوله تعالى: { تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}(٤٢) وفي سورة السجدة: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ }(٤٣)

ويذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يطلقون عليه (النسبية الزمنية) وأن لكل كوكب وحدته الزمنية الخاصة به وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها. وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا. هذا ما جعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يطلقون اصطلاح الدورات التكوينية.

فالدور الأول: كون الأرض مع السماء رتقاً.
والدور الثاني: انفصال الأرض عن السماء.
والدور الثالث والرابع: هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير الأقوات، وخلق الحياة.

إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتبعون الظن وما هم بمستيقنين. فطالما أن الإنسان ـ أي إنسان ـ لم يشهد خلق السماوات والأرض وكذلك لم يشهد خلق نفسه ولا خلق غيره فكيف يعرف الحقيقة إذن؟ وصدق الله العظيم: { مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا } (٤٤).

(أفلا تعقلون) : يامن تنكرون وجود الله :

أخي القارئ : أفهم معي ماذا أقول على هؤلاء الملحدين والمشككين :

فإننا اليوم نعيش في زمانٍ كثرت فيه الفتن، ومن أخطر هذه الفتن: ظهور طائفة من الناس في الدول الإسلامية ينكرون وجود الله تعالى، ويسندون ما يحدث في هذا الكون إلى الطبيعة، أو إلى الصدفة، ويجهرون بذكر أدلتهم الواهية الباطلة على إنكار وجود الخالق العظيم في وسائل الإعلام، مستغلّين ضعفَ عقيدة توحيد الله تعالى عند بعض المسلمين .

لقد رأى الملحدون الكثيرَ من آيات الله تعالى في الكون، وفي أنفسهم؛ من إحكامٍ ودقة في الخَلق؛ ما يشهد بوجوده، وأنه هو الخالق الحكيم؛ مصداقًا لقوله تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (٤٥) ،

ولكنهم آثروا الإنكار والجحود، مع يقينهم بوجود هذا الخالق العظيم؛ كما في قوله تعالى: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ } (٤٦)
فكان ذلك الجحود والإنكار نتيجة كِبرهم واستعلائهم، وسيطرة أهوائهم وشهواتهم على عقولهم وأفعالهم.

إننا لنعجَب ممن تجرأ على الله تعالى، وأنكر وجوده، بل وصار مبارزًا ومحاربًا له سبحانه بدعوته إلى مثل ذلك الاعتقاد الفاسد، ولو نظر ذلك الجاحد لوجود الله تعالى في نفسه، لعلم ضعف قوته، وحاجته إلى خالقه سبحانه، وخاصة وقت مرضه؛ من أجل ذلك أصبح من الواجب على أهل العلم التصدي، بكل قوة وحزم، لهذه الفرقة الضالة من الملحدين، الذين يريدون أن يشككوا المسلمين في عقيدتهم،

أخي القارئ : تعال معي لنتعرف كيف دخل الإلحاد بلاد المسلمين؟

يمكن أن نوجز أسباب دخول ظاهرة الإلحاد إلى كثير من بلاد المســــــــلمين فيما يلي:

(١) انحراف كثير من المسلمين عن دينهم، ونسيانهم حظًّا مما ذُكِّروا به، وإلا فإن الصبر والتقوى كفيلان بردِّ كل باطل.

(٢) هزيمة العالم الإسلامي أمام غزو الدول الأوروبية، فما كـــاد الأوروبيون يمتلكون القوة المادية، ويستخدمون الآلة، ويبنون المصانع ـ حتى اتجهوا إلى الدول الإسلامية؛ بحثًا عن الأسواق لبيع منتجاتهم الصناعية، وجلبًا للـــــمواد الخام اللازمة للصناعة، ولما كان العالم الإسلامي في غاية الضعف ـ اقتصاديًّا وعسكريًّا ـ لم يصمد أمام تلك الهجمة، وكان للهزيمة العسكرية أثرهـــــا في زعزعة العقيدة، ووجود الشعور بالنقص، وتقليد الأوروبيين، والتـــــــشبُّه بأخلاقهم؛ ظنًّا من بعض المسلمين ـ لشدة جهلهم ـ أن أوروبا لم تتـــــطور إلا عندما أبعدت الدين عن الحياة.

(٣) احتلال الدول الغربية لكثير من بلاد المسلمين؛ فلقد عانى المسلمون من الاستعمار وويلاته؛ حيث امتصت الدول الغربية دماء المسلمين، وخـــيراتهم، وأوطانهم.

(٤) تركيز الدول الأوروبية على إفساد التعليم، والإعلام، والمرأة، وتشـــويه صورة علماء المسلمين، مع الحرص على نشر الفوضى الخُلقية، والإباحيـــة؛ حيث غرق كثير من الشباب في هذا المستنقع الآسن، والإلحاد لا يظهر إلا في مثل هذا الجو.

(٥) انتشار الجهل بدين الإسلام، وانتشار الخرافات بين المسلمين؛ فاستـــغل الملاحدة ذلك، ودخلوا من خلاله إلى الطعن في الدِّين.

(٦) إرسال كثير من أبناء المسلمين إلى الدول الأوروبية لطلب العلوم المختلفة، وهم غير محصنين بالعقيدة الصحيحة، فعاشوا في تلك البلاد، وتأثروا بما فيها من أفكار وأخلاق، وربما رجعوا بشهادة الدكتوراه بعد أن يفقدوا شهادة: لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله.

(٧) تقصير علماء المسلمين في جانب الدعوة إلى الله تعالى، وخاصـــــة في جانب ترسيخ عقيدة توحيد الله تعالى.

(٨) سقوط الخلافة الإسلامية.
(٩) اهتمام كثير من المسلمين بملذات الدنيا، والركون إلى الراحة.

أما الآثار المترتبة على انتشار ظاهرة الإلحاد:
للإلحاد آثارٌ سيئةٌ على الأفراد والجماعات، يمكن أن نوجزها في الأمور التالية:

(١) كثرة انتشار القلق النفسي، والاضطراب، والحرمان من طمأنيـــنة القلب وسكون النفس؛ قال سبحانه وتعالى: { وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى } (٤٧) .

كيف لا يصيب الملاحدةَ الحزن والهم والقلق وفي داخل كل إنسان منهم أسئلة محيرة؟ مَن خلَق الحياة؟ وما نهايتها؟ وما سر هذه الروح التي لو خـــــرجت لأصبح الإنسان جمادًا؟ مَن يجيب عن تلك التساؤلات؟!
وهذه الأسئلة قد تهدأ في بعض الأحيان بسبب مشاغل الحياة، إلا أنها ما تلبث أن تعود، وما نراه اليوم من كثرة إدمان المخدِّرات دليلٌ على ذلك.

(٢) الأنانية والفردية؛ نظرًا لاشتغال كل فرد بنفسه؛ فلا رحمة ولا شفقة، ولا عطف ولا حنان، أين ذلك كلُّه من الرحمة في الإسلام؟
روى الشيخانِ عن أنس بن مالكٍ، عن النبي ﷺ قال: { لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسِه }؛ (٤٨) .

(٣) حب الجريمة، وهذا لا يحتاج إلى دليل؛ فواقع الحياة في الغرب، ومعدَّلات السرقة والخطف ـ شاهدٌ على ذلك.

(٤) هدم نظام الأسرة؛ وذلك أن الأسرة الملحدة تعيش في تفكُّك وضياع، وهذا يؤدي إلى فساد المجتمع.

(٥) الرغبة في الانتحار؛ تخلُّصًا من الحياة، والغريب في الأمر أن أكثرية المنتحرين ليسوا من الفقراء حتى يقال بسبب فقرهم، بل من الأغنياء المترفين، ومن الأطباء، بل ومن الأطباء النفسانيين الذين يظن بهم أنهم يجلبون السعادة للناس!
والغريب أن الانتحار في بعض بلدان الغرب له مؤيِّدون، وهناك كتب تُعِين الذين يريدون الانتحار، وتبين لهم الطرق المناسبة!

(٦) إرادة الانتقام، والظمأ النفسي للتشفِّي من كل موجود، وانتشار الكراهية والبغضاء بين أفراد المجتمع.

(٧) انعدام الثقة بين الناس؛ فكل شخصٍ يخاف مِن أقرب الناس إليه.

أسباب انتشار الإلحاد في المجتمع المسلم:
(١) نشأة الشخص في بيتٍ خالٍ من آداب الإسلام ومبادئ هدايته، فلا يرى فيمن يقوم على أمر تربيته ـ مِن نحو: والدٍ أو أمٍّ أو أخ ـ استقامةً، ولا يتلقى عنه ما يطبعه على حب الدين، ويجعله على بصيرة من حكمته؛ فأقل شبهة تمس ذهن هذا الناشئ تنحدر به في هاوية الضلال.

(٢) اتصال المسلم الضعيف النفس بملحدٍ يكون أقوى منه نفسًا وأبرع لسانًا، فيأخذه ببراعته إلى سوء العقيدة، ويفسد عليه أمر دينه، ومن هنا نرى الآباء الذين يُعنَوْن بتربية أبنائهم، تربيةَ الناصح الأمين، يحُولون بينهم وبين مخالطة فاسدي العقيدة، يخشَون أن تنتقل إليهم العدوى من تلك النفوس الخبيثة، فتخبث عقائدهم وأخلاقهم.

(٣) قراءة الناشئ بعضًا من مؤلَّفات الملحدين وقد دسوا فيها سمـــــومًا من الشبهات تحت ألفاظ براقة، فتضعف نفسه أمام هذه الألفاظ المنمقة، والشبهات المبهرجة، فلا يلبث أن يدخل في زمرة الملاحدة.

(٤) تغلب الشهوات على نفس الرجل، فتريه أن المصلحة في إباحتها، وأن تحريم الله تعالى لهذه الشهوات خالٍ من كل حكمة، فيخرج من هذا الباب إلى الإلحاد .

أخي القارئ : تعال معي نرد على الملحدين:

سوف نذكر بعض الحقائق العلمية الموجودة في هذا الكون لنرد بها على الذين ينكرون وجود الله تعالى، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

(١) الماء واحد والأرض واحدة والنبات مختلف:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: انظروا أيها العقلاء: ينزل المـــطر من السماء على الأرض، فيخرج منها أقوات وثمرات، مختلفة الألوان والطـعوم والروائح، يعيش الإنسان عليها، وتخرج من الأرض أيضًا أعشابٌ وحشائش متنوعة تعيش عليها سائر الحيوانات. (٤٩)

نسألكم أيها العقلاء: هل الطبيعة هي التي جعلت الماء واحدًا والأرض واحـــدة والنباتات مختلفة الألوان والطعوم والروائح، أم أن هذه الأشياء أوجدت نفسها بنفسها؟!

نريد منكم جوابًا وكلمة حقّ، إن كنتم منصفين.

إن اختلاف النباتات في اللون والطعم والرائحة دليلٌ واضحٌ على وجـــود إله عظيمٍ، خالقٍ لهذا الكون، مستحقّ للعبادة وحده.

وصدق الخالقُ العظيم حيث يقول في كتابه العزيز: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُـــونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } (٥٠)

وقال سبحانه: { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (٥١).

(٢) مراحل نمو الجنين في بطن أمه:

أثبَت علماء الطب الحديث أن تكوين الجنين في بطن أمه يمر بعدة مـــــراحل متتابعة، بانتظام دقيق: فيكون أولًا نطفة، ثم تتحول إلى علقة، ثم تتـــحول إلى مضغة، تامة الخلقة أو غير تامة الخلقة، ثم تتكون بعد ذلك العظام، ثــم تغطى باللحم حتى بدايات الحركة والحياة قبل الخروج إلى العالم؛ (٥٢)

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى:

هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت الجنين في بطن أمه يمر بهذه الـــمراحل المختلفة قبل خروجه إلى الدنيا؟!

إن ثبوت هذه الحقيقة العلمية الباهرة دليلٌ واضحٌ لعقلاء العلماء الذين يعترفون بوجود خالق عظيم لهذا الكون.

قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُـــمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ } (٥٣)

(٣) أغشية الجنين:

نقول للمنكرين لوجود الله تعالى:

أثبت علماء الطب الحديث أن الجنين في بطن أمة محاطٌ بثلاثة أغشـــية، وهذه الأغشية تظهر بالعين المجرد كأنها غشاء واحد، وهذه الأغشـــــــية هي التي تسمى: (١) المنباري، (٢) الخوربون (٣) الفائضي؛ (٥٤).

وبعد ثبوت هذه الحقيقة العلمية، نسأل الملحدين: هل الطبيعة أو الصـــدفة هي التي أحاطت الجنين بهذه الأغشية الثلاث؟!

إن العقلاء من العلماء يقولون: لا، إن وجود هذه الأغشية الثلاث حول الجنين دليلٌ واضحٌ على وجود الخالق العظيم، الذي خلَق كل شيء بحكمة بالغة.

قال سبحانه: { يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَـــاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ } (٥٥).

(٤) رؤية الله تعالى:

يقول المنكر لوجود الله تعالى: إذا كان الله موجودًا، فلماذا لا نراه كما نـــــرى الشمسَ والقمر والجبال والبحار وغيرها؟!

ونحن نسأل هذا الملحد: هل لك رُوحٌ في جسدك، وعقل في رأسك؟! فلا بـــد للملحد أن يقول: نعم، إن لي رُوحًا في بدني، وعقلًا في رأسي، فإن كان هكذا، فهل رأيتَ رُوحك وعقلك؟ فسوف يقول: لا.

فهذا الملحد قد أقرَّ بوجود ما لم يرَه، واعترف بثبوت ما لم يشاهِدْه، وإنما أقر واعترف بوجود الروح والعقل؛ لظهور أثرهما، فإن كان الأمر هكذا، فلا بد له أن يعترف بوجود الله؛ لأن كل المخلوقات الموجودة في هذا الكون مِن آثـــار قدرته سبحانه، ودلائل عِلمه وحكمته.

إذا لم يستطِعْ هذا الإنسان الجاحد لوجود الله تعالى رؤيةَ رُوحه التي في جسده، فكيف يستطيع أن يرى الله تعالى الذي خلق هذه الرُّوح.

(٥) لكل إنسان رائحة خاصة به:

أثبت الطب الحديث أن لكل إنسان رائحة خاصة به تميزه عن غيره من سائر البشر، من أجل ذلك تستخدم الشرطة الكلاب البوليسية في تعقُّب المجرمين.

نسألكم أيها الملحدون:

هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت لكل إنسان، من مليارات البشر، رائحةً خاصة به، بحيث لا تشبه رائحة إنسانٍ آخر؟!

ننتظر منكم جوابًا، فإن قلتم: نعم، الطبيعة هي التي جعلت لكل إنسان رائحة خاصة به.

قلنا لكم: لماذا لا تتكلم الطبيعة وتعلن أنها هي التي فعلت ذلك؟!

لقد أثبت القرآن الكريم هذه الحقيقة العلمية منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، وقد جعل سبحانه معرفة هذه الحقيقة كرامةً اختَصَّ بها نبيَّه يعقوب صلى الله عليه وسلم؛ يقول الله تعالى: { وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ } (٥٦) .

(٦) لكل إنسان بصمات أصابع خاصة به:

يا من تنكرون وجود الله تعالى وتصدِّقون الاكتشافات العلمية، نقول لكم: أثبت العلم الحديث عدم تشابُهِ بصمات إنسان مع بصمات إنسان آخر؛ ولذا فقد استخدمت الشرطة هذه البصمات في الكشف عن المجرمين؛ (٥٧).

نسألكم يا من تنكرون وجود الله تعالى: هل الطبيعة أو الصدفة هي التي جعلت لكل إنسان، من مليارات البشر، بصمات لأصابعه خاصة به، بحيث لا تشبه بصمات إنسانٍ آخر؟! لماذا لا تتكلم الطبيعة وتعلن أنها هي التي فعلت ذلك؟!

إن عدم تشابه بصمات إنسان مع بصمات إنسان آخر دليلٌ واضح لكلِّ إنسانٍ عاقل على وجود خالقٍ عظيمٍ لهذا الإنسان.

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز: { بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ } (٥٨) .

(٧) الحيوان المنوي الذي يتكون منه الإنسان:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: إنكم تصدِّقون الاكتشافات العلمية، ولا شك في ذلك.
فنقول ـ وبالله تعالى التوفيق ـ: اكتشَفَ الطب الحديث أن هذا الـــسائل من منيِّ الإنسان يحوي حيوانات صغيرة تسمى (الحيوانات المنوية)، وهـــــــي لا ترى بالعين المجردة، إنما ترى بالمجهر، وكل حيوان منها له رأس ورقبـــــــة وذيل، يشبه دودة العلق في شكلها ورسمها، وأن هذا الحيوان يختلط بالبويضـــــــــة الأنثوية فيلقحها، فإذا ما تم اللقاح انطبق عنق الرحم فلم يدخل شيء بـــعده إلى الرحم، وأما بقية الحيوانات فتموت. (٥٩)

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى: هل الطبيعة هي التي جعلت الحــــــــيوان المنوي يشبه العلق في الشكل والرسم؟!

لماذا لم تتكلم الطبيعة وتقُلْ: أنا التي فعلت ذلك؟!

إن وجود الحيوان المنوي، على هذه الصورة، لا يمكن أن يوجد صدفة، وإنما هو دليلٌ على وجود خالقٍ عظيمٍ قادرٍ على صُنع ذلك.
قال جل شــــأنه: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ } (٦٠)
وقال سبحانه: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } (٦١)
قال الإمام القرطبي (رحمه الله): قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ } (٦٢)
أي: ما تصبُّونه من المنيِّ في أرحام النساء، { أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ } (٦٣)
أي: تصوِّرون منه الإنسان، { أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ } (٦٤)
المقدِّرون المصوِّرون؛ (٦٥)

(٨) البعوضة:

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى:

اكتشف العلماء أن البعوضة لها مائة عين في رأسها، ولها في فمها ثمانية وأربعون سنَّة، ولها ثلاثة قلوب في جوفها بكل أقسامها، ولها ستة سكاكين في خرطومها، ولكل واحدة وظيفتها، ولها ثلاثة أجنحة في كل طرف، ومزودة بجهاز حراري يعمل مثل نظام الأشعة تحت الحمراء، وظيفته أن يعكس للبعوضة لون الجلد البشري في الظلمة إلى لون بنفسجي حتى تراه، والبعوضة مزودة أيضًا بجهاز تخدير موضعي يساعدها على غرز إبرتها دون أن يحس الإنسان، وما يحس به الإنسان كالقَرْصة هو نتيجة مص الدم منه، والبعوضة مزودة أيضًا بجهاز تحليل دم؛ فهي لا تستسيغ كل الدماء، ومزودة بجهاز لتمييع الدم حتى يسري في خرطومها الدقيق جدًّا، ومزودة بجهاز للشم تستطيع البعوضة من خلاله شم رائحة عرق الإنسان من مسافة تصل إلى كيلومتر؛ (٦٦).

وهنا سؤال للملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى:

هل الطبيعة هي التي وضعت هذه الأجهزة داخل البعوضة؟!
فإذا أجبتم بـ: نعم، قلنا لكم: لماذا لم تخبرنا الطبيعة بذلك؟!

إن عقلاء العلماء يقولون: إن وجود هذه الأجهزة بهذه الطريقة الدقيقة، داخل هذه الحشرة الصغيرة، دليلٌ واضحٌ على وجود خالقٍ، حكيمٍ عظيمٍ، لهذا الكون الكبير.

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه الكريم: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ * مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } (٦٧) .

(٩) الماء المالح لا يختلط بالماء العَذْب:

قال الله تعالى:{ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا } (٦٨) .

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: أنتم تصدقون الاكتشافات العلمية؟
سيقولون: نعم.
فنقول لهم: أثبت العلم الحديث استحالة اختلاط ماء البحر بماء النهر، وإلا كان مِلحًا أُجاجًا؛ وذلك بفضل خاصية الانتشار الغشائي (الأسموزي)، التي تدفع جزيئات الماء العذب إلى الانتشار داخل الماء المالح، وليس العكس، عبر السطح الفاصل بينهما (الحاجز أو البرزخ)، وفي هذا الصدد أيضًا تجدر الإشارة إلى معجزة بقاء ماء البحار والمحيطات دون تجمُّد؛ إذ يطفو الثلج المتجمد فوقها ليحفظ بقية الماء من التجمد، ويحفظ حياة الأسماك والأحياء البحرية، ولتستمر الملاحة فيه، ويرجع ذلك لخاصيةٍ وهَبها الله الماء دون سائر المواد الأخرى، إن كثافته تقل (لا تزيد كغيره) بالتجمُّد؛ (كثافة الثلج أقل من كثافة الماء السائل).

نقول للذين ينكرون وجود الله تعالى: هل الطبيعة هي التي فعلت ذلك؟!

لماذا لم تتكلم الطبيعة وتقُلْ: أنا التي منعت اختلاط ماء البحر المالح بماء النهر العَذْب؟!

سبحان الله! هذا الاكتشاف العلمي دليلٌ على وجود إلهٍ عظيمٍ قديرٍ خَلَقَ ذلك الكون بحكمة بالغة.

(١٠) سقف المنزل والأعمدة:

نقول للملحدين الذين ينكرون وجود الله تعالى:

أليس سقفُ المنزل يدل على وجود أعمدة أو قواعد في علم الهندسة المعمارية؟

سيقولون: نعم، فنسألهم السؤال التالي:

من الذي رفع السماء بدون أعمدة؟ هل الطبيعة أو الصدفة؟ ولماذا يُبنَى سقف المنزل بالأعمدة؟ أليس كما تقولون بالطبيعة أو الصدفة؟! إذا كان كذلك، يجب أن يكون السقف بلا أعمدة مثل السماء، أو تكون السماء بأعمدة مثل السقف، ولكن السماء بدون أعمدة.

فنقول للملحدين: الله تعالى هو الذي رفع السماء بقدرته من غير أعمدة، كما ترونها.

قال سبحانه: { اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ } (٦٩).

(١١) الكهرباء:

الكهرباء غير ملموسة ولا محسوسة، ولا يمكن رؤيتها، وضوء المصابيح يدل على وجود الكهرباء، وكل الأشياء التي تعمل بالكهرباء تدل عليها، وإذا لمسها الإنسان تعرَّض لصدمة كهربائية.

نسأل الذين ينكرون وجود الله تعالى: أتؤمنون بوجود الكهرباء، سيقولون: نعم، مع أنهم لم يروا الكهرباء، ولكنهم شاهدوا آثارها أمام أعينهم، فنقول لهم: اتفقنا نحن وأنتم على أن الأثَرَ يدل على المسير.

نقول لهم: أيها العقلاء، ألا يدل وجودُ السموات والأرض، وتتابُعُ الليل والنهار، ونزول المطر، والطيور التي تحلق بأجنحتها، والحيوانات التي تسير على الأرض، وهذه الجبال الرواسي، وغير ذلك من عجائب الكائنات ـ على وجود إلهٍ عظيمٍ قديرٍ قد خلق هذه الأشياء؟!

قال الله تعالى:{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ }(٧٠)

(١٢) الطبيعة خالقة أم مخلوقة؟

نقول للملاحدة الذين يسندون وجود الأشياء إلى الطبيعة: هل هذه الطبيعة خالقة أم مخلوقه؟!

فإن قالوا: الطبيعة خالقةٌ للأشياء، نقول لهم:

لماذا لا تخلق هذه الطبيعة الآن جبالًا وأنهارًا وحدائق وكواكب جديدة؟!

ولماذا لا تخلق هذه الطبيعة الآن للناس زرعًا عند حاجتهم إليـــــــه؟!

وصدق الله تعالى حيث يقول في كتابه العزيز: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } (٧١) .

• قال عبدالله بن عباسٍ رضي الله عنهما: مِن غير ربٍّ؛ (٧٢)

• قال أبو سليمان الخطابي (رحمه الله): معناه: أخُلِقوا من غير شيءٍ خلَقـــهم، فوُجدوا بلا خالقٍ؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون؛ لأن تعلُّق الخَلق بالخالق مـــن ضرورة الاسم، فإن أنكروا الخالق لم يجُزْ أن يوجدوا بلا خـــــــالق، {أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} لأنفسهم، وذلك في البطلان أشد؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطَل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا، فليؤمنوا به؛ (٧٣)

(١٣) هل الكائنات هي التي أوجدت نفسها؟

سؤال هام للذين ينكرون وجود الله تعالى: هل الكائنات هي التي أوجدت نفسها؟

فإن قال أحد الملحدين: نعم، الكائنات هي التي أوجدت نفسها.

قلنا: هذا مستحيلٌ عقلًا؛ لأن هذه الكائنات في أصلها كانت عدَمًا ثم أنشـــئت، فكيف تكون موجودة وهي معدومة؟ والمعدوم ليس بشيء، فهي لا يمــكن أن توجِد نفسها؛ لأنها في الأصل معدومة، والمعدوم لا يوجد نفسه، فكــيف يوجد غيره؟

فإن قال أحد الملحدين: هذه الكائنات وجدت هكذا صدفة.
قلنا: هذا يستحيل عقلًا أيضًا، فهل ما أنتج من الطائرات والسفن العملاقة والصواريخ والسيارات والآلات بأنواعها وُجد صدفة؟ فلا بد أن يقول الملحد: لا يمكن أن يكون ذلك، قلنا: وكذلك هذه الجبال والشمس والقمر والنجوم والشجر والرمال والبحار وغير ذلك لا يمكن أن توجد صدفة كذلك، ولا يتصور أن هذا التقدم الحضاري الذي يمر به العالم الآن وُجد هكذا صدفة.

(١٤) الإمام جعفر الصادق:

أنكر بعض الملاحدة وجود الله تعالى عند جعفرٍ الصادق (رحمه الله)، فـقال له جعفرٌ: هل ركبت البحر؟ قال: نعم، قال: هل رأيت أهواله؟ قال: نعم، هاجت يومًا رياحٌ هائلةٌ، فكسرت السفن، وغرَّقت الملاحين، فتعلقت أنا ببعض ألواحها، ثم ذهب عني ذلك اللوح، فإذا أنا مدفوعٌ في تلاطم الأمواج حتى دفعت إلى الساحل، فقال جعفرٌ: قد كان اعتمادك من قبل على السفينة والملاح، ثم على اللوح حتى تنجيك، فلما ذهبت هذه الأشياء عنك: هل أسلمت نفسك للهلاك أم كنت ترجو السلامة بعد؟ قال: بل رجوت السلامة، قال: ممن كنت ترجوها؟ فسكت الرجل، فقال جعفرٌ: إن الصانع هو الذي كنت ترجوه في ذلك الوقت، وهو الذي أنجاك من الغرق، فأسلَم الرجل على يده؛

(١٥) الإمام أبو حنيفة:

سأل بعض الملاحدة الإمام أبا حنيفة (رحمه الله) عن وجود الباري تعالى، فقال لهم دعوني؛ فإني مفكرٌ في أمرٍ قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينةً في البحر فيها أنواعٌ من المتاجر، وليس بها أحدٌ يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحدٌ، فقالوا: هذا شيءٌ لا يقوله عاقلٌ، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانعٌ؟ فبُهِت القوم ورجعوا إلى الحق، وأسلموا على يديه؛

(١٦) الإمام مالك بن أنس:

سأل الخليفة هارون الرشيد (رحمه الله) الإمام مالك بن أنس (رحـمـه الله) عن بعض آيات وجود الله؛ ليرد بها على الذين ينكرون وجود الله تعالى، فاستدل له الإمام مالكٌ باختلاف اللغات والأصوات والنغمات؛

(١٧) الإمام الشافعي:

سأل بعض الملاحدة الإمام الشافعي (رحمه الله): ما الدليل على وجود الصانع (الله تعالى)؟ فقال: ورقة التوت، طعمها ولونها وريحها وطبعها واحدٌ عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز فيخرج منها الحرير، والنحل فيخرج منـها العسل، والشاة فيخرج منها البعر، ويأكلها الظباء فينعقد في نوافجها المسك، فمن الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحدٌ؟ فاستحسنوا منــه ذلك، وأسلموا على يده، وكان عددهم سبعة عشر؛ (٧٤)

(١٨) الإمام أحمد بن حنبل:

سئل الإمام أحمد بن حنبلٍ (رحمه الله) عن وجود الله تعالى، فقال: ها هنا حصنٌ حصينٌ أملس، ليس له بابٌ ولا منفذٌ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره، فخرج منه حيوانٌ سميعٌ بصـــيرٌ ذو شكلٍ حسنٍ وصوتٍ مليحٍ، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الديك؛ (٧٥)

(١٩) الإمام الفخر الرازي:

قال الإمام الفخر الرازي (رحمه الله): إن كل أحدٍ من الناس يعلم بالضرورة أنه ما كان موجودًا قبل ذلك، وأنه صار الآن موجودًا، وأن كل ما وجد بعد العدم فلا بد له من موجِدٍ، وذلك الموجد ليس هو نفسه، ولا الأبوان، ولا سائر النـــاس؛ لأن عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلومٌ بالضرورة، فلا بد من موجِدٍ يخالف هذه الموجودات حتى يصح منه إيجادُ هذه الأشخاص . (٧٦)

(٢٠) سئل بعض الأعراب: بمَ عرفتَ ربك؟ فقال: البعرة تدل على البعير، وأثر الأقدام يدل على المسير؛ فسماءٌ ذات أبراجٍ، وأرضٌ ذات فِجاجٍ، ألا تدل على اللطيف الخبير؛ (٧٧)

(٢١) قيل لطبيبٍ: بمَ عرفتَ ربك؟ قال: بتمرٍ مجففٍ أُطلِق، ولعابٍ ملينٍ أُمسِك. (٧٨)

(٢٢) قيل لرجلٍ: بم عرفت ربك؟ قال: عرفته بنحلةٍ، بأحد طرفيها تعسل، والآخر تلسع. (٧٩)

(٢٣) التأمل في خلق الإنسان:
قال الله تعالى: { وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ } (٨٠) .

• قال السائب بن شريكٍ (رحمه الله): يأكل الإنسانُ ويشرب من مكانٍ واحدٍ، ويُخرج من مكانين، ولو شرب لبنًا محضًا لخرج منه الماء ومنه الغائط، فتلك الآية في النفسِ.

• قال ابن زيدٍ (رحمه الله): المعنى أنه خلقكم من ترابٍ، وجعل لكم السمعَ والأبصار والأفئدة { ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ } (٨١) .

• قال السُّديُّ (رحمه الله): { وَفِي أَنْفُسِكُمْ } (٨٢) .
أي: في حياتكم وموتكم، وفيما يدخُل ويخرُج مِن طعامكم.

• قال الحسن البصري (رحمه الله): وفي الهَرَمِ بعد الشباب، والضعف بعد القوة، والشَّيب بعد السواد؛ (٨٣)

• قال الإمام القرطبي (رحمه الله): وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسكم من نطفةٍ وعلقةٍ ومضغةٍ ولحمٍ وعظمٍ إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة، وحسبُك بالقلوب وما ركز فيها من العقول، وما خُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأَتِّيها لما خُلقت له، وما سوَّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنِّي، وأنه إذا تيبَّس شيءٌ منها جاء العجز؛ { فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ } (٨٤)

علاج ظاهرة الإلحاد:

يمكن أن نوجز علاج ظاهرة انتشار الإلحاد في الدول الإسلامية بالأمور الآتية:

(١) الاهتمام بترسيخ عقيدة توحيد الله تعالى في نفوس المسلمين على اختلاف أعمارهم، وينبغي على العلماء استخدام الوسائل العلمية الحديثة، التي تساعد المسلمين على مشاهدة آيات قدرة الله تعالى في الكون، ويقوم العلماء المتخصصون بالتعليق على هذه الآيات الربانية من الناحية العلمية؛ لكي يزداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم، وتزول عنهم الشبهات التي يثيرها الملاحدة المنكِرون لوجود الله تعالى.

(٢) الاهتمام بالتربية الخُلقية للمسلمين على اختلاف أعمارهم، وذلك عن طريق القرآن الكريم، وسيرة نبينا محمد ﷺ.

إن التربية بذكر القدوة الصالحة هي أفضلِ الوسائل المؤثرة في نفوس الناس، فينبغي أن نضع أمامهم شخصياتٍ صالحةً يقتدون بهم، ويسيرون على نهجهم في جميع أمور حياتهم، وخير قدوة للمسلمين هو نبينا محمد ﷺ، الذي قال عنه سبحانه: { لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا } (٨٥) .

وقال عنه الله تعالى: { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ } (٨٦) .

وقد وضَع الله تعالى في شخص نبينا محمدٍ ﷺ الصورةَ الكاملة للمنهج السليم القويم؛ ليسير الناس عليه، فيسعدوا في الدنيا والآخرة.

روى أحمد عن سعد بن هشامٍ قال: سألت عائشةَ فقلت: أخبريني عن خُلق رسول الله ﷺ؟ فقالت: { كان خُلُقُه القرآن }؛ (٨٧)

لقد كان نبينا محمد ﷺ أكبرَ قدوة للبشرية في تاريخها الطويل، وكان نبينا ﷺ مربّيًا وهاديًا بسلوكه الشخصي قبل أن يكون بالكلام الذي ينطق به.

(٢) التصدي ـ بكلِّ قوة علمية ـ للردِّ على جميع الشُّبهات التي يثـيرها الذين ينكرون وجودَ الله تعالى؛ وذلك عن طريق استخدام جميع وســـائل الإعلام المختلفة؛ المقروءة، والمرئية، والمسموعة، ويقوم بهذا العمل مجـموعةٌ من العلماء المتخصصين في جميع المجالات.

(٣) ينبغي أن تتضمن مناهج التعليم كتابًا يتحدث عن الأدلة والمعجزات الكونية التي تثبت وجودَ الله تعالى، بحيث يكون هذا الكتاب بأسلوب بسيط، ويناســب مراحل التعليم المختلفة، ومزودًا بالصور الطبيعية، وتعليقات العلـــماء المتخصصين، وهذا سوف يؤدي ـ إن شاء الله ـ إلى تربية أجيال صالحة، تؤمن بالله تعالى، وتعمل جاهدةً على تقدم بلادها في جميع مجالات الحياة المختلفة.

أسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله ذُخرًا لي عنده يوم القيامة { يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ } (٨٨).
كما أسأله سبحانه أن ينفع به طلاب العلم، وأرجو من يقرؤها أن يدعو الله سبحانه لي بالإخلاص والتوفيق، والثبات على الحق، وحُسن الخاتمة؛ فإن دعوة الأخ المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة
وأختم بقول الله تعالى: { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } (٨٩).
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحـــسان إلى يوم الدين

المراجع : لكلمة الكاتب والباحث والمؤرخ والدكتور صباح الجبوري:

---

(١) (سورة مريم آية :٢٥)
(٢) (سورة الذاريات آية : ٥٦ ،)
(٣) (سورة الأنعام، آية: ٩٦).
(٤) (سورة فصلت، آية: ١٢).
(٥) (سورة النحل، آية: ٨).
(٦) (سورة الأنعام، آية: ٩٩).
(٧) (سورة الحجر ، آية: ٢٩).
(٨) (سورة النور، آية: ٤١).
(٩) (سورة فصلت، آية: ١١.)
(١٠) (سورة الأنبياء، آية: ٤٤.)
(١١) (سورة الذاريات، آية: ٥٦-٥٨.)
(١٢) (سورة النحل، آية: ٣٦).
(١٣) (سورة الأنبياء، آية: ١٩.)
(١٤) (سورة الرعد، آية: ٢٨.)
(١٥) (سورة الحجر، آية: ٩٧-٩٩.)
(١٦) (سورة الملك، آية: ٢.)
(١٧) (سورة الفرقان، آية: ٤٤.)
(١٨) (رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن سعد بن أبي وقاص، الصفحة أو الرقم: ٥٦، صحيح.)
(١٩) رواه البخاري، في صحيح البخاري، عن أبي هريرة، الصفحة أو الرقم: ٧٥٠١، صحيح.
(٢٠) (سورة فصلت، آية ٩ : ١٢).
(٢١) (سورة الكهف ، آية: ٥١).
(٢٢) (سورة الأنبياء، آية: ٣٠ - ٣٢)
(٢٣) (سورة فصلت، آية: ١١).
(٢٤) (سورة يونس، آية: ٦١)
(٢٥) (سورة المؤمنون آية : ١٠١)
(٢٦) (سورة الطور ، آية : ٢٥)
(٢٧) (سورة النساء ، آية : ٤٢)
(٢٨) (سورة الأنعام ، آية : ٢٣)
(٢٩) (سورة النازعات ، آية : ٢٧)
(٣٠) (سورة النازعات ، آية : ٣٠)
(٣١) (سورة فصلت ، آية : ٩- ١١)

(٣٢) (سورة النساء ، آية : ٩٦)
(٣٣) (سورة المؤمنون ، آية : ١٠١)
(٣٤) (سورة الزمر ، آية : ٦٨)
(٣٥) (سورة الصافات ، آية : ٥٠)
(٣٦) (سورة الأنعام ، آية : ٢٣)
(٣٧) (سورة النساء ، آية : ٤٢)
(٣٨) (سورة النساء ، آية : ٤٢)
(٣٩) (سورة فصلت ، آية : ٩)
(٤٠) (سورة النساء ، آية : ٩٦)
(٤١) (الحج، آية: ٤٧).
(٤٢) (المعارج، آية: ٤).
(٤٣) (السجدة، آية ٥).
(٤٤) (الكهف، آية: ٥١).
(٤٥) (سورة فصلت ، آية : ٥٣)
(٤٦) (سورة النمل ، آية : ١٤)
(٤٧) (سورة طه ، آية : ١٢٤)
(٤٨) (رواه البخاري ص٢٦رقم١٣. ورواه مسلم رقم ٤٥)
(٤٩) (تفسير الرازي جـ٣ صـ٤٧٦).
(٥٠) (سورة النحل ، آية : ١٠-١١)
(٥١) (سورة الرعد ، آية : ٤)
(٥٢) (كتاب : كشاف الإعـــجاز العلمي للدكتور/ نبيل هارون صـ١٩ : صـ٢٠).
(٥٣) (سورة الحج ، آية : ٥)
(٥٤) (كتاب :التبيان - للـــــصابوني ص ١٣٢ : ١٣١).
(٥٥) (سورة الزمر ، آية : ٦)
(٥٦) (سورة يوسف ، آية : ٩٤)
(٥٧) (كتاب :التبيان - للـــــصابوني ص ١٣٢ : ١٣٣).
(٥٨) (سورة القيامة ، آية : ٤)
(٥٩) (التبيان في علوم القرآن للصابوني صـ١٣٢).
(٦٠) (سورة العلق ، آية : ١-٢)
(٦١) (سورة الواقعة ، آية : ٥٨-٥٩)
(٦٢) (سورة الواقعة، آية : ٥٩)
(٦٣) (سورة الواقعة، آية : ٤)
(٦٤) (سورة الواقعة، آية : ٥٩)
(٦٥) (تفسير القرطبي جـ١٧ صـ٢١٦).
(٦٦) (موسوعة الرد على الملحدين - الدكتور هيثم طلعت - جـ١ سرور صـ٦٠).
(٦٧) (سورة الحج، آية : ٧٣-٧٤)
(٦٨) (سورة الفرقان، آية : ٥٣)

(٦٩) (سورة الرعد، آية : ٢)
(٧٠) (سورة آل عمران، آية : ١٩٠-١٩١)
(٧١) (سورة الطور، آية : ٣٥)
(٧٢) (تفسير البغوي جـ٧ صـ٣٩٢).
(٧٣) (تفسير البغوي جـ٧ صـ٣٩٢).
(٧٤) (تفسير الرازي جـ٢ صـ٣٣٣)، (معارج القبول لحافظ حكمي جـ١ صـ٧٨).
(٧٥) (معارج القبول لحافظ حكمي جـ١صـ٧٨).
(٧٦) (تفسير الرازي جـ٢ صـ٣٣٣).
(٧٧) (لوامع الأنوار البهية ـ للسفاريني ـ جـ١ صـ٢٧٢).
(٧٨) (تفسير الرازي جـ٢ صـ٣٣٤).
(٧٩) (تفسير الرازي جـ٢ صـ٣٣٤).
(٨٠) (سورة الذاريات، آية : ٢١)
(٨١) (سورة الروم، آية : ٢٠)
(٨٢) (سورة الذاريات، آية : ٢١)
(٨٣) (تفسير القرطبي جـ١٧ صـ٣٩).
(٨٤) (سورة المؤمنون، آية : ١٤) ، (تفسير القرطبي جـ١٧ صـ٣٩).
(٨٥) (سورة الاحزاب، آية : ٢١)
(٨٦) (سورة التوبة، آية : ١٢٨)
(٨٧) (مسند أحمد جـ ٤٢، صـ ١٨٣).
(٨٨) (سورة الشعراء، آية : ٨٨-٨٩)
(٨٩) (سورة الحشر، آية : ١٠)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول :

الفصل الأول : مظاهر قدرة الله: خلق السماء
الفصل الثاني : الأيام التي خلق الله فيها السموات والأرض
الفصل الثالث : أن الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عـــــددا، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، أحمده – سبـــحانه- وأشكره وأتوب إليه واستغفره، نعمه لا تحصى، وآلاؤه ليس لها منتهـــى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسـوله، هو أخشى الناس لربه وأتقى، دلَّ على سبيل الهدى، وحذَّر من طريق الردى صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه، معالم الهدى، ومصـــابيح الدجى، والتابعين ومن تبعهم بإحسان وسار على نهجهم واقتفى.

أما بعد : أخي القارئ :
إن الله -عز وجل- قد أودع كتابه الحكيم كنوز الخيرات، ورأس المهمات، وجعل هذا القرآن العظيم نورا وهداية وإرشادا للعالمين كافة، وذلك شريطة أن يتدبروا فيه ويتعرفوا على معانيه، فهو كتاب تدبر واعتبار، احتوى الكثير مـن الأسرار والأخبار، وقد أمرنا في هذا القرآن بالكثير من الأوامر التي من اعتصم بها نجا، ومن عمل بها اهتدى.

ومن الأمور العظيمة التي حض عليها الشارع الكريم في محكم التنزيل؛ أمره . عز وجل- في عدة آيات بالتدبر في الكون والخلق والنفس، وكيف أنـشأ الله الخلق من عدم، وبديع صنعه وعظيم منته على خلقه فيما يسر لها من سـبل العيش بتسخير ما في الكون كله لخدمة الإنسان، قال تعالى:
{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ بَـعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (١)،

وقوله: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢)، وقوله:
{أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ} (٣)، ومعظم آيات سورة النحل وسورة الروم تدور حول التدبر والتفكر في خلق الله -عز وجل-.

إن هذا الكم الضخم من الآيات المحكمات في كتاب الله، جاءت للتأكيد على قدرة الله -عز وجل- الشاملة، التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء، فإن آيات الله الدالة على قدرته، وعظمة خلقه، موجودة منذ بداية الخلق، وجميعها تنبئ بعظمة الخالق -ﷻ-، وتجذب الإنسان للانقياد لربه، والتسليم له، والتسبيح بحمده، ثم يعطي الله -سبحانه- عطاءً متجدداً بعد ذلك لكل جيل غير الجيل الذي قبله، وذلك ليعلم الناس أن الله -سبحانه- قائم على ملكه، لا يتخلى عنه لحظة واحدة، وأنه كان قادرا ولازال ولم يزل قادر، وأن له عطاءً متجدداً كل يوم، بل كل ساعة، بل كل لحظة، حتى لا يحس البشر أن الله -سبحانه- خلق هذا الكون العظيم، ثم تركه بعد ذلك يعمل بالأسباب وحدها، بل لا بد مع السنن الكونية التي خلقها الله، وسير بها هذا الكون، وجعلها تعمل بأمره، لا بد مع ذلك من ظهور قدرة الله التي تكشف وتعطي وتمنح.

أخي القارئ: العقيدة:
إن نظرة إلى السموات والأرض وما فيهما من الآيات والعجائب، ونظرة إلى هذه الأجرام والكواكب والنجوم التي لا تحصى وهي منتثرة في ذلك الفضاء الهائل الذي لا تعلم له حدود، وكلها قائمة في مواضعها، تدور في أفلاكها، محافظةً على مداراتها تسبح بحمد ربها، وتؤدي وظيفتها، وكلها لا تختل ولا تبطئ ولا تسرع، بل تسير حسب أمر ربها، جارية في الفضاء ما يمسكها إلا الله لهي كفيلة بإسلام الخلق جميعا، قال -عز وجل-: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (آل عمران: ١٩٠، ١٩١). (٣) .

ونظرة أخرى في عالم الجماد وأنواعه، وفي عالم الحيوان وأشكاله، وفي عالم الإنسان وعجائبه، وفي عالم النبات وأنواعه وثماره، إن نظرة إلى تلك الخلائق الهائلة العجيبة جديرة بأن تفتح البصيرة على اليد الخفية، والقوة الإلهية القاهرة القادرة على خلق هذه المخلوقات، وحفظها وإمساكها وحفظ توازنها: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً} (٤) .

أعلم أخي القارئ: إن القادر والمقتدر والقدير كلها من أسماء الله الحسنى، ومشتقة من صفته القدرة، وتعني في جملتها السيطرة والتمكن والهيمنة، كما تعني التقسيم والتنظيم والتخطيط، وقد وردت كلمة (القادر) (١٢) مرة، خمس منها بصيغة الجمع، وورد اسم الله (القدير) (٤٥) مرة في سور متعددة من القرآن الكريم، وأما اسمه (المقتدر) فقد ورد (٤) مرات، والقدير في اللغة من صيغ المبالغة، قال ابن منظور: القادر والقَدِيرُ من صفات الله –عز وجل- يكونان من القُدْرَة ويكونان من التقدير، فالله -عز وجل- على كل شيء قدير، والله -سبحانه- مُقَدِّرُ كُلِّ شيء وقاضيه، والقدير -سبحانه- وتعالى هو الذي يتولى تنفيذ المقادير ويخلقها على ما جاء في سابق التقدير.

وتأمل معي -عبد الله- كيف كبّرَ الله بعض المخلوقات كالعرش والكرسي، والسموات والأرض، وصغّرَ بعضها كالذرة والبعوضة، والنملة والنطفة، وجعل لكل من الصغير والكبير حكمة، وفي كل منهما آية وعبرة، وكثّرَ -سبحانه- بعض المخلوقات كالتراب والنبات والذرات، وقلّل بعضها كالذهب والفضة، والمعادن، وجعل -سبحانه- لكل من الكثير والقليل حكمة، وفي كل واحد منهما آية وعِبرة، وقوّى -سبحانه- بعض المخلوقات كجبريل الذي خلق الله له ستمائة جناح، جناح منها يسد الأفق، وأَضعف بعض المخلوقات كالإنسان والبعوض، وله -سبحانه- في خلق القوي والضعيف حكمة، وفي كل منهما آية وعبرة، وهو -سبحانه- القادر الذي رفع بعض المخلوقات كالعرش والكرسي والسموات والجبال والأشجار، ووضع بعضها كالأرض وما فيها وما عليها، والبحار والأنهار، وهو -سبحانه- القادر الذي جمع بعض المخلوقات كالجبال والبحار، وفرق بعضها كالنجوم والرمال، والثمار والأوراق.

فسبحان الخلاق العليم الذي فاوت بين مخلوقاته، فخلق الكبير والصغير، والذكر والأنثى، والقوي والضعيف، والثقيل والخفيف، وأحيى بعضها وأمات بعضها، وخلق المخلوقات وفرقها في ملكوت في السماء والأرض، ففي البر خلائق لا تحصى، وفي الجو خلائق لا تعد، وفي البحر خلائق لا تحصى، وفي السماء خلائق لا تعد.

ومن كمال قدرته الشاملة وبديع صنعه في خلقه؛ أنه -سبحانه- وتعالى خلق الأضداد، وجعل التفاوت في الصفات، -سبحانه- العليم الخبير الذي هو على كل شيء قدير، ومشاهد قدرته على خلق الأضداد كثيرة منها: أحياء لا تعيش إلا في البحار ولو خرجت لماتت، وأحياء لا تعيش إلا في البر ولو أدخلت البحر لماتت، ومخلوقات تعيش في الحالتين، وملائكة يسبّحون الليل وملائكة يسبّحون النهار وجميعهم لا يفترون: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ} (٥) .

وهو - سبحانه- الخلاق العليم الذي خلق الرياح الشديدة، والصواعق المهلكة، والزلازل المدمرة، والبراكين المفزعة، والخسوف التي تطول الأشجار والبيوت والبشر، يصيب بها من يشاء، ويصرفها عمن يشاء، من مؤمن وكافر، ومحسن وظالم: { فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (٦) .

وخلق - سبحانه- الجنة وما فيها من النعيم لأهل طاعته، وخلق النار وما فيها من العذاب لأهل معصيته، وخلد هؤلاء وهؤلاء، وهو القادر أن يخرج من النار إلى الجنة من يشاء فهو على كل شيء قدير، وقدرته مطلقة، أحياناً ما يوجد يكون نتيجة لفعل الأسباب كما جعل الله الماء سبباً للحياة، والوطء سبباً للإنجاب، وأحياناً يظهر قدرته - سبحانه- بضد الأسباب كما جعل -سبحانه- النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وكما خلق آدم من غير أب ولا أم وحواء كذلك خلق عيس من غير أب قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (٧) .

ووهب لإبراهيم و زكريا أولادا رغم وجود مانعين: الكبر، ووجود العقم. خلق الماء والنار، وجعل وظيفة الماء الإرواء والإحياء والإغراق، وجعل وظيفة النار الإنارة والإنضاج والإحراق.

ورغم هذا التفاوت وهذا التضاد بين المخلوقات، فإنه -سبحانه- وتعالى من كمال قدرته ونافذ مشيئته، يقلب الأضداد ويسلبها خصائصها ومؤثراتها، كرامة منه -عز وجل- لبعض عباده، وإذا اجتهد الإنسان على الإيمان، وقام بالأعمال الصالحة، وجاء عنده كمال الإيمان والتقوى، فالله يسخر له المخلوقات، ويغير أحوالها بقدرته، فيجعل النافع ضاراً بقدرته، كما جعل الماء الذي هو سبب الحياة سبباً لهلاك فرعون وقومه، وسبباً لنجاة موسى وقومه، في آن واحد، بأمر واحد، في مكان واحد قال الله {وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (٨)، وكما جعل الماء سبباً لنجاة نوح ومن آمن معه، وموسى وكان صغيرا في التابوت، وفلق له البحر ومن معه فنجاه ومن معه، وجعله سبباً لهلاك قوم نوح في آن واحد، بأمر واحد، في مكان واحد قال تعالى: { فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ} (٩) .

وهو - سبحانه- قادر على جعل الضار نافعاً كما جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم -عليه السلام- قال - سبحانه-: { قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ} (١٠) ، وكما تربى موسى -عليه السلام- في قصر عدوه فرعون.

ويعز - سبحانه- بأسباب الذلة كما أعز موسى -عليه السلام- وأذل فرعون، وكما أعز محمداً -ﷺ- وأذل قريشاً. ويذل -سبحانه- بأسباب العزة من يشاء كما أذل فرعون مع ملكه، وأذل قارون مع ماله وأذل الوليد بن المغيرة مع وجود ذريته وأذل أبا لهب مع حسبه، ويرحم -سبحانه- بأسباب العذاب من يشاء كما أنجى الله إبراهيم -ﷺ- في النار.

ويعذب بأسباب الرحمة كما دمّر عاداً بالريح العقيم، وأغرق قوم نوح بالماء. وينجي -سبحانه- بأسباب الهلاك كما أنجى الله إبراهيم -ﷺ- في النار، وأنجى يونس -ﷺ- في بطن الحوت.

ويهلك - سبحانه- بأسباب النجاة كما أهلك فرعون وقومه في طريق البحر اليابس الآمن حين تبعوا موسى -ﷺ-، ويحفظ -سبحانه- بأسباب الهلاك كما أنجى موسى من الغرق لما ألقي في البحر في التابوت، وتربى في بيت عدوه فرعون، وحفظ إبراهيم -عليه السلام- في النار، ويهلك -سبحانه- بأسباب الحفظ كما أهلك قوم ثمود في بيوتهم بالصيحة.

أخي القارئ: لقد قرن الله -عز وجل- في كتابه الكريم بين سننه في تصريف شئون كونه، وسننه في تصريف شئون خلقه؛ ليربي أهل الإيمان على طلاقة قدرته ومشيئته في كونه، وخلقه، وأن القادر على تدبير الكون بحكمته وعدله، هو القادر على تدبير أمور خلقه بحكمته وعدله، وهذا سر أسرار اسم الله القدير القادر المقتدر.

وهنا نموذج قرآني يبيّن طلاقة القدرة الإلهية، ونفوذها في الكون والخلق، قال تعالى: {قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ و تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (١١)

قال السعدي -رحمه الله-: فيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقياصرة ومَن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل ولله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، وقوله: { تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ و تُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ} أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته، (وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ). كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من

الكافر، (وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)، كالبيضة من الطائر وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئًا، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة .

إن ظهور قدرة الله لا تتم إلا إذا استنفذ الإنسان الأسباب أولاً، فإذا فرغ الإنسان من فعل الأسباب المأمور بها ولم تعطه شيئاً، رفع يديه إلى السماء، ولهذا يقول الله -سبحانه-: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ} (١٢) ، والمضطر هنا هو الذي يستنفذ أسباب الدنيا، ولا يجد أمامه مخرجاً، وهذا هو الذي تنفتح لدعائه أبواب السماء، والله -عز وجل- يبتلي عباده، ليعلم من يتوجه إليه عند المصائب، وليعلم صدق العبد، وقوة إيمانه، وقوة صبره، وهذه الاختبارات الإيمانية هي الأساس، ليزيل الله الضيق، ويذهب الهم، ويفرج الكرب، ويظهر قدرته لعباده.

أعلم أخي القارئ: إن للقدرة الالهيّة أدلة كثيرة، وبراهين وفيرة، كاختلاف اللغات، وتعدد الأصوات، وتباين النغمات، وتفاوت الصفات، كلها تدل على رب الأرض والسموات، خذ مثالا حيا، ورقة التوت تأكلها الدودة فتخرج حريراً، والنحلة فتخرج عسلاً، والغزال فتخرج مسكاً، ألا يدل على علام الغيوب، ومن هو على كل شيء قدير، وعلى الحكيم الخبير، وتأمل البيضة حصن حصين، وبناء رصين، لا منفذ ولا مخرج ولا هواء ولا ماء، تفقس فيخرج منها حيوان سميع بصير، ذو شكل حسن، وهيئة جميلة، وصوت مليح، فاسأل من خلق، ومن برأ، ومن أنشأ، ومن صور، إنه الخلاق العليم، والزهرة ذات ألوان؛ أبيض فاتح، وأحمر غامق، وأسود فاحم، وأخضر ممتع، تهل بالندى، وتفوح بالشذى، وتميس مع الهوى، آية من آيات مَن على العرش استوى، وفي هذا يصدق قول الشاعر:

تأمل في نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيكُ
على كثب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريكُ

إن مبدع هذه المخلوقات العظيمة، وخالق هذه الكائنات العجيبة، هو الرب الملك القادر، الذي يستحق أن يُعبد وحده، وأن يُطاع فلا يُعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يتلقى منه وحده منهج الحياة كله، وأن لا يكون لغيره أمر ولا نهي، ولا شرع ولا حكم، ولا تحليل ولا تحريم، فذلك كله لله وحده لا شريك له، ولا نقدم بين يديه ورسوله قول كبير أو عزيز أو عالم أو ذوق أو كشف أو رغبة أو هوى.

أحذر أخي القارئ:

إنّ كثيرا من الناس يتأثر بقوة المخلوق، ولا يتأثر بقوة الله، وذلك لضعف الإيمان واليقين، فحُرم من الاستفادة من خزائن الله، ومن قدرة الله، وإن قوة الناس لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة المخلوقات التي خلقها الله كالسموات والأرض والجبال، وقوة المخلوقات كلها لا تساوي ذرة بالنسبة لقوة الله، وقوة الناس وقوة المخلوقات كلها بيد الله وفي قبضة الله، يعز بها من يشاء، ويذل بها من يشاء، ويهلك بها من يشاء، ويقارن الله بين ذلك {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

ولفت - سبحانه- نظر الإنسان بمعرفة حقيقة نفسه وترك التكبر فقال:

{ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا }(١٤)

وبسبب ضعف الإيمان واليقين تأثرنا اليوم من قوة المخلوق، فأصبحنا نخافه ونرجوه، مع أنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، وأعرضنا عن الخالق القادر المالك لكل شيء، فلا نرجوه ولا نخافه، ولا نقف ببابه فأذلنا الله.

إن كان البشر لديهم قوة المصنوعات اليوم، فإن الله عنده قوة المخلوقات، وقوة المخلوقات التي خلقها الله أقوى وأشد من قوة المصنوعات التي صنعها البشر، وهذه وتلك لا تفعل شيئاً إلا بإذن الله. من هذه الأمثلة:

فهذا الهواء اللطيف الذي خلقه الله، والذي لا يستغني عنه الإنسان، جعله الله بقدرته قوة مدمرة عاتية، وريحاً شديدةً عقيماً، أرسلها الله وسلطها على قوم عاد لما كفروا بالله، وكذبوا رسوله، فدمرت كل شيء بأمر ربها:
{وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ} (١٥) .
لقد دمرت أعداء الله، وحفظت أولياءه، وذلك في آن واحد، بأمر واحد، في مكان واحد، إن هذه قوة مخلوق واحد، فكيف بقوة جميع المخلوقات التي يملكها الله العزيز الجبار؟، وكيف بقوة الله التي لا يقف لها شيء، ولو اجتمعت لها الخلائق كلها؟ { إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ } (١٦) .

وكذلك الماء الذي خلقه الله، والذي لا يستغني عنه الإنسان، حينما يأمره الله أن يغرق الأرض ومن فيها، من ذا يرده؟، ومن ذا ينجو منه؟ إن قوم نوح لما كفروا بالله -سبحانه- وكذبوا نوحاً، ماذا فعل الله بهم؟ {فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ} (١٧) .

لقد وقف موسى وقومه أمام البحر والعدوّ من ورائه أمره الله بضرب البحر بعصاه ففتح الله لموسى ومن معه من المؤمنين، فدخلوا معه وخرجوا، ثم تبعهم فرعون ومن معه فأطبقه الله عليهم، فهلكوا جميعاً.
ثم لما جاوزا البحر، وساروا في طريقهم أصابهم العطش، فدعا موسى ربه، فأمره الله بضرب الحجر بعصاه ففجر القوي القدير المياه العذبة من تلك الحجارة القاسية، قال الله: { وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً} (١٨) .
وهما آيتان خلاف العقل والمألوف:

الأولى: اضرب البحر يظهر الحجر اليابس. والثانية: اضرب الحجر يخرج الماء السائل، فسبحان القدير الذي يفعل ما يشاء.

وتوضأ النبي -ﷺ- في الحديبية من إناء، فجهش الناس من شدة العطش، فماذا فعل الله لإرواء رسوله والمؤمنين معه؟. اسمع إلى الخبر عن جابر -رضي الله عنه- قال: عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ، وَالنَّبِيُّ -ﷺ- بَيْنَ يَدَيْهِ رِكْوَةٌ فَتَوَضَّأَ، فَجَهِشَ النَّاسُ نَحْوَهُ، فَقَالَ: "مَا لَكُمْ"؟ قالوا: لَيْسَ عِنْدَنَا مَاءٌ نَتَوَضَّأُ وَلا نَشْرَبُ إِلا مَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي الرَّكْوَةِ، فَجَعَلَ الْمَاءُ يَثُورُ بَيْنَ أَصَابِعِهِ كَأَمْثَالِ الْعُيُونِ، فَشَرِبْنَا وَتَوَضَّأْنَا، قُلْتُ: كَمْ كُنْتُمْ؟ قال: "لَوْ كُنَّا مِائَةَ أَلْفٍ لَكَفَانَا، كُنَّا خَمْسَ عَشْرَةَ مِائَةً" متفق عليه. فمتى نستفيد من قدرة الله؟ ومتى نستفيد من خزائنه؟. (١٩) .

إن المؤمن الحق لا يغتر بجاهه أو ماله أو قدرته، بل يتبرأ من حوله وقوته، ويسأل الله الإعانة في أموره؛ فقدرته تعالى نافذة، فإذا سمع المؤمن المؤذن يقول: حي على الصلاة حي على الفلاح قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، كأنه يقول: هذا الذي تدعوني إليه وهو الصلاة والفلاح أمر عظيم لا أستطيع مع ضعفي القيام به إلا إذا وفقني الله بحوله وقوته، إنه يطلب الإعانة من الله تعالى حتى في أمور دينه.

وإذا حار بين أمرين لا يدري ما الخير له فيهما استخار الله -عز وجل-، وسأله بقدرته وعلمه أن يختار له الأحسن فقال: { اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب} (٢٠) .

وإذا شكا وجعًا وألمًا علم أن الله -سبحانه- قادر على أن يذهب وجعه، وأن يسكن ألمه؛ فيضع يده على مكان الوجع ويقول: { أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر} (٢١)

إن من قوي إيمانه بالله تعالى قوي يقينه بقدرة الله وقوته؛ فلا يعظم ولا يخاف إلا الله تعالى. لا يعظم مخلوقًا كتعظيم الله تعالى مهما كان له من الإنجازات والعطاءات، ومهما شاهد من قدرته وقوته؛ لأنه يعلم أن الله تعالى أقوى وأقدر.

ومن كان كذلك فإنه لا يظلم العباد؛ لأنه إن رأى قدرته فوق قدرتهم علم أن قدرة الله تعالى فوق قدرته، وهو كذلك لا يخاف الظلمة والمتسلطين؛ لأنه إن رأى أن قدرتهم فوق قدرته علم أن قدرة الله – تعالى- فوق قدرتهم .

والمؤمن مأمور دائمًا أن يتذكر قدرة الله -عز وجل- وقوته في كل أحـــــــوالـه وشؤونه، ولذا قال النبي -ﷺ- لأَبِي هُرَيْرَةَ: {أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فيَقُولُ الله: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ } (٢٢) وله شاهد من حديث أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ لَمَّا غَزَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خَيْبَرَ قَالَ لِي: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ، قُلْتُ: لَبَّيْكَ يَـــا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: { أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَـــى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، قَالَ: "لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ } (٢٣)

أخي القارئ :
يقول الله تعالى في محكم آياته: { أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ) (٣٣) } (٢٤) .

مظاهر قدرة الله تعالى كثيرة ومتعددة ،وقد تحدثت عنها آيات القرآن الكريم في مواضع عدة، فمن مظاهر قدرة الله: قدرته سبحانه في خلق السماء، قال الله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } (٢٥) .

فخلق السموات من آيات الله العظام،فهي من أعظم الآيات في علوها وارتفاعها وفي سعتها وقرارها، بحيث لا تصعد علواً كالنار، ولا تهبط نازلة كالأجسام الثقيلة، ولا عمد تحتها، ولا علاقة فوقها، قال الله تعالى:
{اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} (٢٦) .

وهو سبحانه الرؤوف الرحيم، الذي أمسك بقدرته السماء أن تقع على الأرض، ولولا إمساكه لها لخرت السماء على الأرض،

قال الله تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (٢٧) .

وهو سبحانه الحي القيوم، القوي القدير، الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا، ليحصل للخلق القرار والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وكمال قدرته، ما تمتلئ به قلوبهم إجلالاً له وتعظيماً، ومحبة وذلاً، ولو زالتا ما أمسكهما أحد من الخلق،
قال الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (٢٨) .

وهو سبحانه الذي خلق سبع سماوات، كل واحدة فوق الأخرى، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، فهي حسنة كاملة متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها.

قال الله تعالى:{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} (٢٩) .

وقد زين الله السماء الدنيا بمصابيح، وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء كما قال سبحانه: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ} (٣٠) .

وقد جعل الله هذه النجوم زينةً وجمالاً للسماء، ونوراً وهدايةً يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ورجوماً للشياطين الذين يسترقون السمع ويضلون العباد، ولولا هذه النجوم لكانت السماء سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال. فسبحان الذي خلق السماء وبناها، وسواها وعدلها، فلا صدع فيها ولا فطر، ولا شق فيها ولا عوج. وسبحان من زينها بهذا اللون الأزرق، الذي هو أحسن الألوان، وأشدها موافقة للبصر وتقوية له. وسبحان من أمسكها فلا تميل ولا تميد، ولا تزول ولا تسقط،

قال الله تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (٣١) .

فمن أراد أن ينظر إلى عظمة الخالق فلينظر إلى مخلوقاته ومصنوعاته، وعظمة أسمائه وصفاته، وآلائه ونعمه، وسعة خزائنه. فما أعظم صنع الله في ملكوت السموات، وعلوها وسعتها، واستدارتها، وعظم خلقها، وحسن بنائها، وجمالها،

قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ } (٣٢) .

فتأمل خلق السماء، وما فيها من عجائب المخلوقات، وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها، ومقاديرها وأشكالها، وتفاوت مشارقها ومغاربـــــها. فلا ذرة فيها تنفك عن حكمة .. بل هي أحكم خلقاً .. وأتقن صنعاً .. وأجمع للعجائب من بدن الإنسان ،كما
قال سبحانه: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (٣٣) .

بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات، لسعتها وعظـــــــمتها، وعلوها، وما فيها من الملائكة والكواكب، والشمس والقمر، كما قال سبحانه {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} (٣٤) .

فالأرض وما فيها من المخلوقات، بالنسبة إلى السموات وما فيـــــــــها من المخلوقات، كقطرة في بحر، وذرة في جبل. وكما خلق الله الأرض وجعل فيها الإنس والجن، فكذلك خلق السموات السبع وملأها بالملائكة الذين: {يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ} (٣٥) .

وقال النبي – ﷺ -: {إنّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً لِلَّهِ، وَاللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَـــى الْفُرُشِ وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللهِ } (٣٦)

فسبحان الذي خلق هذا السقف الأعظم مع صلابته وشدته وقوته من دخان وهو بخار الماء. وسبحان الذي بنى السموات السبع الشداد كما قال سبحانه: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} (٣٧) .
وقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ بالنظر في ملكوت السموات والأرض لما فيها من الآيات والعبر التي تزيد الإيمان كما قال سبحانه: {قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَـــــــاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} (٣٨) .

والنظر إلى السماء نوعان:

الأول: نظر إليها بالبصر الظاهر، فيرى مثلاً زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها، وهذا نظر يشارك فيه الإنسان غيره من الحيوانات، وليس هو المقصود.

الثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أقطارها وملكوتها ، وبين ملائكتها، الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ويرى أنبياء الله ورسله الذين بلغوا دينه إلى عباده، آدم في السماء الدنيا، وإبراهيم في السماء السابعة، وغيرهم في السموات الأخرى. ثم يفتح له باب بعد باب، حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته، وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في أرض فلاة.

ويرى الملائكة الذين يحملونه، والملائكة الذين حوله، حافين من حول العرش، ولهم زجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير. ويرى الملك العظيم الجبار، الكريم الرحمن، مستو على عرشه، والأوامر تنزل من عنده بتدبير الممالك والجنود والخلائق التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا ربها ومليكها. فينزل الأوامر بإحياء قوم .. وإماتة آخرين .. وإعزاز قوم .. وإذلال آخرين .. وإنشاء ملك . وسلب ملك .. وجبر كسير .. وإغناء فقير .. وشفاء مريض .. وإغاثة ملهوف .. ونصر مظلوم .. وهداية حيران .. وتفريج كرب .. ومغفرة ذنب .. وكشف ضر .. وتحويل نعمة من محل إلى محل .. وغير ذلك.
وينظر إلى أمره يتنزل بين السموات والأرض، وفي كل سماء من سمواته السبع، خلق من خلقه .. وأمر من أمره .. وقضاء من قضائه. خلق سبحانه سبع سموات، بين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وأمره ينزل بين كل سماء وسماء، وبين الأرض والسماء:

{اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } (٣٩) .

فإذا رأى القلب هذا .. ورأى حملة العرش ومن حوله يسبحون بحـــــمد ربهم ويؤمنون به .. ورأى الملائكة يطوفون بالبيت المعمور .. ورأى كل ســـــماء مملوءة بالركع السجود من الملائكة .. ورأى قدرة الله تمسك السـماء أن تزول أو تقع عل الأرض .. ورأى هذا الملكوت العظيم. فحينئذ يقوم القلـــب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته، خاشعاً لعظمته، ذليلاً لعزته، فيسجد بيـــن يدي الرحمن، الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد. وهـذه السموات السبع العظيمة، على اتساعها وكبرها وعظمتها، يطويها العزيز الجـــبار يوم القيامة بيمينه، وهي في يده أصغر من الخردلة كما قال سبحانه:
{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} (٤٠) .

وجاء حبر إلى النبي – ﷺ – فقال: { يَا مُحَمَّدُ! أَوْ يَا أَبَا الْقَاسِمِ! إِنَّ اللهَ تَـــعالى يُمْسِكُ السموات يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِـــــبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – تَعَجُّباً مِــمَّا قَالَ الْحَبْرُ، تَصْدِيقاً لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (٤١)
متفق عليه، ألا ما أعظم الله، وما أعظم خلقه، وما أعظم قوته.
فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى، فما بال أكثر الناس لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال:
{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُـــونَ} (٤٢)

فهل يتعظ الإنسان ويتدبر خلق هذه السموات السبع الطباق، وما فيها من الآيات والعبر؟. قال الله تعالى :{وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ } (٤٣) .

وهذه الآيات التي تصدرت بها هذه الخطبة : فقد جاء في التفسير الـــــــميسر: أَبَعْثُكم أيها الناس- بعد الموت أشد وأصعب في تقديركم أم خلق السماء؟ رفعها فوقكم كالبناء، وأعلى سقفها في الهواء لا تفاوت فيها ولا فطور، وأظلم ليلــها بغروب شمسها، وأبرز نهارها بشروقها. والأرض بعد خلق السماء بســـطها، وأودع فيها منافعها، وفجَّر فيها عيون الماء،وأنبت فيها ما يُرعى من النباتات، وأثبت فيها الجبال أوتادًا لها. خلق سبحانه كل هذه النعم منفعة لكم ولأنعـامكم. (إن إعادة خلقكم يوم القيامة أهون على الله من خلق هذه الأشياء،وكله على الله هين يسير). فجاء هذا الخطاب على سبيل التقريع والتوبيخ لهم ، حيث بين لهم – سبحانه – أن إعادتهم إلى الحياة ، ليست بأصعب من خلق السموات والأرض

أخي القارئ :

فقف وتأمل أيها المؤمن، وتدبر وتفكر أيها الانسان، فالتفكر في خـــلق الله من أجل العبادات التي غفل عنها الكثيرون ، ولأن التفكير يولد التأمل في خلق الله ، واستشعار عظمته سبحانه وتعالى .. تأمل في ملكوت السموات والأرض ومـــا فيها من إبداعات حيرت العقول ، وترامى تحت عجائبها المفكرون الفحول ، بل عجزت كل الوسائل الدقيقة والتقنية الحديثة أن تصل إلى شأو هذا الكون الفسيح ، المترامي الأطراف فرجع البصر خاسئا وهو حسير .ففي هذه السماء مخلوقات عظيمة تفوق الخيال ، وتتجاوز المحيط الفكري ، وحدود الخواطر ، فـــــــهذه المخلوقات تسير وفق خطة محكمة ، لا تتعدى حدودها المرسومة لها ، ولا تميل عن مسارها .. وهذه المخلوقات العلوية مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الـمخلوقات السفلية الكائنة في هذه الأرض المليئة بالعجائب هي الأخرى . فهذه الشـــمس ، هذا المخلوق العظيم الذي لا غنى للمخلوقات على الأرض من الـحرارة والأشعة الصادرة منه ...فالشمس تمد الأرض بالدفء مما يجعل حياة المــخلوقات على هذه البسيطة ممكنة الحدوث والاستمرار . وبالضياء الذي نحـــــــتاجه في كل مجالات الحياة وأهمه الخروج إلى السعي وراء أرزاقنا، وأما النـــباتات وباقي الكائنات الحية فضوء الشمس ضروري لها ومهم لقيامه بعملية التمثيل الضوئي . والشمس تصدر طاقات هائلة يستغلها الإنسان وكم من دول تولد الكـــــهرباء والطاقات الأخرى مما تصدره الشمس . ومن الناحية الطبية فإن أشعة الشـمس تفيد الجلد في إنتاج الفيتامين (د) الضروري لنمو العظم ، وتدور الأرض حول

الشمس في عام كامل ،مما يفيد الإنسان في عمل الحسابات الكونية وعد السنين . وحرارةُ الشمس تبخر الماءَ فتسوقُ السحاب ، وترفعه فوق الجبال ، وتقـودُه إلى بلد ميت ، فتنبتُ الزرعَ ، وتدر الضرع ، وغير ذلك مما نعلمه ومالا نعلمــه . ومن غير الهواء وحرارة الشمس ما كنا وجدنا حبة قمح ، أو تمرة ، أو شجرة . ولو كانت الشمس دائمة السطوع علينا لاحترقت جميع النباتات ، ولكن تعاقـــب الليل والنهار بانتظام يعمل على تنشيط تكون الغذاء .{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (٤٤)

المراجع : للباب الأول : الفصل الأول :

---

(١) (سورة القرة ، آية : ١٦٤)
(٢) (سورة العنكبوت ، آية : ١٩-٢٠)
(٣) (سورة الروم ، آية : ٨)
(٤) (سورة فاطر ، آية : ٤١)
(٥) (سورة لقمان ، آية : ١١)
(٦) (سورة العنكبوت ، آية : ٤٠)
(٧) (سورة آل عمران ، آية : ٥٩)
(٨) (سورة الشعراء ، آية : ٦٥-٦٧)
(٩) (سورة الأعراف ، آية : ٦٤)
(١٠) (سورة الأنبياء ، آية : ٦٩-٧٠)
(١١) (سورة آل عمران ، آية : ٢٨-٢٩)
(١٢) (سورة النمل ، آية : ٦٢)
(١٣) (سورة غافر ، آية : ٥٧)
(١٤) (سورة الإسراء ، آية : ٣٧)
(١٥) (سورة الذاريات ، آية : ٤١-٤٢)
(١٦) (سورة هود ، آية : ٦٦)
(١٧) (سورة الأعراف ، آية : ٦٤)
(١٨) (سورة القرة ، آية : ٦٠)
(١٩) (حديث البخاري: كِتَابُ المَنَاقِبِ (بَابُ عَلاَمَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلاَمِ رقم ٣٥٦٧)
(٢٠) (البخاري: (٣٦٨٥)).
(٢١) (مسلم (٢٢٠٢)) .
(٢٢) (مسند أحمد(٧٩٦٦))،
(٢٣) (حديث البخاري: (٣٨٨٣)).
(٢٤) (سورة النازعات)
(٢٥) (سورة ق ، آية : ٦)
(٢٦) (سورة الرعد ، آية : ٢)
(٢٧) (سورة الحج ، آية : ٦٥)
(٢٨) (سورة فاطر ، آية : ٤١)
(٢٩) (سورة الملك ، آية : ٣-٤)
(٣٠) (سورة الملك ، آية : ٥)
(٣١) (سورة البقرة ، آية : ١١٧)

(٣٢) (سورة ق ، آية : ٦)
(٣٣) (سورة غافر ، آية : ٥٧)
(٣٤) (سورة الذاريات ، آية : ٤٧)
(٣٥) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٥)
(٣٦) (رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد)
(٣٧) (سورة النبأ ، آية : ١٢)
(٣٨) (سورة يونس ، آية : ١٠١)
(٣٩) (سورة الطلاق ، آية : ١٢)
(٤٠) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٤)
(٤١) (سورة الزمر ، آية : ٦٧)
(٤٢) (سورة غافر ، آية : ٥٧)
(٤٣) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٢)
(٤٤) (سورة النحل ، آية : ١٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق؛ ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا.وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ إقرارا به وتوحيدا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما مزيدا .

أما بعد : إذا سأل أحد نفسه في سورة فصلت آية ٩ أن خلق السموات والأرض في ٦ أيام وفي غيرها ٨ أيام ؟ وثبت أن خلق السموات والأرض قد استغرق بلايين السنين ؟ فما هو الرد .

الجواب : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ وبعد:

فلا تعارض فيما جاء في سورة فصلت من خلق السموات والأرض، وما جاء في غيرها؛ فلا تعارض في القرآن الكريم ولا اختلاف فيه مطلقاً لأنه من عند العزيز الحكيم اللطيف الخبير.

قال تعالى:{ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً } (١) .

وما جاء في سورة فصلت ليس فيه لفظ (ستة أيام)، وإنما ورد لفظ (ستة أيام) في سبعة مواضع من القرآن الكريم (في سورة الأعراف، ويونس، وهود، والفرقان، وق، والسجدة، والحديد).

وما أُجْمِل من خلق السموات والأرض في هذه السور هو الذي فصل وبين في سورة فصلت، قال تعالى:{ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (٢) .

قال الراغب الأصفهاني في مفرداته: اليوم -في لغة العرب- يعبر به عن وقت طلوع الشمس إلى غروبها، وقد يعبر به عن مدة من الزمان أي مـــدة كانت.

وقال القرطبي في تفسير الأيام: (في ستة أيام) أي من أيام الآخرة أي كل يوم ألف سنة لتفخيم خلق السماوات والأرض.... وذكر هذه المدة ولو أراد خلقـها في لحظة لفعل، إذ هو القادر على أن يقول لـها (كوني فتكون) ولكـنـه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبت في الأمور.... وحكمة أخرى من خلقها في ستة أيام لأن لكل شيء عنده أجلا...

ولعل هذه الأيام عبارة عن ستة أزمنة وآماد لا يعلم مداها إلا الله تعالى يتحدد كل يوم منها بما تم فيه من عمل، أو ست دورات فكلية لا نعلمها، وهــي غير أيامنا المرتبطة بالدورة الشمسية، أو ستة أطوار مرت على هذه المخلوقات.

كل ذلك محتمل واللغة العربية تساعد عليه، والدين لا يمنع منه.

أفاده القرضاوي في هدي الإسلام.
ويقول سيد قطب في تفسير سورة الأعراف من كتابه في ظلال القرآن: فأمـــا الأيام الستة التي خلق الله فيها السموات والأرض فهي غيب لم يشهده أحد من البشر، ولا من خلق الله جميعاً:{مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ } (٣) .

وكل ما يقال عنها لا يستند إلى أصل مستيقن...
ويقول في تفسير سورة يونس: وعلى كل حال فالأيام الستة غيب من غيب الله الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر، فعلينا أن نقف عنده ولا نتـــــــــعداه، والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام الذي يـــسير به الكون من بدئه إلى منتهاه.

ويقول في سورة هود: الله خلق السموات والأرض في هذا الأمد لتكون صالحة مجهزة لحياة هذا الجنس البشري....

ثم يقول في سورة الفرقان: وأيام الله التي خلق فيها السموات والأرض غير أيامنا الأرضية قطعاً، فإنما أيامنا هذه ظل للنظام الشمسي، ومقـياس لدورة فلكية وجدت بعد خلق السموات والأرض، وهي مقيسة بـقدر دورة الأرض حول نفسها أمام الشمس.

والخلق لا يقتضي إلا توجه الإرادة الإلهية المرموز له بلفظة (كن) فتتم الكينونة (فيكون) ولعل هذه الأيام الستة من أيام الله التي لا يعلم مقدارها إلا هو، إنما تمت فيها أطوار متباعدة في السموات والأرض حتى انتـهت على وضعها الحالي....

ثم يقول في سورة السجدة: والأيام ليست قطعاً من أيام هذه الأرض التي نعرفها، فأيام هذه الأرض مقياس زمني ناشئ من دورة هذه الأرض حول نفسـها أمام الشمس مرة تؤلف ليلاً ونهاراً على هذه الأرض الصغيرة الضئيلة التـي لا تزيد على أن تكون هباءة منثورة في فضاء الكون الرحيب، وقد وجد هذا المـقياس الزمني بعد وجود الأرض والشمس، وهو مقياس يصلح لنا نحن أبنـاء هذه الأرض الصغيرة الضئيلة، وأما حقيقة هذه الأيام الستة المذكورة في الـقرآن الكريم فعلمها عند الله تعالى، فلا سبيل إلى تحديدها وتعيين مقدارها فـهي من أيام الله تعالى التي يقول عنـها:{ وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } (٤) .

قد تكون ستة أطوار مرت بها السموات والأرض وما بينهما حتى انتـهت إلى ما هي عليه، أو ستة مراحل في النشأة والتكوين، أو ستة أدهار لا يعلم ما بين أحدها والآخر إلا الله .

ثم يقول في تفسير سورة فصلت:{ قُلْ أَإِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ} (٥). وهذه الأيام الاثنان اللذان خق الله فيهما الأرض، والاثنان اللذان خلق فيهما الرواسي وقدر فيهما الأقوات وأحل فيهما البركة فتمت بهما الأيام الأربعة. إنها بلا شك أيام من أيام الله التي يعلم هو مداها، وليست من أيام هذه الأرض . والأيام التي خلقت فيها الأرض أولاً، ثم تكونت فيها الـجبال، وقدرت

فيها الأقوات، هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه، ولكننا نـــعرف أنه أطول بكثير من أيام الأرض المعروفة وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إليه علمنا البشري أنها الأزمان التي مرت بها الأرض طوراً بعد طور، حتـــى استقرت وصلبت قشرتها، وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها، وهــــــذه قد استغرقت فيما تقول النظريات التي بين أيدينا - نحو ألفي مليون سنـــــــة من سنوات أرضنا.

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عـمر الأرض بواسطتها، ونحن في دراسة القرآن الكريم لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية، فهي في أصلها ليست كذلك، وما هي إلا نظريات قابلة للتـعديل، فنحن لا نحمل القرآن عليها، إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينهـــا وبين النص القرآني تقارباً، ووجدنا أنها تصلح تفسيراً للنص القرآني بــــغير تمحل، فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني.

ويقول ابن عطية في تفسيره المحرر الوجيز: (في ستة أيام) حكى الطبري عن مجاهد أن اليوم كألف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قـــــدرة الله تعالى، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كـــسائر أحوال الشرائع...

وأما ثمانية أيام فلم ترد في كتاب الله عز وجل -إلا مرة واحدة- في ســـــورة الحاقة ولا علاقة لها بهذا الموضوع، وإنما جاءت في سياق هلاك عاد (قوم هود) الذين أهلكهم الله بالريح العاتية لما رفضوا الدعوة وكذبوا نبـــيه هوداً عليه السلام .

قال تعالى: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ* سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ }(٦) .

وبهذا يكون قد اتضح لنا أنه لا تعارض فيما جاء في سورة فصلت وما جاء في غيرها من القرآن الكريم من الحديث عن خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ولا غيرها وأن هذه الأيام ليست كأيامنا العادية، لأن أيامنا ناشئة من دورة هذه الأرض حول نفسها أمام الشمس، وهذا كان قبل خلق السـموات والأرض كما وضح ذلك المفسرون قديماً وحديثاً، وأنه لا علاقة لخلق السـموات والأرض بالأيام الثمانية التي ورد ذكرها في سورة الحاقة.

والله أعلم .

المراجع : للباب الأول : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة النساء ، آية : ٨٢)
(٢) (سورة فصلت ، آية : ٩-١٢)
(٣) (سورة الكهف ، آية : ٥١)
(٤) (سورة الحج ، آية : ٤٧)
(٥) (سورة فصلت ، آية : ٩)
(٦) (سورة الحاقة ، آية : ٦-٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، ودبر عباده على ما تقتضيه حكمته وكان بهم لطيفا خبيرا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وكان على كل شيء قديرا، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة وبشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد :
لقد أجمعت الكتب السماوية السابقة على أن الله قد خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وجاء القرآن الكريم فأكد هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها قوله تعالى { اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلا شَفِيعٍ أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ }(١) .

ولكن القرآن الكريم لم يكتف بذكر هذه الحقيقة الكونية بل جاء بحقائق إضافية عن تفصيل هذه الأيام وكذلك عن الحال الذي كان عليه الكون عند بداية خلقه والحال التي سيؤول إليها.ومن أهم الحقائق التي تفرد بذكرها القرآن دون غيره من الكتب السماوية هي حقيقة أن السموات والأرض قد خلقهما الله في يومين اثنين ولم يستغرق خلقها ستة أيام كما جاء في قوله تعالى :
{قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ } (٢) . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثمّ استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها
{وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (٣) .

وكما هو واضح من هذه الآية المليئة بالحقائق المتعلقة بالأحداث التي مر بها خلق الكون،فإن الله قد خلق الأرض في يومين وكذلك خلق السـموات في يومين،بينما تنص آيات أخرى كثيرة على أن مجموع أيام خلق الـسموات والأرض هي ستة أيام .

وقد ذهب المفسرون القدامى مذاهب شتّى وهم يحاولون تفـسير هذه الآية العجيبة والتوفيق بين الحقائق الكونية الواردة فيها وتـلك الواردة في الآيات الأخرى. لقد دار الجدل بينهم فيما إذا كان اليومان اللذان خلق الله فيها السموات هما نفس اليومين اللذين خلق الله فيها الأرض وهل الأيام الأربعة التي خلق الله فيها الجبال وقدّر فيها أقوات الأرض تشمل اليومين اللذين خلق الله فيـها الأرض؟وإلى غير ذلك من التساؤلات. إن هذه الآية القرآنية إن لم يـنزل بتفسيرها وحي لا يمكن بأي شكل من الأشكال تفسيرها من خلال التخـمين والتفكير المجرد بل يحتاج تفسيرها إلى معرفة علمية كافية بالأحداث التـي مر بها خلق الكون.

فهذه الآية وغيرها من الأيات القرآنية المتعلقة بالحقائق الكونية يمـكن تفسيرها فقط على ضوء الحقائق العلمية المكتشفة هذا إذا ما ثبت صحتها كما حصل مع الأيات القرآنية المتعلقة بحركة الأرض ومواقع النجوم ودور الجـبال في تثبيت القشرة الأرضية. وسنشرح في ما يلي بعض الحقائق العلمـية الأساسية التي اكتشفها العلماء المعاصرين للكيفية التي تم بها خلق هذا الكون والمراحل التي مر بها حتى أصبح على هذه الهيئة ثم نقوم بتفسـير الآية القرآنية الآنفة الذكر على ضوء هذا الشرح.

لقد نشأ هذا الكون طبقا للنظريات العلمية الحديثة نتيجة لانفجار كـوني عظيم انبثقت منه جميع مادة هذا الكون،حيث كان الكون عند ساعة الصفر على شكل نقطة مادية غاية في الصغر لها درجة حرارة وكثافة غاية في الكبـر وقد أطلق العلماء على هذا الانفجار اسم "الانفجار العظيم". ولا يعرف العلماء على وجه التحديد ماهية المادة الأولية التي انبثق منها هذا الكون ولا من أيـن جاءت،

ولماذا اختارت هذا الوقت بالتحديد لكي تنفجر ولا يعرفون كذلك أيّ شيء عن حالة الكون قبل الانفجار وصدق الله العظيم القائل { مَا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا } (٤) .

ويغلب على ظن العلماء أن مادة الكون كانت عند بداية الانفجار مادة صرفة ذات طبيعة واحدة وتحكمها قوة طبيعية واحدة. لقد بدأت هذه المادة المجهولة الهوية بالتمدد بشكل رهيب وبسرعات غاية في الكبر نتيجة لهذا الانفجار لتملأ الفضاء من حولها هذا إذا كان هناك ثمة فضاء،حيث يعتقد بعض العلماء أن المكان والزمان قد ظهرا مع ظهور هذا الانفجار. لقد كان الكون الأولي على شكل كرة نارية متجانسة تملؤها سحابة من المادة الصرفة،وظلت هذه الكرة تتمدد وتتسع بصورة مذهلة إلى أن وصلت درجة حرارتها إلى ثلاثة آلاف درجة بعد مرور ما يقرب من مائة ألف سنة. وعند درجة الحرارة هذه بدأت الجسيمات الأولية البسيطة كالكواركات واللبتونات والفوتونات بالتشكل من هذه المادة الصرفة،وبدأت كذلك قوى الطبيعية الأربعة التي كانت موحدة في قوة واحدة بالانفصال عن بعضها البعض .

ومع استمرار تناقص درجة حرارة هذا الكون الناشئ إلى قيم أدنى، بدأت مكونات الذرة الأساسية من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات بالتشكل من خلال اندماج أنواع الكواركات والليبتونات المختلفة مع بعضها البعض نتيجة لتأثير القوى الطبيعية المختلفة. وقد وجد العلماء أن البروتون يتكون من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون أيّ أن شحنته الكلية موجبة وتساوي بالمقدار شحنة الإلكترون السالبة. وأما النيوترون فيتكون أيضاً من ثلاثة كواركات اثنين منهما يحمل كل منهما شحنة سالبة تساوي بالمقدار ثلث شحنة البروتون والثالث يحمل شحنة موجبة تساوي ثلثي شحنة البروتون، أيّ أن شحنته الكلية تساوي صفر. وممّا أثار دهشة العلماء أن أعداد وأنواع الكواركات التي انبثقت من هذا الانفجار العظيم كانت محسوبة بدقة بالغة بحيث أنها أنتجت بعد اتحادها عدد من البروتونات يساوي تماماً عدد الإلكترونات،وكذلك كمية من النيوترونات يكفي لتصنيع جميع العناصر الطبيعية التي بني منها هذا الكون.

وقد أودع الله هذه الجسيمات الثلاث أربعة أنواع من القوى لكي تحكم تفاعلاتها مع بعضها البعض وتحكم بالتالي جميع مكونات هذا الكون فيما بعد،وهي القوة النووية القوية والقوة النووية الضعيفة والقوة الكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية. ولقد حدد الله طبيعة كل من هذه القوى وشدتها ومدى تأثيرها بشكل بالغ الدقة،بحيث لو حدث خطأ بسيط في هذه المقادير لما كان هذا الكون على هذا الحال الذي هو عليه اليوم كما أثبت ذلك العلماء من خلال أبحاثهم العلمية.

فالقوتان النوويتان القوية والضعيفة الموجودتان في البروتونات والنيوترونات تفوق شدتها بشكل كبير شدة القوتين الأخريين،ولكنهما في المقابل لا تعملان إلا على مدى بالغ القصر ولذلك فهما مسؤولتان عن تقييد البروتونات والنيوترونات في داخل نوى الذرات وذلك على الرغم من وجود قوة التنافر الكهربائية بين البروتونات. وممّا يثبت أن هنالك عقلاً مدبراً يقف وراء تصميم هذا الكون هو وجود النيوترونات في نوى الذرات والتي ظن علماء الفيزياء في بادئ الأمر أنها جسيمات عديمة الفائدة،لكونها لا تحمل أيّ شحنة كهربائية، إلا أنه قد تبين بعد دراسات طويلة أنها تلعب دورا بارزا في تصنيع هذا العدد الكبير من العناصر الطبيعية. فبدون هذه النيوترونات لا يمكن لنواة أيّ ذرة أن تحتوي على عدد كبير من البروتونات بسبب قوة التنافر الكهربائي بينها ولكان عدد العناصر التي يمكن للنجوم أن تنتجها لا يتجاوز عدد أصابع اليد كما بين ذلك علماء الفيزياء.
ولقد تبين للعلماء أيضا أن القوى النووية القوية والضعيفة قد تم تحديد شدتها بدقة بالغة بحيث أنها لو زادت أو نقصت عن قيمها الحالية ولو بمقدار ضئيل جداً،لما أمكن أيضاً تصنيع هذا العدد الكبير من العناصر في باطن النجوم.

وتأتي القوة الكهرومغناطيسية بعد القوتين النوويتين من حيث الشدة وهي المسؤولة عن ربط الإلكترونات بنواة الذرة من خلال الدوران حولها.

ومن عجائب التقدير أن هذه الإلكترونات لا يمكنها أن تنجذب إلى داخل النواة رغم وجود قوة التجاذب بينها وبين البروتونات،ولو حدث هذا لكانت الأرض بحجم كرة القدم ولما كان حال الكون على ما هو عليه الآن.

وقد بقيت هذه الظاهرة لغزاً يحير العلماء إلا أن تم كشف أسرارهـا في الربع الأول من القرن العشرين بعد أن تبين لهم أن قوانين الميكانيكا الكلاسيكية لا يمكن تطبيقها على حركة الإلكترونات عند اقترابها من البروتونـات بل يلزم استخدام قوانين جديدة وهي قوانين ميكانيكا الكم التي بينت أن الإلكـترونات تتخذ مدارات محددة عند دورانها حول نواة الذرة.

وبسبب هذا التحديد البديع لأبعاد مدارات الإلكترونات حول النواة وبسبب تحديد عدد الإلكترونات التي يتسع لها كل مدار من هذه المدارات فقد نتج عـنها هذا العدد الهائل من الظواهر الفيزيائية والكيميائية التي أفنى كثير من العلـماء أعمارهم في كشف أسرارها والتي أدت إلى هذا التنوع الهائل فيما خلق الله من مخلوقات،وفيما صنع الإنسان من أشياء.

أما قوة الجاذبية وهي أضعف هذه القوى فهي المسؤولة عن ربط المـجرات والنجوم والكواكب ببعضها البعض من خلال دورانها حول بعضها البـعض.

وقد تم اختيار مقدار هذه القوة بشكل بالغ الدقة لكي تكون المسافات بيـن هذه الأجرام والسرعات الدورانية لها ضمن حدود معقولة تضمن تماسك كـتل هذه الأجرام.

ومن عجائب التقدير في الخلق أنه لو زاد عدد البروتونات عن عدد الإلكترونات أو العكس بفرق مهما بلغ في الضآلة،فإن جميع الأجرام السماوية ستـصبح مشحونة بشحنات كهربائية متماثلة.

وبما أن القوة الكهرومغناطيسية تزيد قوتها بشكل كبير عن قوة الجاذبيـة فإنها ستمنع النجوم من التشكل وكذلك الكواكب من الدوران حول نجومها فيـما لو تشكلت،وستتطاير ذرات هذا الكون في كل اتجاه وذلك بسبب التنافر الشديد بين مكوناتها. ولكن من لطف الله بنا أن جميع الأجرام السماوية متعادلة كهربائيـة وبذلك فإن قوة الجاذبية فقط هي المسؤولة عن حفظ توازن هذه الأجرام مـع بعضها البعض،

وصدق الله العظيم القائل {وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (٥) .

وقبل أن نكمل المراحل الأخرى لنشوء الكون نتوقف قليلاً لكي نقارن الحقائق المذكورة في الآية القرآنية مع ما توصل إليه العلماء من حقائق فقد ذكرت الآية القرآنية التي هي عنوان هذا الباب أن الكون كان على شكل مادة دخانية في مرحلة نشوئه الأولى وذلك في قوله تعالى {ثم استوى إلى السماء وهي دخان}.

والمقصود بالسماء في هذه الآية هو الفضاء الذي امتلأ بالدخان الناتج عن الانفجار الكوني العظيم،وليست السماء التي ستتكون من هذا الدخان لاحقا فلم يكن ثمة سماء قبل ذلك.

وقد أطلق العلماء على هذه السحابة من الجسيمات الأولية اسم الغبار الكوني بينما سماها القرآن الدخان والتسمية القرآنية أدق من تسمية العلماء فالجسيمات الأولية أصغر من أن تكون غباراً وحتى دخانا ولكن الدخان هو أصغر وأخف شيء يمكن أن تراه أعين البشر.

ولا بد هنا من أن نسأل الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يصدقون بأن هذا القرآن منزل من عند الله السؤال التالي وهو من أين جاء هذا النبي الأمي الذي عاش في أمة أمية بهذه الحقيقة الكبرى عن حال الكون عند بداية خلقه والتي ظلت مجهولة إلى أن كشفها الله على أيدي خلقه في هذا الزمان فقط.

إن هذه الحقيقة العلمية لم تذكرها الكتب المقدسة التي سبقت القرآن ممّا يؤكد على صدق هذا القرآن وصدق من أنزل عليه وأنه منزل من لدن عليم خبير مطلع على جميع أسرار هذا الكون وكيف لا وهو خالقه {أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } (٦) .

ولقد أشار القران الكريم بشكل واضح في ثلاث آيات قرآنية إلى حقيقة الانفجار الكوني العظيم،وإلى حقيقة التوسع الكوني وكذلك إلى حقيقة انهيار هذا الكون في النهاية.فقد أشار القرآن الكريم إلى أن السموات وما تحويه من أجرام كانت كتلة واحدة ثم تفتقت جميع مادة هذا الكون من هذه الكتلة التي ملأت الكون بمادة دخانية وذلك مصداقا لقوله تعالى : { أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ }(٧) .

ومن المعلوم في اللغة أن الفتق هو عكس الرتق فالرتق هو ضم شيئين لبعضهما البعض بينما الفتق هو خروج شيء من شيء آخر وما هو هذا الفتق إن لم يكن هذا الانفجار الكبير في مادة الكون الأولية الذي ملأ الكون بالجسيمات التي سماها القرآن الكريم الدخان. فالكون في الأصل كان كتلة واحدة ثم تحول إلى مادة دخانية ملأت الفراغ المحيط بها وهذا لا يحدث إلا نتيجة لانفجار هذه الكتلة المادية.

وهذا الانفجار هو الذي جعل مادة الكون الأولية تتناثر وتندفع في كل اتجاه بقوة رهيبة محدثة التوسع الكوني الذي لا زلنا نشاهد أثره إلى هذه اللحظة.
وممّا يؤكد على أن مادة هذا الكون قد جاءت نتيجة انفجار كوني ضخم هو إشارة القرآن إلى أن الكون في توسع مستمر والتوسع لا يتأتى إلا إذا بدأ الكون من جرم صغير وبدأ حجمه بالازدياد وذلك مصداقا لقوله تعالى :
{ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } (٨) .

لقد تفرد القرآن الكريم أيضا بذكر حقيقة التوسع الكوني هذا كما تفرد بذكر حقيقة الدخان كما ذكرنا سابقا بينما لم تأتي الكتب السماوية السابقة على ذكر هذا التوسع أبداً.

أما الآية الثالثة التي تؤيد صحة هذه الفرضية هو قوله تعالى :
{يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (٩) .

فإذا كانت الآية السابقة تشير إلى توسع الكون عند بدايته فإن هذه الآية تشير إلى انكماشه عند نهايته وسيعيد الله الكون إلى ما كان علية عند بدايته { كما بدأنا أول خلق نعيده }.
وليتأمل القارئ تشبيه القرآن للطريقة التي سينكمش بها هذا الكون عند انتهاء أجله فهي نفس الطريقة التي يتبعها الكاتب (السجل) في لف (طي) الرسائل (الكتب) عند الانتهاء من كتابتها كما هي العادة في زمن نزول القرآن.

لقد أجمع العلماء على حقيقة التوسع الكوني ولكنهم لم يتمكنوا إلى الآن من البت في الحالة التي سيؤول إليها الكون حيث يقول بعضهم أن الكون سيبقى في حالة تمدد إلى الأبد بينما يقول آخرون أنه سيأتي يوم تتغلب فيه قوة الجذب بين مكوناته على قوة الاندفاع الناتجة عن الانفجار فيعود الكون من حيث بدأ وينهار على نفسه. أما نحن المسلمون فنؤمن إيمانا جازما بوعد ربنا سبحانه وتعالى حول مصير هذا الكون وأنه سيعود من حيث بدأ كما قال سبحانه :
{ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (١٠) .
والقائل سبحانه :{ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} (١١) .

أما المرحلة الثانية من مراحل خلق الكون فهي مرحلة تكون المجرات والنجوم من هذا الدخان الذي أصبح يتكون من البروتونات والنيوترونات والإلكترونات والفوتونات.

فبعد أن برد الكون المتمدد إلى ما دون ثلاثة آلاف درجة كلفن بدأت الإلكترونات بالارتباط بالبروتونات نتيجة لتأثير القوة الكهرومغناطيسية مشكلة بذلك ذرات الهيدروجين والتي تتكون من بروتون واحد وإلكترون واحد.

ومع اتحاد البروتونات مع الإلكترونات أصبحت جميع مكونات الكون متعادلة كهربائيا معطية المجال لقوة الجاذبية لكي تقوم بدورها في بناء أجرام هذا الكون رغم ضعفها الشديد مقارنة مع قوى الطبيعة الأخرى.

لقد بقي الكون حتى هذه اللحظة متجانسا أيّ أن المادة الدخانية المكونة من ذرات الهيدروجين والنيوترونات موزعة على جميع أنحاء الكون بالتساوي وبنفس الكثافة. ولكن في لحظة ما بدأت كثافة مادة الكون بالاختلال لسبب لم يجد العلماء له تفسيراً قاطعاً وتكونت نتيجة لهذا الاختلال مراكز جذب موزعة في جميع أنحاء الكون وبدأت قوة الجاذبية تلعب دورها في غياب تأثير القوة الكهرومغناطيسية وذلك من خلال جذب مزيد من الهيدروجين المحيط بهذه المراكز إليها منشئة بذلك كتل ضخمة من الهيدروجين.

وعندما وصل حجم هذه الكتل الهيدروجينية إلى حجم معين ونتيجة للضغط الهائل على الهيدروجين الموجود في مراكز هذه الكتل ارتفعت درجة حرارته إلى الحد الذي بدأت فيه عملية الاندماج النووي بين ذرات الهيدروجين منتجة ذرات الهيليوم بالإضافة إلى كميات كبيرة من الطاقة فتكونت بذلك النجوم .

وتتفاوت أحجام النجوم المتكونة حسب كمية الهيدروجين الذي سحبته من الفضاء الكوني وحسب موقعها في إطار هذا الكون فكلما ازداد حجم النجم كلما ازدادت درجة حرارة باطنه بسبب ازدياد الضغط الواقع عليه.

فالنجوم التي هي بحجم شمسنا لا يمكنها أن تحرق إلا الهيدروجين في باطنها وذلك بسبب صغر حجمها النسبي وبالتالي قلة درجة حرارة جوفها ولذلك فهي لا تصنع إلا عنصر الهيليوم في داخلها.

ولكي يمكن تصنيع عناصر أثقل من الهيليوم قدّر الله وجود نجوم أكبر حجما وأعلى درجة حرارة من الشمس وبداخل مثل هذه النجوم العملاقة بدأت عمليات اندماج نووية أكثر تعقيدا بين ذرات الهيليوم منتجة بذلك ذرات عناصر الليثيوم والكربون والنيتروجين والأكسجين وانتهاء بالعناصر الثقيلة كالحديد والرصاص واليورانيوم وبقية العناصر الطبيعية التي يزيد عددها عن مائة عنصر.

وكما أن الاختلال الذي حصل في كثافة مادة الكون قد أدى إلى تكون النجوم بشكل منتظم في أرجاء الكون فإن اختلال آخر قد حصل في كثافة هذه النجوم بحيث أن النجوم المتجاورة بدأت بالانجذاب نحو مراكز ثقلها وبدأت بالدوران حول هذه المراكز مكونة المجرات.

وممّا أثار دهشة العلماء أيضا هذا التوزيع المنتظم للمجرات في مختلف أرجاء الكون والذي لم يكن ليحدث إلا إذا حدثت جميع هذه الاختلالات في نفس الوقت وبنفس الكثافة في كل مكان في هذا الكون. وكما أن هنالك تفاوتا في أحجام النجوم فقد وجد العلماء أن المجرات تتفاوت في أشكالها وأحجامها حيث يبلغ متوسط عدد النجوم في المجرة الواحدة مائة بليون نجم من مختلف الأشكال والأحجام.

ويقدّر علماء عدد المجرات في ما يسمى بالكون المشاهد بما يزيد عن ألف بليون مجرة والكون المشاهد هو الكون الذي تمكنت التلسكوبات التي صنعها البشر من رؤية المجرات التي تقع على أطرافه وصدق الله العظيم القائل { تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا}(١٢) .

إن كل ما نشاهده من مجرات ونجوم وكواكب إنّما هي موجودة في الفراغ الذي تحيط به السماء الدنيا وهي أقرب السموات السبع إلينا أيّ أن ما في السماء الدنيا أو الأولى من أجرام هي ما يسميه العلماء الكون المشاهد وربما أن ما يشاهده العلماء من خلال مراصدهم ما هو إلا جزء صغير من هذه السماء الدنيا وصدق الله العظيم القائل { وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } (١٣) .

وممّا يدعو حقاً للدهشة هو قدرة العقل البشري على فك أسرار هذا الكون حتى عند اللحظات الأولى من نشأته، ويعود الفضل في ذلك لمن صنع هذا العقل لا إلى من حمله في رأسه واستخدمه من بني البشر.

لقد تمكن علماء الفيزياء من وضع نظرية جديدة معدلة لنظرية (الانفجار العظيم) أطلق عليها اسم نظرية (الكون المنتـــفخ) وذلك بسبب فشل النظرية الأولى في تفسير بعض الظواهر الفيزيائيـــــــة في لحظات الانفجار الأولى إلا أنهما تتفقان في تفسير الأحداث الكونية فيما بعد ذلك.

فعندما قام العلماء بإعادة حل المعادلات الفيزيائية التي حكمت تفاعلات مـــادة وقوى الكون في اللحظات الأولى لنشوئه وبالتحديد في الثانية الأولى اكتشفوا حقائق عجيبة تدعم الصورة التي رسمتها الكتب السماوية وخاصة القـــرآن الكريم عن تركيب هذا الكون.

وملخص هذه النظرية أنه في خلال الثانية الأولى من الانفجار العظيم ونتيـــجة لحدوث ظاهرة فيزيائية غريبة يطلق عليها اسم التأثير النفقي بدأ الكون بالتمدد بمعدلات أكبر بكثير من المعدلات التي نصت عليها نظرية الانفجار العظيم.

وقد نتج عن هذا التمدد المفاجئ للكون في لحظاته الأولى ظهور عدة مناطق مادية على شكل فقاعات متلاحقة يفصل بينها حواجز قوية وشكلت كل فقاعة من هذه الفقاعات كونا خاصا بها. وتؤكد النظرية بالنص على أن هذا الــكون العظيم المترامي الأطراف الذي نشاهده أو ما يسمى بالكون المشاهد لا يشكل إلا جزءاً يسيراً من هذه الأكوان التي لم تستطع النظرية تحديد عددها.

وهذا بالضبط ما قد أجمعت عليه جميع الكتب السماوية من وجود أكوان أخرى غير الكون الذي نراه بأعيننا أو تصل إليه مراصدنا وقد أطلقت الكتب السماوية على هذه الأكوان اسم السموات السبع كما جاء ذلك في قوله تـــــــعالى : {فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كلّ سماء أمرها وزيّنّا السـماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم}.

ولقد كشف القرآن الكريم في آيات أخرى عن بعض الخصائص المتعلقة بطبيعة هذه السموات فذكر أولا أنها على شكل طبقات حيث تطبق كل ســـماء على السماء التي دونها ولا يكون ذلك إلا إذا كانت هذه السموات على شـــكل كرات

مجوفة كل واحدة تحيط بالأخرى بحيث يكون مركز هذه الكرات هو المكان الذي حدث فيه الانفجار الكوني العظيم مصداقا لقوله تعالى :
{الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ} (١٤) .

وذكر القرآن كذلك أن في كل سماء من هذه السموات السبع أجرامها الخاصة بها لقوله تعالى {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} (١٥) .

ولقد وصف القرآن الكريم هذه السموات السبع بالشدة والمتانة وقد جاء هذا الوصف مطابقا لما اكتشفه العلماء في نظرية الكون المنتفخ وهي أن الحواجز بين الأكوان المختلفة مكونة من أقطاب مغناطيسية أحادية القطبية وهي من أثقل الجسيمات التي تنبأ العلماء بوجودها ولكنهم لم يعثروا على أيّ منها حتى الآن في أجرام الكون المشاهد وصدق الله العظيم القائل
{ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا} (١٦) .
والقائل سبحانه {أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا . رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} (١٧) .
والقائل سبحانه
{لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (١٨) .

ولقد أتى القرآن الكريم أيضا على ذكر أجرام قد خلقها الله في هذا الكون وهي أكبر من السموات السبع وما فيهن ككرسي الرحمن الذي يحوي في داخله هذه السموات السبع مصداقا لقوله تعالى : { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } (١٩) .

إن حجم هذا الكرسي وما يحويه من السموات السبع لا تكاد تذكر مع حجم العرش الذي استوى عليه الرحمن سبحانه وتعالى فقال عز من قائـــــــل

{ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} (٢٠) .
والقائل سبحانه { اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ } (٢١) .

ولقد أشارت بعض الأحاديث النبوية الشريفة إلى الضخامة البالغة لهذا الكون الذي نعيش فيه ممّا جعل بعض الناس يشكك في صحة هذه الأحاديث بســبب المبالغة التي ذكرتها لأبعاد هذا الكون.

ففي أحد هذه الأحاديث ذكر النبي ﷺ أن أبعاد السماء الدنيا بما تحويه من آلاف البلايين من المجرات والتي يحوي كل منها على مئات البلايين من النجـــــوم بالنسبة لأبعاد السماء الثانية كأبعاد الحلقة (الخاتم) إلى أبعاد الفلاة والفلاة هي الصحراء الواسعة وكذلك هو حال السماء الثانية مع الثالثة وهكذا مع بقيـــــة السموات إلى أن ننتهي إلى العرش.

ولقد تبين لنا بعد الاكتشاف العلمية الحديثة في مجال الفلك أنه لا يوجـــــد أيّ مبالغة في الصورة التي حاولت الأيات القرآنية والأحاديث النبوية أن تعطــيها لحجم هذا الكون بل إن أسلوب القرآن الكريم كان في غاية الذكاء عندما حاول أن يبين للناس المسافات الشاسعة التي تفصل ما بين النجوم وذلك من خــلال القسم بمواقعها ومن ثم أشار إلى أن هذا القسم عظيم لو أن الناس تمكنوا من معرفة مقدار هذه المسافات فقال عز من قائل : { فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّـــجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ} (٢٢) .

أما المرحلة الثالثة من مراحل تكون هذا الكون،فهي مرحلة تكون الـــــكواكب وخاصة كواكب المجموعة الشمسية وبالذات كوكب الأرض الذي تفرد بـــظهور الكائنات الحية على سطحه. ولم يجمع العلماء على رأي واحد حول الكيفية التي تكونت بها الكواكب حول نجومها أو الأقمار حول كواكبها بل تم طـــــرح عدة نظريات لتفسير طريقة تكون الكواكب حول النجوم.

إن أشهر هذه النظريات تلك التي تقول أن المواد الخام المكونة لكـواكب المجموعة الشمسية قد جاءت من خارج هذه المجموعة وتستند هذه النظرية إلى حقيقة مهمة وهي أن عدد وكمية العناصر الطبيعية الموجودة في الكواكب وخاصة الأرض لا يمكن للشمس أن تنتجها. ويرجح العلماء فكرة أن مادة الكواكب قد جاءت نتيجة انفجار عدد كبير من النجوم الضخمة بعد نضوب وقودها من الهيدروجين وغيرها من العناصر الخفيفة وتحولها إلى العناصر الطبيعية المختلفة. وقد وقعت المواد المتطايرة من هذه النجوم في أسر جاذبية الشمس فأخذت تدور حولها مكونة الكواكب المختلفة وذلك نتيجة لقوى الجذب بين المواد المتطايرة الغنية بمختلف العناصر الطبيعية.

وقد كانت الأرض عند بداية تكونها كرة ملتهبة من العناصر المختلفة نتيجة التصادمات العنيفة بينها وبين الشهب التي تقع عليها من هذا الحطام المتناثر ومع تضاؤل كمية هذا الحطام وتوزعه على كواكب المجموعة الشمسية بدأت الكميات التي تقع منه على الأرض تقل بشكل تدريجي. وبدأ سطح الكرة الأرضية يبرد شيئا فشيئا نتيجة الإشعاع الحراري للفضاء الخارجي ولكن لا زال باطنها يغلي ويفور بالمواد المنصهرة والتي كانت الأرض تقذف بها على شكل براكين رهيبة إلى خارج سطحها. ولكن سطح الأرض شبه السائل لم يكن ليقوي على حمل الكتل الضخمة من المواد المنبعثة من هذه البراكين حيث سرعان ما تغوص إلى داخل الأرض.

ولكن مع تواصل الإشعاع الحراري من سطح الأرض الملتهب بدأ سطحها يبرد شيئا فشيئا إلى أن بدأ بالتجمد مكونا قشرة صلبة ولكنها رقيقة نسبيا ولكن سمك هذه القشرة بدأ بالازدياد مع مرور الزمن إلى أن وصل لعدة عشرات من الكيلومترات في الوقت الراهن. وبمقارنة هذا السمك مع نصف قطر الأرض البالغ ستة آلاف وأربعمائة كيلومتر نجد أن هذه القشرة في غاية الرقة ولولا أن الله قد ثبتها بالجبال المغروسة في وشاح الأرض شبه السائل كالأوتاد لكانت دائمة الانزلاق وصدق الله العظيم القائل :

{وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ } (٢٣) .

وعلى ضوء هذه الحقائق العلمية يمكن لنا الآن أن نفهم ما المقصود باليومين الذين خلق الله فيهما الأرض كما جاء في قوله تعالى :
{ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ }. (٢٤) .

فالمدة الزمنية التي مرت على الأرض منذ أن كانت في حالة الدخـــان إلى أن أخذت موقعها في مدار ثابت حول الشمس على شكل كرة ملساء ذات ســـطح شبه سائل تمثل اليومين اللذين خلق الله فيهما هذه الأرض الأولية. ولقـد حدد الله علامة بارزة لنهاية يومي خلق الأرض الأولية وبداية الأيام الأربعة الـتي أكمل الله فيها تجهيز الأرض لتكون صالحة لظهور الحياة عليها وهذه العلامة هي بداية تكون الجبال.

فلقد ذكر الله سبحانه وتعالى أن أول الأحداث في الأيام الأربعة التالية من أيام الخلق الستة هو تشكل الجبال فوق سطحها مصداقا لقوله تعالى :
{ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ } (٢٥) .

ومن الطبيعي أن تكون الجبال أول ما ظهر على سطح الأرض،وبالتـــالي أول أحداث تهيئة الأرض فالأرض كانت قبل ذلك كما ذكرنا سابقا كرة ملــــــساء، وسطحها حار جداً وشبه سائل وهي تغلي وتفور بسبب الحرارة الشديدة التي في باطنها.
واستمرت الأرض على هذا الحال إلى أن بدأت القشرة الأرضية الصلبة بالتكون بعد أن برد سطحها نتيجة لإشعاع حرارتها إلى الفضاء الخارجي. وعندما أصبح سمك القشرة الأرضية بالقدر الكافي بدأت المواد التي تقذف بها البراكيـــن من جوف الأرض بالتراكم فوقه ليبدأ بذلك تكون الجبال. ولا زال مشهد تكون الجبال من البراكين قائما إلى يومنا هذا ولكن بمعدل لا يكاد يذكر مع الحال الذي كانـت عليه الأرض في بداية تكونها.

وكما هو واضح من هذه الآية فإن عملية تجهيز الأرض بعد أن اســـتقرت في مدارها حول الشمس لتكون صالحة لظهور الحياة عليها استغرق أربعة أيام من أيام الله وهي من مثل الأيام التي خلق الله بها السموات والأرض بشكلها الأولي.

وفي هذه الأيام الأربعة تكونت الجبال والقارات والمحيطات والبحيرات والأنهار وتشكل الغلاف الجوي الذي بدأ بحماية الأرض من بقايا الشهب التي كـــانت ترشق الأرض من الفضاء الخارجي.

وبعد أن وفر الله كل أسباب الحياة على هذه الأرض بدأت الحياة الأولـــــية بالظهور عليها،ومن ثم خلق الله النباتات والحيوانات،ومن ثم خلق الله الإنسان في آخر ساعة من ساعات اليوم السادس من أيام الخلق كما جـــاء ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة.

إن توفر جميع الشروط اللازمة لظهور الحياة على هذه الأرض من الكثرة والتعقيد بحيث أن خللا بسيطاً في أحد هذه الشروط قادر على إنهاء جميع أشكال الحياة على هذه الأرض كما سنبين تفصيل ذلك في باب قوله تعالى : { وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ } (٢٦) .

ولا بد أن يتبادر لذهن القارئ أسئلة تتعلق بعمر هذا الكون،وما هو طـول اليوم من الأيام التي ذكرت في الآية القرآنية عنوان هذا الباب. ولم يتمكن العلماء إلى الآن من إعطاء رقم دقيق لعمر الكون حيث تتراوح تقديراتهم لمـــقدار الزمن الذي مر على الكون منذ لحظة الانفجار الكوني إلى الآن ما بين ثمـــانية بلايين وخمسة عشر بليون سنة.

وقد اعتمد العلماء في تقديرهم لعمر الكون على قياسهم لنصف قطر الـــكون المشاهد وذلك بقياس أبعد المجرات عن مجرتنا التي تقع في الطرف المــقابل من الكون المشاهد وبمعرفة ثابت التوسع الكوني يمكن للعلماء تــــحديد عمر الكون على وجه التقريب. ويعود هذا التفاوت في تقدير عمر الكـــون إلى عدم دقة الطرق المستخدمة في قياس أبعاد المجرات وكذلك عدم تمكن العلمــاء من تحديد قيمة ثابت التوسع الكوني بشكل دقيق وعدم تيقنهم فيما إذا كان الثـــابت الكوني ثابتا فعلا أم أنه قد تغير مع مرور الزمن.

أما القرآن الكريم فقد حدد المدة الكاملة التي خلق الله بها السموات والأرض بستة أيام من أيامه سبحانه،وحدد كذلك المدة التي خلق الله بها السموات والأرض الأولية بيومين والمدة التي هيأ بها الأرض بأربعة أيام.
وكما ذكرنا فيما سبق أن أيام الله كما أكد على ذلك القرآن الكريم ليست كأيام البشر فالله لا يحده زمان ولا مكان ويقدّر زمن الأحداث والوقائع بما شاء من مقادير فقد يكون طول بعض أيامه ألف سنة من أيامنا التي نعدها كما في قوله تعالى :{ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} (٢٧) .

وقد يكون طول بعض أيامه خمسين ألف سنة كما في قوله تعالى:
{تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}(٢٨) .

وقد يكون طول بعضها ملايين أو ربما بلايين السنين كما هو الحال مع طول الأيام التي خلق الله بها هذا الكون. ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم هو أول من تحدث عن نسبية الزمان والمكان فإذا كانت مدة الخمسين ألف سنة يراها البشر زمنا طويلاً،فإنها عند الله زمن قصير،وعندما يسأل الله البشر يوم القيامة عن مدة مكثهم في الأرض يكون جوابهم أنه يوم أو بعض يوم وذلك بعد أن يتحرر البشر من أسر أطر المكان والزمان التي كانوا يعيشون فيها على الأرض كما جاء ذلك في قوله تعالى : {قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلْ الْعَادِّينَ} (٢٩) .

ولكي نتمكن من استيعاب الأرقام الكبيرة التي حدد بها العلماء عمر هذا الكون والتي تقاس ببلايين السنين ومقارنتها مع الأيام المذكورة في الآيات القرآنية لا بد لنا من القبول بحقيقة أن أيام الخلق الستة لم تنتهي بعد. فهذه الأيام ليست كما يظن كثير من الناس أنها أيام قد مرت وانتهت بل هي أيام لا زال زمانها يجري وهي إن كانت قد انتهت بالنسبة لله خالق الزمان والمكان إلا أنها بالنسبة للبشر لم تنته بعد بل لا زلنا نعيش في اللحظات الأخيرة من هذه الأيام .

وهذا يعني أن الأيام الستة التي خلق الله خلالها جميع موجودات هذا الكون تمثل العمر الكلي للكون منذ أن خلقه الله من الدخان وإلى أن يطويه الله كطي السجل

للكتب ويعيده جميع مادته إلى النقطة التي بدأت منها. وليس من الصعب على القارئ أن يستوعب هذا الأمر إذا ما علم أن مكونات الكون قد تم خلقها على مدى هذه الأيام الستة.فالإنسان الحديث قد تم خلقه قبل ما يقرب من عشرين ألف سنة،حسب تقديرات العلماء وهي تمثل آخر ساعة من ساعات اليوم السادس من أيام الخلق الستة،فمن السهل أن نستنتج من هذا أننا لا زلنا نعيش ضمن هذه الأيام الستة.

ويمكننا الآن أن نستعين بالمعلومات الواردة في الآية القرآنية المتعلقة بخلق الكون وبعض التقديرات الدقيقة لبعض الأحداث التي مر بها الكون للحصول على رقم تقريبي لعمر هذا الكون.

فقد حددت هذه الآية أن الجبال قد بدأت بالتكون في بداية الأيام الأربعة الأخيرة من أيام الخلق الستة ولو تمكنا من معرفة عمر أقدم جبال الأرض تكونا فمن السهل علينا حساب عمر الكون وهذا على افتراض أننا نعيش في اللحظات الأخيرة من أيام الخلق الستة كما أكدت على ذلك كثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية.

لقد استخدم العلماء طرقا مختلفة لتقدير عمر الأرض وما عليها من جبال وما فيها من متحجرات وذلك لدراسة تطور الحياة عليها من خلال تحديد أعمار العينات التي يدرسونها.

إن أكثر الطرق دقة في تحديد أعمار الجبال هي تلك التي تعتمد على التحلل الإشعاعي لبعض العناصر المشعة كاليورانيوم والثوريوم والبوتاسيوم فمن خلال قياس نسبة الرصاص إلى اليورانيوم في عينة مأخوذة من جبل ما وبمعرفة العمر النصفي لليورانيوم يمكن تحديد عمر هذه العينة وبالتالي زمن تكون هذا الجبل.

لقد وجد العلماء أن عمر أقدم جبال الأرض والموجود في الدرع الكندي يبلغ أربعة بلايين سنة تقريبا. وبما أن هذه المدة تساوي أربعة أيام من أيام الخلق الستة فإن طول كل يوم من أيام الخلق سيكون بليون سنة تقريبا وعليه فإن عمر الكون سيكون ستة بلايين سنة،وهذا على افتراض أن عمر أقدم الجبال صحيحا. ولكن يبقى علم هذا الأمر عند عالم الغيب والشهادة خالق السموات والأرض القائل سبحانه : {وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} (٣٠) .

وقوله سبحانه : {إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ } (٣١) .

وأخيراً : ما هو هدف هذه الحقائق الكونية، ولماذا ذكرها الله في كتابه؟

وإذا تابعنا هذه الآيات نلاحظ أن الله تبارك وتعالى يقول: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (٣٢) .

فسبحان الله الذي أحكم هذه الآيات، كأن الله يريد سبحانه وتعالى أن يعطيك أيها الإنسان إشارة خفية أن الله خالق هذا الكون (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) وأن الله الذي قال عن نفسه: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) الذي خلق هذا الكون وخلق فيه الدخان مع العلم أن هذا الدخان لم يتم تحليله يقيناً ومعرفة أن الغبار ليس بغبار بل هو دخان إلا في العام ٢٠٠٦ وحدثنا عن

تلك المصابيح في السماء، وحدثنا عن زينة السماء، وحدثنا عن كلام للسماء في بداية خلقها عندما كانت دخاناً، وكل هذه الحقائق نراها اليوم حقائق واقعة أمامنا ويقينية، وتتفق مع القرآن الكريم، ولذلك فإنك أيها الإنسان عندما تدرك هذه الحقائق وتدرك أن الله هو من خلق الكون، وأن الله هو من زينه وهو من أخضعه لإرادته حتى إن السماوات لا تعصي أمر الله،(قالتا أتينا طائعين). عندها يجب أن تقتنع بأن هذا الكلام هو كلام الله تعالى.

وسؤالي لك أيها الملحد :

هل تقتنع معي بكلام الله تبارك وتعالى؟ وهل تقتنع أن الله هو من حدثنا عن هذه الحقائق قبل أن يكتشفها العلم الحديث؟ وهل تقتنع أن الله تبارك وتعالى كما بدأ خلق الكون من نقطة واحدة سيعيد هذا الخلق وسيعيده إلى النقطة ذاتها كما قال: { كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ } (٣٣) .
فإذا اقتنعت بذلك واقتنعت أن كل شيء لله فينبغي عليك أن تدرك أن هذا الكون بيد الله وأن الأرض بيد الله يعطيها من يشاء من عباده، ولذلك قال في الآية التالية بعد أن حدثنا عن نهاية الكون: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} (٣٤) .

وكما قال سيدنا موسى عليه السلام لقومه: { قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ } (٣٥) . كأن الله تبارك وتعالى يريد أن يطمئن كل من يؤمن به أن يثق بالله وبعظمة الله، وبقدرة الله تعالى وأنه قادر على كل شيء.

فهذه الآيات ليس الهدف منها فقط أن تكون معجزة، هذا هدف مهم أن تكون هذه الآيات معجزة لأولئك الذين ينكرون هذا القرآن، لأولئك الذين يدَّعون أن هذا القرآن كتاب أساطير، وكتاب يحوي على كثير من الخرافات. بل هناك هدف عظيم لنا نحن المؤمنين أن نستيقن بقدرة الله وأن الكون بيد الله، فلا تحزن أيها المؤمن لأن الله قادر أن يرزقك ويحفظك ويحقق لك ما تريد ولكن بشرط أن تثق بالله وبقدرته على كل شيء.

وخلاصة القول:

١- القرآن لا يناقض العلم، بل إن قوله تعالى : {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (٣٦) . فيه إشارة واضحة إلى أن الدخان هو أصل خلق السموات والأرض، وهذا ما يقوله علماء وكالة (ناسا) بالحرف الواحد.

٢- كلمات القرآن أدق من المصطلحات العلمية، فالعلماء ليس لديهم أي فكرة عن السماء، ولكنهم يتحدثون اليوم عن مادة مجهولة تملأ الكون بنسبة ٩٦ بالمئة، أي أن معظم الكون لا نراه، وقد نتمكن يوماً من رؤية هذه المادة المظلمة وقد تكون هي السماء التي حدثنا عنها القرآن، وإذا صح هذا التأويل فيكون القرآن أول كتاب في التاريخ يتحدث عن المادة المظلمة.

٣- ينبغي أن نعلم أن النص القرآني مقدس وثابت وهو كلام الله خالق الكون، ولكن التفاسير غير مقدسة إلا ما صحَّ عن النبي الأعظم ﷺ، هذه التفاسير تتغير بتغير العلوم وتطور الزمن، ولذلك فإن التفسير ليس حجة على القرآن، ولو أخطأ أحد المفسرين في فهمه للآية فهذا الخطأ يعود للمفسر وليس للقرآن.

٤- لو درسنا جميع آيات القرآن لا نجد أي آية تناقض الأخرى، فأيام خلق السموات والأرض هي ستة، ولا توجد ولا آية تقول إن الله خلق السموات والأرض في ثمانية أيام، إنما هذه شبهة يستغلها الملحدون للطعن في كتاب الله تبارك وتعالى، فينبغي علينا دائماً أن نثق بالله وبكتابه فهو خالق الكون وهو أعلم بما خلق.

ماذا نقول عندما نرى هذه الحقائق؟

الحمد لله الذي قال في كتابه: (وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ) هذه آية علمنا الله كيف نحمده عندما نرى آية تتجلى أمامنا في القرآن الكريم، يقول تعالى يعلمنا ماذا نقول أمام هذه الحقائق والآيات المبهرة:

{ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } . (٣٧) .

المراجع: للباب الأول : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة السجدة ، آية : ٤)
(٢) (سورة فصلت ، آية : ٩)
(٣) (سورة فصلت ، آية : ١٢)
(٤) (سورة الكهف ، آية : ٥١)
(٥) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٢-٣٣)
(٦) (سورة الملك ، آية : ١٤)
(٧) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٠)
(٨) (سورة الذاريات ، آية : ٤٧)
(٩) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٤)
(١٠) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٤)
(١١) (سورة الزمر ، آية : ٦٧)
(١٢) (سورة الفرقان ، آية : ٦١)
(١٣) (سورة فصلت ، آية : ١٢)
(١٤) (سورة الملك ، آية : ٣)
(١٥) (سورة الطلاق ، آية : ١٢)
(١٦) (سورة النبأ ، آية : ١٢)
(١٧) (سورة النازعات ، آية : ٢٧-٢٨)
١٨) (سورة غافر ، آية : ٥٧)
(١٩) (سورة القرة ، آية : ٢٥٥)
(٢٠) (سورة المؤمنون ، آية : ٦٨)
(٢١) (سورة النمل ، آية : ٢٦)
(٢٢) (سورة الواقعة ، آية : ٧٥-٧٦)
(٢٣) (سورة لقمان ، آية : ١٠)
(٢٤) (سورة فصلت ، آية : ٩)
(٢٥) (سورة فصلت ، آية : ١٠)
(٢٦) (سورة فصلت ، آية : ١٠)
(٢٧) (سورة الحج ، آية : ٤٧)
(٢٨) (سورة المعارج ، آية : ٤)
(٢٩) (سورة المؤمنون ، آية : ١١٢-١١٣)
(٣٠) (سورة الأنعام ، آية : ٥٩)
(٣١) (سورة فصلت ، آية : ٤٧)

(٣٢) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥)
(٣٣) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٤)
(٣٤) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٥)
(٣٥) (سورة الأعراف ، آية : ١٢٨)
(٣٦) (سورة فصلت ، آية : ١١)
(٣٧) (سورة النمل ، آية : ٩٣)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثاني :

الباب الثاني : الفصل الأول : خلق العرش والكرسي
الباب الثاني : الفصل الثاني : خلق الله الملائكة :
الباب الثاني : الفصل الثالث : خلق الله الملائكة :

الباب الثاني : الفصل الأول : خلق العرش والكرسي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـــــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيتـــه وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صـلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

قال الله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)} (١) .

وقال الله تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَـاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)} (٢) .

وقال الله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)} (٣) .

الله تبارك وتعالى هو الملك الذي يملك كل شيء، القوي الذي لا يعجزه شـــيء، الخالق الذي خلق كل شيء.

خلق العرش واستوى عليه، وأمر الملائكة بحمله، وتعبدهم بتعظيمه والطواف به.

وخلق البيت المعمور في السماء السابعة، وأمر الملائكة بالطواف بــــــــه.

وخلق سبحانه البيت العتيق في الأرض، وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة.

وعرش الرحمن عزَّ وجلَّ سرير ذو قوائم .. تحمله الملائكة. وهو كالقبة على العالم . وهو سقف المخلوقات . وأعظم المخلوقات. وأعلى المخـــــلوقات . وأوسع المخلوقات. وأكبر المخلوقات. فالله سبحانه مجيد. وعرشه مـــــجيد.

والله ﷻ مدح نفسه بأنه: {ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥)} (٤) .
وأنه: {رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)} (٥) .
وأنه: {رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} (٦) .

فوصف سبحانه العرش بأنه مجيد، وكريم، وعظـــــــيم.
فهو عظيم لكونه أعظم المخلوقات وأكبرها وأعلاها وأوسطها.
وكريم لما له من منزلة تميز بها عما سواه من المخلوقـــات.
ومجيد عال مرتفع على جميع المخلوقات والكائـــــــنات.
وبذلك صار بهذه الصفات لائقاً بجلال الله وعظمته وكبريائـــه.

وخصه الله ﷻ من بين سائر المخلوقات بالاستواء عليه .
وعرش الرحمن أكبر المخلوقات وأعظمها، والرحمن استوى عليه بأوســـع الصفات وهي الرحمة، فاستوى سبحانه على أوسع المخلوقات وهو الـعرش، بأوسع الصفات وهي الرحمة كما قال سبحانه: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥)} (٧) .

وعرش الله عزَّ وجلَّ :أعلى المخلوقات وأرفعها وسقفها وأقربها إلى الله تعالى، فهو أعلى من السموات والأرض، وهو سقف الجنة، اختصه الله بالعــــــلو والارتفاع فوق جميع ما خلق، ثم استوى عليه الرحمن كيف شاء.
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ - أُرَاهُ : فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ - وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ } (٨) .

وعرش الرحمن جل وعلا : أكبر المخلوقات وأعظمها، وأوسعها وأثقـــــلها، وزنته أثقل الأوزان، ولا يقدر قدره أحد إلا الله: فـ { سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ } (٩) .

والملائكة الذين يحملون العرش لا يعلم عظمتهم إلا الله.
قال النبي ـ ﷺ ـ: {أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ } (١٠) .

وعرش الرحمن :أعلى المخلوقات، فبين السماء والأرض خمسمائة عام، وبين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماء وسماء خمسمائة عام، وسمك كل سماء خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه مثقال ذرة من أعمال العباد.

وقد خلق الله عزَّ وجلَّ العرش قبل خلق السموات والأرض، وقبل القلم، بل قبل سائر المخلوقات.
قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (١١) .

وقال النبي ـ ﷺ ـ: { كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السموات وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ } (١٢) .

والعرش أكبر المخلوقات وأعظمها :كما قال سبحانه: {وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)} (١٣) .

وعرش الرحمن تبارك وتعالى : أعلى المخلوقات كلها وأثقلها وزناً.
فسبحان العزيز الجبار الذي خلقه، واستوى عليه، وجعله مع عظمته محــتاجاً إليه: { سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ} (١٤) .

والكرسي وسع السموات والأرض، والكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة.
والسموات السبع، والأرضون السبع وما بينهن وما فيهن في الكرسي كحلقة ملقاة بأرض فلاة.

وحملة العرش ملائكة عظام :لا يعلم عظم خلقهم إلا الله، ولا يعلم قوتهم إلا الله، ولا يعلم عددهم إلا الله، يحملون العرش بقدرة الله.
وحملة العرش من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم، وهم ومن حول العرش من الملائكة المقربين يعبدون الله عزَّ وجلَّ، ولهم زجل بالتسبيح والتقديس والتحميد كما قال سبحانه: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧)} (١٥) .

ويوم القيامة يحمل عرش الرحمان ثمانية أملاك عظام كما قال سبحانه:
{وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧)} (١٦) .

والكرسي جسم عظيم مخلوق بين يدي العرش، وهو موضع القدمين للباري عزَّ وجلَّ، والعرش أعظم منه، والكرسي أعظم المخلوقات بعد العرش كما قال سبحانه: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)} (١٧) .

والله تبارك وتعالى فوق سماواته، مستو على عرشه، عال على خلقه، لا يخفى عليه شيء من أمرهم: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)} (١٨) .
وإذا كانت هذه عظمة كرسيه .. فكم تكون عظمة عرشه الذي وصفه بأنه عظيم . ؟. وكم تكون عظمة الرب الذي استوى عليه جلَّ جلاله . ؟.
أفيليق بمن هذه صفاته . وهذه أفعاله . وهذه عظمته . أن يسكن العبد في ملكه . ويأكل من رزقه . ويكفر به . ويستكبر عن عبادته وطاعته . ؟.

كل مخلوق لا يقتدي بهذا القرآن فهو مظلم القلب، خائن الضمير، فاشل الإرادة، مهزوم العقيدة، متخلف الركب، يتردَّى في نار جهنم.
قلب بلا إيمان كتلة لحم ميتة، وعين بلا إيمان مقلة عمياء، وأذن بلا إيمان إشارة خاطئة، ومجتمع بلا إيمان قطيع من الضأن.
كنَّا أمة عربية ضائعة لا تعرف شيئاً، تعرف الوثن، تعرف الصنم، تعرف الزنا، السرقة، الغدر، الخيانة، الفحش، التفلت من شرع الله، فأتى محمد عليه الصلاة والسلام، بالقرآن فبعثها من جديد.

أيها الناس:
إن علم الله عز وجل محيط بالكائنات، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، { يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى } (١٩) . { يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ } (٢٠) .
{ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ } (٢١) .

سُئِل موسى عن ربه فقال: { قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } (٢٢) .
وسئل إبراهيم عن إلهه وخالقه ورازقه فقال: { الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ } (٢٣) .

وأنزل الله على نبيه وحبيبه محمد ﷺ سورة عظيمة، يعرفه فيها نفسه، ويذكِّره فيها بإحاطته لجميع المخلوقات وقيوميته على هذا الكون الفسيح فيقول تبارك وتعالى: { طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى * تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى * الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى } (٢٤) .
الله يعرِّفُ رسوله ﷺ بنفسه أنه الله الذي لا إله إلا هو.

﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾ (٢٥) .هل تعلم له نداً، ولا نظيراً، ولا شبيهاً، ولا كفواً، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (٢٦) .
فمن آثاره، ومن دلائل خلقه، هذا الكون، كل الكون، السماء تشهد أن لا إله إلا الله، والأرض تشهد أن لا إله إلا الله، والجبال والزهرة والغدير والجدول والشجر والهواء، والضياء وغير ذلك من مخلوقات الله: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْض وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ (٢٧) .

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢٨) .عقيدة ربانية يقررها القرآن ويطلب من الناس أن يؤمنوا بها، عقيدة لا تعقيد فيها ولا أحاجي، لا ألغاز فيها ولا صعوبات، عقيدة سهلة كسهولة الماء، عقيدة ميسرة يفهمها العامي والعالم، عقيدة واضحة فلا تحتاج إلى فلسفة ولا كلام.

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ (٢٩) .فلماذا يأتي متحذلق ليمتحن عباد الله، فيقول: كيف استوى؟ متى استوى؟ لماذا استوى؟ فهذا لم يخض فيه أحد من الأئمة في القرون المفضلة، فما وسعهم يسعنا، وما سكتوا عنه نسكت عنه، حتى لا تنتهي بنا الحال إلى الحيرة والضلال، نسأل الله السلامة.

وأخيراً أقول :
هل شرقتم بحجم ومساحة وسعة السماء المنظور؟ أتريدون أن تقرؤوا عن مخلوق يتيم يكبر السماوات والأرض؟ ولم يشاهده من البشر أحد، ولم يخلق مثله في الوجود أبدا، ودونك وصفه من الواحد الأحد حيث قال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} .. سبحان الله والله أكبر وأجل وأعظم، خلق من خلقه يسع كل ما أدركناه وما لم ندركه، وما أبصرناه وما لم نبصره، وما صدقته عقولنا وما لم تصدقه .. فلا إله إلا الله والله أكبر وأعظم وأجل أي كرسي هذا؟ وأي خلق عظيم مهيب مخيف هذا؟ {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَم مَّنْ خَلَقْنَا}. (٣٠) .

الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش، والعرش ما العرش؟ ومــــا أدراك ما العرش؟ أعظم وأكبر من الكرسي قال ابن عباس رضي الله عنــــــه (الكرسي موضع القدمين والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى). وقال الحبيب عليه الصلاة والسلام: (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضــل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة) تأمل مقارنة المصطفى عليه الصلاة والسلام بين الكرسي والعرش .. وتدبر وحدات القياس الـــــــتي استخدمها بأبي هو وأمي.. شيء يفوق حجماً وهولاً صور المقارنة بين النجوم السالفة الذكر .. بل ويؤكد بشكل غير مباشر صحة الأحجام والمـــــسافات التي تحدثنا عنها سلفاً .. كما يؤكد أن ما لم نبصره من الخلق أعظم مما أبصــرناه وفي هذه المقالة عرضناه {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ}.

أختم بجانب تطبيقي في هذا السياق :

فعندما تتأمل حجمك وقوتك وحيلتك وحضارتك مقارنة بخلق الخالق فهل يبقى في قلبك خوف من أحد سواه؟ وهل يبقى في صدرك حب لغيره؟ وهل يبقى في فؤادك شريك معه؟ وهل يتعلق القلب خوفاً وحباً ورجاءاً وأملاً بســـواه؟ وهل يستحق أحد غيره أن يصرف له الدعاء؟ .. وعندما يهتز الإيمان ويـــــضعف بسبب إنسان أو شيطان فتذكر حجمه في هذا الوجود مع الجبار المعبود فتزول الأعراض وتحور وفي بحر الإيمان تذوب .. وفي ختام هذا المكتوب يبـــشرك صاحب العطاء والجـــود بـ {سَابِقُوا ..} {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}. (٣١) .

المراجع: للباب الثاني : الفصل الأول :

---

(١) (سورة المؤمنون ، آية : ١١٦)
(٢) (سورة القرة ، آية : ٢٥٥)
(٣) (سورة طه ، آية : ٥)
(٤) (سورة البروج ، آية : ١٥)
(٥) (سورة المؤمنون ، آية : ١١٦)
(٦) (سورة التوبة ، آية : ١٢٩)
(٧) (سورة طه ، آية : ٧)
(٨) (صحيح البخاري: ٢٧٩٠)
(٩) (صحيح أخرجه مسلم : ٢١٤٠وأبو داود ١٥٠٣)
(١٠) (ر واه أبو داود (٤٧٢٧)، ورواه الطبراني في ((الأوسط)) (٤/ ٣٥٦) بلفظ: ((سبعين)) بدلاً من ((سبعمائة)). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الذهبي في ((العلو)) (٩٧): إسناده صحيح. وقال ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩): إسناده جيد. وقال ابن حجر في ((تحفة النبلاء)) (ص٥٣): رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٨٥): رواه الطبراني في ((الأوسط)) ورجاله رجال الصحيح.
(١١) (سورة هود ، آية : ٧)
(١٢) (صحيح رواه مسلم : ٢٦٥٣)
(١٣) (سورة التوبة ، آية : ١٢٩)
(١٤) (صحيح أخرجه مسلم : ٢١٤٠وأبو داود ١٥٠٣)
(١٥) (سورة غافر ، آية : ٧)
(١٦) (سورة الحاقة ، آية : ١٧)
(١٧) (سورة البقرة ، آية : ١٧)
١٨) (سورة النمل ، آية : ١٨)
(١٩) (سورة طه ، آية : ٧)
(٢٠) (سورة الحديد ، آية : ٤)
(٢١) (سورة الأنعام ، آية : ٥٩)
(٢٢) (سورة طه ، آية : ٥٠)
(٢٣) (سورة الشعراء ، آية : ٧٨-٨٢)
(٢٤) (سورة طه ، آية : ١-٨)
(٢٥) (سورة مريم ، آية : ٦٥)
(٢٦) (سورة الشورى ، آية : ١١)
(٢٧) (سورة الحج ، آية : ١٨)
(٢٨) (سورة طه ، آية : ٥)
(٢٩) (سورة طه ، آية : ٥)
(٣٠) (سورة الصافات ، آية : ١١)
(٣١) (سورة آل عمران ، آية : ١٣٣)

الباب الثاني : الفصل الثاني : خلق الله الملائكة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله، نحمدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ باللهِ من شــــــرورِ أنفسنا، وسيئاتِ أعمالِنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادِيَ لــه، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابِه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدّين .

أما بعد:
إن الله تعالى عظيمٌ جليلٌ، له في كلِّ شيءٍ آيةٌ تدلُّ على أنه الواحِدُ القهّار، القادرُ العظيم، الذي أتقَنَ كل شيءٍ خلقَه، وأبدَع كلَّ شيءٍ صَنَعَه، ولا تحيـــــطُ بقدرتِهِ العجيبةِ العقولُ ولا الأفْهام، ولا تُدرِكُ عظمَتَه خيالاتُ النفوسِ ولا الأوْهَام .

وإنّ من أعظم العوالِمِ والخوالِقِ التي تتجلَّى فيها قدرةُ الله - سبحانه وتـــعالى وعظمتُه: عالمَ الملائكةِ الأخْيار، المُصطفَيْن الأطْهار، الذين هُم أثرٌ مــــن آثارِ عظمةِ الله وجلالِه وقُدرته، ولذلك جعَلَ - سبحانه وتعالى - الإيمانَ بهـــــم، ومعرفتَهم، والتصديقَ بوجودِهم وأعمالِهم رُكنًا عظيمًا من أركانِ الإيمان، التي لا يقبلُ اللهُ صرفًا ولا عدلاً إذا لم يأتِ بها كلَّها، (وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (١) .

إن الحديثَ عن الملائكة بشيءٍ من التفصيل، من خلالِ النصوصِ الشــــرعيةِ الثابتةِ الكثيرة، لهو مما يزيدُ الإيمانَ ويُقوّيه، ويُرسّخُ اليقينَ في الـــــقلوب، فتفرحُ بربِّها - سبحانه -، وتمتلئُ تعظيمًا له وإجلالاً، ويعلمُ الإنسانُ مِـــقدارَ ضعفِهِ وعجزِه، وأن هناك من هو أعظمُ منه خَلقًا وقُدرةً وقوّةً.
إن الملائكة عالَمٌ عظيمُ الشأن من عوالِمِ هذا الكونِ الفسيح، عالَمٌ كلُّهُ طُـــهرٌ ونقاءٌ وصفاءٌ، خَلقهَم اللهُ من نُور، كما في (٢)، وهم مـن أقدَمِ وأعظمِ خلقِ الله، أعطاَهم الله القُدرة العظيمةَ على التّشكُّلِ بأشكالٍ مُخـــتلفة،

وخلَقَ لهم أجنحةً مثنَى وثُلاثَ ورُباعَ وأكثر من ذلك، وهم لا يأكلُون ولا يشرَبون ولا يتناسَلُون، قد وهَبَهم الله - سبحانه - القوّة والقدرة والسرعةَ العجيبةَ التي يستطيعون بها تنفيذَ أوامرِ الله، وهم (لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (٣) .

خلَقَهم الله - سبحانه - خِلقةً باهرةَ العظمةِ والجمال والبَهاء، وهذا أمرٌ مُتقرّرٌ في فِطَرِ النَّاس، كما وصَفَت النساءُ جمالَ يوُسُفَ - عليه وعلى نبيّنا أفضلُ الصلاة والسلام - حين قُلنَ: (مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) (٤) .

وهذا جبريلُ - عليه السلام - رآهُ النبيُّ - ﷺ - مرَّتَين على خِلقَتِه التي خلَقَه اللهُ عليها، مرةً رآه وقد سَدَّ الأفُق، ومرةً رآه وله ستمائة جَناح، يَسقطُ منها التّهاويلُ من الدرِّ والياقُوت.

وقد أذِنَ الله لنبيه - ﷺ - أن يُحَدِّث الناس عن مَلكٍ من حَمَلَة العَرش، رِجلاه في الأرضِ السُّفلى، وعلى قَرنِه العرش، ما بين شَحمةِ أذُنه وعاتقِه خَفقَانِ الطيرِ سبعمائة سنة، يقولُ ذلك المَلَك: (سبحانك حيثُ كُنتَ، سبحانك حيثُ كُنت). فلا إلهَ إلا الله، لا إلهَ إلا الله، ما أجلَّ الله، وأعظِم به - سُبحانه -

الملائكةُ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ، وسَفَرَةٌ كرامٌ برَرَة، يعبُدُون الله عِبادةً عظيمةً، فهم لا يفتُرُون عن تسبيح الله وتحميدِه بالليلِ والنهار، ولا يستحسِرُون ولا يسأَمُون، ولَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وهم من خشيتِهِ وإجلالِهِ مُشْفِقُون خائِفُون، أعظمُهم قَدرًا ومكانةً عند الله: جبريلُ - عليه السلام -، فهو الرّوحُ المُوكَّلُ بالوحيِ الذي به حياةُ القلوب، وميكائيلُ المُوكّلُ بالقَطْرِ والغيثِ الذي به حياةُ الأرضِ والأبدان، وإسرافيلُ المُوكَّلُ بنفخِ الصُّور الذي به حياةُ الناسِ وبعثُهم من قبورِهم، وإسرافيلُ قد التَقَمَ القَرنَ، وحنَى جبهَتَه، وأصغَى سمعَه، ينتظِرُ متى يُؤمَرُ بالنّفخِ، كما ثبَتَ في الحديث.

والملائكةُ يصُفُّون بين يدَي ربهم - سبحانه - في السماء، ويتراصُّون في الصفوف في تمامٍ ونظامٍ، وما من موضعٍ في السَّماء إلا وفيه مَلكٌ ساجدٌ أو قَائِمٌ، وهذا يدلُّ على كثرةِ عددهم كثرةً لا يُحصِيها إلا الله، كما ثبَتَ أنه يدخُلُ البيتَ المعمورَ في السماءِ السابعة كل يومٍ سبعون ألفَ مَلَك، ثم لا يعودون إليه مرةً أُخرَى، ويُؤتَى بجهنم يومَ القيامة ولها سَبعون ألفَ زِمام، مع كل زِمامٍ سَبعون ألفَ مَلَكٍ يجُرُّونها، فكم يكونُ عددُ المَلَائكة إذًا؟!

فلا إله إلا الله، لا إله إلا الله، ما أعظمَ الله، وأنعِم به من إلهٍ عظيمٍ قديرٍ.

أخي القارئ :أعلم إن هؤلاءُ الملائكةُ الكرامُ كلَّفَهم الله - سبحانه – بأعمالٍ ووظائف كثيرةٍ ومتنوعةٍ في هذا الكون الهائِل؛ فهناك ملائكةٌ لحملِ عرشِ الرحمنِ -سُبحانه-، الذي هو أكبرُ المخلوقات، وملائكةٌ لحفظِ نظامِ الكَون وتدبيره، وسَيرِ أفلاكه، وحراسةِ السماءِ وحفظها من كل شيطانٍ مارد، وهناك المُدبِّراتُ والمُقسماتُ أمرا، وهناك ملائكةٌ للسَّحابِ والقَطْر والرياح، وملائكةٌ للرحمةِ، وملائكةٌ للعذابِ. وقد بيّن لنا ذلك ربُّنا - سبحانه - في صدر سورة الصَّافات والذَاريات والمُرسلات والنَّازِعات وغيرها كثير.

وقد كُلِّفَت الملائكةُ الكرام بوظائفَ عامَّةٍ تتعلَّقُ بالبشرِ جميعًا، ووظائفَ أُخرى تتعلَّقُ بالمؤمنين خاصَّة، فهمُ الذين غسّلوا آدم - عليه السلام – بالماءِ وترًا بعد مَوتِه، وكفَّنوه، وألحَدُوه في قبرِه، تعليمًا لأبنائِه، وهم الذين يقومُون على خلقِ البشر بأمرٍ من اللهِ - سبحانه -، فإذا مرَّت على النُّطفةِ والعَلَقةِ والمُضغَةِ المدةُ المعروفةُ، بَعَثَ الله إليها مَلَكًا، فصَوَّرها وشقَّ سمعَهَا وبصَرَها، ثم يَسألُ الله تعالى: أذكرًا يكونُ أم أُنثى؟ أسعيدٌ هو أم شقيٌّ؟ وعن رزقِه وأجلِه، ثم يكتُبُ ذلك، ثم ينفُخُ فيه الروح، ثم هي بعد ذلك تكتُبُ أعمالَ الإنسان كُلَّهَا في حياته، وترصُدُ عليه ألفاظَه، (مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) (٥) .
(وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (٦) .

والملائكةُ تَحرُسُ الإنسان، مُسلمًا كان أو كافرًا، تحرُسُه من القَدَرِ الذي ليس له، (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ) (٧) .

قال مُجاهدٌ ـ رحمه الله ـ: {ما مِنْ عبدٍ إلا له مَلَكٌ مُوكَّلٌ بحفظِه في نومه ويقَظَته من الجنّ والإنسِ والهوَامِّ }.

وأعلم أخي القارئ :
إن للملائكةِ علاقةً خاصَّةً بالمؤمنين دون سائر البشر، فهي دائمًا تستغفرُ للمؤمنين وتشفَعُ لهم عند ربِّهم، وتستغفِرُ لطالبِ العلم وتضعُ له أجنحَتَها رضًا بما يصْنَع، وتُصلّي على مُعلّم الناسِ الخير، وعلى أصحاب الصفِّ الأوَّل، وعلى الذينَ يَصِلُون الصفوفَ، وإذا دعا المؤمنُ أمَّنَت الملائكةُ على دُعائه وقالت له: (ولك بمِثل)، وإذا أحبَّ الله عبدًا أحبَّه جبريل، ثم تُحبُّه الملائكةُ، ثم يُوضَع له القَبُولُ والحبُّ في الأرض، ويُرسِلُ الله ملائكتَه إلى عبدِهِ المؤمن، فتُحرِّكُ فيه بواعثَ الخير، وتكونُ معه في غالِبِ أحوالِه، تُدافع عنه، وتُؤيِّدُه بالحقِّ، وتُسدِّدُه في قوله وفعله، وتقذِفُ في قلبِه الحكمةَ، وتُشَجِّعُه على فعلِ الخيرات والثباتِ عليها.

أما المنافِقُ والفاجِرُ، فالله ـ سبحانه ـ يُرسِلُ عليه الشياطينَ تؤُزُّه أزًّا، وتقذِفُ في قلبه الشكُوكَ والعقائدَ الفاسِدَة، وتُحرِّكُ فيه بواعثَ الشرِّ والباطِلِ، كما أخبر النبي ـ ﷺ ـ أن للمَلَك لَمَّةً بقلبِ ابن آدم، وللشيطان لَمَّةً.

وقد قال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: { كنا نتحدَّثُ أن السَّكينةَ تنطِقُ على لسانِ عُمرَ وقلبِه }.(٨) .

والملائكةُ تأتي المؤمِنَ في ساعةِ الاحتِضار، تُبَشِّرُه بالجنةِ والرِّضوان، وتُثبِّتُه، ثُم تقبِضُ روحَه بكلِ سُهولةٍ ورحمة، فيأخذها ملَكُ الموت ويصعَدُ بها إلى السماء، ولها رائحةٌ طيبةٌ زكيَّةٌ، تُفَتَّحُ لها الأبواب.

والملائكةُ تشهدُ جنائزَ الصالحين المؤمنين، كما شهِدَ سبعون ألف مَلكٍ جنازةَ سعد بن معاذ - رضي الله عنه -، وثبَتَ أنها غسَّلَت حنظلةَ بن عامر - رضي الله عنه - الذي استُشهِدَ في معركةِ أُحُد، وكانت عليه جَنابَة.

ولله ملائكةٌ سيَّاحُون، يشهَدُون مجالسَ الذكرِ والعلمِ في المساجدِ وغيرِها، وتَحُفُّ الحاضرينَ بأجنحتها، وهي تدعُو وتستغفِرُ للمُصلِّي ما دام في مُصلاَّه ما لم يُحدِث، وتقِفُ على أبوابِ المساجدِ يوم الجُمُعة، تكتُبُ أسماءَ الداخِلِين على ترتيبِ دُخُولهم، فإذا خرجَ الإمام طوَوا صُحُفَهم، وجلَسُوا يستمِعُون الذكرَ.

والملائكةُ تُحبُّ سماعَ القرآن، وقد تنزِلُ إلى الأرض إذا سمِعُوا قارِئًا حسنَ الأداء، كما حصلَ لأُسَيد بن حُضَير - رضي الله عنه -، وقد جعَلَ الله عند رأس النبي - ﷺ - في قبره مَلَكًا، يُبلِّغُه عن أمَّته الصلاةَ والسَّلام، يقولُ المَلَكُ: {هذا فُلانُ بن فُلانٍ يُسلِّمُ عليك }.كما جاء في الحديث المروي عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال :
{إن الله وكل بقبري ملَكا أعطاه أسماع الخلائق ، فلا يصلي عليَّ أحد إلى يوم القيامة إلا أبلغني باسمه واسم أبيه : هذا فلان ابن فلان قد صلى عليك} . (٩) .

ولله ملائكةٌ يتعاقَبُون فينا عند صلاة الفجر وعند صلاة العصر، يرفَعُون إلى الله أعمالَ العباد، في هذَين الوقتَين.

والملائكةُ تحمِي مكَّة والمَدينةَ من الطاعون، وتحرُسُهما من الدَّجال في آخرِ الزمان، وهي باسِطةٌ أجنِحَتها على الشام، وتُؤيِّدُ المؤُمنينَ وتُثبِّتُهم في حروبهم مع أعدائِهم، وقد تُقاتِلُ معهُم، كما حَصلَ في بدرٍ وأُحُد وحُنَينٍ وغيرها، وتبُثُّ الرُعبَ والتَّخْذِيلَ في قلوبِ المجرمين والطغاةِ والظالمين، وتتولَّى إهلاكَهم، وإنزالَ العقوبات بهم، كما طمَسَ جبريلُ - عليه السلام – أعيُنَ قومِ لُوط، ثم رفَعَ قُراهم بجناحِه، ثم قلَبَها عليهم، وأُتبِعُوا لعنةَ الله وغضَبَه، و(حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ) . (١٠) .

أخي القارئ : الملائكة في الاصطلاح: (١١) .

خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله عز وجل من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصوفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعـــبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله.
يتضمّن الإيمان بالملائكة أربعة أمور: (١٢) .

الأول: الإيمان بوجودهم.
الثاني: الإيمان بهم إجمالاً. أي الإيمان بما عُلمت أسمائهم منهم (كجبريل عليه السلام) وبما لم يُعلم.
الثالث: الإيمان بما عُلم من صفاتهم (كصفة جبريل التي رآها النبي في صورته التي خلقه الله عليها وله ستمائة جناح قد سدّ الأفق، وقد يتحول الملك بأمر الله تعالى إلى هيئة بشرية في صورة رجل كما حصل لجبريل عليه السلام حـــين أرسله الله إلى مريم فتمثل لها بشراً سوياً).
الرابع: الإيمان بما عُلم من أعمالهم التي يقومون بها بأمر الله تعالى كتسبيحه والتعبد له ليلاً ونهاراً بدون ملل ولا فتور.

الملائكة في العقيدة الإسلامية :

يؤمن كل المسلمين بأنّ الملائكة إنّما هم عباد الله المـكرمون، وهم الرسل بينه تعالى وبين رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والـــسلام ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ (١٣) .وأنها مخلوقات قائمة بنفسها(١٤) .خلقها الله من نـور كما جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها: أنّ رسول الله قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصـــف لكم) (١٥) .أي بعكس طبيعة البشر المخلوقة من طين، وطبيعة الجن الذين خلقوا من نار.

وأنّ هذه المخلوقات النورانية اللطيفة لا يمكن لبشر رؤيتهم بصورتهم الحقيقية حيث لم يؤتِ الله أبصار البشر القدرة على ذلك؛ ويمكن رؤيتهم فقط في حـــالة تمثّلهم وتصوّرهم بهيئة بشرية بدلالة النص الشرعي الذي أخبر بذلك؛ ومـــا رأهم في هيئتهم الحقيقية من الأمة الإسلامية إلا الرسول حيث رأى جبـــريل مرتين في صورته الملائكية التي خلقه الله عليها،والتي ذكرتا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ (١٦) .والأخرى في قوله:
﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ (١٧) .
ورد في صحيح مسلم: (أنّ عائشة رضي الله عنها سألت الرسول عن هاتيـن الآيتين فقال : إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هاتين المرتين(١٨) .رأيته منهبطاً من السماء، سادّاً عِظَمُ خَلْقه ما بين السمـاء إلى الأرض) (١٩) .
وهم ليسوا كما زعم المشركون بناتاً لله عز وجل ولا أولاداً ولا شركاء معه ولا أنداداً ـ تعالى الله عن ذلك عزّ شأنه ـ يقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٠) وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَـــادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (٢١) حيث يؤكـد الله عز وجل في كلتا الآيتين أنّهم عباد له ومكرمون باللـــــفظ ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾.

ما يتضمنه الإيمان بالملائكة :

أولاً- الإيمان بوجودهم

أيّ الإيمان بوجودهم إيماناً جازماً بلا شك، ولا ريب، لثبوت الأمـــــر بذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، فالإيمان بهم واجبولا يصح إيمان الـــعبد إلا به؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ (٢٢) وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَـــتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ (٢٣) وفي حديث جـــبريل المشهور، قال ـ ـ عندما سئل عن الإيمان: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكـــته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره) رواه مسلم. (٢٤)
وعليه فمن أنكر وجودهم من غير جهل يعذر به فقد كفر، لتكذيبه الـــقرآن في نفي ما أثبته، وقد قرن الله عز وجل الكفر بالملائكة بالكفر به، يقول تعـــالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾ (٢٥)

ثانياً- الإيمان بهم إجمالاً (من عُلمت أسمائهم ومن لم تُعلم)
الإيمان بالملائكة ليس على درجة واحدة بل هو إما تفصيلي أو إجمالي، بمعنى:

١ - الإيمان التفصيلي بالملائكة :

أنّ جميع من وردت أسمائهم من الملائكة في القرآن والسنة بالتفصيل يجب الإيمان بهم، بأسمائهم وصفاتهم والأعمال الموكلين بها. أي معرفة ما يتعلق بهم مما ورد به الشرع. وطلب هذا واجب على الكفاية.
من هؤلاء: - جبريل الملك الموكل بالوحي من الله تعالى إلى رسله عليهم الصلاة والسلام، وهو الروح الأمين، الموصوف بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾(٢٦)جبريل هو في المقدمة من حيث الفضل عند الله. وقد وصفه القرآن في سورة النجم بأنه ﴿ذومِرَّةٍ﴾ أي ذوقوة جسمية عظيمة ومن قصص قوته:

أنه قلع مدن قوم لوط الأربعة من أساسها في الأرض، وحملها على جناحه فرفعها إلى السماء حتى سمعت ملائكة السماء نُباح كلابهم وصياح ديكتهم وصراخهم، ثم قلبها، ورماها من علٍ فجعل عالِيَها سافلها، وردَّها مقلوبة.
أنه أهلك قوم ثمود كلهم بصيحة واحدة، صاح عليهم بأمر من الله فهلكوا وماتوا كلهم، فصاروا أمواتاً جثثاً بلا أرواح.
وقد ورد اسمه هو وميكائيل باللفظ في القرآن الكريم في قوله: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (٢٧)وميكائيل هو الملَك الموكل بالقطر.

- إسرافيل الملَك الموكل بالصور، ذكره النبي في دعائه في صلاة الليل فقال: { اللهم رب جبريل وميكال وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . } (٢٨) .
- مالك خازن النار في قول الله تعالى: ﴿ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون﴾ (٢٩)

- رضوان خازن الجنّة، قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية عـــــند ذكر الملائكة: (وخازن الجنة ملك يقال له (رضوان) جاء مصرحاً به في بعـــض الأحاديث. وقد وجدته مصرحاً باسمه في ثلاثة أحاديث:
الأول: في فضل سورة يس في مسند الشهاب لأبي عبد الله القضاعي حديث رقم (١٠٣٦)،
والثاني: في فضل رمضان في شعب الإيمان للبيهقي وقد ذكره أيضا كل مــــن الحافظ ابن رجب في التخويف من النار والحافظ المنذري في الترغيب والترهيب.
والثالث: في بيان منازل الصحابة في الجنة في كتاب (من حديث خيثمــــة) لخيثمة بن سليمان القرشي). أ.هـ

- منكر ونكير ورد ذكرهما في الأحاديث المشهورة في عذاب القبر.

- هاروت وماروت في قوله تعالى: ﴿ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾ (٣٠)

ملك الموت وأعوانه، وهو الملَك الموكل بقبض الأرواح ولم يثبت له اسماً(٣١) يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُـــونَ﴾ (٣٢)وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُـــــونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٣٣)
وقد جاء في الأحاديث أن أعوانه يأتون العبد بحسب عمله، إن كان محـسناً ففي أحسن هيئة وأجمل صورة بأعظم بشارة، وإن كان مسيئاً ففي أشنع هيئة وأفظع منظر بأغلظ وعيد، ثم يسوقون الروح حتى إذا بلغت الحلقوم قبضها ملك الموت فلا يدعونها في يده بل يضعونها في أكفان وحنوط يليق بها كما قال تـــــعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِليه مِنْكُمْ وَلَكِـــنْ لا تُبْصِرُونَ فَلَوْلا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٣٤)

ملائكة العرش ملائكة العرش: هم الملائكة الذين يحملون العرش هم أربعة في الدنيا ويوم القيامة ثمانية، يسبحون الله كثيرا، عظيمة خلقتهم وهم أعظم من جبريل من حيث الخلقة لكن من حيث الدرجة فجبريل في مقدمتهم، لأنه رسول الله إلى الملائكة كما هو السفير بين الله وبين الأنبياء من البشر.

رتائيل :

٢- الإيمان الإجمالي بالملائكة: أي الإيمان بوجودهم، وأنهم خلق من خلق الله سبحانه، وهذا القَدْر من الإيمان بالملائكة واجب على عموم المكلفين، بمعنى أنه يجب الإيمان بجميع الملائكة الذين لم يرد ذكر لأسمائهم لا في القرآن ولا في السنّة، بصورة إجمالية، وكذلك نؤمن بما ذكر من أصنافهم وأعمالهم.

ثالثاً- الإيمان بما عُلم من صفاتهم:

والملائكة خلقتهم عظيمة، منهم من له جناحان، ومنهم من له ثلاثة، ومنهم من له أربعة، ومنهم من له أكثر من ذلك، وثبت أن جبريل - عليه السلام – له ستمائة جناح. وهم جند من جنود الله، قادرون على التمثل بأمثال الأشياء، والتشكل بأشكال جسمانية؛ حسبما تقتضيها الحالات التي يأذن بها الله سبحانه وتعالى وهم مقربون من الله ومكرمون .

{وَمَنْ عِنْدَهُ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتَرُونَ} (٣٥) ، وقال الله تعالى:{الحَمْدُ لله فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ الله عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٍ} (٣٦)، وقال الله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالغَمَامِ وَنَزَّلَ المَلائِكَةَ تَنْزِيلاً المُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ لِلرَّحْمَنِ} وقال الله تعالى: {يَوْمَ يَرَوْنَ المَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَحْجُوراً} (٣٧) .
وقال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ} (٣٨)، وقال الله تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًا} (٣٩)

رابعاً- الإيمان بما عُلم من أعمالهم :

خلقهم الله ذوي أجنحة واعطاهم من القوه والعظمه ما لا يعلمه الا هو ولــيس لهم من الالوهيه والربوبيه شيء ؛ وهم عباد الله المخلصون فهذا ذو جــناح، وهذا له جناحان وهذا له أربعة وهذا له أكثر من ذلك إلى ستمائة وأكثر، ثم من حيث طول الخلقة بعضهم أطول من بعض، فالملاك الذي هو من حملة الـعرش طول خلقته أنه ما بين شحمة أذنه إلى الكتف مسيرة سبعمائة عام. وأصــل خِلقتهم ليست كخِلقة البشر، بل خِلقة خاصة ما لا يعلمها الا الله ﷻ.

إسرافيل :

إسرافيل: وهو الذي له ستمائة جناح كل جناح من أجنحته بقدر أجنحة جـبريل كلها، أحيانا من خوفه من الله تعالى يتصغَّر ويتصغَّر فيتضاءل فيعود كالعصفور الصغير من شدة خوفه من الله تعالى. إسرافيل ليس من حملة العرش وهو مـن أفضل الملائكة بعد جبريل عليه السلام

ملائكة السماء :

كل سماء لها رئيس من الملائكة :

فالسماء الأولى التي تلي الأرض لها رئيس اسمه إسماعيل تحت يده إثنا عـشر ألفا من الملائكة، كل هؤلاء وكل المقربين من السماء يشيِّعونه إلى السماء التي فوقهم وهكذا إلى أن ينتهوا به إلى السماء السابعة، هذا تكريم لروح المــؤمن حتى يدخل عليه السرور. فهناك ملائكة من سكان السماء الأولى وملائكــة من سكان السماء الثانية وهكذا لكل سماء سكان من الملائكة. ليس في الســماء موضع قدم إلا وفيه مَلَك قائم أوراكع أوساجد وهناك ملائكة يتعاقبون فيــنا أي ينزلون ويصعدون كل عصر وكل صبح أي بعد الفجر يتعاقبون فينا.

هؤلاء الذين باتوا فينا يصعدون الصبح وينزل الآخرون إلى العصر، فيقــعدون العصر، هؤلاء هذه وظيفتهم أنهم يكونوا مع البشر ،، ثم يحفظون البشر إلا من شيء قدَّره الله عليهم أنه يقع ويصيبهم ولولا وجودهم لجعلتنا الجن كالــكرة يلعب بها اللاعبون، يتقاذفونها من يد إلى يد، لولا وجود هذه الملائكة كــانوا اتخذونا كالكرة لأنهم يروننا من حيث لا نراهم.

ملائكة أخرى :

ملائكة موكلون بالسياحة في الأرض ليعرضوا على الرسول محمد صلاة المصلّين وسلام المسلِّمين وصلاتهم عليه.
ملائكة موكلون بالسياحة بالأرض ليدوروا على مجالس الذكر.
ملائكة موكلون بزيارة المؤمنين الصالحين لينفحوهم بنفحات خير .
كان رجل من أصحاب الرسول محمد يسمى العرباض بن سارية، كبر سنه بعد وفاة الرسول فصار يشعر بضعف وانحطاط في جسمه فكان يتمنى الـــموت، فيقول: اللهم إنه كبرت سني ورق عظمي فاقبضني إليك. فبينما هو ذات يوم في مسجد دمشق رأى شابا جميل الشكل يلبس ثوبا أخضرا على ثوب أخضـــر فقال له: لا تقل هكذا، قال له: ماذا أقول، قال: أللهم حسِّن العمل وبلِّغ الأجل. فـــقال: جزاك الله خيرا، من أنت موظف من البشر ؟ فقال: أنا رفائيل الذي يَسُلُّ الحَزَنَ من صدور المؤمنين.

هذا الملَك الذي ظهر للعرباض بن سارية صاحب الرسول من ملائكة الرحـــمة الذين هم مأمورون أن يدوروا في الأرض لزيارة المؤمنين ليفرِّجوا عنهم كربا أو ليعلِّموهم فائدة دينية أو ينشطِّوهم على طاعة الله حتى يزيدوهم نـــــشاطا، يزورون الصالحين، أولياء الله في الأرض، هذا من جملتهم يقال له من جملة ملائكة الرحمة.

ملائكة يحضرون عندما يكون المؤمن التقي في حال النزاع أي عند الموت، قبل أن يحضر ملاك الموت، يظهرون للمؤمن بصورة جميلة كأن وجوههم الـشمس هذا المؤمن الذي بحالة الاحتضار يراهم فيُسَرُّ برؤيتهم مهما كان مقاسيا للآلام، آلام سكرات الموت التي هي أشد الآلام التي يقاسيها الإنسان في الدنيا من يوم خُلِقَ إلى ذلك الوقت، يدخل عليه السرور لرؤيته لهؤلاء الملائكة (الألم حــاصل إنما هذا السرور يخفف عنه). ثم لا يزالون بالقرب منه حتى يأتي ملاك الـموت (عزرائيل) فيقبض الروح فيتسلمونها من يده إلى أن يصعدوا بها إلى الـــسماء الأولى ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة، فيُأمرون أن يرِدُّوه إلى الأرض ثـــم لا يتركون الروح حتى يدفن، ويسمع روح المؤمن التقي تبشير الملائكة،(٤٠)

ملائكة للريح وللمطر والبرق والرعد:

ومن شأن الملائكة أنهم إن تصوَّروا بصور بني آدم، يظهرون بشكل الرجال لا يتشكَّلون بصور الإناث، الملائكة ليسوا إناثا ولا ذكورا فمن قال عنهم إناثا فقد كَفَر، لأن المشركين من أهل مكة وغيرهم من الجاهلية كانوا يقولون: الملائكة بنات الله وأمهاتهم بنات سروات الجن أي أشراف الجن، عظماء الجن. تكريم الملائكة للمؤمن التقي القوي الكامل، ليس لكل مسلم .

الملائكة المحيطة بالإنسان:

أن عدد الملائكة الذين يحيطون بالإنسان عشرة: ملك عن اليمين وملك عن اليسار، الملك اليمين ليكتب الحسنات الملك الشمال ليكتب السيئات ولكن حين يفعل الإنسان سيئة يقول ملك اليمين لملك اليسار اكتب هذه السيئة، فيرد ملك اليسار ويقول أمهله لعله يستغفر، فإذا استغفر الإنسان لا يكتبها له. ملك أمام الإنسان وملك خلفه حتى يدفع عنه السيئة التي تصيبه وتحفظه، مثال لذلك: كالذي تصيبه سيارة وينجوا من الحادث، هذه الملائكة تحفظ هذا الإنسان، ولكن إذا كتب الله أن يموت في الحادث باللوح المحفوظ فسوف يموت. ملك على الجبين: للتواضع وعدم الكبر. ملك على الشفة العليا وملك على السفلى وهم مفوضين هذين الملكين لتسجيل الصلاة على الرسول محمد فقط وليس لغرض آخر. ملكين على العينين: وهم لغض البصر وحماية العينين من الأذى وكما يقول المثل العامي المصري (العين عليها حارس). ملكاً على البلعوم: لأن ممكن أن يدخل في فم النائم أي شيء يؤذيه وقد جعله الله يحرس البلعوم حتى إذا دخل أي شيء بفم النائم ممكن أن يلفظه تلقائيا.

وأخيراً :

إن من العَجَب أن بعض الناسِ يَشْتَكِي من السِّحر والعَينِ ومَسَّ الشياطين، وتغيُّر الأحوالِ في نَفسِه وأهلِه وبيتِه، والحقيقةُ أنه هو السببُ في ذلك؛ لأنــه تلبَّسَ بالمعاصي والمنكراتِ في نفسِه وبيتِه وأهلِه، وآذَى الملائكةَ بأعمـالِه، فخرَجُوا من دارِه وابتعَدُوا عنه، فتعكَّر صفوُ حياته، وخلا الجوُّ للشياطينِ فهجَمَـت عليه من كلِّ ناحيةٍ، واستحوَذَت عليه، وأذاقَته الآلامَ والأحزانَ والشقاءَ النفسيَّ .

وإن من الحقائقِ الثابتةِ - يا مسلمون - أن وجودَ الملائكة يطرُدُ الشـياطينَ ويُخزِيهم، كما هرَبَ الشيطانُ لما رأى الملائكةَ نازِلةً في معركة بدرٍ الكـبرى، ونكَصَ على عَقبَيْهِ وقال في رُعبٍ وخَوفٍ: (إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَـا لَا تَرَوْنَ) (٤١)

وسيقومُ الشيطانُ خطيبًا في جهنم، ويُعلِنُ للناس أنه: (وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم) (٤٢)

فاتَّقُوا الله - يا عباد الله -، اتَّقُوا الله، واعلَمُوا أنَّ الملائكةَ خَلقٌ كرامٌ أبرارٌ، وأن من أجلِّ أعمالهم حفظَ المؤمنين والدفاعَ عنهم، وتأييدَهم وتحريكَ الخـير في قلوبهم، وهم يستَحيُون من صالحِي المؤمنين، كما كانت الملائكةُ تستَحِـي من عُثمان - رضي الله عنه -.

فاستَحيُوا منهم - بارك الله فيكم -، استَحيُوا منهم وأكرِمُوهم، ولا تُؤذُوهم، ولا تُخرِجُوهم من بيوتِكم؛ تسعَدُوا في حياتكم، وتهنَؤُوا في معايشِكم، وتغشَـاكُم الرحمةُ، وتنزِلُ عليكمُ السَّكينةُ، ويحفَظُكُم الله في أنفسِكم وأهلِيكم، ومَدخَلِكـم ومَخرَجِكم.

المراجع: للباب الثاني : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة النساء ، آية : ١٣٦)
(٢) (صحيح مسلم)
(٣) (سورة التحريم ، آية : ٦)
(٤) (سورة يوسف ، آية : ٣١)
(٥) (سورة ق ، آية : ١٨)
(٦) (سورة الانفطار ، آية : ١٠-١٢)
(٧) (سورة الرعد ، آية : ١١)
(٨) (الراوي الشعبي عامر بن شراحيل . المحدث ابن تيمية : المصدر منهاج السنة ص٦/٥٧)
(٩) (رواه البخاري في التاريخ الكبير ٦/٤١٦ والبزار في المسند ٢/٢٦٦)
(١٠) (سورة هود ، آية : ٨٢-٨٣)
(١١) (الموسوعة العقدية؛ الدرر السنية.)
(١٢) (معجم ألفاظ العقيدة.)
(١٣) (سورة فاطر، الآية ١.)
(١٤) (الموسوعة العقدية؛ الملائكة مخلوقات قائمة بنفسها حيّة ناطقة.)
(١٥) (رواه مسلم ٢٩٩٦.)
(١٦) (سورة التكوير، الآية ٢٣)
(١٧) (سورة النجم، الآيات ١٣:١٥.)
(١٨) (المرة الأولى حين أوحي للنبي صلوات الله وسلامه عليه أول مرة لمّا كان يتعبد الله في غار حراء، والمرة الثانية ليلة الإسراء والمعراج.)
(١٩) (رواه مسلم ١٧٧.)
(٢٠) (سورة الأنبياء، الآية ٢٦.)
(٢١) (سورة الزخرف، الآية ١٩.)
(٢٢) (سورة البقرة، آية ٢٨٥.)
(٢٣) (سورة النساء، آية ١٣٦.)
(٢٤) (رواه مسلم)
(٢٥) (سورة النساء، آية ١٣٦.)
(٢٦) (سورة الحاقة ٤٠)
(٢٧) (سورة البقرة، آية ٩٨.)
(٢٨) (رواه مسلم)
(٢٩) (سورة الزخرف، آية ٧٧.)
(٣٠) (سورة البقرة، الآية ١٠٢.)
(٣١) (هل ثبت أن اسم ملَك الموت عزرائيل؟، موقع د. محمد بن عبد الله السحيم.)
(٣٢) (سورة السجدة، الآية ١١.)
(٣٣) (سورة الأنعام، الآية ٦١.)

(٣٤) (سورة الواقعة، الآيات ٨٣:٩٦)
(٣٥) (سورة الأنبياء، الآيات ١٩-٢٠)
(٣٦) (سورة فاطر، آية ١)
(٣٧) (سورة الفرقان، آية : ٢٢)
(٣٨) (سورة الأعراف، آية : ٢٠٦)
(٣٩) (سورة مريم، آية : ٦٤)
(٤٠) (كتاب ، تاريخ مدينة دمشق - ابن عساكر - ج ٤٠ - الصفحة ١٨٢)
(٤١) (سورة الانفال ٤٨، آية : ٦٤)
(٤٢) (سورة ابراهيم ٢٨، آية : ٦٤)

الباب الثاني : الفصل الثالث : خلق الله الروح :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمد الله فالق الإصباح، وخالق الْأَرْوَاح والأشباح، فاطر الْعُقُول والحواس، ومبدع الْأَنْوَاع والأجناس، الَّذِي لَا بداية لقدمه، وَلَا غَايَة لكرمه، وَلَا أمد لسلطانه، وَلَا عدد لإحسانه، خلق الْأَشْيَاء كَمَا شَاءَ، تحلت بعقود حكمته صُدُور الْأَشْيَاء، وتجلت بنجوم نعْمَته وُجُوه الْأَحْيَاء، جمع بَين الرّوح وَالْبدن بِأَحْسَن تأليف، ومزج بقدرته اللَّطِيف بالكثيف، قضى كل أَمر مُحكم، وأبدع كل صنع مبرم، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، أحْمَده وَلَا حمد إِلَّا دون نعمائه، وأمجده بأكرم صِفَاته وأشرف أَسْمَائِهِ.
وأصلي واسلم على رَسُوله الدَّاعِي إِلَى الدّين القويم، التَّالِي لِلْقُرْآنِ الْعَظِيم، سيد الْأَوَّلين والآخرين، وَخَاتم الْأَنْبِيَاء وَالْمُرْسلِينَ، صلوَات الله عَلَيْهِ وعَلى آله الطيبين الطاهرين، وعَلى أَصْحَابه الْأَنْصَار مِنْهُم والمهاجرين، وَسلم عَلَيْهِ وَعَلَيْهِم أَجْمَعِينَ.

أما بعد:
الروح خلق عظيم، سرّ من أسرار الله في وجود كل حي على وجه الأرض، خص الله روح الإنسان بمزيد شرف وتعظيم، فنسبها لذاته العليّة في كتابه العظيم، قال تعالى: (فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ) (١) ، وأقسم بها، قال تعال: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا) (٢) .
اختص الله بعلمها وعلمنا القليل، وقليل من عطاء الله كثير فيه الخير والبركة والكفاية، فلا نتكلف بعد ذلك، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً) (٣) .

مادة خلق آدم من تراب، أما مادة خلق الروح فالله أعلم بها، البدن يَبلى ويَفنى ما عدا عُجْب الذنب، ثم يُعاد ويُبعث، أما الروح فباقية لا تبلى ولا تفنى.

أول روح خُلقت روحُ أبينا آدم ـعليه السلام ـ، قال صلى الله عليه وسلمَ: {لما نفخ الله في آدم الروح، فبلغ الروح رأسه عطس، فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال تبارك وتعالى: يرحمك الله } (٤) .

وكذا أرواحنا تنفخ في أجسادنا ونحن أجنة في بطون أمهاتنا؛ ففي الصحيحين قال ﷺ: {إن الإنسان يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، وأربعين يوماً علقة، وأربعين يوماً مضغة، ثم يأتيه الملك فينفخ فيه الروح، ويُؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، فإذا اتصلت الروح بالجسد أصبحت نفساً، ودبت الحياة في ذلك الجسد، فأصبح إنسانا تشعر به الأم يتحرك في بطنها، له حكم النفس المعصومة } ،

قال شيخ الإسلام بن تيمية: الروح المدبّرة للبدن التي تفارقه بالموت، هي الروح المنفوخة فيه ، وقال

الشيخ ابن عثيمين ـرحمه الله ـ: {الروح جسم تحل بالبدن الحي بإذن الله، لكنها جسم من جنس آخر، والبدن مادته من تراب، أما الروح فمادته مجهولة الله أعلم بها } .

أخي القارئ :

الإنسان جسد وروح، يقول ابن القيم: {أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، وأحكام دار البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها}،

فهما يشتركان معا في اللذة والألم، والراحة والنّصب، فهما مشتركان في البر والإيمان أو في الكفر والطغيان، أما المنام فالأصل الروح، والبدن تابع، لذلك ترى أحيانا أثر السعادة أو الشقاء على البدن بعد النوم،

يقول ابن القيم: {وأعجب من ذلك أن ترى النائم يقوم في نومه ويضرب ويبطش ويدافع كأنه يقظان، وهو نائم لا شعور له بشيء من ذلك، وذلك أن الحكم للروح استعانت بالبدن من خارجه، ولو دخلت فيه لاستيقظ وحس}،

الروح تفارق البدن جزئياً فيكون النوم، فإذا فارقته كلياً كان الموت، قال تعالى: (اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (٥).

قال د. علي العبيدي في كتابه: (موسوعة الروح):{ وهذه الروح المرسلة -أي عند النوم- هي التي تأتي بالمبشّرات، هي التي تأتي بالأفراح والأتراح، وهي التي تلتقي بالأحياء والأموات، وهي التي تعرج إلى السماء، وتسجد تحت العرش، وقد تأتي بشفاء الأمراض والوصايا وحل المعضلات}،

وقال ابن القيم -رحمه الله -: {وكم ممن كانت توبته وصلاحه وزهده وإقباله على الآخرة عن منام رآه أو رُئي له، وكم من استغنى وأصاب كنزا دفينا عن منام } .

وقد تَشْرُف روح المؤمن برؤيا المصطفى -صلى الله عليه وسلمَ-؛ كما في الحديث: {من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي }.

وقد يتلاعب الشيطان بالروح في المنام ويريها ما تكره كما في مسلم؛ جاء أعرابي النبي -ﷺ- فقال: إني حلمت أن رأسي قُطع فأنا أتبعه؟ فزجره النبي -ﷺ-، وقال: { لا تخبر بتلاعب الشيطان بك في المنام } .(٦)

والأرواح تتعارف وتتناكر، قال صلى الله عليه وسلمَ: { الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف}، (٧)

قال الخطابي: {فتعارف الأرواح يقع بحسب الطباع التي جبلت عليها من خير وشر، فإذا اتفقت تعارفت، وإذا اختلفت تناكرت }.
وأعلم: فإنه من الثابت عندنا أهل السنة والجماعة: تلاقي أرواح الأحياء في النوم مع أرواح الأموات، وما نُقل عن السلف في مسألة الرؤى كثيرة مستفيضة،

قال سفيان بن عيينة: { رأيت سفيان الثوري بعد موته يطير في الجنة من نخلة إلى شجرة، ومن شجرة إلى نخلة، وهو يقول: (لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْـــــعَامِلُونَ) (٨) ، فقيل له: بم أدخلت الجنة؟ قال: بالورع .

ورئي الفضيل بن عياض بعد موته، فقال: لم أر للعبد خيراً من ربه، وقــــال سهيل أخو حزم: رأيت مالك بن دينار بعد موته، فقلت: أبا يحيى! ليت شــعري ماذا قدمت به على الله؟ قال: قدمت بذنوبٍ كثيرة محاها عني حسن الظن بالله.

أخي القارئ: كم مات من إنسان من عهد آدم -عليه السلام-، كلّهـــم الآن في دارين لا ثالث لهما: إما في الجنان، قرب الرحمن، في عليين، وإما في سجين، تحت الأرض أسفل سافلين.

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمـــته أتطلب الربح مــــما فيه خسران
أقبل على الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجســـم إنسان

أخي القارئ :
منازل الأرواح في عالم البرزخ تتفاوت فأولها أرواح الأنبياء وأعلاهـــا هذه الأرواح الطاهرة في أعلى عليين؛ لأن أصحابها الأنبياء - عليهم جميعا صلوات الله وسلامه - هم أعلى البشر مقاما في الدنيا وفي الآخرة فهكذا تكون أرواحهم في البرزخ في أعلى مقام للأرواح وإن كانوا يتفاوتون في منازلهم في البرزخ النبي ﷺ لما عرج به إلى السماء مر بالأنبياء في السماوات على رتب متفاوتة

قال النبي - ﷺ - في قصة الإسراء والمعراج: { فَلَمَّا فَتَحَ عَلَوْنَا السَّمَــاءَ الدُّنْيَا، فَإِذَا رَجُلٌ قَاعِدٌ، عَلَى يَمِينِهِ أَسْوِدَةٌ، وَعَلَى يَسَارِهِ أَسْوِدَةٌ، إِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَمِينِـــهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ يَسَارِهِ بَكَى، فَقَالَ: مَرْحَباً بِالنَّبِيِّ الصَّالِحِ وَالابْنِ الصَّالِـــحِ، قُلْتُ لِجِبْرِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: هَذَا آدَمُ، وَهَذِهِ الأَسْوِدَةُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ نَسَمُ بَنِيهِ، فَأَهْلُ الْيَمِينِ مِنْهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ، وَالأَسْوِدَةُ الَّتِي عَنْ شِمَالِهِ أَهْلُ النَّارِ، فَإِذَا نَظَرَ عَنْ يَمِينِهِ ضَحِكَ، وَإِذَا نَظَرَ قِبَلَ شِمَالِهِ بَكَى}، (٩) .

والأرواح البشرية متفاوتة في مستقرها في البرزخ أعظم تفاوت.
فأرواح الأنبياء في أعلى عليين، وهم متفاوتون في منازلهـــــم.
ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل معلقة في العرش، وهي أرواح بعض الشـــهداء.
ومنهم من أرواحهم نسمة طائر يعلق في أشجار الجنة.
ومنهم من يكون محبوساً على باب الجنة.
ومنهم من يكون محبوساً في قـــــــبره.
ومنه من يكون محبوساً في الأرض، لأن روحه سفلية أرضية.
ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني.
ومنها أرواح تسبح في نهر الـــــــــــــدم .
فمقر الأرواح مختلف .. أرواح في أعلى عليين .. وأرواح في أسفل سافلين .. كل بحسب عمله.

والأرواح مع كونها في السماء تتصل بفناء القبر وبالبدن منه، وهي أسرع شيء حركة وانتقالاً، وصعوداً وهبوطاً، بعضها مرسل، وبعضها محـــبوس.

والروح في جسد الإنسان بدار غربة، ولها وطن غيره، فلا تستقر إلا في وطنها، وقد أمرت بمساكنة هذا الوطن الكثيف، وهي تحن إلى وطنها في المحل الأعلى حنين الطيور إلى أوكارها.
وأعظم عذاب الروح انغماسها وتدسيتها في أعماق البدن، واشتغالها بمـــلاذه، وانقطاعها عن ملاحظة ما خلقت له، وما هيئت له، وعن وطنها ومحلها ومنزل كرامتها.
ولكن سكر الشهوات يحجبها عن مطالعة هذا الألم والعذاب، فإذا صـــــحت من سكرها تحسرت على ما فاتها من كرامة الله.
فالمؤمن في هذه الدار سبي من دار الجنة والنعيم إلى دار التعب والـــعناء، ثم ضرب عليه الرق فيها، فكيف يلام على حنينه إلى داره التي سبي منـــها، وفرق بينه وبين ما يحب، وجمع بينه وبين عـــــدوه؟.
فروحه دائماً معلقة بذلك الوطن، وبدنه في الدنيا .

ولهذا كان المؤمن غريباً في هذه الدار، أين حل منها فهو في دار غربة، إلى أن تنقضي ويصير إلى وطنه ومنزله.
والروح نؤمن بوجودها في البدن، ولا نعلم كيفيتها، ولا اختصاص للروح بشيء معين في الجسد، بل هي سارية في الجسد كله، والحياة مشروطة بالروح، فما دامت فيه كانت فيه حياة، وإذا فارقته الروح فارقته الحياة.
وأرواح الموتى قسمان:
أرواح معذبة .. وأرواح منعمة.
فالأرواح المعذبة في شغل بما هي فيه عن التزاور والتلاقي.
والأرواح المنعمة المرسلة تتلاقى وتتزاور، وتتذاكر ما كان منها في الدنيا، وما يكون من أهل الدنيا.

وفي صحيح مسلم عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية؟

قال: {أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال - يعني رسول الله ﷺ: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطّلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئًا؟ شهداء المعارك في سبيل الله كقتلى أُحد، جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة وتأكل من أشجار الجنة، وبعدما تنتهي من هذه الرحلة في الجنة، تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش ومعروف أن العرش - عرش الرحمن - سقف جنة الفردوس، فبعدما تنتهي من رحلتها في الجنة تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئا قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا وماذا نريد أكثر من ذلك ففعل ذلك بهم ثلاث مرات هل تشتهون شيئا هل تشتهون شيئا فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا ولا بد من جواب قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى يعني لما رأوا من النعيم قالوا: نريد شهادة بعد شهادة بعد شهادة لنزداد نعيما بعد نعيم، فلما رأى - يعني الله ﷻ أن ليس لهم حاجة تركوا فإنه قد قضى أنهم لا يرجعون إلى الدنيا} (١٠) .

وأخيراً أقول للملحدين : { أفلا تعقلون }.

من الفروق بيننا وبين أهل البدع كالمعتزلة والملحدين أننا نؤمـــن بأن الجنة موجودة الآن وأن الأرواح تنعّم فيها، نحن الآن في الدنيا وهنـــاك أرواح تنعّم في جنات النعيم .

أما أولئك المبتدعة يرون أن الجنة غير مخلوقة وأنها لن تخلق إلا يـوم القيامة بينما الجنة خلقت من زمان وفيها أرواح تنعّم، هذه الجنة التي أُخرج مـنها آدم أصلا، وفي هذا الحديث إثبات مجازاة الأموات بالثواب والعقاب قبل يوم القيامة، وفي الحديث أن الأرواح باقية لا تفنى فينعم المحسن ويعذب المســـيء، والذي يظن أن الميت إذا مات ماتت روحه معه فهذا مسكين جاهل أو ضال، فإن الروح لا تموت باقية وتشعر وتعذّب وتنعّم موجودة، خروج من الجسد وتـــعود لعلاقة خاصة، تختلف عن علاقتها به في الدنيا.

وفي مسألة أرواح الشهداء في حواصل طير خُضْر حاول بعض المبـــتدعة من الكفرة من القائلين بتناسخ الأرواح أن يقولوا هذا هو الذي يدل على صــــحة عقيدتنا موجود عندكم؟ فنقول: هيهات هيهات البون شاسع بين ما تقولونـــه ويقوله رسول الله ﷺ فهم يقولون: إن الميت إذا مات روحه تتحول إلى حيوان بحسب عمله، فإن كان خيّرا صارت روح طائر وإن كان شريرا صـــارت روح كلب أو خنزير مثلا يعتقدون ذلك، تناسخ الأرواح ولهم تفصـــيلات وأقاويل ما أنزل الله بها من سلطان كفر أصلا كفر عظيم، أين هذا الكلام من قول النبي ﷺ: إن أرواح الشهداء تكون في حواصل طير خضر هي داخل الحواصل تسرح بها في الجنة فيكون الطائر كالمركب الذي يحمل الروح ويطير بها فتنعّم، فأين هذا من هذا؟ هو قال أن الروح تصبح طائرا، يعني أنها ترجع إلى الدنيـــا على شكل طائر وتموت وترجع مرة أخرى وطائر ثانٍ وطائر ثالث، أو تكون كلبـــــا أو خنزيرا وترجع مرة ثانية إذا مات الكلب يرجع كلب ثاني وثالث الذي يـــقول به هؤلاء الكفرة شتان شتان.

وهؤلاء ما عندهم يوم بعث ونشور خلاص العملية دوارة الروح من حيوان إلى حيوان إلى حيوان ما في نهاية وهو من أبطل الأقوال وأخبثها ويليه في البطلان من قال إن الروح تموت وينتهي كل شيء خلاص ما بعد ذلك شيء وأن الموت هو نهاية العالم ما بعده شيء، وأن الروح تموت والجسد يموت وخلاص ومنهم الذين يقولون:{ نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } (١١) ،
قالوا أرحام تدفع وأرض تبلع وهكذا ومن أباطيلهم أنهم يقولون إن الدنيا تعود كما كانت كل ستة وثلاثين ألف سنة يرجع آدم مرة ثانية وهكذا بدون نهاية أقوال سخيفة مضحكة شتان بين هذا وبين هذه الأدلة من الكتاب والسنة.

فإن قيل، وقد قيل، وما قيل إلا بسبب الجهل بالله ودينه وشرعه .. عذاب القبر ونعيمه .. وسعته وضيقه .. وكونه حفرة من حفر النار .. أو روضة من رياض الجنة، قد كشفنا القبر وما رأينا ذلك؟.
ولا رأينا الملائكة التي تعذب الكفار؟.
ووجدنا القبر كما حفرناه وقبرناه لم يزد ولم ينقص؟.
وكيف يسع القبر الميت مع من يعذبه أو يؤنسه أو يسأله؟.
ونرى المصلوب على خشبة لا يتحرك ولا يسأل ولا يجيب؟.
وكذلك من أكلته السباع، ومن احترق، ومن تفرقت أجزاؤه؟.
وكيف يسأل من تفرقت أجزاؤه في الرياح والبحار والتراب؟.
فيقال لهؤلاء وأمثالهم: كتاب الله تنزيل من حكيم عليم، والرسل لم تأت بما تحيله العقول، وتقطع باستحالته.

بل ما جاء به الرسل قسمان:
أحدهما: ما تشهد به العقول والفطر.
الثاني: ما لا تدركه العقول بمجردها، كأمور الغيب التي أخبروا بها عن البرزخ، واليوم الآخر كالصراط والميزان، والجنة والنار ونحو ذلك.
ولا يكون خبر الرسل محالاً في العقول أصلاً.

وكل خبر يُظن أن العقل يحيله فلا يخلو من أمرين: الأول: إما أن يكـون الخبر كذباً عليهم، أو يكون ذلك العقل فاسداً يرى الحق باطلاً، والباطل حقاً، كـما قال سبحانه: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)} (١٢) .

الثاني: أن يُفهم عن الرسول - ﷺ - مراده، من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصربه عن مراده مما قصده من الهدى والبيان.
وقد حصل بسبب إهمال ذلك كل بدعة وضلالة ومعصية، مع حسن القصد أو سوء القصد، وما ذاك إلا بسبب سوء الفهم عن الله ورسوله.
والله سبحانه خلق هذا الكون العظيم، وخلق البشر، وشرع لعباده الدين الحق.

وجعل الدور ثلاثاً:
دار الدنيا .. ودار البرزخ .. ودار الآخرة.
وجعل سبحانه لكل دار أحكاماً تخصها، وتناسب أحوالها، وركب هذا الإنسان من بدن وروح .

أفلا تعقلون ... أفلا تتدبرون ... أفلا تؤمنون ... مالكم كيف تحكمون وتصدقون أنفسكم وأشخاص ضالين مثلكم . ولا تؤمنون بالله ولا برسوله ﷺ .
ولا بالقرآن . أفلا تعقلون ....

اللهم اهدِنا فيمَن هديت . وعافنا فيمن عافيت . وتولنا فيمن توليت . وبارك لنا فيما أعطيت . وقِنا شر ما قضيت . انك تقضي ولا يقضى عليك . إنه لا يذل مَن واليت . ولا يعزُ من عاديت . تباركت ربنا وتعاليت . لك الحمد على ما قضيت . ولك الشكر على ما أعطيت . نستغفرك اللهم من جميع الذنوب والخطايا ونتوب إليك.

اللهم أقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك . ومن طاعـتك ما تبلّغنا به جنتَك . ومن اليقين ما تُهون به علينا مصائبَ الدنيا . ومتـعنا اللـهم باسماعِنا وأبصارِنا وقواتنا ما أبقيتنا . واجعلهُ الوارثَ منا . واجعل ثأرنا على من ظلمنا . وانصُرنا على من عادانا . ولا تجعل مصيبتَنا في ديننا . ولا تجـعل الدنيا أكبرَ همِنا . ولا مبلغَ علمِنا . ولا إلى النار مصيرنا . واجعل الـجنة هي دارنا . ولا تُسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرِنا . وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشُنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا. واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير . واجعل الموتَ راحةً لنا من كلِ شر.

اللهم انا نسألك فعلَ الخيرات . وتركَ المنكرات . وحبَ المساكين . وأن تغفر لنا وترحمنا وتتوب علينا . وإذا أردت بقومٍ فتنةً فتوَفنا غير مفتونين . ونسـألك حبَك . وحبَ مَن يُحبك. وحب عملٍ يقربنا إلى حبك . يا رب العالمين.

اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين. الذين شهدوا لك بالوحدانية . ولنـبيك بالرسالة . وماتوا على ذلك . اللهم اغفر لهُم وارحمهُم وعافهم وأعفو عـنهم. وأكرم نزلَهم . ووسِع مدخلهم . واغسلهم بالماء والثلج والبرَد. ونقهم كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وارحمنا اللهم برحمتك إذا صرنا إلى ما صاروا إليـه . تحت الجنادل والتراب وحدنا.

المراجع: للباب الثاني : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة الحجر ، آية : ٢٩)
(٢) (سورة الشمس ، آية : ٧)
(٣) (سورة الإسراء ، آية : ٨٥)
(٤) (المحدث ابن خزيمة :المصدر التوحيد لابن خزيمة ص١/١٦٠: اخرجه الترمذي ٣٣٦٨)
(٥) (سورة الزمر ، آية : ٤٢)
(٦) (صحيح مسلم ٢٢٦٨)
(٧) (صحيح مسلم ٤٧٧٣)
(٨) (سورة الصافات ، آية : ٦١)
(٩) (متفق عليه)
(١٠) (صحيح مسلم ١٨٨٧)
(١١) (سورة الجاثية ، آية : ٢٤)
(١٢) (سورة سبأ ، آية : ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الثالث :

الفصل الأول : باب خلق الجان وقصة الشيطان:
الفصل الثاني : باب خلق نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام :
الفصل الثالث : خلق الإنسان :

الباب الثالث : الفصل الأول : باب خلق الجان وقصة الشيطان:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيـــته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صــلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : أولاً :
قال الله تعالى: { خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } (١) .
وقال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَالْـــجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ } (٢) .

وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وغير واحد: { مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ } قالوا: من طرف اللهب.

وفي رواية من خالصه، وأحسنه.

وقد ذكرنا آنفًا من طريق الزهري، عن عروة، عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: { خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من نار، وخلق آدم مما وصف لكم } (٣) .
قال كثير من علماء التفسير: خلقت الجن قبل آدم عليه السلام، وكان قبلهــم في الأرض، الحن والبن، فسلط الله الجن عليهم فقتلوهم، وأجلوهم عنها، وأبادوهم منها، وسكنوها بعدهم.

وذكر السدي في (تفسيره) عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: لما فرغ الله من خلق ما أحب، استوى على العرش، فجعل إبليس على ملك الدنيا، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن، وإنما سموا الجن لأنهم خُزان الجنة. وكان إبليس مع ملكه خازنًا، فوقع في صدره إنما أعطاني الله هذا لمزية لي على الملائكة.

وذكر الضحاك عن ابن عباس: أن الجن لما أفسدوا في الأرض، وسفكوا الدماء، بعث الله إليهم إبليس ومعه جند من الملائكة، فقتلوهم، وأجلوهم عن الأرض، إلى جزائر البحور.

وقال محمد بن إسحاق، عن خلاد، عن عطاء، عن طاوس، عن ابن عباس، كان اسم إبليس قبل أن يرتكب المعصية عزازيل، وكان من سكان الأرض، ومن أشد الملائكة اجتهادًا، وأكثرهم علمًا، وكان من حي يقال لهم الجن.

وروى ابن أبي حاتم، عن سعيد بن جبير، عنه، كان اسمه عزازيل، وكان من أشرف الملائكة من أولى الأجنحة الأربعة.

وقد أسند عن حجاج، عن ابن جريج قال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة، وأكرمهم قبيلة، وكان خازنًا على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض.

وقال صالح - مولى التوأمة - عن ابن عباس: كان يسوس ما بين السماء والأرض، رواه ابن جرير.

وقال قتادة، عن سعيد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا.

وقال الحسن البصري: لم يكن من الملائكة طرفة عين، وأنه لأصل الجن، كما أن آدم أصل البشر.

وقال شهر بن حوشب، وغيره: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة، فأسره بعضهم، وذهب به إلى السماء. رواه ابن جرير.

قالوا فلما أراد الله خلق آدم، ليكون في الأرض هو وذريته من بعده، وصور جثته منها، جعل إبليس، وهو رئيس الجان، وأكثرهم عبادة إذ ذاك، وكان اسمه عزازيل، يطيف به، فلما رآه أجوف، عرف أنه خلق لا يتمالك.

وقال: أما لئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت علي لأعصينك، فلما أن نفخ الله في آدم من روحه كما سيأتي، وأمر الملائكة بالسجود له، دخل إبليس منه حسد عظيم، وامتنع من السجود له.

وقال: أنا خير منه، خلقتني من نار، وخلقته من طين.
فخالف الأمر واعترض على الرب عز وجل، وأخطأ في قوله، وابتعد من رحمة ربه، وأنزل من مرتبته، التي كان قد نالها بعبادته، وكان قد تشبه بالملائكة، ولم يكن من جنسهم لأنه مخلوق من نار، وهم من نور.
فخانه طبعه في أحوج ما كان إليه، ورجع إلى أصله النار.

{ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ }(٤) .

وقال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥) .

فأهبط إبليس من الملأ الأعلى، وحرم عليه قدر أن يسكنه، فنزل إلى الأرض، حقيرًا، ذليلًا، مذؤمًا، مدحورًا، متوعدًا بالنار، هو ومن اتبعه من الجن، والإنس، إلا أنه مع ذلك جاهد كل الجهد على إضلال بني آدم، بكل طريق، وبكل مرصد.

كما قال: { قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا *

وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } (٦) .

وسنذكر القصة مستفاضة عند ذكر خلق آدم عليه السلام. والمقصود أن الجان خلقوا من النار، وهم كبني آدم، يأكلون، ويشربون، ويتناسلون، ومنهم المؤمنون، ومنهم الكافرون، كما أخبر تعالى عنهم في سورة الجن في قوله تعالى:

{ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (٧) .

وقال تعالى: { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا * وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا * وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } (٨) .

وقد ذكرنا تفسير هذه السورة، وتمام القصة، في آخر سورة الأحقاف.
وذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك، هــنالك.
وأن هؤلاء النفر، كانوا من جن نصيبين.
وفي بعض الآثار، من جن بصرى، وأنهم مروا برسول الله ﷺ، وهو قائم يصلي بأصحابه، ببطن نخلة، من أرض مكة. فوقفوا، فاستمعوا لقـــــــــــراءته.
ثم اجتمع بهم النبي ﷺ ليلة كاملة، فسألوه عن أشياء، أمرهم بها، ونهاهم عنها، وسألوه الزاد، فقال لهم:
{ كل عظم ذكر اسم الله عليه، تجدونه أوفر ما يكون لحمًا، وكل روثة علـــــف لدوابكم } .
ونهى النبي ﷺ، أن يستنجي بهما، وقال: { إنهما زاد إخوانكم الجن }.
ونهى عن البول في السرب، لأنها مساكن الجن.
وقرأ عليهم، رسول الله ﷺ، سورة الرحمن، فما جعل يمر فيها بآية { فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحــــــــمد.
وقد أثنى عليهم، النبي ﷺ، في ذلك، لما قرأ هذه السورة على الناس فسـكتوا. فقال:
{ الجن كانوا أحسن منكم ردًا، ما قرأت عليهم، فبأي آلاء ربكما تكذبـــان، إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا، نكذب، فلك الحمد }.(٩) .

وقد اختلف في مؤمني الجن، هل يدخلون الجنة، أو يكون جزاء طائعهـم، أن لا يعذب بالنار فقط. على قولين:
الصحيح: أنهم يدخلون الجنة، لعموم القرآن، ولعموم قوله تعالى: { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ } (١٠) .
فامتن تعالى عليهم بذلك، فلولا أنهم ينالونه لما ذكره، وعده عليهم من الــنعم.
وهذا وحده دليل مستقل كاف في المسألة وحده، والله أعلم.
وقال البخاري: حدثنا قتيبة، عن مالك، عن عبد الرحمن بن عبد الله، بن عبــد الرحمن، بن أبي صعصعة، عن أبيه، أن أبا سعيد الخدري، قال له: إنـــي أراك، تحب الغنم، والبادية، فإذا كنت في غنمك، وباديتك، فأذنت بالصلاة، فارفــــع صوتك بالنداء، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جن، ولا إنس، ولا شيء، إلا شهد له يوم القيامة.

قال أبو سعيد: سمعته من رسول الله ﷺ، انفرد به البخاري، دون مسلم.
وأما كافرو الجن، فمنهم الشياطين، ومقدمهم الأكبر: إبليس، عدو آدم، أبي البشر. وقد سلطه هو، وذريته، على آدم، وذريته.
وتكفل الله عز وجل، بعصمة من آمن به، وصدَّق رسله، واتبع شرعه منهم، كما قال: { إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا } (١١) .
وقال تعالى: { وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } (١٢) .
وقال تعالى: { يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ } (١٣) .

وقال: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ *قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ } (١٤) .

وقد ذكر تعالى، هذه القصة، في سورة البقرة، وفي الأعراف، وهاهنا، وفي سورة سبحان، وفي سورة طه، وفي سورة ص.

وقد تكلمنا على ذلك كله، في مواضعه، في كتابنا (التفسير)، ولله الحمد.
وسنوردها في قصة آدم، إن شاء الله.

والمقصود: أن إبليس أنظره الله إلى يوم القيامة، محنة لعباده، واختبارًا منه لهم، كما قال تعالى: { وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ } (١٥) .

{ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ } (١٦) .

فإبليس لعنه الله حي الآن، منظر إلى يوم القيامة، بنص القرآن، وله عرش على وجه البحر، وهو جالس عليه، ويبعث سراياه يلقون بين الناس الشر والفتن، وقد قال الله تعالى: { إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا } (١٧) .

وكان اسمه قبل معصيته العظيمة: عزازيل.

قال النقاش: وكنيته (أبو كردوس) ولهذا لما قال النبي ﷺ لابن صياد: ما ترى؟ قال: أرى عرشًا على الماء، فقال له النبي ﷺ:
{ اخسأ فلن تعدو قدرك } فعرف أن مادة مكاشفته التي كاشفه بها، شيطانية، مستمدة من إبليس، الذي هو يشاهد عرشه على البحر، ولهذا قال له اخسأ فلن تعدو قدرك، أي لن تجاوز قيمتك الدنية، الخسيسة، الحقيرة.
والدليل على أن عرش إبليس على البحر، الذي رواه الإمام أحمد، حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، حدثني معاذ التميمي، عن جابر بن عبد الله، قال قال رسول الله ﷺ:
{ عرش إبليس في البحر يبعث سراياه في كل يوم، يفتنون الناس، فأعظمهم عنده منزلة، أعظمهم فتنة للناس } ورواه. (١٨) .

وقال أحمد: حدثنا روح، حدثنا ابن جريج، أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

{ عرش إبليس على البحر، يبعث سراياه، فيفتنون الناس، فأعظمهم عـــــنده أعظمهم فتنة } تفرد به من هذا الوجه.

وقال أحمد: حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا علي بن زيد، عن أبي نـضرة، عن جابر، بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ لابن صائد: « ما ترى » ؟.

قال: أرى عرشًا على الماء، أو قال: على البحر حوله حيات.

قال ﷺ: « ذاك عرش إبليس » هكذا رواه في مسند جابر.

وقال في مسند أبي سعيد: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا علـــي بن زيد، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، أن رسول الله ﷺ قال لابن صـــــــــائد: « ما ترى » ؟

قال: أرى عرشًا على البحر حوله الحـــــــيات.

فقال رسول الله ﷺ: { صدق؛ ذاك عرش إبليس }.

وروى الإمام أحمد، من طريق معاذ التميمي، وأبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ:

{ إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون، ولكن في التحريش بينهـــــم } .

وروى الإمام مسلم، من حديث الأعمش، عن أبي سفيان، طلحة بن نافع، عن جابر، عن النبي ﷺ قال:

{ إن الشيطان يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة، أعظمهم عنده فتنة، يجيء أحدهم فيقول: مازلت بفلان حتى تركته، وهو يقول: كذا وكذا.

فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئًا. ويجيء أحدهم فيقول: ما تركتـــــه حتى فرقت بينه وبين أهله.

قال: فيقربه، ويدنيه. ويقول: نعم أنت ».

يروى بفتح النون، بمعنى نعم، أنت ذاك الذي تستحق الإكرام، وبكسرها، أي نعم، منك. وقد استدل به بعض النحاة، على جواز كون فاعل نعم مضمرًا، وهو قلـيل. واختار شيخنا الحافظ أبو الحجاج، الأول. ورجحه، ووجهه، بما ذكـــــــرناه، والله أعلم.

وقد أوردنا هذا الحديث، عند قوله تعالى: { مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ } (١٩) .
يعني: أن السحر المتلقي عن الشياطين، من الإنس، والجن، يتوصـــل به إلى التفرقة بين المتآلفين، غاية التآلف، المتوادين، المتحابين، ولهذا يشكر إبليس سعي من كان السبب في ذلك.
فالذي ذمَّه الله يمدحه، والذي يغضب الله يرضيه، عليه لعنة الله. وقد أنـــزل الله عز وجل سورتي المعوذتين، مطردة لأنواع الشر، وأسبابه، وغاياته. ولا سيما سورة { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْـوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ } (٢٠) .
وثبت في (الصحيحين) عن أنس، وفي صحيح البخاري: عن صفية بنت حسين، أن رسول الله ﷺ قال:
{ إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم }.
عند مسلم صفية بنت حيي زوج النبي صلى الله عليه و سلم، و هو الـــصواب.
وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا محمد بن جبير، حدثنا عدي بن أبي عمارة، حدثنا زياد النميري، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ:
{ إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإن ذكر الله خنس، وإن نـــسي التقم قلبه، فذلك الوسواس الخناس }.(٢١) .
ولما كان ذكر الله مطردة للشيطان عن القلب، كان فيه تذكار للـــنـاس كما قال تعالى: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } (٢٢) .

المصدر :

البداية والنهاية ـ الجزء الأول لابن كثير :

ثانياً : الزعم أن خلق الجن من نار خرافة من خرافات العرب التـــــــي توارثها المسلمون وآمنوا بها:

مضمون الشبهة:

يدعي بعض المشككين أن خلق الجن من نار خالصة لا يشوبها الدخان خـرافة من الخرافات التي يعتقدها العرب ويؤمن بها المسلمون، ويتساءلون: إذا كانت الجن مخلوقة من النار كما يدعي المسلمون فكيف يعذب كافرهم بالنار ؟!

وجوه إبطال الشبهة:

(١) الجن من الأمور الغيبية التي نأخذ علمها عن النقل الذي نص – بنوعيـه القرآن الكريم وأحاديث النبي - ﷺ - على أنها خلقت من مارج من نار، والذي خلقهم من نار قادر أن يعذبهم بها.

(٢) الجن من الأمور الغيبية، وعدم العلم بها ليس دليلا على عدم وجـودها؛ لأن وجودها معلوم من الدين بالضرورة، كما أنه لا سبيل إلى إنكار أمر غيبي.

(٣) أنبياء بني إسرائيل - وعلى رأسهم سليمان - عليه السلام - عرفوا الجن وسخر لهم من قبل الله عز وجل.

التفصيل:

أولا. لا سبيل إلى معرفة خلق الجن من نار إلا عن طريق النقل الصـــــحيح: الجن أمة كالإنس، والواحد جني، سميت بذلك لأنها تتوارى عن الأنظار ولا ترى، أما الشياطين فجمع شيطان، وهو كل عات متمرد سواء من الإنس أو الجن أو الدواب، وعليه فالشياطين ليسوا سوى عتاة الجن ومردتهم، وليس في القرآن الكريم خرافات (حاشا القرآن من ذلك)؛ لأنه الحق المبين الذي : { لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (٢٣) .

ولا يستمد حقائقه من مصدر بشري { تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ} (٢٤) .
خلق الجن من نار حقيقة لا خرافة ،
والقرآن الكريم صريح في أن الجن خلق من نار، قال سبحانه وتعالى { وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ} (٢٥) .

، كما قال سبحانه وتعالى: { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ }(٢٦)
وقال - سبحانه وتعالى - حكاية عن إبليس :{ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٢٧) .
وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال: {خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم} (٢٨) .

وقد يسأل بعضهم : إذا كانت الجن مخلوقة من النار، فكيف يعذب كافرهم بها؟ والجواب ما يأتي: إن الإنسان خلق من طين، ولكنه الآن ليس طينا، بل أصله فقط هو الطين، وكذلك الجن خلقت من نار، ولكنها الآن ليست نارا، والأدلة على ذلك كثيرة، ومنها:

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: { إن رسول الله - ﷺ - كان يصلي فأتاه الشيطان، فأخذه فصرعه فخنقه، قال الرسول ﷺ : حتى وجدت برد لسانه على يدي} (٢٩) .

ومن هنا يتبين لنا أن الجن ليست نارا؛ إذ لو كانت كذلك ما وجد الرسول - ﷺ - للسان الشيطان بردا.
قول الرسول ﷺ: { إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي} (٣٠) .
والشاهد من هذا الحديث أن إبليس لو كان باقيا على ناريته ما احتاج أن يأتي بشهاب من نار.
قول النبي ﷺ: { إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم } (٣١) .
فلو كان باقيا على ناريته لاحترق الإنسان، فإن قيل: المقصود بهذا الحديث هو وسوسة الشيطان. نقول : اتفق علماء الأصول على أنه لا يجوز صرف الكلام عن ظاهره إلا بقرينة. وأين القرينة هنا؟!
وبهذا يعلم الله كما ينادى الإنسان من ضربه بالطين والحجر، مع انه خلق من طين، فإن الجن يتأذون ويحترقون بالنار مع أنهم خلقوا منها، ونضيف إلى ذلك أن الإنسان خلق من طين، ويمكن أن يعذب به، كما أنه خلق من ماء أيضا، ويمكن أن يتعذب به، والأحسن من هذا أن نقول: إن الله على كل شيء قدير.

ثانيا. الجن من الأمور الغيبية :

عدم العلم ليس دليلا على عدم الوجود :

غاية ما عند هؤلاء المكذبين أنه لا علم عندهم بوجودهم وعدم العلم ليس دليلا على عدم الوجود، وهل يعلم الإنسان كل شيء حتى يريد أن يتدخل أيضا في الغيبيات التي اختص الله - عز وجل - نفسه وأنبياءه بأخبارها، وهل عدم سماعنا للأصوات التي يعج بها الكون في كل مكان دليل على عدم وجودها حتى إذا اخترعنا (المذياع) واستطاع التقاط ما لا نسمعه بآذاننا صدقنا بذلك؟!

أخي القارئ :

إن ذكر القرآن لحادث صرف نفر من الجن، ليستمعوا القرآن من النبي - صلى الله عليه وسلم - وحكاية ما قالوا وما فعلوا ، هذا وحده كاف بذاته لتقرير وجود الجن، ولتقرير وقوع الحادث، ولتقرير أن هؤلاء الجن يستطيعون أن يستمعوا للقرآن بلفظه العربي المنطوق، كما يلفظه الرسول ﷺ، ولتقرير أن الجن خلق قابلون للإيمان وللكفران مستعدون للهدى والضلال، وليس هناك من حجة إلى زيادة تثبيت أو توكيد لهذه الحقيقة، فما يملك إنسان أن يزيد الحقيقة كما يقررها - سبحانه وتعالى - ثبوتا.

ولكنا نحاول إيضاح هذه الحقيقة في التصور الإنساني؛ فالكون من حولنا حافل بالأسرار، ما ندري كنهه وما لا ندري، هذا عن كوكب الأرض وحده، وليس في الكون ككل - وهو بالطبع يمتلئ بالعجائب والغرائب مما لا يدركه الإنسان . ونحن ما نزال في أول طريق المعرفة في هذا الكون، فما نعرفه اليوم عن الذرة، وغيرها كان لأسلافنا عجائب أضخم من عجيبة الجن، فلو قال قائل للناس قبل خمسة قرون عن شيء من أسرار الذرة التي نتحدث عنها اليوم لظنوه مجنونا.

ونحن نعرف ونكشف في حدود طاقتنا البشرية المعدة للخلافة في هذه الأرض، وما عدا هذه الدائرة فلم نكلف بالتنقيب عنه؛ إذ نحن قاصرون عن فهم مداركه، لذا رحمنا الله - عز وجل - من مشقة الغول فيه، وسنكشف الكثير مما قد تعد أسرار الذرة بالقياس إليه لعبة أطفال، ولكن في حدود قوله سبحانه وتعالى:

{ وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (٣٢) .

فليس لنا إزاء هذه الحالة أن نجزم بوجود شيء أو نفيه، وبتصوره، أو عدم تصوره من عالم الغيب المجهول، ومن أسرار هذا الوجود وقواه المجردة؛ وذلك أنه خارج عن مألوفنا العقلي، أو تجاربنا المشهورة؛ فهذا لا يفيد في مسألة خلافتنا في الأرض (٣٣) .

والقول الحق: أن الجن عالم ثالث غير الملائكة والبشر، وأنهم مخلوقات عاقلة واعية مدركة، ليسوا بأعراض ولا جراثيم، وأنهم مكلفون مأمورون منهيون، ولهم عقائد وديانات مثل الآدميين تماما (٣٤) .

وجود الجن معلوم من الدين بالضرورة :

يقول ابن تيمية: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمدا - ﷺ إليهم. وجمهور طوائف الكفار على إثبات الجن. أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى فهم مقرون بهم كإقرار المسلمين، وإن وجد فيهم من ينكر ذلك، كما يوجد في المسلمين من ينكر ، وليسوا على صواب، وإذا كان أمر الجن متواترا عن الأنبياء تواترا تعرفه العامة والخاصة، فلا يمكن لطائفة من المنتسبين إلى الرسل الكرام أن تنكره، والأدلة على ذلك كثيرة؛ منها:

قوله سبحانه وتعالى: { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ} (٣٥).

قوله سبحانه وتعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} (٣٦).

قوله سبحانه وتعالى: { يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ} (٣٧).

قوله سبحانه وتعالى: { قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} (٣٨).

قوله سبحانه وتعالى: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْـــجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا} (٣٩).

قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاء فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ}(٤٠).

قوله سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}(٤١).

بل إننا نجد سورة كاملة في القرآن الكريم تتكلم عن الجن، وقد وردت كلمـــــة (الجن) في القرآن اثنتين وعشرين مرة، وكلمة (الجان) سبع مرات، والشاهد أن الآيات في ذكر الجن والشياطين كثيرة (٤٢).

لا سبيل إلى إنكار أمر غيبي :

لقد عرف العرب الجن قبل البعثة المحمدية، كما قال ابن عبد البر:
الجن عند أهل الكلام والعلم باللسان منزلون على مراتـــــــــــب .
فإذا ذكروا الجن خالصا قالوا: جني،
وإن أرادوا من يسكن مع الناس قالوا: عامر والجمع عمار وعوامر،
وإن كان ممن يعرض للصبيان قالوا أرواح،
وإن خبث وتعزم فهو شيطان،
وإن زاد على ذلك فهو مارد،
وإن زاد على ذلك وقوى أمره : قالوا عفريت و الجمع عفاريت .
هذا عند العرب، وعرفه - كما أسلفنا - أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أما المنكرون، فليس لهم أدلة على إنكارهم، ومن نحن حتى نقر أو ننكر أمرا أثبته الله - سبحانه وتعالى - خالق الكون والعالم بما فيه،

وخلاصة القول في هذا الأمرأن الجهل بالشيء ليس دليلا على عدم وجوده، إنه الجدال والمكابرة وحسب في كل ما أنزله الله سبحانه وتعالى. فالجن مــخلوقات مثلنا لا يعلم كيفيتها إلا الله، لكنهم مكلفون مثلنا، ومنهم الصالح والـــــطالح ، وقال - سبحانه وتعالى - على لسان الجن: { وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} (٤٣) ،

والثابت أن لهم أشكالا مختلفة، وذلك على النحو الآتي:
عن أبي ثعلبة الخشني - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: {الجن على ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء، وصنف حـــيات، وصنف يحلون ويظعنون }(٤٤) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية الجن يتصورون في صورة الإبل والبـــقر والغنم والخيل والحمير ، وفي صور بني آدم... وقد أتى الشيطان لقريش في صورة شيخ نجدي لما اجتمعوا بدار الندوة، هل يقتلون الرسول - ﷺ - أو يحبسونه أو يخرجونه. والأحاديث عن أشكالهم وصورهم أكثر من أن تحصر.

ثالثا. أنبياء بني إسرائيل - وعلى رأسهم سليمان - عليه السلام - عرفوا الجن، بل وسخروهم:
لقد أعطى الله الجن قدرة لم يعطها للبشر ، وقد حدثنا - عز وجل عـــن بعض قدراتهم، فمن ذلك : سرعة الحركة والانتقال، فقد تعهد عفريت من الجن لنبي الله سليمان - عليه السلام - بإحضار عرش ملكة اليمن إلى بيت المــقدس في مدة لا تتجاوز قيام رجل من جلوسه، قال سبحانه وتعالى:
{قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْـــهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ} (٤٥) ،
فقال الذي عنده علم من الكتاب :{ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ} (٤٦) .

وقد أخبر الله ـ سبحانه وتعالى ـ في كتابه الكريم بأنه سخر الجن لسليـــــمان . عليه السلام ـ إذ قال: { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْــرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ} (٤٧) .
وقال: { وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ } (٤٨) ،
وقال أيضا: { وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ} (٤٩) .

فهذا يدل على أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخر لسليمان ـ عليه السلام ـ الجن تطيعه وتنفذ أمره فيهم، ويعملون له ما يشاء من ضخم المباني والعـــــمائر والتماثيل ـ وكانت التماثيل يجوز صنعها عندهم ـ والقدور (٥٠) الراســيات (٥١) والجفان(٥٢) التي تشبه الحياض لسعتها.
وقد ذكر في سفر الملوك الأول العمائر التي قام بعملها سليمان عليه الــسلام وهي:
١. بيت الرب.
٢. بيت الملك.
٣ سور أورشليم.٤. حاصور.
٥ مجد.
٦. جازر.
٧. بيت حورون السفلي.
٨. بعلة.
٩. دمر في البرية.

ومن نظر إلى هذه الأعمال وفخامتها وضخامة أحجارها لم يستبعد أن يكون للجن عمل عظيم في ذلك، وبعض آثارها الضخمة ماثل اليوم.

قال البيضاوي: روي أنهم عملوا له أسدين في أسفل كرسيه ونسرين فوقه، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما، ويصنعون له القدور الراسيات على أثافيها لا تحرك لعظمها وثقلجفها والجفان كالجوابي أي الحياض الكبيرة، وقد كان بناء الهيكل(٥٣) وما معه في سبع سنوات فقط، وهو زمن يسير بالنسبة لعظمه. وهكذا نجد الجن حقيقة في كل الأديان والعقائد، وإن لم يقر هؤلاء لجهلة الملحدون بوجودها فقد أقرها الله – عز وجل - وكفى بالله حسيبا (٥٤) .

الخلاصة:

الجن من مخلوقات الله تعالى، وهو أعلم بخلقهم ولا نعلم منهم إلا ما علمنا سبحانه وقد أخبرنا - عز وجل - في محكم كتابه أنهم مخلوقون من النار، كما أخبر رسوله الكريم بذلك، وما الضير ؟ فقد خلقت الملائكة من النور، وخلق الإنسان من الطين، والجن من نار سبحانه له في خلقه شئون.

الجن من الأمور الغيبية التي تؤخذ عن السمعيات، وقد ورد ذكرهم في القرآن وصحيح السنة بالتواتر، فلا سبيل إذن إلى إنكارهم؛ إذ إن عدم العلم بالشيء ليس دليلا على عدم وجوده، فكيف يكون الحال إذا وجدت الأدلة؟!

من الثابت تاريخيا عند المسلمين وغيرهم أن من أنبياء بني إسرائيل من سخرت له الجن، ومن هؤلاء سيدنا سليمان - عليه السلام - الذي بنت له الجن التماثيل والمحاريب والحياض، كما نقلوا له عرش ملكة سبأ، وغيرها الكثير من الخوارق التي لا سبيل إلى إنكارها، وهذا من فضل الله الذي يؤتيه من يشاء.

والله تبارك وتعالى خلق الجن والإنس ليعبدوه كما قال سبحانه:
{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨)} (٥٥) .
وللجن طبيعة مزدوجة كطبيعة الإنسان في الاستعداد للهدى والضلال كما قال الله عنهم: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)} (٥٦) .

وهذا الإقرار من الجن يفيد ازدواج طبيعة الجن، واستعدادهم للخير والشر كبني آدم، إلا من تمحض للشر منهم، وهو إبليس وقبيله.
فليس كل الجن يمثلون الشر، بل فيهم المؤمن والكافر، والمطيع والـــــــعاصي، ولكن تمحض من الجن للشر إبليس وذريته كما قال سبحانه:
{وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِـــــــنَ الْكَافِرِينَ (٣٤)} (٥٧) .

والمؤمنون من الجن يعرفون عظمة الله وقدرته، ويدركون أنهم لا يستطيعون الهرب من سلطانه، ولا الإفلات من قبضته، كما حكى الله عنهم أنهم قالـــــوا:
{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢)} (٥٨) .

وهم يتأثرون بسماع الهدى كالإنس فيؤمنون، وهم مطمئنون إلى عـــدل الله وقدرته، مؤمنون أن الله لا يبخس المؤمن حقه، ولا يرهقه فوق طاقــــــته.
والجن كالإنس في الهدى والضلال، والجزاء على الهدى أو الضلال كما قال سبحانه: {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥)} (٥٩) .

فالجن كالإنس يعذبون بالنار، وينعمون بالجنة، حسب إيمانهم وأعمالهم، وكل ميسر لما خلق له.
والله عزَّ وجلَّ أمر الإنس والجن بعبادته، وأعطاهم القدرة على امتثال الأوامر والعمل بالشرع، وأعطى كل جنس من الطاقات والقدرات ما يناسب حـــــــاله.
فإذا استطاع إنسان أن يسخر جنياً فقد حصل على فرصة أكبر من أفراد جنسه، فهو يستطيع أن يفعل مالا يستطيع أن يفعله غيره من البشر.
فإذا استبد بهذا الإنسان هواه وأنانيته، واستخدم هذه الميزة في الشر بدلاً من الخير، سلط الله عليه ما يجعله مرهقاً متعباً في حياته.
ولذلك نجد أمثال هؤلاء الناس يعيشون حياة تعسة شقية، وينتهي أمرهـــــــم بالانتحار أو الجنون أو النكد.
فالذي يأخذ فرصة أعلى من غيره قد تشقيه ولا تسعده، والذي يعطيه الله فرصة أقوى، إذا لم يستخدمها في الخير، سلط الله عليه الشقاء.

فالذي يستعين بقوى غير قوى البشر كالجن مثلاً، نجد شكله منفراً، ورغم أنه قد يستخف بعقول بعض البشر، ويحصل منهم على أموال، إلا أننا نجده دائماً مفلساً معسراً قلقاً، ويموت غالباً على أسوإ حال. فالفرصة غير المتـــكافئة لا تجلب له إلا الشقاء كما قال سبحانه: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦)} (٦٠) .

المراجع: للباب الثالث : الفصل الأول :

---

(١) (سورة الرحمن ، آية : ١٤-١٦)
(٢) (سورة الحجر ، آية : ٢٦-٢٧)
(٣) (رواه مسلم)
(٤) (سورة الحجر ، آية : ٣٠-٣١)
(٥) (سورة الكهف ، آية : ٥٠)
(٦) (سورة الإسراء ، آية : ٦٢-٦٥)
(٧) (سورة الأحقاف ، آية : ٢٩-٣٢)
(٨) (سورة الجن ، آية : ١-١٧)
(٩) (رواه الترمذي، عن جبير، وابن جرير، والبزار، عن ابن عمر) .
(١٠) (سورة الرحمن ، آية : ٤٦-٤٧)
(١١) (سورة الإسراء ، آية : ٦٥)
(١٢) (سورة سبأ ، آية : ٢٠-٢١)
(١٣) (سورة الاعراف ، آية : ٢٧)
(١٤) (سورة الحجر ، آية : ٢٨-٤٤)
(١٥) (سورة سبأ ، آية : ٢١)
(١٦) (سورة ابراهيم ، آية : ٢٢- ٢٧)
(١٧) (سورة النساء ، آية : ٧٦)
(١٨) (صحيح مسلم ٢٨١٣)
(١٩) (سورة البقرة ، آية : ١٠٢)
(٢٠) (سورة الناس ،)
(٢١) (صحيح البخاري)
(٢٢) (سورة الكهف ، آية : ٤٢)
(٢٣) (سورة فصلت ، آية : ٢٤)
(٢٤) (سورة الواقعة ، آية : ٨٠)
(٢٥) (سورة الرحمن ، آية : ١٥)
(٢٦) (سورة الحجر ، آية : ٢٧)
(٢٧) (سورة ص ، آية : ٧٦)
(٢٨) (أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة (٧٦٨٧).)
(٢٩) (إسناده :قوي أخرجه النسائي في السنن الكبرى، كتاب التفسير سورة الصافات (١١٤٣٩) ، وابن حبان في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يكره للمصلي وما لا يكره (٢٣٥٠)، وقوى إسناده الأرنؤوط في تعليقه على صحيح ابن حبان (٢٣٥٠).
(٣٠) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب جواز لعن الشيطان في أثناء الصلاة والتعوذ منه (١٢٣٩).

(٣١) (أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (٣١٠٧)، وفي مواضع أخرى، ومسلم في صحيحه، كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رؤي خاليا بامرأة وكانت زوجة أو محرما (٥٨٠٧).)
(٣٢) (سورة الإسراء : آية ٨٥) .
(٣٣) عالم الجن والشياطين، د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، دار النفائس الأردن، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م، ص١٤ وما بعدها.
(٣٤) (في ظلال القرآن سيد قطب، دار الشروق القاهرة، ط١٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ج٦، ص ٣٢٧٠.
(٣٥) (سورة الاحقاف :آية ٢٩)
(٣٦) (سورة الأنعام :آية ١٣٠)
(٣٧) (سورة الرحمن :آية ٣٣)
(٣٨) (سورة الجن :آية ٣٨)
(٣٩) (سورة الجن :آية ٦)
(٤٠) (سورة المائدة :آية ٩١)
(٤١) (سورة النور :آية ٢١)
(٤٢) (في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٣ ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ١٧.)
(٤٣) (سورة الجن :آية ١١)
(٤٤) (يحلون ويظعنون يقيمون ويرحلون. (صحيح أخرجه ابن حبان في صحيحه كتاب التاريخ باب بدء الخلق ،(٦١٥٦)، والطبراني في المعجم الكبير ، باب اللام ألف (٥٧٣)
(٤٥) (سورة النمل :آية ٣٩)
(٤٦) (سورة النمل :آية ٤٠)
(٤٧) (سورة سبأ :آية ١٢)
(٤٨) (سورة ص :آية ٣٧)
(٤٩) (سورة النمل :آية ١٧)
(٥٠) (القدور جمع قدرة، وهي إناء يطبخ فيه الطعام)
(٥١) (الراسيات الثابتات على المواقد لا تنزل عنها لعظمها)
(٥٢) (الجفان جمع جفنة، وهي البئر الصغيرة.)
(٥٣) (الهيكل: موضع مقدس في صدر المعبد أو الكنيسة، تقرب فيه القربان).
(٥٤) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، عند تفسير الآية).
(٥٥) (سورة الذاريات :آية ٥٦- ٥٨)
(٥٦) (سورة الجن :آية ١١)
(٥٧) (سورة البقرة :آية ٣٤)
(٥٨) (سورة الجن :آية ١٢)
(٥٩) (سورة الجن :آية ١٤- ١٥)
(٦٠) (سورة الجن :آية ٦)

الباب الثالث : الفصل الثاني : باب خلق نبي الله آدم عليه الصلاة والسلام :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي افتتح خلق هذا العالم بالقلم ليكتب المقادير قبل كونها، ثم خلق الأرض والسموات، مهَّد الدار قبل الساكن، وجعل آدم آخر المخلوقات، وأظهر فضله وشرفه بأنه خلقه بيديه، وعلَّمه أسماء كل شيء، وأباحه جنته يسكن منها حيث شاء، ويأكل منها ما شاء، وأسجَد له الملائكة المقربة لديه، وأظهر ما في قلب عدوه من كامن الكبر، والحسد، والشر.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق خلقه أصنافًا وأطوارًا، وسبق في حُكْمِهِ وحِكْمَتِهِ تفضيل آدم وبنيه على كثير ممن خلق تفضيلا؛ وجعل عبوديتهم أكمل من عبودية غيرهم، يخشون ربهم بالغيب، ويأتون بالطاعات طوعًا واختيارًا، لا كرهًا واضطرارا.
وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، كُتِبَ نبيًا وآدم بين الروح والجسد، ونهى عن الحرص والحسد. اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وجميع أصحابه، وكل من اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد : أولاً :
فقد قال الله تعالى: { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} (١) .

أخي القارئ:
ذكَر الله -جل وعلا- بداية خلق (الإنسان الأول) آدم أبي البشر -عليه السلام-، ومادته التي خلق منها، وفضائله، وسكناه الجنة، وما جرى عليه وعلى عدوه من شؤم المعصية، ومخالفة الأمر، فذكر الله حالهما ومآلهما؛ ليكون عظة وعبرة لأولادهما.

{إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} (٢) : يخبر الله تعالى عن امـــــتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، (خَلِيفَةً): قومًا يخـــلف بعضهم بعضًا قرنًا بعد قرن، وجيلاً بعد جيل.

ولما اعترضت الملائكة على خلق هذا الخليفة و{قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} (٣) . أجابهم – سبـــحانه- بأن في خلقه مِن الحكم والمصالح ما لا تعلمه الملائكة، ويعلمه الخالق سبحانه.

وأظهر -سبحانه- من علمه وحكمته الذي خفي على الملائكة من أمــــر هذا الخليفة ما لم يكونوا يعلمونه، بأن جعل مِن نسله مِن أوليائه وأحبابه ورســله وأنبيائه مَن يتقربون إليه بأنواع القربات، ويبذلون أنفسهم في محبـــته ومرضاته، يسبحون بحمده آناء الليل وأطراف النهار، ويذكرونه قائمـــين وقاعدين وعلى جنوبهم، ويعبدونه ويشكرونه في السراء والضراء، والشدة والرخاء، والعافية والبلاء، ويعبدونه مع معارضة الشهوة، وغلبة الهـــوى، ومعادات بني جنسهم وغيرهم، فلا يصدهم عن عبادته وشكره وذكره والتقرب إليه صادٌّ؛ فإن كانت عبادتكم لله بلا معارض ولا ممانع، فعبادة هؤلاء تكون مع المعارضات والموانع والشواغل.

وأظهر لهم -سبحانه- من علمه ما لم يكونوا يعلمون من شرف آدم وفضله؛ فإن الملائكة لما رأته مصوَّرًا فزعت منه، وقالت: لِيخلق ربنا ما شاء، فلن يخـــلق خلقًا أكرم عليه منا؛ فلما خَلق آدم، وأمرهم بالسجود له، ظهر بذلك فضـــله وشرفه عليهم.

ذُكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إن الله لما أخذ في خـــلق آدم – عليه السلام- قالت الملائكة: ما الله خالق خلقًا أكرم عليه منا، فابتلوا بخلق آدم، وكل خَلق مبتلى، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة، قال الله:
{إئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} (٤) .

ثم أظهر -سبحانه- فضل آدم على الملائكة بالعلم الذي خُص به دونهم، {وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا} (٥) ، وكان ذلك بعد سجودهم له، علَّمه الأشياء كلها: ذواتها، وصفاتها، وأفعالها؛ إنسان، ودابة، وأرض، وسهل، وبحر، وجبل، وحمار؛وأشباه ذلك من الأمم وغيرها، ثم {عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ} (٦)، عرَض الخلق على الملائكة {فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} في أني لم أخلق خلقًا إلا كنتم أعلم منه وأكرم، {قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ * قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ}(٧) . عرفوا أن الله فضَّل عليهم آدم بالعلم.

فلما وقع آدم -عليه السلام- في الذنب ظنت الملائكة إن ذلك الفضل قد نُسخ، ولم تطَّلع على عبودية التوبة الكامنة، فلما تاب إلى ربه، وأتى بتلك العبودية؛ علمت الملائكة أن لله في خلقه سرًا لا يعلمه سواه.

وأظهر لهم -سبحانه- من علمه ما خفي عليهم مِن شأن مَن كانوا يعظمونه ويجلُّونه مما لم يكونوا يعلمون؛ فإن الرب تعالى لما أمر الملائكة بالسجود ظهر ما في قلوبهم من الطاعة والمحبة،
والخشية والانقياد، فبادروا إلى الامتثال، وظهر ما في قلب عدوه من الكبر والغش والحسد، فأبى واستكبر وكان من الكافرين، و{قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (٨) .

فاللعين، لقصور نظره، وضعف بصيرته، رأى صورة الطين ترابًا ممزوجًا بماء فاحتقره، ولم يعلم أن الطين مركب من الماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والتراب الذي هو خزانة المنافع والنعم، ثم لم يتجاوز نظره محل المادة إلى كمال الصورة الإنسانية التامة المحاسن خَلْقًا وخُلُقًا، ثم لم يدر اللعين أن المادة التي خلق منها هو فيها الإحراق والعلو والفساد، { وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ} (٩) .

ولما سبق في حكم الله وحكمته بأن يجعل في الأرض خليفة، لم يكن بد من إخراج آدم من الجنة، فكان من أسباب إخراجه النهي عن تلك الشجرة، وتخليته بينه وبين عدوه حتى وسوس إليه بالأكل، وتخليته بينه وبين نفسه حتى وقع في المعصية، قال الله تعالى: { وَيَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (١٠) .

ومن الحكمة في إخراجه من الجنة إظهارُ كمال أسماء الله الحسنى، وإن كان لم يزل كاملاً، فمن كماله ظهور آثار كماله في خلقه وأمره؛ فإنه الملِك الحق المبين، والملك هو الذي يأمر وينهى، ويكرِم ويهين، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) (١١) .

فأنزل الله تعالى الأبوين والذرية إلى دار تجري عليهم فيها هذه الأحكام، أنزلوا إلى دار يكون إيمانهم فيها تامًا، فإن الإيمان قول وعمل، وجهاد وصبر واحتمال، فكان إخراجهم من الجنة إلى الدار التي خلقوا لها تكميلاً لهم، وإتمامًا لنعمته عليهم، وليعرفوا قدر تلك الدار التي أخرجوا منها.

إن آدم أخرج من جنة الخلد التي في السماء ليعود إليها على أحسن أحواله، ما قدَّر أحكم الحاكمين ذلك باطلاً، ولا دبَّره عبثًا، ولا أخلاه من حكمته البالغة، وحمده التام. وخلق بنيه من تمام الحكمة والرحمة والمصلحة، وإن كان وجودهم مستلزمًا لشرٍ فهو شرٌّ مغمور فيما في إيجادهم من الخير.

أخي القارئ :

إن الله سبحانه لما أراد خلق آدم -عليه السلام- أخذ من جميع الأرض قبضة من التراب، ثم ألقى عليها الماء فصارت طينًا أملس، ثم أرسل عليها الريح فجففتها حتى صارت ترابًا يابسًا، ثم قدَّر لها الأعضاء، والمنافذ، والأوصال، والرطوبات؛ وصوَّرها فأبدع في تصويرها، وأظهرها في أحسن الأشكال، وهيَّأ كل جزء منها لما يراد له، وقدَّره لما خُلق له على أبلغ الوجوه، وألقاها على باب الجنة أربعين سنة، والملائكة تراها ولا تعرف ما يراد منها، وإبليس يمر على جسده فيعجب منه ويقول: خُلقتَ لأمر عظيم! ولئن سُلِّطتُّ عليك لأهلكنك، ولئن سلطتَّ عليَّ لأعصينك. ولم يعلم أن هلاكه على يده.

فلما تكامل تصويرها، وصارت جسدًا مصوَّرًا مشكَّلاً كأنه ينطق، إلا أنه لا روح فيه ولا حياة، أرسل الله إليه روحه (جبريل) فنفخ فيه نفخة، وانقلب ذلك الطين لحمًا ودمًا وعظامًا وعروقًا، وسمعًا وبصرًا، وشمًّا ولمْساً، وحركة وكلامًا، فأول شيء بدأ به أن قال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فقال له خالقه وباريه ومصوره: يرحمك الله يا آدم.

ثم استوى جالسًا، أجمل شيء وأحسنه منظرًا، وأتمه خلقًا، وأبدعه صورة، فقال الرب تعالى لجميع ملائكته: (اسْجُدُوا لِآدَمَ) (١٢) ، فبادروا بالسجود، تعظيمًا وطاعة لأمر الواحد المعبود.

ثم قال لهم: لنا في هذه القبضة من التراب شرع أبدع مما ترون، وجمال باطن أحسنُ مما تبصرون، فلنزينن باطنه أحسن من زينة ظاهره، ولنجعلنه من أعظم آياتنا، نعلمه أسماء كل شيء مما لا تحسنه الملائكة.
ثم اشتق منه صورة هي مثله في الحسن والجمال، (حواء)، ليسكن إليها، وتقر نفسه، وليخرج من بينهما من لا يحصي عدده سواه، من الرجال والنساء.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال: { خلق الله آدم -عليه السلام- وطوله ستون ذراعًا، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم. قال: فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن} . (١٣) .

وروى الترمذي وأبو داود عن أبي موسى الأشعري -رضي الله عـــــنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: {إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: منهم الأحمر، والأبيـــض، والأسود، وبين ذلك؛ والسهل والحزن؛ والخبيث والطيب}.(١٤) .

كما أن المادة التي خلق منها الجن فيها الإحراق والعلو والفساد، وفيها الإشراق والإضاءة والنور، فأخرج منها سبحانه هذا وهذا، حكمة باهرة، وقـدرة قاهرة، وآية دالة على أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ثانياً : فائدة:

الخِلقة التي خُلق عليها سيدنا ءادم عليه السلام:

خلق الله سيدنا آدم عليه السلام جميل الشكلِ والصورة وحسن الصـــوت لأن جميع أنبياء الله الذين بعثهم الله لهداية الناس كانوا على صورة جميلة وشكل حسن وكذلك كانوا جميلي الصوت، قال ﷺ: { ما بعثَ الله نبيًّا إلا حسنَ الوجهِ حسن الصوتِ وإنَّ نبيَّكم أحسنهم وجهًا وأحسنهم صوتًا }.(١٥) .

ولقد كان طول سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام ستين ذراعًا، وكان وافر الشعر شبهه رسول الله في الطول بالنخلة السَّحُوق، وجاءَ في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم أنه قال: { إنّ آدمَ كانَ طُولُه ستّين ذراعًا }(١٦) .

فلما خلق الله آدم قال: اذهب فسلم على أولئك (نفر من الملائكة جلوس) فاستمع ما يُحَيُّونَك فإنها تحيّتك وتحية ذريّتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله.

وكل من يدخل الجنة يكون على صورة ءادم في الطول فقد ورد في مسند الإمام أحمد بإسناد حسن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أن أهل الجنة يدخلون الجـــنة على خلق آدم ستين ذراعًا في عرض سبعة أذراع.

فائدة: روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ: (إن اللهَ عزّ وجلّ لما صـــوَّر آدم تركه ما شاء اللهُ أن يتركَه فجعل إبليس يُطيف به فلما رءاه أجوف عـرف أنّه خلقٌ لا يتمالك)، وعند أبي يعلى: (فكان إبليس يمر به فيقول: لقد خلقتَ لأمر عظيم). (١٧) .

ففي هذا الحديث الصحيح دليل على أن إبليس كان في الجنة لما خـلق آدم وذلك قبل أن يكفر لأنه كان مسلمًا يتعبد مع الملائكة ولم يكن منهم من حيث الـــجنس والأصل لأن الملائكة أصلهم النور وإبليس أصله من مارج من نار أي لهب النار، وفيه أن إبليس كان يدور حول هيكل آدم وذلك قبل أن ينفخ فيه الروح فـــرءاه أجوف أي شيئًا غير مُصَمَتٍ بل له جوف، فعرف أنه خلق لا يتمالك أي ليـــــس كالملائكة ولا كالجمادات بل هو أضعف من ذلك.

ومن الكذب الظاهر ما شاع من نظرية ابتدعها بعض الكفار وهي أن أصل البشر قرد أو يشبه القرد وهذا فيه تكذيب لقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ} (١٨) .
فسيدنا آدم عليه الصلاة والسلام هو أول إنسان خلقه الله تبارك وتعالى، لم يكن أصله قرداً ثم ترقى حتى صار إنساناً {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا} (١٩) .فنظرية داروين التي تقول إن الإنسان أصـــــــله قرد ثم ترقى بسبب العوامل المجهولة حتى صار هذا الإنسان هي نظرية باطـلة لا تقوم على أساس علميّ وتردها دلائل النقل وإن تلقفها المفتونون بكل جــــــديد ولو كان سخيفًا باطلاً.

ذكر إخراج أرواح ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق: (٢٠) .
روى النسائي وأحمد وابن جرير والحاكم في المستدرك بالإسناد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: { إنَّ اللهَ أخذ الميثاقَ من ظهر آدم علـــيه السلام بنعمان يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرها بين يديـه ثم كلمهم قُبلاً قال: {أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ ءابَاؤُنَا من قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّـن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ} (٢١) .

وروى الإمام أحمد في مسنده بإسناده عن شعبة، عن أبي عمران عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: {يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: لو كان لك ما على الأرض من شيء أكنتَ مفتديًا به ؟ قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك ما هو أهون من ذلك، قد أخذت عليك في ظهر آدم أن لا تشرك بي شيئًا فأبيت إلا أن تشرك بي}، وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث شعبة به. (٢٢) .

فهذه الأحاديث كلها دالة على استخراجه سبحانه وتعالى ذرية آدم من ظهره كالذرّ ثم استنطقهم وأخذ عليهم العهد وأشهد عليهم أنفسهم.

خلق حواء عليها السلام:

خلق الله تعالى سيدتنا حواء من ضلع آدم الأيسر الأقصر كما جاء في الحديث الذي رواه الشيخان: { ولأم مكانه لحمًا} قيل لذلكَ سميت حواء بهذا الاسم لأنها خلقت من شيء حيّ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: { استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضِلَع، وإنَّ أعوجَ شيء في الضّلع أعلاه، فإن ذَهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء} الحديث. (٢٣) .

ولم يخلق الله تبارك وتعالى حواء طفلة صغيرة ثم طورها إلى الكبر، بل خلقها على هيئتها التي عاشت عليها كبيرة طويلة مناسبة لطول آدم عليه السلام، قال الله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً} (٢٤). وقال تعالى:
{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا} (٢٥) .
وقد زوَّج الله تعالى ءادم حواء وجعلها له حلالاً في الجنةِ ثم كانا كذلك في الأرض.

سجود الملائكة الكرام لنبي الله آدم عليه السلام واعتراض إبليس اللعين

أمر الله تبارك وتعالى الملائكةَ بالسجود لسيدنا آدم عليه السلام فامتثل الملائكةُ لأمر الله وسجدوا كلهم لأن الملائكة كما وصفهم الله تعالى: {لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (٢٦) .

وأما إبليس فقد استكبر واعترض على الله ولم يمتثل لأمره وقال: {أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٢٧) . فكفر وظهر منه ما قد سبق في علم الله تعالى ومشيئته من كفره واعتراضه باختياره، وقد ورد في الأثرِ أنه كـــان قبل كفره يسمى عزازيل.

وروى مسلم وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { إذا قرأ ابن آدم السجدة (التي في بعض سور القرءان) فسجدَ اعـــتزل الشيطان يبكي يقول: يا ويلَه، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجودِ فأبيت فلي النار}.(٢٨) .

ثم بعد أن عرف إبليس اللعين أنه ملعون طلب من الله أن ينظره أي يؤخره إلى يوم البعث أي يوم الخروج من القبور، ولكن الله لم يجبه إلى ذلك بل أخره إلى النفخة الأولى ليذوق الموت الذي حكم الله به على خلقه، قال تعالى مخبرًا عن قول إبليس: {قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} (٢٩) .

ومعنى قوله تعالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} (٣٠) .
أي إلى زمن نفخة الإهلاك وهي نفخة إسرافيل في البوق فيموت كل حي من الإنس والجن من هَول ذلك الصوت (قال البخاري في تفسير قوله تعـــالى: {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ} إلا ملكه، ومعناه سلطان الله لا يهلك).

ثم إن إبليس اللعين لما اعترض وكفر أمره الله بالخروج من الجنة، قال تعالى: {قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا} (٣١) . وقال تـعالى:
{فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ }(٣٢) .
وقد كان إبليس قبل ذلك الوقت مسلمًا مؤمنًا من الجنّ يعبد الله مع الملائكـــــة، وذلك قبل أن يكفر ويعترض على الله، وليس صحيحًا أنه كان طاووس الملائكة ولا رئيسًا لهم كما يزعم بعض الجهال، قال الحسن البصري: لم يكن إبليس من الملائكة طرفة عين قط، وقال شهر بن حوشب: كان من الجن، ويدل على ذلك

قوله تعالى: {قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ} (٣٣) ، وقوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} (٣٤) فلو كان من الملائكة لم يعص ربه لأن الله تعالى وصفهم في القرءان الكريم بقوله: {لا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} (٣٥) .

ومما يدل أيضًا على أن إبليس ليس من الملائكة بل هو من الجن قوله تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} (٣٦) .ففي هذه الآية دليل على أن إبليس مخلوق من نار، بخلاف الملائكة فإنهم خلقوا من نور كما جاء في صحيح مسلم وغيره عن عائشة رضي الله عنها عن رسول الله ﷺ قال: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخُلق آدم مما وُصف لكم".

أما سجود الملائكة لآدم فكان سجود تحية وإكرام لا عبادة لآدم، وكان سجود المخلوق للمخلوق جائزًا في شرائع الأنبياء ثم حرمه الله في شرع سيدنا محمد ﷺ.

خلافة بني آدم في الأرض:

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (٣٧) .

هذه الآية تخبر أن الله قضى على آدم وبَنِيه باستخلاف الأرض لعمارتها والانتفاع بما أودعه فيها من نبات وحيوان ومعادن ويتولى بعضهم على بعض بالحكم وغير ذلك.

وقد أخبر الله الملائكة وأعلمهم أنه سيجعل بني آدم خليفة في الأرض يسعون فيها ويمشون في مناكبها وينتشر نسلهم في أرجائها، ويأكلون من نباتها ويستخرجون الخيرات من باطنها ويخلف بعضهم بعضًا فيها.

فسألت الملائكة ربها للاستكشاف عن الحكمة في جعله خليفة في الأرض لا للاعتراض على الله وقالت: {أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} (٣٨) .أي نحن نعبدك دائمًا ولا يعصيك منا أحد.

فبيّن اللهُ للملائكة الحكمةَ من جعل بني ءادم خليفة في الأرض وهو أن البشر وإن كان فيهم من يسفك الدماء ويفسد في الأرض، لكن منهم الأنبياء والأولياء، ونصب لهم دليلاً على فضل آدم أن علمه أسماء كل شىء فتفوق على الملائكة بذلك وقال الله لآدم: {أنبئهم بأسمائهم} (٣٩) .فصار آدم يقول لهم هذا اسمه كذا هذا اسمه كذا فعرفوا أن هذا الجنس أفضل منهم.

كيف عرف الملائكة أن بني آدم يفسدون:

عرف الملائكةُ ذلك من أنه كان مضى قبل ذلك جن يعيشون في الأرض فأفسدوا فأحرقتهم الملائكة على ما ورد في بعض الآثار، وليس السبب ما قال بعض الناس أنه سبق قبل آدم أو ادم كثير حتى قال بعضهم كان مائة ألف آدم ، وهذا قول هراء ليس له أساس من الصحة.

أما سجود الملائكة لآدم فكان سجود تحية وإكرام لا عبادة لآدم، وكان سجود المخلوق للمخلوق جائزًا في شرائع الأنبياء ثم حرمه الله في شرع سيدنا محمد ﷺ.

سكنى آدم وزوجته حواء الجنة :

أمر الله تعالى سيدنا آدم وزوجته حواء التي جعلها حلالاً له أن يسكنا الجنة، وهي جنة الخلد التي سيدخلها المؤمنون يوم القيامة.

وقد أباح الله لآدم وحواء سكنى الجنة والأكل من ثمارها والشرب من مياهها والتنعم بنعيمها من غير مشقة ولا تعب يلحقهما في الحصول على ما يريدان من طعام وشراب، إلا شجرة واحدة حرمها عليهما ونهاهما عن الأكل منها، وحذرهما من عداوة إبليس وإغوائه لهما، ولم يرد في القرءان الكريم ولا في

الحديث الثابت الصحيح عن رسول الله ﷺ ما هي هذه الشجرة، لذلك اختلف العلماء في تعيينها فقيل هي الحنطة وقيل هي التفاح، وقيل هي النخلة، وقيل التين، وقيل غير ذلك، فقد تكون واحدة من هذه وقد تكون من غيرها، وقال بعضهم: هذا الخلاف لا طائل تحته لأنه لا يتعلق بتعيينها حكم شرعيّ ولا فائدة تاريخية وإلا لعينها لنا القرءان.

وسكن آدم وزوجه حواء الجنة وصارا يتمتعان بما فيها من نعيم وما فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، فكان يتنقل بين أشجارها ويقطف من ثمارها ويتنعم بفاكهتها ويشرب من عذب أنهارها ومياهها، قال الله تعالى: {وَقُلْنَا يَا ءادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ} (٤٠) .

سبب خروج آدم من الجنة :
السبب في ذلك أن آدم خالف النهي الذي نهاه الله لأنه أعلمه بالمنع من أكل شجرة واحدة من أشجار الجنة وأباح له ما سواها فوسوس الشيطان له ولحواء أن يأكلا منها فقال لهما ما أخبر الله تعالى في القرءان: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ} (٤١) .
فأكلا منها فأخرجهما الله تعالى من الجنة، وكان ذلك قبل أن تنزل عليه النبوة والرسالة لأنه إنما نبِّىء بعد أن خرج من الجنة فتابا من تلك المعصية، ولا تعد تلك المعصية معصية كبيرة قال الله تعالى: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} (٤٢) .

ثم بعد خروجهما من الجنة تناسلا فعلّم ءادم أولاده أمور الإسلام فكل ذريته كانوا على الإسلام، ثم نبىء بعد آدم ابنه شيث، ثم بعد وفاة شيث نبىء إدريس ثم كفر بعض البشر بعبادة الأصنام فبعث الله الأنبياء بالتبشير لمن أطاعهم بالجنة والإنذار بالنار لمن خالفهم بعبادة غير الله وتكذيبهم.

مما ابتلي به آدم وحواء بعد أكل الشجرة أنه نزع عنهما لباسهما وانكشف لهما سوءاتهما فطفقا يلصقان عليهما من ورق الجنة وكان لباسهما الذي كـــــان عليهما من نور، وقد دل القرءان العظيم على أنه كان عليهما لبـــاس في قوله تعالى: {يَا بَنِي آدم لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا} (٤٣) .ثم بعد أن نـــزلا إلى الأرض علمـــه الله تعالى أسباب المعيشة فأنزل له القمح وعلمه كيف يبذر وكيف يحـــصد وكيف يعمل للأكل، وعلمه النقدين الذهب والفضة فعمل الدراهم والدنانير.

فآدم عليه السلام له فضل كبير على البشر لما له عليهم من حق الأبوة وتعلـيم أصول المعيشة فلا يجوز تنقيصه، فمن نقصه أو أنكر رسالته فهو كافر.

تنبيه: لا يقال طرد الله آدم من الجنة لأن هذا اللفظ فيه تحقير لســـــيدنا آدم بل يقال أهبط كما يفيد نص القرءان.

مدة إقامة آدم عليه السلام في الجنة واليوم الذي خرج فيه من الجنة :

اختلف العلماء في مقدار مقام آدم عليه السلام في الجنة فروى الحاكـــــم في مستدركه أن آدم لم يمكث في الجنة إلا ما بين العصر إلى الغروب، والأقوى أنه مكث مائة وثلاثين عامًا. ولا ينافي هذا بالنسبة لتلك الأيام الستة أن يكون أدرك فيها مائة وثلاثين عامًا ثم أكمل الألف في الأرض كما يفهم ذلك من بعض الآثار.

وقد ورد أن اليوم الذي أخرج فيه آدم عليه السلام من الجنة وهبط فــــيه إلى الأرض كان يوم الجمعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خيرُ يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خُلــِق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها" رواه مسلم، ورواه أحمد بنحوه.

مكان نزول آدم عليه السلام على الأرض:

أمر اللهُ سيدنا آدم وحواء بالهبوط من الجنة إلى الأرض، وأمر إبليس بالهبوط إليها أيضًا، وأخبرهما أن العداوة بينهما وبين إبليس اللعين ستظل قائمة وبالتالي ستكون بين إبليس وبني آدم قال الله تعالى: {وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}(٤٤) فيروى أن آدم عليه السلام نزل في أرض الهند في أرض تسمى سرنديب على أشهر الأقوال،ونزلت حواء عليها السلام في أرض أخرى قيل إنها جُدّة، فجاء سيدنا آدم في طلبها حتى أتى جمعا فازدلفت (أي اقتربت) إليه حواء فلذلك سميت المزدلفة وهي بين مكة وعرفة، وقيل إنهما تعارفا في عرفات لذلك سميت عرفات، وأما إبليس اللعين فقيل إنه نزل بالأُبلة أرض في العراق. وقيل سميت عرفات لأن جبريل عليه السلام لما علم إبراهيم عليه السلام المناسك قال له عَرَفْتَ، قال:عَرَفْتُ، لذلك سميت عرفات.

فائدة: قيل إن أطيب بقعة في الأرض ريحًا الأرض التي أهبط بها آدم فعلق بشجرها من ريح الجنة، قيل إن تلك الأرض التي نزل بها آدم من أصح بلاد الأرض فناسبت أن تكون موطنه لكونه قريب عهد بالجنة.

بناء البيت الحرام الكعبة المشرفة:

أمر اللهُ آدم عليه السلام أن يبني البيت الحرام فقدم مكة وبنى البيت من خمس أجبُل: من طور سيناء، وطور زَيْتَى، ولبنان، والجودي، وبنى قواعده من حراء، فلما فرغ من بنائه أرسل الله له ملكًا علمه المناسك، ثم بقي كذلك حتى أغرق الله قومَ نوح عليه السلام فرُفع البيت وبقي أساسه فجاء سيدنا إبراهيم عليه السلام فبناه.

موت سيدنا آدم وحواء عليهما السلام

عاش سيدنا آدم عليه السلام ألف سنة قيل قضى منها مائة وثلاثين سنة في الجنة، وبقية الألف عاشها على هذه الأرض التي نزل إليها.

ولما مات بقيت ذريته على دين الإسلام يعبدون الله تعالى وحده ولم يشركوا به شيئًا، فعاش البشر ألف سنة أخرى على دين الإسلام. ولم يكن فيهم كفر ولا شرك، وإنما حصل الكفر والشرك بعد نبي الله إدريس عليه الصلاة والسلام فكان سيدنا نوح عليه السلام أول نبي بعث إلى الكفار.

وقد ورد في الأثر أن آدم عليه السلام دفن في مكة أو في منى قريب مسجد الخيف حيث دفن سبعون نبيًّا، وقبورهم مخفاة ولا يوجد علامات تدل عليها، وقيل دفن عند الجبل الذي أهبط عنده في الهند، وقيل بجبل أبي قبيس بمكة، والله أعلم.

المراجع: للباب الثالث : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة البقرة ، آية : ٣٠)
(٢) (سورة البقرة ، آية : ٣٠)
(٣) (سورة البقرة ، آية : ٣٠)
(٤) (سورة فصلت ، آية : ١١)
(٥) (سورة البقرة ، آية : ٣١)
(٦) (سورة البقرة ، آية : ٣١)
(٧) (سورة البقرة ، آية : ٣٢-٣٣)
(٨) (سورة الاعراف ، آية : ١٢)
(٩) (سورة الحجر ، آية : ٢٧)
(١٠) (سورة الاعراف ، آية : ١٩-٢٩)
(١١) (سورة الرحمن ، آية : ٢٩)
(١٢) (سورة البقرة ، آية : ٣٤)
(١٣) (رواه البخاري ومسلم)
(١٤) (رواه الترمذي وأبو داود)
(١٥) (رواه الترمذي وأبو داود)
(١٦) (رواه احمد والطبراني)
(١٧) (رواه الإمام احمد في مسنده)
(١٨) (سورة التين ، آية : ٤)
(١٩) (سورة الكهف ، آية : ٥)
(٢٠) (روى النسائي واحمد وابن جرير والحاكم في المستدرك)
(٢١) (سورة الاعراف ، آية : ١٧٢)
(٢٢) (متفق عليه)
(٢٣) (متفق عليه)
(٢٤) (سورة النساء ، آية : ١)
(٢٥) (سورة الاعراف ، آية : ١٨٩)
(٢٦) (سورة التحريم ، آية : ٦)
(٢٧) (سورة الاعراف ، آية : ١٢)
(٢٨) (صحيح مسلم)
(٢٩) (سورة ص ، الآيات : ٧٩-٨٠-٨١)
(٣٠) (سورة القصص ، آية : ٨٨)
(٣١) (سورة الاعراف ، آية : ١٨)
(٣٢) (سورة ص ، آية : ٧٧-٧٨)
(٣٣) (سورة الكهف ، آية : ٥٠)
(٣٤) (سورة الحجر ، آية : ٣٠)

(٣٥) (سورة التحريم ، آية : ٦)
(٣٦) (سورة الاعراف ، آية : ١٢)
(٣٧) (سورة البقرة ، آية : ٣٠)
(٣٨) (سورة البقرة ، آية : ٣٠)
(٣٩) (سورة البقرة ، آية : ٣١)
(٤٠) (سورة البقرة ، آية : ٣٥)
(٤١) (سورة الاعراف ، آية : ٢٠)
(٤٢) (سورة طه ، آية : ١٢٢)
(٤٣) (سورة الاعراف ، آية : ٢٧)
(٤٤) (سورة الاعراف ، آية : ٢٤)

الباب الثالث : الفصل الثالث : خلق الإنسان :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيـــته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صـلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

قال الله تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢)} (١)

وقال الله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤)} (٢)

خلق الله تبارك وتعالى الإنسان في أحسن تقويم، وخَلقُ الإنسان من أعـــــظم الدلائل على خالقه وفاطره.

وفي الإنسان من العجائب الدالة على عظمة الله وقدرته ما تنقضي الأعـمار في الوقوف على بعضه، وتعجز العقول عن إدراك كنهه،

وتعجز الألسنة عن وصفه:

{فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الـــصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨)} (٣)

وقد أمرنا الله عزَّ وجلَّ بالنظر والتفكر في خلق الإنسان، نظر اعتـــبار وتفكر، وتأمل وتدبر، كما قال سبحانه: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} (٤)

ولو فكر الإنسان في نفسه لزجره ما يعلم من عجائب خلقها عن كفره كما قال سبحانه: {قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) ثُمَّ الـــسَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢)} (٥)

وقد خلق الله آدم من تراب كما قال سبحانه: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠)} (٦)
والتراب إذا أضيف إليه الماء صار طيناً كما قال سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢)} (٧)

والطين إذا تغير واسودّ لطول مجاورته للماء صار حمأً، ثم صار مسنوناً، والمسنون: المصور أو المصبوب ليببس كما قال سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)} (٨)

فإذا يبس الطين واشتد صار صلصالاً، وهي المرحلة الأخيرة من خلق الإنسان كما قال سبحانه: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤)} (٩)
أما الإنسان الذرية فقد خلقه الله من نطفة وهي الماء، فهو سبحانه:
{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨)} (١٠)

وقد بين الله عزَّ وجلَّ أطوار خلق الآدمي من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه فقال سبحانه: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)} (١١)

وقال النبي - ﷺ -: { إِنَّ أحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمّهِ أرْبَعِينَ يَوْماً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكاً فَيُؤْمَرُ بِأرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقال لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأجَلَهُ وَشَقِيٌّ أوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ } (١٢)
وقد وكل الله بالرحم ملكاً، فإذا تم للنطفة في الرحم أربعون أو بضع وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها وبصرها، وجلدها ولحمها وعظامها، وسوي أو غير سوي، وذكر أو أنثى، كل ذلك حسب أمر ربه، لا يزيد على ما أمر ولا ينقص.

فالملائكة: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦)} (١٣)

وقال النبي - ﷺ -: { يَدْخُلُ الْمَلَكُ عَلَى النُّطْفَةِ بَعْدَ مَا تَسْتَقِرُّ فِي الرَّحِمِ، بِأَرْبَعِينَ، أَوْ خَمْسَةٍ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! أَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَيُكْتَبَانِ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ! أَذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ فَيُكْتَبَانِ، وَيُكْتَبُ عَمَلُهُ وَأَثَرُهُ وَأَجَلُهُ وَرِزْقُهُ، ثُمَّ تُطْوَى الصُّحُفُ، فَلَا يُزَادُ فِيهَا وَلَا يُنْقَصُ} (١٤)

وهذا الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، وجعله أفضل العالمين، خلقه الله ليبقى أبد الآباد، وما سواه يفنى إلا من استثناه الله.
وكل فرد من بني آدم سينتقل من حال إلى حال، ومن دار إلى دار كما قال سبحانه: {لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ (١٩)} (١٥)

فأول طباقه كونه نطفة .. ثم علقة .. ثم مضغة .. ثم جنيناً .. ثم مولوداً .. ثم رضيعاً .. ثم فطيماً .. ثم طفلاً .. ثم شاباً .. ثم شيخاً .. ثم هرماً .. إلى جميع أحوال الإنسان المختلفة عليه .. إلى أن يموت ثم يبعث .. ثم يوقف بين يدي الله .. ثم يحاسب .. ثم يصير إلى الجنة أو النار حسب عمله .. فهذه ستة عشر طبقاً.

ويركب أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة:
فينتقل من حال إلى حال كالصحة والمرض .. والعافية والبلاء .. والغنى والفقر .. والسعادة والشقاء .. وهكذا حتى يستقر في دار القرار في الجنة أو النار .. فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد.
فسبحان من هذا خلقه .. وهذا أمره .. وهذه قدرته.
وقد خلق الله الإنسان في كبد كما قال سبحانه: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤)} (١٦)

فابن آدم يكابد مصائب الدنيا، وشدائد الآخرة، فلا تلقاه إلا في مشقة، فالإنسان مخلوق في شدة بكونه في الرحم، ثم عند ولادته، ثم هو على خطر عظيم عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، والبلاء والامتحان.

ثم مكابدة الموت، وما بعده في البرزخ، ثم مكابدة أهوال يوم القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار، ولا راحة له إلا في الجنة.
فينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم في الجنة، وذلك بالإيمان والأعمال الصالحة.

وقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وجعل فيه تسعة أبواب:
بابان للسمع وهما الأذنان .. وبابان للبصر وهما العينان .. وبابان للشم وهما في الأنف .. وبابان لخروج فضلات البول والغائط .. وباب للكلام والنفـــــس، والطعام والشراب وهو الأنف.
ونشأة الإنسان كنشأة النبات من عناصرها الأولية يتكون، ومن عناصـــــرها الأولية يتغذى، فهو نبات من نباتها كما قال سبحانه: {وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨)} (١٧)
فالإنسان والنبات كلاهما نبات من نبات الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأم شرابه وطعامه.

وكما أن في النبات الحلو والمر .. والنافع والضار .. وذا الأزهار والثمار .. وذا الشوك والسم، فكذلك في الإنسان المسلم والكافر .. والمطيع والعاصـــي .. وذو الإيمان والأعمال الصالحة .. وذو الشر والفساد .. ولكل أجل .. ولـــكل عمل .. ولكل مقعد إما في الجنة أو النار .. وكل راجع إلى ربه .. ومحاسب على عمله: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)} (١٨) .

إن خلق الإنسان بهذا التكوين العجيب، وبهذه الخصائص الفريدة، وبــــــهذه الوظائف اللطيفة المتنوعة الكثيرة، لآيات تدهش العقول، وتحير الألباب، ولكننا نسيناها لطول تكرارها، ولقربها منا، وإلفنا لها.
إن التركيب العضوي لجارحة واحدة من جوارح الإنسان مسألة تديـــر الرأس عجباً ودهشة وعبرة.
وهو في تركيبه النفسي أشد تركباً وتعقداً من تركيبه العضوي: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦)} (١٩) .

إن هذا الإنسان هو العجيبة الكبرى في هذه الأرض كما قال سبـــــحانه: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} (٢٠) .
ولكنه يغفل عن قيمته، وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلـــــبه عن الإيمان، وحين يحرم نعمة اليقين.
إن آيات الله تبارك وتعالى في خلقه ومخلوقاته تبصرة وذكرى، يتبصر بها من عمى القلب، ويتذكر بها من غفلته، فيعظم من خلقه.

فالمضاد للعلم، إما عمى القلب، وزواله بالتبصر، وإما غفلته، وزواله بالـــتذكر.
وأعظم وأفضل ما أنفقت فيه الأنفاس .. التفكر في آيات الله .. وعجائب صنـعه .. والانتقال منها إلى تعلق القلب بالله .. وتعظيمه وتوقيره سبحانه دون شيء من مخلوقاته بتوحيده والإيمان به .. وطاعته، وعبادته.
إن هذا الإنسان عجيبة في تكوينه الجسماني في أسرار هذا الجسد .. وعجـيبة في تكوينه الروحي في أسرار هذه النفس.
وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه، التقى بأسرار تدهش وتحـــير، خلق أعضائه وتوزيعها، وأشكالها ووظائفها، وفي كل عضو من أعضائه، بل في كل جزء من عضو، خارقة تحير الألباب، لو كانت هناك عقول.
وأعجب من هذا أسرار روحه، وطاقاتها المعلومة والمجهولة، إدراكه للأشياء، وطريقة إدراكها، وحفظها، وتذكرها.
وهذه المعلومات والصور والكلمات أين خزنت؟، وكيف انطبــــــعت؟، وكيف تُستدعى فتجيء؟.
ومن ألف وجمع في المخ آلاف الآيات والأحاديث والكلمات والقصص والأشعار وغيرها .. ؟ ومن حفظها في الذهن كما يحفظ المال في الخزانة .. ؟
ثم أسراره في توالده وتكاثره، خلية واحدة تحمل كل رصيد الجنس البشري من الخصائص.
وكل فرد من هذا الإنسان عالم وحده، وطبعة خاصة لا تتكرر أبداً على مــــدى الدهور، ولا نظير له بين أبناء جنسه جميعاً، لا في شكله وملامحـــــه، ولا في عقله ومداركه، ولا في روحه ومشاعره.
فكل فرد نموذج خاص، وطبعة فريدة لا تتكرر.

وما أعظم وأمتع تلك اللحظات التي يقضيها الإنسان يتأمل وجوه الـــــخلق وسماتهم وحركاتهم، بعين العابد السائح، الذي يتجول في معرض من إبداع أحسن الخالقين.
ألا ما أعظم الخالق .. وما أعظم صنعه وخلقه.
وما أخطر الجهل .. وما أسوأ الغفلة .. وما أضل من جهل نفسه.
متى يتفكر الإنسان في نفسه؟.
ومتى ينتبه القلب من رقدته؟.
ومتى يؤوب العبد إلى ربه؟.
إن سبب الخسران في الدنيا والآخرة الفكر فيما يفنى، والجهد في غـــير محله، والجلوس على موائد الشيطان، والإعراض عن موائد الرحمن.
إن الرابح حقاً من حجز المقاعد كلها للدين، الفكر واللسان، والسمع والـــبصر، والقلب والعقل، والروح والبدن، وبقية الجوارح: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧)} (٢١) .

انظر إلى النطفة التي خلقها الله، إنها تحتوي على أكثر من مائة ألف إنسان قابل للحياة في كل دفقة مني من الإنسان.
فسبحان من جمع هذه الخلائق في قطرة ماء مهين ضعيف مستقذر، لو مـــرت بها ساعة من الزمان فسدت وأنتنت.
وتأمل كيف استخرجها الرب العليم القدير من بين الصلب والترائب، منـــــقادة لقدرته، مطيعة لمشيئته، مع ضيق طرقها، واختلاف مجاريها، إلى أن ســـاقها إلى مستقرها في الرحم؟.
وتأمل كيف جمع الله عزَّ وجلَّ بين الذكر والأنثى، وألقى المحبة بيـــنهما، وكيف قادهما بسلسلة الشهوة والمحبة إلى الاجتماع، الذي هو سبب تخـــــليق الولد وتكوينه؟.
وكيف قدر سبحانه اجتماع ماء الرجل وماء المرأة، وساقهما من أعماق العروق والأعضاء، وجمعهما في موضع واحد، جعله الله لهما قراراً مكيناً ينـــــشأ فيه الولد؟.
ثم قلب تلك النطفة البيضاء المشرقة، إلى علقة حمراء تضرب إلى الـــسواد، ثم جعلها مضغة لحم مخالفة للعلقة في كونها وشكلها.

ثم جعلها العزيز العليم عظاماً مجردة لا كسوة عليها، مباينة للمضغة في شكلها وقدرها.
ثم انظر كيف قسم الله تبارك وتعالى تلك الأجزاء المتشابهة إلى الأعصاب والعظام، والعروق والأوتار، والأعضاء والأجهزة، واليابس واللين؟.
ثم تأمل كيف ربط سبحانه بعضها ببعض بأقوى رباط وأشده؟. وكيف كساها لحماً ركبه عليها، وجعله وعاء لها وغشاءً وحافظاً، وجعل العظام حاملة له، فاللحم قائم بها، وهي محفوظة به؟.
ثم انظر إلى صنع الخالق البارئ المصور، كيف صورها فأحسن صورها، وشق لها السمع والبصر، والفم والأنف، وسائر المنافذ؟.
ثم تأمل كيف مد اليدين والرجلين كالأعمدة، وبسطهما، وقسم رؤوسهما بالأصابع، ثم قسمهما بالأنامل، وزود أطرافها بالأظفار؟.
ثم انظر كيف خلق سبحانه من تلك النطفة الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة، والكبد والطحال، والرئة والرحم، والأمعاء والمثانة والمرارة؟.
كل منها له قدر يخصه .. وعمل يخصه .. ومنفعة تخصه .. وشكل يخصه.
فسبحان الخلاق العليم: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} (٢٢)

ثم انظر إلى حكمة العليم الحكيم في تركيب العظام قواماً للبدن، وعماداً له، وكيف قدرها ربها بتقادير مختلفة، وأشكال مختلفة:
فمنها الصغير والكبير .. والطويل والقصير .. والمنحني والمستدير .. والمصمت والمجوف .. وركب بعضها على بعض، وربط بعضها ببعض؟.
وتأمل كيف اختلفت أشكالها باختلاف منافعها، كالأضراس فإنها لما جعلت آلة للطحن جعلت عريضة، ولما كانت الأسنان آلة للقطع جعلت مستدقة محددة.
ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة للتردد في حاجته لم يجعل عظامه عظماً واحداً، بل عظاماً متعددة، وجعل بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة، وكان قدر كل واحد منه وشكله، على حسب الحركة المطلوبة منه.
وشد سبحانه أسر تلك المفاصل والأعضاء، وربط بعضها ببعض بأوتار ورباطات أنبتها من العظم، وأدخل بعض العظام في بعض، على شكل الذكر والأنثى، فإذا أراد الإنسان أن يحرك جزءاً من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذر ذلك عليه.

فسبحان من هذا خلقه، وهذه قدرته، وهذه حكمته، وهذا صنعه.
وتأمل كيف خلق سبحانه الرأس، وكثرة ما فيه من العظام التي تزيد على خمسٍ وخمسين عظماً، مختلفة الأشكال والمقادير والمنافع، وكيف ركبه سبحانه على البدن، وجعله عالياً عليه علو الراكب على مركوبه؟.
ولما كان الرأس عالياً على البدن، جعل فيه الحواس الخمس، وآلات الإدراك كلها، من السمع والبصر والشم والذوق واللمس.
وجعل سبحانه حاسة البصر في مقدمته، ليكون كالطليعة والحرس والكاشف للبدن عما حوله.
وركب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وظيفة مخصوصة، لو فقدت طبقة منها، أو زالت عن موضعها، لتعطلت العين عن الإبصار.
ثم وضع سبحانه داخل تلك الطبقات السبع خلقاً عجيباً، وهو إنسان العين بقدر العدسة، يبصر به ما بين المشرق والمغرب، وما بين الأرض والسماء.
وجعله سبحانه من العين بمنزلة القلب من الإنسان، فهو ملكها، وتلك الطبقات والأجفان والأهداب خدم له، وحجاب وحراس.
فتبارك الله أحسن الخالقين.

وانظر إلى عجيب صنع الله كيف حسن شكل العينين وهيئتهما ومقدارهما، ثم جمّلهما بالأجفان غطاءً لهما وستراً، وحفظاً وزينة، فهما يحفظانهما من الحر والبرد، ويتلقيان عن العين الأذى والقذى والغبار.
ثم غرس في أطراف الأجفان الأهداب جمالاً وزينة ومنافع أخرى.
ثم أودع سبحانه العينين ذلك النور الباصر، والضوء الباهر، الذي يخرق ما بين السماء والأرض.
فسبحان من أودع هذا السر العجيب في هذا المقدار الصغير، بحيث تنطبع فيه صورة السموات والأرض على عظمتهما، وللعين قدرة على حفظ نصف مليون صورة ملونة يومياً.
وشق سبحانه له السمع، وخلق الأذن أحسن خلقة، فجعلها مجوفة كالصدفة، لتجمع الصوت فتؤديه إلى الصماخ، وليحس بدبيب الحشرات فيها، فيبادر إلى إخراجه والتخلص منه.

وجعل فيها تجاويف واعوجاجات تمسك الهواء، والصوت الداخل، فتكسر حدته، ثم تؤديه إلى الصماخ.
وجعل الحكيم العليم ماء الأذن مراً في غاية المرارة، فلا يجاوزه الحـــيوان إلى باطن الأذن، بل إذا وصل إليه أعمل الحيلة في رجوعه عنه.
وجعل ماء الفم عذباً حلواً، ليدرك به طعوم الأشياء على ما هي عليه، إذ لو كان على غير هذه الصفة لأحالها إلى طبيعته.
وجعل سبحانه ماء العين مالحاً، ليحفظها، فهي شحمة قابلة للفساد، فـــكانت ملوحة مائها صيانة لها وحفظاً.
فسبحان من خلق هذه المياه .. وجعل كلاً فيما يناسبه ويصلح له.
ونصب سبحانه قصبة الأنف في الوجه، فأحسن شكله وهيأته، وفتح فيه المنخرين، وحجز بينهما بحاجز، وأودع فيهما حاسة الشم التي تدرك بها أنواع الروائح الطيبة والخبيثة، والنافعة والضارة، ويستنشق به الهواء فيوصله إلى القلب، فيتروح به ويتغذى به.

وجعله سبحانه مستقيماً لئلا يمسك الرائحة، مصباً تنحدر إليه فضلات الدمـاغ، فتجتمع فيه ثم تخرج منه، وجعل أعلاه أدق من أسفله، لأن أسفله تجتمع فيـه الفضلات فكان واسعاً لتخرج منه بسهولة، ولأنه يأخذ من الهواء ملأه ثم يصعد في مجراه قليلاً قليلاً، حتى يصل إلى القلب بهدوء.
ثم فصل بين المنخرين بحاجز بينهما حكمةً منه ورحمة، لأنه مجرى الـــنفس، ومنحدر فضلات الرأس، فيكون أحدهما غالباً للنفس، والآخر لخروج الفضلات، وإما أن تجري الفضلات فيهما فينقسم، فلا يفسد الأنف جملة، بل يبقى فيـــه مدخل للنفس، وربما أصيب أحدهما فيبقى الثاني يؤدي وظيفته.
فاقتضت الحكمة تعددهما كالأذنين والعينين: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)} (٢٣).
وشق سبحانه للعبد الفم في أحسن موضع وأليقه به، وأودع فيه من المنـــافع وآلات الذوق والقطع والطحن والكلام ما يبهر العقول عجائبه.
فأودعه اللسان الذي هو أحد آياته الدالة عليه، وجعله ترجماناً لملك الأعضاء وهو القلب، مبيناً مؤدياً عنه، كما جعل الأذن رسولاً مؤدياً إليه العلوم والأخبار، والعين رسولاً مؤدياً إليه المرئيات والمبصرات، واللسان بريده ورسوله الذي يؤدي عنه ما يريد.

وانظر إلى حكمة العزيز العليم الذي جعل اللسان مصوناً محفوظاً مستوراً غير مكشوف كالأذن والأنف، لأن هذه الأعضاء لما كانت تؤدي من الخارج إليه، جعلت بارزة ظاهرة.

ولما كان اللسان مؤدياً من القلب إلى الخارج جعله مستوراً لعدم الفائدة في إبرازه.
وأيضاً لما كان اللسان أشرف الأعضاء بعد القلب، ومنزلته منه منزلة ترجمانه ووزيره، ضرب عليه سرادقان لستره وصيانته، أحدهما الأسنان، والآخر الشفتان، وجعل في ذلك السرادق كالقلب في الصدر.

وأيضاً هو من ألطف الأعضاء وألينها وأشدها رطوبة، وهو لا يتصرف إلا بواسطة الرطوبة المحيطة به، فلو كان بارزاً صار عرضة للحرارة واليبوسة المانعة له من التصرف وسهولة الحركة.
ثم زين سبحانه الفم وجمله بالأسنان، وجعلها بيضاء مصفوفة، فزادته جمالاً، وجعل بها قوام العبد وغذاءه.

وجعل بعضها آلة للقطع، وبعضها آلة للكسر، وبعضها آلة للطحن.
وأحكم سبحانه أصولها، وحدد رؤوسها، وبيض لونها، ورتب صفوفها، فكأنها الدر المنظوم بياضاً وصفاءً وحسناً.

وأحاط جل وعلا الأسنان بحائطين، وهما الشفتان، فحسن شكلهما ولونهما، وجعلهما غطاءً للفم وطبقاً له، وجعلهما إتماماً لمخارج الحروف ونهاية له، كما جعل أقصى الحلق بداية له، واللسان وسطاً له، ولهذا كان أكثر العمل فيها له إذ هو الواسطة.

وجعل سبحانه الشفتين لحماً صرفاً لا عظم فيه، ليتمكن بهما الإنسان من مص الشراب، ويسهل عليه فتحهما وإغلاقهما.
وخص سبحانه الفك الأسفل بالتحريك، لأن تحريك الأخف أيسر وأحسن، فإن الرأس يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة.

وخلق سبحانه الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة، والليونة والخشونة، والصلابة والرطوبة، والطول والقصر، فاختلفت بذلك الأصوات أعظم اختلاف.
وزين الله تبارك وتعالى الرأس بالشعر وجعله لباساً له، لاحتياجه إليه، وزين الوجه بما أنبت فيه من الشعور المختلفة الأشكال والمقادير.
فزينه بالحاجبين، وجعلهما وقاية مما يتحول من بشرة الرأس إلى العينين، وزين أجفان العينين بالأهداب، وزين الوجه باللحية، وجعلها كمالاً ووقاراً ومهابةً للرجل.

وزين الشفتين بما أنبت فوقهما من الشارب، وما تحتهما من العنفقة.
وخلق سبحانه اليدين اللتين هما آلة العبد وسلاحه، ورأس مال معاشه.
فطولهما بحيث يصلان إلى ما شاء من بدنه، وعرض الكف، ليتمكن من القبض والبسط، وقسم فيه الأصابع الخمس، وقسم كل أصبع بثلاث أنامل، والإبهام باثنتين.

ووضع الأصابع الأربعة في جانب، والإبهام في جانب، لتدور الإبهام على الجميع، فهي بمنزلة الراعي من الرعية، والإمام من المأمومين.
فجاءت اليد بتدبير الحكيم العليم على أحسن حال، وصلحت للقبض والبسط ومباشرة الأعمال المختلفة.

إن شئت جعلتها مطرقة، أو مغرفة، أو آخذة، أو معطية، أو جاذبة، أو دافعة، أو للربط، أو للحل، أو للكتابة، أو للرفع، أو للسحب، أو للذبح، أو للكنس، أو للمسح، أو للمشط، أو للأكل أو غير ذلك من المنافع التي لا يحصيها إلا الذي خلقها، فتبارك من أودعها هذه المنافع وغيرها.

وركب فيها سبحانه الأظفار على رؤوسها زينةً لها وعماداً ووقاية، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا ينالها جسم الأصابع، وجعلها سلاحاً لغيره من الحيوان والطير، وآلة لمعاشه، وليحك بها الإنسان بدنه عند الحاجة.
وجعل سبحانه عظام أسفل البدن غليظة قوية، لأنها أساس له، وعظام أعاليه دونها في الثخانة والصلابة، لأنها محمولة.

ثم تأمل كيف جعل سبحانه الرقبة مركباً للرأس، وركبها من سبـــع خرزات مجوفات مستديرات، ثم طبق بعضها على بعض، حتى كأنها خرزة واحدة، ثم ركب الرقبة على الظهر والصدر.

ثم ركب الظهر من أعلاه إلى منتهى عظم العجز من أربعٍ وعشرين خـــرزة، وركب بعضها في بعض، هي مجمع أضلاعه، والتي تمسكها أن تنحل أو تنفصل. ثم وصل الحكيم الخبير تلك العظام بعضها ببعض، فوصل عظام الرأس بعـظام الرقبة، وعظام الرقبة بعظم الظهر، وعظام الظهر بعظام الصدر، وعظام الكتفين بعظام العضدين، والعضدين بالذراعين، والذراعين بالكفين والكفين بالأصـابع. ووصل عظام الظهر بالعجز، ووصل عظام العجز بالفخذين، والفخذين بالساقين، والساقين بالقدمين، والقدمين بالأصابع، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم تأمل حكمة اللطيف الخبير كيف كسا العظام العريضة كعظام الظهر والرأس كسوة من اللحم تناسبها، والعظام الدقيقة كسوة تناسبها كالأصابع والمتوسطة كذلك كعظام الذراعين والعضدين.

فالإنسان مركب على ثلاثمائة وستين عظماً، فلو زادت واحداً أو نقصـت واحداً، لاختل تركيب الجسم ونظامه، واضطربت حركة الإنسان. ثم إنه سبحانه ربط تلك الأعضاء والأجزاء بالرباطات، فشد بها أسرها لتمسكها وتحفظها، حتى بلغ عددها خمسمائة وتسعة وعشرين رباطاً، وهي مخـــتلفة الطول والقصر، والغلظة والدقة، بحسب اختلاف مواضعها. فجعل منها أربعة وعشرين رباطاً آلة لتحريك العين، وفتحها وضمها وإبصارها، لو نقص منها رباط واحد لاختل أمر العين. وهكذا لكل عضو من الأعضاء رباطات، هن له كالآلات التي بها يتـــحرك ويتصرف.

وذلك كله صنع الرب الحكيم، وتقدير العزيز العليم، في قطرة من ماء مهـــين، فويل للمكذبين، وبعدٌ للجاحدين، وتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن عجائب خلقه أنه جعل في الرأس ثلاث خزائن، في مقدمته، وفي وسطه، وفي مؤخرته، وأودع تلك الخزائن من أسراره ما أودعها، من التذكر والتفكر، والتعقل والحفظ.

ومن عجائب خلق الإنسان ما فيه من الأمور الباطنة التي لا تشاهد كالـــــقلب والكبد، والطحال والأمعاء، والرئة والمعدة، والمثانة والمرارة، وسائر ما في بطنه من الآلات العجيبة.

فأما القلب فهو الملك المستغل لجميع آلات البدن المستخدم لها، فهو مـــخدوم مستقر في الوسط، وهو أشرف أعضاء البدن، وبه قوام الحياة.
وهو معدن العقل والعلم، والحلم والشجاعة، والمروءة والكرم، والصبر والحب، والرضا والغضب، وسائر صفات الكمال.
وجميع الأعضاء الظاهرة والباطنة وقواها إنما هي جند من أجناد الـــــــقلب:
فالعين طليعته ورائده الذي يكشف له المرئيات.
والأذن رسوله المؤدي له جميع المـــسموعات.
واللسان ترجمانه المخبر عنه.
وجعل الله عزَّ وجلَّ الرئتين كالمروحة تروح عليه دائماً، لأنه أكثر الأعـــضاء عملاً، وأشدها حرارة.

هذا خلق الله في قطرة واحدة من ماء مهين، فكم خلق الله من قطرة في العالم؟، وكم جعل في هذه القطرة من الأحياء؟.
هذا في عالم الإنسان .. فكم من العجائب في خلق الحيوانات .. والطـــــــيور والزواحف .. والحشرات .. وغيرها من المخلوقات .. ؟
فسبحان الخلاق العليم الذي تولى خلق هذه النطفة، وجعل منها إنـــساناً سوياً، سميعاً بصيراً: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢)} (٢٤).
فما أعظم قدرة الله، وما أعظم صنعه في هذه النطفة، كيف جعلها إنساناً، وبث منها البشرية المنتشرة على وجه الأرض؟.

فمن هذه عظمته، وهذه نعمه، وهذا صنعه، كيف لا يعبده الإنسان ويطيعه، وهو الذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره؟.
أما يخاف هذا الإنسان يوماً عبوساً قمطريراً: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٢)} (٢٥) .
إن الإنسان إذا نظر إلى غذائه، في مدخله ومستقره ومخرجه، رأى فيه العبر والعجائب:

كيف جعل الله له آلة يتناوله بها، ثم باباً يدخل منه، ثم آلة تقطعه صغاراً، ثم طاحون يطحنه، ثم أعين بماء يعجنه، ثم جعل له مجرى وطريقاً إلى جانب النفس، ينزل هذا، ويصعد هذا.
فإذا وصل إلى المعدة، التي هي خزانته، ولها بابان، باب أعلى يدخل منه الطعام، وباب أسفل يخرج منه ثقله.
والباب الأعلى أوسع من الأسفل، والأسفل منطبق دائماً، فإذا انتهى الهضم، انفتح ذلك الباب لخروج الفضلات.
وقد أحاط الله المعدة من داخلها وخارجها بحرارة نارية، ربما تزيد على حرارة النار، ينضج بها الطعام فيها، كما ينضج الطعام في القدر بالنار.
فإذا أذابته المعدة وطبخته، علا صفوه إلى فوق، ورسا كدره إلى أسفل، ومن المعدة عروق متصلة بسائر البدن، يبعث فيها نصيب كل عضو وقوامه، بحسب استعداده وقبوله.

فيبعث ألطف ما يتولد من الغذاء وأخفه وأشرفه إلى الأرواح.
وينبعث إلى الدماغ منه ما يناسبه في اللطافة والاعتدال.
وينبعث منه إلى العظام والشعر والأظافر ما يغذيها ويحفظها.
وينبعث من الباقي إلى بقية الأعضاء كل بحسبه.

ولما كان الغذاء يستحيل في المعدة إلى دم، ومرة سوداء، ومرة صفراء، وبلغم، اقتضت حكمة العزيز الحكيم أن جعل لكل واحد من هذه الأخلاط مصرفاً ينصب إليه ويجتمع فيه، ولا ينبعث إلى الأعضاء الشريفة إلا أكمله.

فوضع سبحانه المرارة مصباً للمرة الصفراء .. ووضع الطـحال مقراً للمرة السوداء .. والكبد تمتص أشرف ما في ذلك وهو الدم، ثم تصفيه وتـبعثه إلى جميع البدن من عرق واحد، ينقسم إلى مجار كثيرة، يوصل إلى كل واحد من العروق والأعصاب والعظام والشعور ما يكون به قوامــــــــــه.
فسبحان الملك الحق ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة.
وإذا كان هذا صنعه في قطرة ماء مهين، فكيف صنعه في ملكوت السـموات والأرض؟.

وكيف شأن كرسيه وعرشه العظيم؟.
وكم تكون عظمة الجنة التي خلقها؟ .. والنار التي سعرها؟
وكيف عظمته وجلاله وكبرياؤه؟: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤)} (٢٦) .

ومن عجائب خلق الإنسان، ما خلق الله فيه من الحواس الخمس التي هــي آلة الإدراك، ورتبها بحكمته سبحانه:
فأولها حاسة اللمس، وهو أول حس يخلق للحيوان، وأقل درجاته أن يحس بما يلاصقه، وخلق الله للبعيد حساً آخر تدرك به ما بعد عنك، فخلق لك الـشم تدرك به الرائحة من بعد.
ولكن لا تدري من أي ناحية جاءت الرائحة، فخلق الله لك البصر، لتـدرك به ما بعد عنك، وتدرك جهته فتقصدها بعينها، إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكـــنت ناقصاً، إذ لا تدرك بذلك ما وراء الجدار والحجاب، فقد يقصدك عدو بينك وبينه حجاب، وقرب منك قبل أن يكشف الحجاب، فتعجز عن الهرب.
فخلق الله سبحانه السمع، حتى تدرك به الأصوات من وراء الـــــحجرات، عند جريان الحركات.
ولا يكفي ذلك لو لم يخلق لك حس الذوق، الذي تعلم به ما يوافقك، وما يضرك، وتعلم به الطعوم وأحوالها من حلو وحامض، ومر ومالح، وحار وبارد.
ثم أكرمك الله تبارك وتعالى بصفة أخرى هي أشرف من الكل، وهو الـعقل الذي تدرك به معرفة الله، ومعرفة أسمائه وصفاته، وعظمه وقدرته، وآلائه وإحسانه، وهذه أعلى فوائد العقل.

وأدناها ما تدرك به الأطعمة ومنافعها، وما ينفعك وما يضرك.
ثم انظر إلى حكمة الله في خلق القدرة والإرادة في الإنسان، فلو خلق لك البصر حتى ترى به الطعام، ولم يخلق لك في الطبع شوق إليه، وشهوة تستحثك على القصد إليه، لكان البصر معطلاً.
فكم من مريض يرى الطعام، وهو أنفع الأشياء له ولا يقدر على تناوله، لسقوط شهوته، فخلق لك الرحيم شهوة الطعام وسلطها عليك.
ثم هذه الشهوة لو لم تسكن عند أخذ مقدار الحاجة من الطعام، لأسرفت وأهلكت نفسك، فخلق العليم الكراهة عند الشبع، لتترك الأكل بها.
وكذلك خلق لك شهوة الجماع لحكمة بقاء النسل.
وقد خلق الله عزَّ وجلَّ كل حيوان ورزقه، والرزق والأجل قرينان، فما دام الأجل باقياً، كان الرزق آتياً.
وإذا سد الله على العبد بحكمته طريقاً من طرق الرزق، فتح له برحمــته طريقاً أنفع له منه.
فانظر إلى الجنين في بطن أمه، يأتيه غذاؤه وهو الدم من طريق واحــدة وهو حبل السرة.

فلما خرج من بطن الأم، وانقطعت تلك الطريق، فتح له الله طريقين اثنين وهما الثديان، وأجرى له فيهما رزقاً أطيب وألذ من الأول، لبناً خالصاً سائغاً يناسب حاله.
فلما تمت مدة الرضاع، وانقطعت الطريقان بالفطام، فتح له المولى الكريم طرقاً أربعة أكمل منها تناسب حاله، وهما طعامان وشرابان.
فالطعامان النبات والحيوان، والشرابان المياه، وما يتصل بها من الألــــــبان والعسل، ونحوهما من المنافع والملاذ.

فإذا مات الإنسان، انقطعت عنه هذه الأربعة، لكنه سبحانه فتح له إن كان سعيداً طرقاً ثمانية، وهي أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء، ليجد نعيماً لم تره عين، ولم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر: {فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧)} (٢٧) .
فأي نعيم فوق هذا .. وأي كرم من ربه عليه فوق هذا؟.

إن الله جل وعلا لا يمنع عبده المؤمن شيئاً من الدنيا، إلا ويؤتيه ما هو أفضل منه وأنفع له، وليس ذلك لغير المؤمن.
فإنه سبحانه يمنعه الحظ الأدنى، ولا يرضى له به، ليعطيه الحظ الأعلـــــــــى.
ولكن العبد لجهله بربه، وجهله بكرمه، وجهله بحكمته ولطفه، وجهله بمصالح نفسه، لا يعرف التفاوت بين ما منع منه، وبين ما ذخر له، بل هو مولع بـــحب العاجل وإن كان دنيئاً فانياً، وبقلة الرغبة في الآجل وإن كان علياً باقياً.

ولو تأمل العبد وفكر لعلم أن فضل الله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها، أعـظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب للقدوم عليه، ويـــــسلك الطريق الموصلة إليه.

وقد ركب الله سبحانه في الإنسان قوتين: هما الشهوة والغضب.
وهاتان القوتان بمنزلة صفاته الذاتية لا ينفك عنهما، وبهما وقعت المـــــحنة والابتلاء، وبهما ينال العبد منازل الأبرار، أو ينحط تحت أقدام الأشرار في أسفل سافلين.
فمن شهوته مصروفة إلى ما أعد الله له في دار النعيم .. وغضبه حمـــــية لله ولكتابه ولرسوله ولدينه، فهذا في الدرجات العلى، والنعيم المقيم.
ومن كانت شهوته مصروفة في هواه وأمانيه العاجلة .. وغضبه مقصور على حظه .. ولو انتهكت محارم الله وحدوده وشرائعه .. وهو ملحوظ بعين الاحترام والتقدير ونفوذ الكلمة .. فهذا في أسفل سافلين.

ولن يجمع الله بين الصنفين في دار واحدة.
فالأول: صعد بشهوته وغضبه إلى أعلى عليين، فهو في الجنة.
والثاني: هبط بهما إلى أسفل سافلين، فهو في النار.
فسبحان من خلق هذا الإنسان من تراب، وجعل نسله من ماء مهـــين، ووكل بخلقه من هذا الماء ملائكة تنفذ أمره فيه.
فهذه النطفة بمجرد استقرارها في الرحم، تتولاها ملائكة بأمر الله، فتنقسم إلى خلايا يلهمها الله ماذا تفعل؟، وماذا تريد؟.

وكل خلية من هذه الخلايا مكلفة بأمر الله ببناء ركن من أركان هذه العمارة الهائلة، عمارة الجسم الإنساني العجيب:
فتنطلق مجموعة منها لتنشئ بأمر الله الهيكل العظمي .. وأخرى تبني الجهاز الهضمي .. وأخرى تبني الجهاز العصبي .. وأخرى تبني الجهاز الدموي .. وأخرى تبني الجهاز التناسلي .. وأخرى تبني الجهاز التنفسي .. إلى آخر بقية الأركان في العمارة الإنسانية.

وهذه العمارة دقيقة الصنع، عجيبة التركيب، متنوعة الوظائف، وكل خلية مأمورة أن تقوم بنوع معين من العمل في الركن المخصص لها من العمارة.
يأمرها الملك فتنطلق بأمر الله وهي تعرف طريقها، وتعرف إلى أين هي ذاهبة، وما هو مطلوب منها، ولا تخطئ واحدة منها .. ؟
فالخلايا المكلفة أن تصنع العين تعرف أين مكانها، وتعرف أن العين ينبغي أن تكون في الوجه، ولا يجوز أن تكون في البطن أو الظهر أو القدم، مع أنه يمكن أن تنمو في أي مكان.

فمن ترى قال لها إن هذا الجهاز يحتاج إلى عين، في هذا المكان دون سواه.
إنه العلي الأعلى، الذي خلقها وهداها إلى طريقها في المتاهة التي لا هادي فيها إلا الله وحده.
وكما أودع الله في الأرض ودائعً، وبالجهد عليها تظهر هذه الودائع، وتنفع الناس كالماء والحديد وسائر المعادن.
كذلك وضع الله في الآدمي ودائعَ، فإذا اجتهدنا عليها بالمنهج الصحيح ظهرت هذه الودائع، وخدمت الدين، وإلا نجتهد عليها يضيع هذا الاستعداد بين شهوات البهائم، أو غضب السباع، أو كيد الشياطين.

فكل جوارح الإنسان خلقت للعبادة، وخدمة الدين، والقيام بالدين.
فالعين عندها استعداد النظر .. والأذن عندها استعداد السمع .. والقلب عنده استعداد الإيمان .. والعقل عنده استعداد الفكر. واللسان عنده استعداد الكلام .. واليد عندها استعداد البطش بالأعداء .. والرجل عندها استعداد المشي والكر والفر، وهكذا بقية الجوارح.
فأين الذي استفاد منها حسب أمر الله؟.

وقد خلق الله اللسان، وجعل فيه استعداد الكلام، حيث يحدث الصوت من هواء ساذج، يخرج من الصدر حتى يصل إلى الحلق واللسان، والشفتين والأسنان، فيحدث منه الكلام والصوت.
نظمه ونثره .. وخطبه ومواعظه .. لينه وخشنه .. والضحك والبكاء ..
والترغيب والترهيب .. والسؤال والجواب .. والإنذار والتبشير، والنداء والدعاء .. والحمد والذم .. والتسبيح والاستغفار .. وغير ذلك مما لا يمكن حصره من أنواع الكلام الذي ينطق به اللسان بإذن الله.

فسبحان القدير الذي أخرج كل ذلك من هواء ساذج يخرج من الصدر، ولا يدرى ما يراد به، ولا أين ينتهي، ولا أين مستقره، فهو بحر من الهواء يقلبه الله إلى بحر من الكلمات والجمل التي تحمل المعاني.

وأعجب من هذا اختلاف الألسنة واللغات والأصوات.
فيجتمع خلق من الناس من بلاد شتى، وكل يتكلم بلغته، ولا يدري كل منهم ما يقول الآخر، مع أن الهواء واحد، واللسان واحد، والحلق واحد، والأضراس واحدة، والشفتان واحدة، إن في ذلك لآية.

فمثل اللسان مثل الأرض تسقى بماء واحد، وتخرج نباتات مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والأحجام، من الأشجار والأزهار والحبوب والثمار، مع أن التراب واحد، والماء واحد: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} (٢٨) .

وعجيبة أخرى في خلق هذا الإنسان:
إنها عملية تحويل الغذاء في الجسم إلى دم، وتغذية كل خلية بالمواد التي تحتاج إليها من مواد هذا الدم.
إنها عملية عجيبة فائقة العجب، وهي بقدرة الله وتدبيره تتم في الجسم في كل ثانية، كما تتم عملية الاحتراق، كما تتم عملية التنفس.
وفي كل لحظة تتم في جسم الإنسان عمليات هدم وبناء مستمرة، لا تكف حتى تفارق الروح الجسد.

ولا يملك الإنسان أمام هذه المخلوقات العظيمة، وهذه العمليات العجيبة، إلا أن تهتف كل ذرة فيه بتسبيح الخالق المبدع لهذا الكون والإنسان.
والله سبحانه خلق الإنسان، وزوده بآلات العلم والمعرفة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب.
فأي نعمة فوق هذه النعم؟: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨)} (٢٩) .
وأول الشكر وأعظمه، الإيمان بالله الواحد الأحد، وعبادته وطاعته، والدعوة إليه، والإحسان إلى خلقه.

ألا ما أعظم فضل الله على الإنسان في خلقه .. وحسن صورته الخلقية .. وحسن صورته الشعورية .. فالإنسان أكمل الأحياء في الأرض من ناحية تكـــــــوينه الجثماني، كما أنه أرقاها من ناحية تكوينه الشعوري .. واستـــــعداده الروحي. ومن ثم وكلت إليه الخلافة في الأرض، وأقيم خليفة في هذا الملك العريض، إلى يوم الدين.

إن الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان من نطفة، وجعله يمر بمراحل:
المرحلة الأولى: في بطن الأم، ومدتها تسعة أشهر، والحكمة من وجوده هذه المدة شيئان: تكميل الأعضاء الداخلية والخارجية.
المرحلة الثانية: في بطن الدنيا، ومدتها من يوم الولادة إلى الموت، والحكمة من وجوده في الدنيا شيئان: تكميل الإيمان، والأعمال الصالحة.
المرحلة الثالثة: في القبر، ومدتها من الموت إلى قيام الساعة، والحكمة مـن وجوده في القبر انتظار قيام الساعة، وهو في هذه الفترة إما في عذاب، وإما في نعيم، حسب عمله، سواء دفن أو لم يدفن.
المرحلة الرابعة: في دار القرار، في الجنة أو النار، ومدتها من دخول الجنة أو النار، إلى أبد الآباد، والحكمة من وصوله إلى هذه الدار، بلوغ كمال النـــــعيم، والتمتع برؤية ربه إن كان مؤمناً، والخلود في الجنة، أما الكافر فيصل إلى كمال العذاب جزاء على عمله في الدنيا، ويخلد في النار.
والله حكيم عليم، خلق الإنسان ضعيفاً، ومع ضعفه فعلمه قليل، فمهما علـــم من العلم فلن يعرف كل شيء.

والإنسان مع ضعفه وقلة علمه عجول، ومع عجلته كان أكثر شيء جدلاً، ومع جداله كان خصيماً، وقتوراً وهلوعاً.
وفوق ذلك كان ظلوماً جهولاً، وفوق ذلك كان مختالاً فخوراً، وفـــوق ذلك كان كفوراً: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (١٥)} (٣٠) .
إن أعطى لم يشكر .. وإن ابتلي لم يصبر .. وإن أساء لم يستغفر: { يَا عِبَادِي! كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ} (٣١) ،
فالإنسان بحاجة إلى الوحي، وبحاجة إلى الدين، وبحاجة إلى قدوة حـــــسنة، ولذلك بعث الله إليه خيار الناس وهم الأنبياء، ليقتدي بهم.

فمن اتبعهم وسار على هديهم أفلح ونجا في الدنيا والآخرة.
ومن خالفهم وسار على هواه ضل وخسر في الدنيا والآخرة.
فسبحان العليم الحكيم، السميع البصير، الذي خلق الإنسان ورعاه ورباه، وهو جنين في بطن أمه، وجعله في موضع صغير، لا يد تناله، ولا بصــــــر يدركه.
وسبحان من أجرى له الدم من الأم، يتغذى به كما يتغذى النبات بالماء، فينمو تدريجياً حتى يصير بشراً سوياً.

وسبحان من قلب ذلك الدم بعد الولادة لبناً خالصاً.
حتى إذا كمل خلقك، وقوي بدنك على مباشرة الهواء، واستعد بصرك لملاقاة الضياء، وصلبت عظامك على مباشرة الأيدي، هاج الطلق بأمك بأمــر العزيز الحكيم، وجاءت الأوامر بخروجك.
فخرجت من الظلمات إلى النور .. ومن دار الأمن إلى عالم الابتلاء .. فبـينما الرحم مبتهجٌ بحملك .. صار يعج إلى ربك من ثقلك.
فسبحان الذي فتح لك بابه حتى ولجت .. ثم ضمه عليك وحفظك فيه حتى كملت .
. ثم فتح لك الباب ووسعه حتى خرجت منه كلمح البصر .. لم يخنقك ضــــيقه . ولم تحبسك صعوبة طريقه.
وسبحان من صرف ذلك اللبن الذي كنت تتغذى به في بطن أمك إلى خزانتـــين معلقتين على صدرها، تحمل غذاءك على صدرها، كما حملتك في بطنها، وساقه إلى تلك الخزانتين أعظم سوق وألطفه، فهي بئر مملوءة بالحليب، تشـرب منها كلما ظمئت وجعت لبناً خالصاً سائغاً.

فتبارك الكريم الرحيم الذي خلقه وصفاه، وأطاب طعمه، وحسن لونـــه، وأحكم طبخه، ليس بالحار المؤذي، ولا البارد القارس، ولا المر ولا المالح، ولا الكريه الطعم والرائحة، بل هو أحسن ما يكون.
وجعله في أعلى مكان ليناسب حالك، فإذا اشتهيت اللبن در لك الثدي بـإذن ربه، ولسهولة وصوله إليك جعل الله في رأس الثدي حلمة هي بمقدار صغر فمك، فلا يضيق عنها، ولا يتعب بالتقامها: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)} (٣٢) .
ثم نقب سبحانه في رأس الحلمة نقباً صغيراً يناسب حالك، لم يوسعه فتـــختنق باللبن، ولم يضيقه فتمصه بكلفة.

فسبحان من عطف قلب الأم على مولودها، ووضع فيه الحنان العـــــــجيب، والرحمة الباهرة، تسهر من أجلك، وتؤثرك بكل شيء، وهي منقادة مسرورة.
حتى إذا قوي بدنك، واتسعت أمعاؤك، وخشنت عظامك، واحتجت إلى طـــعام يشتد به عظمك، ويقوى عليه لحمك، أنبت في فيك آلة القطع والطحن مــــن الأسنان والأضراس.
فسبحان الذي حبسها وقت الرضاع رحمةً بأمك، ثم أعطاكها أيام أكلك رحمةً بك ولطفاً بك.

وكلما ازددت قوة وحاجة إلى الأسنان في أكل الطعام زيد لك في تلك الأسنان، حتى تنتهي إلى النواجذ، فتطيق نهش اللحم، وقطع الخبز، ثم إذا ازددت قوة، زيد لك فيها حتى تنتهي إلى الطواحين التي هي آخر الأضراس.
ومن رحمته سبحانه بالإنسان أن أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، فإنه على ضعفه لا يحتمل العقل والفهم والمعرفة، وإنما يعطي ذلك تدريجياً كما ينـــمو تدريجياً رحمةً من ربه العزيز الرحيم.

فلا يزال يتزايد فيه العقل والمعرفة شيئاً فشيئاً، حتى يألف الأشياء ويتـــمرن عليها، ويستقبلها بحسن التصرف فيها، وحسن التدبير لها.
وخص سبحانه الذكر بأن جمل وجهه باللحية، وقاراً وهيبةً له، وجمالاً وزينة، وفصلاً له عن سن الصبا، وفرقاً بينه وبين الإناث.

وبقيت الأنثى على حالها، لما خلقت له من استمتاع الذكر بها، فبقي وجهها على حاله ونضارته، ليكون أهيج للرجل على الشهوة، وأكمل للذة الاستمتاع.

فالماء واحد .. والوعاء واحد .. واللقاح واحد .. والنتاج مختلف.
فسبحان الذي أعطى الذكر الذكورية، والأنثى الأنوثية: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٥٠)} (٣٣)

وجعل سبحانه المعدة خزانة يستقر فيها الغذاء، فتطبخه كالطباخ، وتسلمه لمن ينتفع به، فالإنسان يطبخ الطعام في الخارج، حتى يظن أنه قد كمل، وطباخه من الداخل يعاني من نضجه وطبخه ما لا تهتدي إليه، ولا تقدر عليه.
فهو يوقد عليه نيراناً تذيب الحصى، وتذيب ما لا تذيبه النار، وهي في ألطف موضع منك، لا تحرقك ولا تلتهب عليك، وهي أشد حرارة من النار.
وجعل سبحانه في بدنك المنافذ والأبواب، لإدخال ما ينفعك، وإخراج ما يضرك .. فهل من عاقل .. ؟ وهل من ذاكر .. ؟ وهل من شاكر .. ؟
فسبحان الخلاق العليم الذي خلق لك الحواس، وجعلها في الرأس كالمصابيح فوق المنارة لتتمكن بها من مطالعة الأشياء.
وجعل سبحانه الحواس خمساً في مقابل المحسوسات الخمس، كي لا يبقى شيء من المحسوسات لا يناله بحاسة:

فجعل البصر في مقابلة المبصرات .. وجعل السمع في مقابلة الأصوات، وجعل الشم في مقابلة الروائح .. وجعل الذوق في مقابلة المذوقات .. وجعل اللمس في مقابلة الملموسات .. فأي محسوس بقي بلا حاسة؟.

وأعينت هذه الحواس بمخلوقات أخر لتكمل بها منفعتها:
فأعينت حاسة البصر بالضياء والنور .. وأعينت حاسة السمع بالهواء الذي ينقل الأصوات .. وأعينت حاسة الشم بالنسيم اللطيف .. وأعينت حاسة الذوق بالريق المتحلل في الفم .. وأعينت حاسة اللمس خاصة بقوة جعلها الله فيها تدرك بها الملموسات، ولم تحتج إلى شيء من خارج.

فسبحان من أخرج الكلام من هواء ساذج في باطن الإنسان، وأخـــــــرج من الحروف والكلمات والجمل أنواع الكلام:
من أمر ونهي .. ونظم ونثر .. ومضحك ومبك .. ومسل ومحزن .. ومــــا يولد الخوف .. وما يولد الأمن .. ومنه ما يسقم الصحيح .. ومنه ما يبرئ الـــسقيم .. ومنه ما يزيل النعم .. ومنه ما يحل النقم .. ومنه ما يستدفع به البلاء .. ومنه ما يجلب النعماء .. ومنه ما يؤلف القلوب .. ومنه ما يفرق القلوب .. ومنه ما يضل .. ومنه ما يهدي .. ومنه العالي .. ومنه السافل .. ومنه الحسن .. ومنه القبيح.
فسبحان من أخرج هذا كله من هواء ساذج يخرج من الصدر:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)} (٣٤).

وسبحان من أخرج من هواء واحد ما لا يحصيه إلا الله من الحروف والكلمات، والأصوات والأنغام، وأخرج بماء واحد ما لا يحصيه إلا الله من النـــــــباتات والأشجار، والأزهار والثمار .. وأخرج بلسان واحد ما لا يحصـــيه إلا الله من اللغات واللهجات.

فالحلق يمر به هواء واحد، والأرض تسقى بماء واحد، والمواليد من هذ وهذا مختلفة لا يحصي أنواعها إلا الله الذي لا يعجزه شـــــــيء في الأرض ولا في

السماء: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} (٣٥) ،
وما أعظم نعمة الله في الحفظ والنسيان، والذي خص به نوع الإنسان، وما أعظم ما فيهما من الحكم، وما للعبد فيهما من المصالح.
فإنه لولا القوة الحافظة التي خص الله بها الإنسان لدخل عليه الخلل في أموره كلها، ولم يعرف ما له وما عليه، ولا ما أخذ ولا ما أعطى، ولا ما ســـمع وما رأى، ولا ما قال ولا ما قيل له، ولا ذكر من أحسن إليه، ولا من أساء إليه، ولا من نفعه فيقرب منه، ولا من ضره فينأى عنه، ولا يعرف علماً ولو درســــه مراراً، ولا يهتدي إلى الطريق الذي سلكه أول مرة ولو سلكه مراراً، ولا ينتفع بتجربة، ولا يعرف من عامله.

ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان، فإنه لولا النسيان لما ســـــــلا أبداً، ولا انقضت له حسرة، ولا تعزى عن مصيبة، ولا ارتفع عنه حزن، ولا بطل له حقد، ولا استمتع بشيء من الدنيا مع تذكر الآفات، ولا نام من تذكر المـــــــصائب والبليات.

فما أعظم نعمة الله على العبد في الحفظ والنسيان مع تضادهما: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣)} (٣٦) .

والله على كل شيء قدير، يفعل ما يشاء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يفعل ما يشاء بقدرته وهو الصمد:

خلق آدم بلا أب ولا أم .. وخلق زوجه من أب بلا أم .. وخلق عيسى من أم بلا أب .. وخلقنا من أب وأم.

فخلق آدم من تراب، وخلق زوجه من أحد أضلاعه، وخلق عيـسى من نفخة جبريل في درع مريم، وخلق البشر من اجتماع ماء الرجل والمـــــــــــرأة.

فسبحان من خلق من هذا الماء بشراً سوياً يقوم ويقعد .. ويأكل ويـــــشرب .. ويفرح ويغضب .. ويصلي ويتعبد .. ويعدل ويظلم .. ويتكلم ويسكت .. ويرحم ويبطش.

وسبحان من جعل من نسله الذكر والأنثى .. والأسود والأبيض .. والـــطويل والقصير .. والمؤمن والكافر .. والعاقل والمجنون .. والعرب والـــــــــعجم.

وسبحان من هيأه للإيمان والكفر .. والطاعات والمعاصي .. والـــخير والشر .. والإحسان والإساءة .. والهدى والضلالة.

وسبحان من ملأ الأرض من نسله.

فهذا يولد .. وهذا يموت .. حتى يأكلوا أرزاقهم .. ويستكملوا آجالهم .. والله يوالي عليهم نعمه .. ويرسل إليهم رسله .. وهم يعملون بما يـــسر الله لهم .. ويغدون ويروحون إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

فما أعظم خلق هذه النفوس، وما أعجب ما فيها من الآيات والعبر والشواهد والحكم، وما أدلها على قدرة بارئها وفاطرها: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُـوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١)} (٣٧) .

وهذا الإنسان مركب من ستة أشياء وهي:
بدنه الجثماني .. ونفسه الشهوانية .. ونفسه الغضبية .. ونفـــسه الشيطانية .. وروحه الملكية .. وجوهره العقلي.
والذي يملك السمع والأبصار هو الله، فهو خالقها وحده، وهو الذي يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، ويعافيها أو يمرضها، ويسمـعها ويريها ما تحب أو ما تكره.
وفي تركيب العين وأعصابها، وكيفية إدراكها للمرئيات.
وفي تركيب الأذن وأجزائها، وطريقة إدراكها للذبذبات.
في ذلك كله عجائب تذهل العقول، وتدير الـــــــرؤوس.
إن كثيراً من الناس يمرون غافلين بالبدائع الإلهية في الكون وفي أنفـــــــسهم، كأنهم لا يبصرون ولا يدركون: {وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢)} (٣٨) .

والذي يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، هو الله وحده.
ألا ما أعظم الرب الخالق سبحانه، وما أعظم قدرته، وما أتقن صنعه.
إن وقفة واحدة أمام الحبة والنواة، تخرج منهما النبتة والنــــــخلة.
أو أمام البيضة والبويضة، يخرج منهما الفرخ والإنسان.
إن ذلك لكافٍ لاستغراق حياة الإنسان في التأمل والارتعاش، إجلالاً لعظمة الله وكمال قدرته، وسعة علمه، وجميل صنعه.
فسبحان العليم القدير.
أين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ .. وأين كان يكمن العود؟.
وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق والثمار؟.
وأين في النواة كان يكمن اللب واللحاء، والساق والعراجين؟.
وأين كان يكمن الطعم والنكهة، واللون والرائحة؟.
وأين كان يكمن البلح والتمر، والرطب والبسر؟.
وأين في البيضة كان الفرخ؟.
وأين كانت تكمن تلك العظام واللحوم، والزغب والريش؟.
وأين كان يكمن في البويضة ذلك الكائن البشري العجيب؟.
وأين كان يكمن لحمه وعظامه، عروقه وأعصابه، وسمعه وبصره، ورأسه وأطرافه، وأفكاره وأعماله، وكلامه وحركاته؟

{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)} (٣٩) .

وإن تحول الطعام الذي يموت بالطهي والنار، إلى دم حي في الجسم الحي .. وتحول هذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق .. لأعجوبة يتسع العجب منها .. كلما زاد العلم بها .. وهي بعد كائنة في كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار.

إن هذه الكائنات الحية لا تكون إلا من إله حي، يهب الحياة لكل حـــي:

{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥)} (٤٠) .

المراجع: للباب الثالث : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة الإنسان ، آية : ٢)
(٢) (سورة النحل ، آية : ٤)
(٣) (سورة الطارق ، آية : ٥-٨)
(٤) (سورة الذاريات ، آية : ٢١)
(٥) (سورة عبس ، آية : ١٧-٢٢)
(٦) (سورة الروم ، آية : ٢٠)
(٧) (سورة المؤمنون ، آية : ١٢)
(٨) (سورة الحجر ، آية : ٢٦)
(٩) (سورة الرحمن ، آية : ١٤)
(١٠) (سورة السجدة ، آية : ٧-٨)
(١١) (سورة المؤمنون ، آية : ١٢-١٤)
(١٢) (متفق عليه)
(١٣) (سورة التحريم ، آية : ٦)
(١٤) (أخرجه مسلم)
(١٥) (سورة الانشقاق ، آية : ١٩)
(١٦) (سورة البلد ، آية : ٤)
(١٧) (سورة نوح ، آية : ١٧-١٨)
(١٨) (سورة الغاشية ، آية : ٢٥-٢٦)
(١٩) (سورة ق ، آية : ١٦)
(٢٠) (سورة الذاريات ، آية : ٢١)
(٢١) (سورة الطارق ، آية : ٥-٧)
(٢٢) (سورة الأعلى ، آية : ٢-٣)
(٢٣) (سورة المؤمنون ، آية : ١٤)
(٢٤) (سورة غافر ، آية : ٦٢)
(٢٥) (سورة غافر ، آية : ٥٢)
(٢٦) (سورة غافر ، آية : ٦٤)
(٢٧) (سورة السجدة ، آية : ١٧)
(٢٨) (سورة الرعد ، آية : ٤)
(٢٩) (سورة النحل ، آية : ٧٨)
(٣٠) (سورة الزخرف ، آية : ١٥)
(٣١) (أخرجه مسلم)
(٣٢) (سورة الجاثية ، آية : ٦)
(٣٣) (سورة الشورى ، آية : ٤٩-٥٠)
(٣٤) (سورة الشعراء ، آية : ٨-٩)

(٣٥) (سورة يس ، آية : ٨٢)
(٣٦) (سورة النحل ، آية : ٥٣)
(٣٧) (سورة الذاريات ، آية : ٢٠-٢١)
(٣٨) (سورة يونس ، آية : ٩٢)
(٣٩) (سورة لقمان ، آية : ١١)
(٤٠) (سورة غافر ، آية : ٦٥)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الرابع :

الفصل الأول : خلق الله تعالى الليل والنهار :
الفصل الثاني : خلق الشمس والقمر
الفصل الثالث : خلق النجوم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام والإيمان .ولك الحمد أن جعلتنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :
يقول الله تعالى في محكم آياته : {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} (١) .

{ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (٢) .
إن ربكم - أيها الناس - هو الله الذي خلق السماوات وخلق الأرض على غير مثال سابق في ستة أيام، ثم علا وارتفع سبحانه على العرش علوًّا يليق بجلاله لا ندرك كيفيته، يُذْهِب ظلام الليل بضياء النهار، وضياء النهار بظلام الليل، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا سريعًا بحيث لا يتأخر عنه، فإذا ذهب هذا دخل هذا، وخلق سبحانه الشمس، وخلق القمر، وخلق النجوم مُذَلَّلات مُهَيَّآت، ألا لله وحده الخلق كله، فمن خالق غيره؟! وله الأمر وحده، وعظم خيره وكثر إحسانه، فهو المتصف بصفات الجلال والكمال، رب العالمين .

{ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٣) .

وهو سبحانه الذي بسط الأرض، وخلق فيها جبالًا ثوابت حتى لا تضطرب بالناس، ومن كل أنواع الثمرات جعل فيها صنفين كالذكر والأنثى في الحيوان، يلبس الليل النهار، فيصير مظلمًا بعدما كان منيرًا، إن في ذلك المذكور لأدلة وبراهين لقوم يتفكرون في صنع الله، ويتأملون فيه، فهم الذين ينتفعون بتلك الأدلة والبراهين .

{ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} (٤) .

وذلَّل لكم الشمس والقمر يجريان باستمرار، وذلَّل لكم الليل والنهار يتعاقبان، الليل لنومكم وراحتكم، والنهار لنشاطكم وكَدِّكم.

{ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (٥) .

وذلَّلَ الله لكم الليل لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار لتكسبوا فيه ما تعيشون به، وسخر لكم الشمس، وجعلها ضياء، والقمر وجعله نورًا، والنجوم مذللات لكم بأمره القدري، بها تهتدون في ظلمات البر والبحر، وتعلمون الأوقات وغير ذلك، إن في تسخير ذلك كله لدلالات واضحة على قدرة الله لقوم يُعْمِلون عقولهم، فهم الذين يدركون الحكمة منها.

{ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ } (٦) .

وهو وحده سبحانه الذي يحيي فلا محيي غيره، وهو وحده الذي يميت فلا مميت سواه، وإليه وحده تقدير اختلاف الليل والنهار ظلمة وإنارة وطولًا وقصرًا، أفلا تعقلون قدرته، وتفرّده بالخلق والتدبير؟!

{ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ} (٧) .

يُعَاقِب الله بين الليل والنهار طولًا وقصرًا، ومجيئًا وذهابًا، إن في ذلك المذكور من الآيات من دلائل الربوبية عظة لأصحاب البصائر على قدرة الله ووحدانيته.

{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا} (٨) .

والله هو الذي صيَّر الليل والنهار متعاقبين يعقب أحدهما الآخر ويخلفه، لمن أراد أن يعتبر بآيات الله فيهتدي، أو أراد شكر الله على نعمه.

{ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (٩) .

وآيات الشمس والقمر والليل والنهار مقدرة بتقدير الله، فلا تتجاوز ما قدر لها، فلا الشمس يمكن أن تلحق بالقمر لتغيير مساره أو إذهاب نوره، ولا الليل يمكنه أن يسبق النهار ويدخل عليه قبل انقضاء وقته، وكل هذه المخلوقات المسخرة وغيرها من الكواكب والمجرات لها مساراتها الخاصة بها بتقدير الله وحفظه.

{ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} (١٠) .

خلق السماوات والأرض لحكمة بالغة، لا عبثًا كما يقول الظالمون، يدخل الليل على النهار، ويدخل النهار على الليل، فإذا جاء أحدهما غاب الآخر، وذَلَّل الشمس، وذَلَّل القمر، كل منهما يجري لوقت مُقَدَّر هو انقضاء هذه الحياة، ألا هو سبحانه العزيز الذي ينتقم من أعدائه، ولا يغالبه أحد، الغفار لذنوب من تاب من عباده.

{ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} (١١) .

يدخل الليل على النهار فتأتي الظلمة، وينام الناس، ويدخل النهار على الليل فيأتي الضياء، فينطلق الناس إلى أعمالهم، وهو عليم بما في صدور عباده، لا يخفى عليه شيء منه.

علم الحق سبحانه بما يكون في النهار أو الليل
{ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} (١٢) .
ولله وحده ملك كل شيء، مما استقر في الليل والنهار، وهو السميع لأقوالهم، العليم بأفعالهم، وسيجازيهم عليها.

{ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (١٣) .
والله هو الذي يقبض أرواحكم عند النوم قبضًا مؤقتًا، وهو الذي يعلم ما كسبتم من الأعمال في النهار وقت نشاطكم، ثم يبعثكم في النهار بعد قبض أرواحكم بالنوم لتقوموا بأعمالكم، حتى تنتهي آجال حياتكم المقدرة عند الله، ثم إليه وحده رجوعكم بالبعث يوم القيامة، ثم يخبركم بما كنتم تعملونه في حياتكم الدنيا، ويجازيكم عليه.

{ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } (١٤) .
لأنه سبحانه عالم كل ما غاب عن حواس خلقه، وعالم كل ما تدركه حواسهم، العظيم في صفاته وأسمائه وأفعاله، المستعلي على كل مخلوق من مخلوقاته بذاته وصفاته.

في النهار والليل متسع لذكر الله
{ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ} (١٥) .
وأقم ـ أيها الرسول ـ الصلاة على أحسن وجه في طرفي النهار وهما أول النهار وآخره، وأقمها في ساعات من الليل، إن الأعمال الصالحات تمحو صغائر الذنوب، ذلك المذكور موعظة للمتعظين، وعبرة للمعتبرين.

{ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ} (سورة طه ١٣٠) (١٦) .
فاصبر ـ أيها الرسول ـ على ما يقوله المكذبون بك من أوصاف باطلة، وسبّح بحمد ربك في صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وفي صلاة العصر قبل غروبها، وفي صلاة المغرب والعشاء من ساعات الليل، وفي صلاة الظهر عند الزوال بعد نهاية الطرف الأول من النهار وفي صلاة المغرب بعد نهاية الطرف الثاني منه؛ رجاء أن تنال عند الله من الثواب ما ترضى به.

{ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا . وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا } (١٧) .
إن ساعات الليل هي أشد موافقة للقلب مع القراءة وأصوب قولًا.
القسم بالليل والنهار

{ كَلَّا وَالْقَمَرِ. وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ . وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ } (١٨) .
ليس القول كما يزعم بعض المشركين أنه يكفي أصحابه خَزَنة جهنم حتى يُجْهِضهم عنها، أقسم الله بالقمر.

{ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ } (١٩) .
وأقسم بأول الليل إذا أقبل، وبآخره إذا أدبر.

{ وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا } (٢٠) .
أقسم الله بالشمس، وأقسم بوقت ارتفاعها بعد طلوعها من مشرقها. المزيد

{ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ } (سورة الليل) (٢١) .
أقسم الله بالليل إذا يغطي ما بين السماء والأرض بظلمته.
النهار عمل والليل سكن

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ } (٢٢) .

هو وحده الذي جعل لكم - أيها الناس - الليل لتسكنوا فيه عن الحركة والتعب، وجعل النهار مضيئًا لتسعوا فيه بما يرجع إليكم بنفع في معاشكم، إن في ذلك لدلائل واضحة لقوم يسمعون سماع اعتبار وقبول.

{ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا} (٢٣) .

والله هو الذي صيَّر لكم الليل بمنزلة لباس يستركم، ويستر الأشياء، وهو الذي صيَّر لكم النوم راحة تستريحون به من أشغالكم، وهو الذي صيَّر لكم النهار وقتًا تنطلقون فيه إلى أعمالكم.

{ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ } (٢٤) .

ألم ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه بالنوم، وصيّرنا النهار مضيئًا ليبصروا فيه، فيسعوا إلى أعمالهم، إن في ذلك الموت المتكرر والبعث بعده لعلامات واضحة لقوم يؤمنون.

{ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٢٥) .

قل لهم - أيها الرسول -: أخبروني إن صيّر الله عليكم النهار دائمًا مستمرًّا إلى يوم القيامة، من معبود غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه لتستريحوا من عناء العمل في النهار؟! أفلا تبصرون هذه الآيات، وتعلمون أن لا إلـه إلا الله يأتيكم بذلك كله؟!

{ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} (٢٦) .

ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته: نومكم بالليل، ومنامكم بالنهار لتستريحوا من عناء أعمالكم، ومن آياته أن جعل لكم النهار لتنتشروا فيه مبتغين الرزق من ربكم، إن في ذلك المذكور لبراهين ودلالات لقوم يسمعون سماع تدبر وسماع قبول.

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} (٢٧) .

الله هو الذي صيّر لكم الليل مظلمًا لتسكنوا فيه وتستريحوا، وصيّر النهار مضيئًا منيرًا لتعملوا فيه، إن الله لذو فضل عظيم على الناس حين أسبغ عليهم من ظاهر نعمه وباطنها، ولكنّ معظم الناس لا يشكرونه سبحانه على ما أنعم به عليهم منها.

{ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا۝وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا } (٢٨) .

وجعلنا الليل ساترًا لكم بظلمته مثل اللباس الذي تسترون به عوراتكم.

لماذا خلق الله الليل والنهار والحكمة من ذلك :

يقول عزّ من قال في كتابة المجيد: {وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا}، فربنا العالم بتكوين عباده وإحتياجاتهم، جعل لهم النهار للسعي وطلب الرزق الحلال، فهم يكدون ويتعبون فيه لتأمين لقمة العيش لهم ولفلذات أكـــــبادهم، ولكون هذا الجسد يتعب ويشقى نهارا فلابد من تجديد نشاطه بالســــــماح له بالإسترخاء والنوم ليلا.

فالليل جعله الله سكنا ولباسا لعبادة وقد تجلت حكمة الخالق بجعل النهار مرتبطا بظهور الشمس القوية والليل باختفائها وظهور القمر والنجوم، فالـــنهار يرمز إلى القوة والنشاط المنبثقة من قوة أشعة الشمس والتي تغذي أجسامنا بالطاقة والقوة، والليل يرمز إلى الهدوء والسكون و الطمأنينة فقد وصفه الــــــمولى عز وجل باللباس الساتر لنا فهو يلفنا بظلمته كما يلف اللباس صاحبه.

وقد تجلت حكمة الله عز وجل وتحديه لخلقه بـــــقوله: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ} (٢٩) .

والسرمد هو كل ما كان متصلا لا ينقطع بغض النظر عن نوعه سواء كان رخاءً أو نعمةً أو إبتلاءً، فلو تصورنا إن الله خلق الحياة كلها من نوع واحــــــد سواء كانت ليلا أو نهارا لكانت الحياة مستحيلة ومن ثم اكتمل تحدي الـــــخالق لعباده بقوله: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}. (٣٠) .

وهو سبحانه الذي يأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر وبالعكس، ويرتب على ذلك قيام الفصول الأربعـــــــة. وهو سبحانه القادر على هذا التقلب وقبض الأرواح عند منامها وإعادة بعـــــــضها والإحتفاظ بالأخرى التي كتب عليها الموت، لقادر أيضا على إعادة الـــــــحياة والبعث بعد الممات، فيا له من معاد ونشأة دال على قدرة الله سبـــــحانه على المعاد الأكبر.

يعتبر التعاقب أي توالي الليل بعد النهار من عظيم صنع الله تـــعالى في الأرض، ويحدث الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول نفسها أثناء دورانـــــها حول الشمس، ونظراً لكروية (بيضاوية) الأرض فإنّ أوجهها لا تتعرض مـــعاً في الوقت ذاته للشمس، لهذا يتشكل النهار في الجزء الذي يتعرض لأشعة الشمس، أما الجزء الآخر من الأرض يتشكل به الليل لأنّه محجوب عنهـــــا، و دوران الأرض حول نفسها يستغرق أربع وعشرين ساعة.

تتجلى قدرة الله عز وجل في أنّه جعل الأرض تدور حول نفسها حتـــى تصلح الأرض للحياة عليها، فلو كانت الأرض ثابتة لانقسمت إلى نصف معـتم بارد متجمد على مدار السنة، ونصف آخر مشرق حار على مدار العام، مما يؤدي إلى تلف الخلايا بسبب تعرضها المستمر للشمس أو البرد.

من قدرته عزّ وجلّ أنّ الأرض عندما تدور حول محورها فإنّ دورانها يكـــون منحرفاً وعامودياً، وهذا ما يفسر فرق ساعات الليل والنهار في مناطق مختلفة من الأرض، كما يكون النهار قصيراً والليل طويلاً خلال فصل الشتاء، أمـــا في فصل الصيف فينعكس ذلك إذ يصبح الليل قصيراً والنهار طويلاً.

فلو تصورت الحياة سرمدا من نوع واحد سواء أكانت ليلا أو نهار، لأصـــــبح العيش فيها وعليها أمرا مستحيلا، فجاء التنوع بكل ما يجمل في طياته مـــــن أسرار خلق الله، فالنهار يأتي للعمل والاجتهاد ومن ثم يأتي الليل للســــــكن والراحة وكل ما يرتبط به من جمال شرعه الله لنا.
سبحان من خلق فأبدع وصنع فأحكم وقدر فعدل .

أخي القارئ : تعال معي نتعرف على حقيقة الزمن :

أعلم أخي القارئ إن هذا الزمان الذي نعيشه ونعرف له ماضـــيا وحاضرا ومستقبلا أُعجوبة من الأعاجيب، وآية باهرة من آيات الله تـعالى، تدل على قدرته وعجيب صنعه سبحانه وتعالى.. آية بينة انبرى لمعرفتها الدارسون، واحتارت فيها العقول، وتخبط فيها البشر قديما وحديثا.

ومنذ القدم والإنسان يحاول كشف كُنه الزمن وحَدَّه وبدايته وطريقة سيره، فما يدرك حقيقة من حقائقه بعد جهد جهيد إلا علم شيئا من قدرة الـخالق عز وجل، واكتشف ما مضى من جهله وعجزه، وما يغيب عنه من حقائـــق الزمن فإنه يتخبط فيه يمينا وشمالا بنظريات وفرضيات، حتى يأتي لاحق فيكـــشف خطأ السابقين وتخبطهم.

ومن عجيب قدرة الله تعالى، ومن أدلة عجز البشر أن أرقى العقول البـــشرية وأقواها تفكيرا وحِدَّةً واستحضارا يعسر عليها تحديد مفهوم الزمن في الوجود، وإن كان أخمل البشر وأغباهم يجدون سهولة في الشعور بالزمن وإدراك أثره.

لقد كرس كثير من الفلاسفة القدماء وأهل الكلام وعلماء الفلك عقولهم لمعرفة قصة الزمن، وظن أكثرهم أن الزمن في الأرض مطلق لا يتناهي أبدا، فليس له بداية، ولا نـهاية له، ومن هذا التقرير الخاطئ انبثقت مذاهبُ الدَّهرية، والـقولُ بالتناسخ، وغير ذلك من الأقوال الفاسدة، والعقائد الباطلة.

وفي الحضارة المعاصرة فتح الله تعالى للبشر من آفاق العلوم والمــعارف ما توصلوا بها إلى كثير من الحقائق، وفي ما يتعلق بالزمن ظهر ذلك جليا على أيدي علماء الفيزياء والرياضيات والفلك فاكتشفوا النسبية التي منها نسـبية الزمن، وأن الزمن الذي تعيشه المخلوقات على الأرض هو بالنسبة لها، وهو غير الزمن الذي يوجد في الكواكب الأخرى لا من جهة الليل والنهار، ولا من جهة الفصول والأعوام.

ومن تأمل الكتاب والسنة وجد العجب العجاب في النصوص المعتنية بالزمن، الكاشفة لكثير من حقائقه وأسراره، ويكفي دليلا على ذلك أن ما يتعلق بالزمن وعلاماته في القرآن يعسر إحصاؤه بدقة من كثرته وتنوعه، والله تعالى سمى سورا بالزمن أو أجزاء منه أو بما يدل عليه كالقمر والنجم والشمس والفجر والليل والضحى والعصر، وأقسم سبحانه بكثير منها، وقد حاول أحد الباحثين أن يحصي بعض ما يتعلق بالزمن في القرآن الكريم فجمع أكثر من أربع مئة موضع.

والمتقرر في عقيدة المسلم أن الله تعالى خالق الزمن ومدبره، وخالق علاماته وآياته وهي الشمس والقمر والنجوم، وما ينتج عنها من الليل والنهار والشهور والفصول؛ فبالشمس يُعرف الليل والنهار، فتشرق ليبدأ النهار، وتغرب ليبدأ الليل، ويهل القمر ليبدأ الشهر، ويضمحل لينتهي الشهر، وبالنجوم تعرف الفصول ابتداء وانتهاء، وبها يهتدي المسافرون، ويزرع الزارعون، وكل ذلك من خلق الله تعالى وتدبيره، وتسخيره لمنافع الأرض ومن عليها { وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (٣١) .وفي آية أخرى { وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالقَمَرُ } (٣٢) .ودلت الآيات القرآنية على أن هذه الآيات الكونية مسخرة لمنافع العباد ومصالحهم { وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ } (٣٣) .

ومن منافع هذه الآيات الكونية، ونتائج تسخيرها للبشر حسابُ الزمن، وضبط الأيام والشهور والفصول والأعوام، وتلك علة لخلق الزمن منصوص عليها في القرآن الكريم { هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالحِسَابَ } (٣٦) .
وفي آية أخرى { وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ }(٣٥) .

وللزمن غاية كما لعلاماته غاية، وجريان الزمن إنما هو بجريان علاماته، وإذا توقفت علامات الزمن توقف هو عن المسير { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } (٣٦) .وفي آية أخرى { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى } (٣٧) .

وآية الزمن في الدنيا - وهي الشمس والقمر - تنتهيان بانتهاء الدنيا، وبانتهائهما ينتهي زمن الدنيا { فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ } [القيامة:٧ - ٩] وفي سورة أخرى { إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ } (٣٨) . وفي غيرها { إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ } (٣٩) . وروى أبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: { الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يوم الْقِيَامَةِ} (٤٠) .

ولما كان الزمن وعلاماته من خلق الله تعالى، يأتمر بأمره، ويخضع لحكمه وتدبيره؛ فإنه سبحانه وتعالى قادر على إيقاف عمله في حق أشخاص بأعيانهم فلا يعمل فيهم الزمن ما يعمله في غيرهم، كما أخبر الله تعالى عن الرجل الذي أماته الله تعالى مئة عام ثم بعثه { قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٤١) . فهذا توقف عمل الزمن في حقه وفي حق طعامه وشرابه مئة سنة، وعمل الزمن في حماره فكان عظاما أحياها الله تعالى مرة أخرى وكساها لحما، فلما بعثه الله تعالى ابتدأ عمل زمنه مرة أخرى من اليوم الذي مات فيه، وهذا من عجائب قدرة الله تعالى وآياته، وجاء في أخبار بني إسرائيل أن بنيه ماتوا وبني بنيه هرموا وهم شيوخ أقوامهم في صدور مجالسهم، وهو جدهم ولا يزال شابا يافعا.

وأبين من ذلك وأعظم دلالة على توقف عمل الزمن بإرادة الله تعالى: قصة أصحاب الكهف حين ضرب الله تعالى على آذانهم فناموا ثلاثة قرون وتسع سنوات.. توقف خلالها عمل الزمن فيهم فلم تُبْلَ أجسادهم، ولا انقضت أعمارهم ولا هرموا، ولم يُحسب ذلك من أعمارهم، واستأنفوا يومهم بعد نومهم، وأرسلوا أحدهم بورقهم إلى مدينتهم ليحضر لهم طعاما فإذا المدينة تغيرت، وإذا جيلهم قد فني، وخلفته أجيال في إثر أجيال كلها فنيت، وقد توقف زمنهم بنومهم، فسبحان من حبس عمل الزمن فيهم وأجراه في غيرهم، وكانوا آية من الآيات يتلى خبرها في كتاب الله تعالى. { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا * قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا } [الكهف:٢٥ - ٢٦]. (٤٢) .

وقد يكون حبس الزمن عاما بحبس آيته وهي الشمس، فيتوقف الزمن بتوقفها، وقد وقع ذلك في تاريخ البشر كما حصل ليوشَعَ بن نونَ عليه السلام فقد أخبر النبي ﷺ أنه:(غَزَا فَدَنَا من الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أو قَرِيبًا من ذلك فقال لِلشَّمْسِ: إنَّكِ مَأْمُورَةٌ وأنا مَأْمُورٌ، اللهم احْبِسْهَا عَلَيْنَا فَحُبِسَتْ حتى فَتَحَ الله عليه) (٤٣) . من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وروى الإمام أحمد من حديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:(إن الشَّمْسَ لم تُحْبَسْ على بَشَرٍ إلا لِيُوشَعَ ليالي سَارَ إلى بَيْتِ الْمَقْدِسِ). (٤٤) .

وفي هذا الحبس توقف للزمن، ولا يقدر على ذلك إلا الله تعالى :

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن علامة الزمن قد ترجع إلى الوراء، فيكون رجوعها رجوعا للزمن؛ كما في حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لِأَبِي ذَرٍّ حين غَرَبَتْ الشَّمْسُ: { تدري أَيْنَ تَذْهَبُ؟ قلت: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حتى تَسْجُدَ تَحْتَ الْعَرْشِ فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لها وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ فلا يُقْبَلَ منها وَتَسْتَأْذِنَ فلا يُؤْذَنَ لها، يُقَالُ لها: ارْجِعِي من حَيْثُ جِئْتِ فَتَطْلُعُ من مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لها ذلك تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (متفق عليه) . (٤٥) .

فرجوع علامة الزمن وهي الشمس عن المشرق إلى المغرب هو رجوع للزمن؛ ولذا جاء في بعض الآثار أن تلك الليلة التي رجعت فيها الشمس من المشرق إلى المغرب طويلة جدا حتى إن النائم يستيقظ وسطها، والقائم تطول عليه، ويدوك الناس فيها إذا صلوا الفجر يومها، ويعجبون من تأخر الشمس عن الشروق فتفجأهم بطلوعها من المغرب. فسبحان من خلقها وأجرها، وسبحان من أمرها فأطاعته { أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } (٤٦) .

أخي القارئ:

كون الزمن من خلق الله تعالى فإن الله تعالى فوقه، ولا يحتاج إليه، ولا يحيط الزمن به؛ لأن الله تعالى غني عما سواه، وما سواه فقير إليه، وهو المتصرف في خلقه ومدبرهم، وهو سبحانه وتعالى خالق الزمن، وفي القرآن ما يدل على هذه الحقيقة العظيمة فيما يتعلق بالزمان والمكان، قال الله تعالى { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ } (٤٧) .

نُقل عن أبي سعيد الخراز أنه قيل له: بماذا عرفت ربك؟ قال: بجمعه بين الأضداد، وقرأ قوله تعالى { هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ } (٤٨) .
قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أراد بذلك أنه مجتمع في حقه سبحانه ما يتضادفي حق غيره؛فإن المخلوق لا يكون أولا آخرا باطنا ظاهرا.اهـ

وهنا يقف العقل البشري عن إدراك كنه ذلك ومعرفة كيفيته لعجزه وقصوره، ولكمال الله ﷻ وقدرته على كل شيء، فما ثَمَّ إلا الإيمان والتسليم، وتعظيم الله ﷻ، أو الإلحاد في أسمائه وصفاته، وتعطيله سبحانه عما يستحقه من الإثبات والإجلال، وهذا هو المزلق الخطر الذي ضل فيه الفلاسفة وأهل الكلام قديما، وغرقت في لجته طوائف كثيرة من أهل الإسلام وغيره، حين أخضعوا صفات الرب ﷻ لعقولهم القاصرة المحدودة، ولو عرفوا مقدارهم لعلموا أن ذا الكمال المطلق سبحانه لا يحيط به العقل القاصر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وإذا كانت كبار العقول البشرية قد عجزت عن إدراك كُنه الزمن ومفهومه في الوجود وهم يعيشونه ويجري عليهم، والزمن من خلق الله تعالى، فكيف يجيلون عقولهم في كنه الخالق سبحانه؟! من أجل ذلك أُمر العباد بالتفكر في خلق الله تعالى، ونهوا عن التفكر في ذاته عز وجل.

وجاء في السنة ما يفسر الآية فيما يتعلق بالزمن؛ كما في حديث عِمْرَانَ بن حُصَيْنٍ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (كان الله ولم يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ) (٤٩).

ومن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام: (اللهم أنت الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ) (٥٠).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: واعلم أن لك أنت أولا وآخرا وظاهرا وباطنا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن حتى الخطرة واللحظة والنَفَس وأدنى من ذلك وأكثر، فأولية الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليتُه سَبْقُه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء.... فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة وهي إحاطتان زمانية ومكانية: فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته، فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده.. فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره لم يزل أولا وآخرا وظاهرا وباطنا...اهـ

ومرور الزمن، وعمله في الناس قد أفسد الدنيا عليهم، فينقلهم الزمن من مرحلة الشباب والقوة إلى مرحلة الشيخوخة والضعف، وجريانُ الزمن يسرع بهم إلى الموت، وتلك سنة الله تعالى في عباده، وكان الزمنُ آيته سبحانه التي قدرها لتحقق هذه الحكمة العظيمة. قال الخليفة المنصور للربيع بن يونس: ما أطيب الدنيا لولا الموت! قال الربيع: يا أمير المؤمنين، ما طابت إلا بالموت، قال: وكيف؟ قال: لولا الموت لم تقعد هذا المقعد.

ولما كان الزمن يجري بأهل الدنيا حتى يفسد عليهم نعيمهم فيها كان من نعيم الآخرة أن الزمن لا يعمل فيهم عمله؛ فأعمارهم ثابتة في ثلاث وثلاثين سنة، وهو منتهى قوة الشباب واكتماله، وأخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن أهل الجنة لا يبلى شبابهم، وفي القرآن العظيم أنهم خالدون فيها أبدا، وقال سبحانه ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى وَوَقَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٥١) . [الدُخان:٥٦]

وتوقف عمل الزمن في أهل الجنة هو من كمال نعيمهم ودوامه.

والمؤمن يقرأ ذلك في القرآن ويعلمه، ويرى أن الزمن يجري به في الدنيا إلى الهرم والموت، والعاقل من عمل بما علم، فكرس دنياه الفانية بفناء زمنها للعمل الصالح الذي يكون سببا لخلوده في نعيم الآخرة، فلا يجري به زمن فيها إلى الهرم والموت، فأعدوا للقيامة عدتها، وخذوا من مرور الأيام، وانتهاء الأعوام معتبرا { إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ } (البروج:١١) . (٥٢) .

المراجع: للباب الرابع : الفصل الأول :

---

(١) (سورة الفرقان ، آية : ٦٢)
(٢) (سورة الاعراف ، آية : ٥٤)
(٣) (سورة الرعد ، آية : ٣)
(٤) (سورة إبراهيم ، آية : ٣٣)
(٥) (سورة النحل ، آية : ١٢)
(٦) (سورة المؤمنون ، آية : ٨٠)
(٧) (سورة النور ، آية : ٤٤)
(٨) (سورة الفرقان ، آية : ٦٢)
(٩) (سورة يس ، آية : ٤٠)
(١٠) (سورة الزمر ، آية : ٥)
(١١) (سورة الحديد ، آية : ٦)
(١٢) (سورة الأنعام ، آية : ١٣)
(١٣) (سورة الأنعام ، آية : ٦٠)
(١٤) (سورة الرعد ، آية : ١٠)
(١٥) (سورة هود ، آية : ١١٤)
(١٦) (سورة طه ، آية : ١٣٠)
(١٧) (سورة الزمر ، آية : ٦-٧-٨)
(١٨) (سورة المدثر ، آية : ٣٢-٣٣-٣٤)
(١٩) (سورة التكوير ، آية : ١٧)
(٢٠) (سورة الشمس)
(٢١) (سورة الليل ،)
(٢٢) (سورة يونس ، آية : ٦٧)
(٢٣) (سورة الفرقان ، آية : ٤٧)
(٢٤) (سورة النمل ، آية : ٨٦)
(٢٥) (سورة القصص ، آية : ٧٢-٧٣)
(٢٦) (سورة الروم ، آية : ٢٣)
(٢٧) (سورة غافر ، آية : ٦١)
(٢٨) (سورة النبأ ، آية : ١٠)
(٢٩) (سورة القصص ، آية : ٧١)
(٣٠) (سورة القصص ، آية : ٧٢)
(٣١) (سورة الانبياء ، آية : ٣٣)
(٣٢) (سورة فصلت ، آية : ٣٧)
(٣٣) (سورة النحل ، آية : ٣٣)
(٣٤) (سورة يونس ، آية : ٥)
(٣٥) (سورة النحل ، آية : ١٦)

(٣٦) (سورة يس ، آية : ٣٨-٤٠)
(٣٧) (سورة الرعد ، آية : ٢)
(٣٨) (سورة التكوير ، آية : ١-٢)
(٣٩) (سورة الانفطار ، آية : ١-٢)
(٤٠) (رواه البخاري)
(٤١) (سورة البقرة ، آية : ١٥٩)
(٤٢) (سورة الكهف ، آية : ٢٥-٢٦)
(٤٣) (متفق عليه)
(٤٤) (أخرجه الإمام احمد رقم ٨٣١٥)
(٤٥) (متفق عليه)
(٤٦) (سورة آل عمران ، آية : ٨٣)
(٤٧) (سورة الحديد ، آية : ٣)
(٤٨) (سورة الحديد ، آية : ٣)
(٤٩) (رواه البخاري)
(٥٠) (رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة)
(٥١) (سورة الدخان ، آية : ٥٦)
(٥٢) (سورة البروج ، آية : ١١)

الباب الرابع : الفصل الثاني : خلق الشمس والقمر :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام والإيمان .ولك الحمد أن جعلتنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :

قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)} ... (١) .

وقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦)} (٢) .

الله تبارك وتعالى هو الذي خلق الشمس والقمر، وجعل فيهما النور والإضاءة، وجعل لهما بروجاً ومنازل، ينزلانها مرحلة بعد مرحلة، لإقامة دولة السنة، وتمام مصالح حساب العالم.

وبذلك يعلم الناس حساب الأعمار، وآجال الديون والإيجارات والمعاملات، وتتميز الأيام من الليالي، والليالي بعضها من بعض، ولولا حلول الشمس والقمر في تلك المنازل لم يُعلم شيء من ذلك كما قال سبحانه:

{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)} (٣) .

وقد قدر العزيز العليم طلوع الشمس والقمر وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، ففي طلوعهما مصالح عظيمة للعباد، وفي غروبهما مصالح عظيمة، كما قال سبحانه:

{وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْـــصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)} (٤) .

ففي النهار يسعى الناس والدواب في مصالحهم، ويتصرفون في معايشهـــــــم، وتدبير أمورهم.

وفي الليل يهدأ الناس وينامون، فتنشط الأعضاء والأبدان، وتستعد لعمل جديد، بجسم نشيط.

ولولا الغروب لكانت الأرض تحمى بدوام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من نبات وحيوان.

فصارت بأمر العزيز الحكيم، تطلع وقتاً بمنزلة السراج يرفع لأهل البيت، ليقضوا حوائجهم، ثم تغيب عنهم مثل ذلك ليقروا ويستريحوا.

وصار ضياء النهار، مع ظلام الليل، وحر هذا، مع برد هذا، مع تضادهما، متعاونين متظاهرين متعاقبين، بهما تمام مصالح العالم كما قال سبـــحانه:

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)} ... (٥) .

وقال سبحانه: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)} (٦) .

وفي حركة الشمس يظهر الله الليل والنهار، وفي ارتفاعها وانخفاضها يظهر الله بقدرته الأزمنة والفصول الأربعة (الصيف والشتاء، والربيع والخــــــــــريف).

ولو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية.

فلو كان صيفاً كله لفاتت منافع الشتاء، ولو كان شتاء كله لفاتت منافع الصيف، وهكذا منافع الربيع والخريف.

ففي الشتاء تغور الحرارة بأمر الله في الأجواف وبطون الأرض والجـــــبال .. فتتولد مواد الثمار وغيرها .. وتبرد الظواهر .. ويتكثف الهواء .. فيحـــصل السحاب والمطر .. والثلج والبرد .. الذي به حياة الأرض وأهلها .. واشتداد أبدان الحيوان وقوتها.

ثم يليه الربيع، وفي الربيع تظهر المواد المتولدة في الشتاء، فيظهر النبات، ويتنور الشجر بالزهر والثمر، ويتحرك الحيوان للتناسل.
ثم يليه الصيف، وفي الصيف يحتد الهواء ويسخن جداً، فتنضج الثمار بأمر الله عزَّ وجلَّ، وتنحل فضلات الأبدان والأخلاط التي انعقدت في فصل الشتاء، وتغور البرودة، وتهرب إلى الأجواف، ولهذا تبرد العيون والآبار، ولا تهضم المعدة الطعام التي كانت تهضمه في الشتاء، لأنها كانت تهضمه بالحرارة التي سكنت في البطون.

فإذا جاء الخريف اعتدل الزمان، وصفا الهواء وبرد، فانكسر ذلك السموم، وجعل الله الخريف برزخاً بين سموم الصيف، وبرد الشتاء، لئلا ينتقل الحيوان وهلة واحدة من الحر الشديد، إلى البرد الشديد، فيحصل له الأذى والضرر.

وكذلك جعل الله سبحانه الربيع برزخاً بين الشتاء والصيف، فينتقل فيه الحيوان من برد هذا، إلى حر هذا بتدريج وترتيب.
فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)} (٧) .

وأعدل الأماكن التي يعيش فيها النبات والحيوان هي التي تتعاقب عليها الفصول الأربعة، وكل موضع لا تقع عليه الشمس، لا يعيش فيه حيوان ولا نبات، لفرط برده ويبسه، وكل موضع لا تفارقه كذلك، لفرط حره ويبسه.
فسبحان من يقلب الليل والنهار لمصالح العباد والحيوان والنبات:
{يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤)} . (٨) .
وسبحان القادر العليم الحكيم، الذي نور العالم كله بهذا الكوكب العظيم، فجعله سراجاً وهاجاً، يسير بأمر الله عزَّ وجلَّ، فتنتظم به مصالح العباد، ولو كانت الشمس تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات، فيكون الليل سرمداً على من لم تطلع عليه، والنهار سرمداً على من طلعت عليه، فيفسد هؤلاء ... وهؤلاء.
ولكن الله عزَّ وجلَّ بحكمته وعلمه وتدبيره قدر طلوعها من أول النهار من المشرق، فتشرق على ما قابلها من الأفق الغربي.

ثم لا تزال تجري وتغشى جهة بعد جهة، حتى تنتهي إلى المغرب، فتشرق على ما استتر عنها في أول النهار، فيختلف عندهم الليل والنهار، فتنتظم مصالحهم: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)} (٩) .

والله حكيم عليم جعل في إنارة القمر والكواكب في ظلمة الليل حكماً عظيمة، فإن الله خلق ظلمة الليل لهدوء الحيوان، وبرد الهواء على النبات والأبدان، فيعادل حرارة الشمس، فيصلح النبات والحيوان.
وشاب سبحانه الليل بشيء من الأنوار، ولم يجعله ظلمة داجية لا ضوء فيه أصلاً، فلا يتمكن الإنسان والحيوان فيه من شيء من الحركة، كالسير وطلب الأكل ونحو ذلك.
وجعل الله ﷻ الشمس على حالة واحدة لا تقبل الزيادة والنقصان، لئلا تتعطل الحكم المقصودة منها.
وجعل القمر يقبل الزيادة والنقصان، يبدو هلالاً، ثم لا يزال في الزيادة حتى يكون بدراً، ثم ينقص حتى يعود كما بدا، وبذلك تتحقق مصالح للعباد كثيرة، من معرفة الأيام والآجال والأوقات.

فجعل الله الشمس للتوقيت اليومي، والقمر للتوقيت الشهري، وهما يجريان بأمر الله في مصالح العالم: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩)} لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)} . (١٠) .

وجعل في نور القمر من التبريد والتصلب، ما يقابل ما في ضوء الشمس من التسخين والتحليل، فتتم الحكمة وتحصل المصلحة من تعاقب هذا بعد هذا.
فسبحان الخلاق العليم، الذي جعل هذا الفلك العظيم بشمسه وقمره، ونجومه وكواكبه، وبروجه وفصوله، يدور على هذا العالم الكبير، هذا الدوران السريع المستمر، بتقدير محكم لا يزيد ولا ينقص، ولا يختل نظامه.
وذلك كله صادر عن كمال عزة الله وقدرته وعلمه: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)} (١١) .

وإذا تفكر الإنسان في أمر هذين النيرين العظيمين وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما، ونورهما وحركتهما، كل واحد له نهج واحد، فهما دائبان، لا ينيان ولا يفتران، ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة. والذهاب والرجوع .. والعلو والهبوط.

ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر، ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكل حركة مقدرة، ونهج معين، وتأثير ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

فسبحان من خلقهما .. وسبحان من نورهما وسيرهما.

وسبحان من سخرهما ودبرهما هذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، وإظهار قدرته، وكمال علمه، ولطف تدبيره، وحسن حكمته: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)} (١٢) .

وإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكينة لعزته، عانية لسلطانه، السموات والأرض، والشمس والقمر، وسائر المخلوقات، فما بال الإنسان لا يشارك هؤلاء في عبادة ربه، ويسمع ويطيع؟.

إن من عدل عن عبادة الله إلى عبادة غيره فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)} (١٣) .

فسبحان من خلق الشمس والقمر، وأودعهما النور والإضاءة، وجعل لهما بروجاً ومنازل تعرف بهما السنين والشهور، والأيام والليالي وتتحقق بهما مصالح العالم كما قال سبحانه: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)} (١٤) .

وخَلْق الشمس والقمر .. وطلوعهما وغروبهما .. من أعظم الأدلة عــلى وقوع المعاد .. كما هو مشهود في إبداء الليل والنهار وإعادتهما .. وفي إبداء القــمر ثم كماله ثم نقصانه .. وفي إبداء النور وإعادته في القمر .. وفي طلوع الشمس وغروبها .. وفي إبداء الزمان وإعادته .. وإبداء الحيوان والنبات وإعادتــهما .. وإبداء فصول السنة وإعادتها .. وفي إبداء الحر والبرد وإعادتهــما .. كل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل.

وقد خلق الله الشمس وجعل لها ست حركات:

من المشرق إلى المغرب .. ومن الأسفل إلى الأعلى .. ومن الأعلى إلى الأسـفل. وجعل لها مشرقين في الصيف والشتاء، ومشارق ومغارب بعدد أيام السنة كما قال سبحانه: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَــى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٤١)} (١٥) .

وهذا النور العظيم الهائل في الشمس .. وهذا النور العظيم في الــقمر .. وهذا النور الذي يشع من الكواكب والنجوم والأبصار، كل ذلك نور خلقه الله وأودعه تلك الأجرام.

وإذا كان هذا نور الشمس والقمر والنجوم ... فكم يكون نور الــعرش الذي استوى عليه الرحمن؟.

وإذا كان هذا نور مخلوقاته .. فكيف يكون نوره ﷻ؟:

فسبحان الذي كل خلق في العالم من خلقه ... وكل رزق في الكون من رزقه ... وكل نور في العالم من نوره.

{وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)} ... (١٦) .

الشمس والقمر وحساب الزمن :

تتضمن الآية الكريمة: {فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٩٦)} (١٧).
من وجهة النظر العلمية- ثلاثة مقاطع، هى: "فَالِقُ الإِصْبَاحِ"، "وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً"، "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً"، وكل منها ينطوي على إشارة علمية بليغة، ولكننا في لقائنا الحالي سنركز جُلّ همنا على المقطع الثالث، وسنتناول المقطعين الأول والثاني في لقاءات أخرى، إن شاء الله.
وفي "حُسباناً"- لغة- يقول جمال الدين بن منظور(ت ٧١١ هـ) (في "لسان العرب"): الحسابُ والحسابةُ عَدُّ الشئَ. وَحَسِبَ الشئَ يَحْسَبُهُ (بالضم) حُسْبَان وحُسْبَاناً وحسابةً: عَدَّه. وحَسِبْتُ الشئَ أحْسَبُه حِساباً وحَسِبْتُ الشئَ أحْسَبُه حِسْاباً وحُساباً... وعن أبى الهيثم أنه (حسبان) جمع حساب، مثل: ركاب وركبان، وشهاب وشهبان...

وندخل الآن في جولة سريعة لنتعرّف على ما ورد عند أبرز المفسرين بشأن هذه اللفظة القرآنية، ونبدأ بتفسير "مفاتيح الغيب" للفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، لنجده يقول:
وتحقيق الكلام فيه (أيْ الجزء "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً") أن الله تعالى قدّر حركة الشمس مخصوصة بمقدار من السرعة والبطء بحيث تتم الدورة في سنة، وقدّر حركة القمر بحيث يتم الدورة في شهر. وبهذه المقادير تنتظم مصالح العالم في الفصول الأربعة، وبسببها يحصل ما يحتاج إليه من نضج الثمار وحصول الغلات، ولو قدرنا كونها أسرع أو أبطأ مما وقع، لاختلت هذه المصالح... ولكن جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) (في تفسيره "لكشاف") ذهب إلى أن حُسبان (بضم الحاء) مصدر حسب، ونظيره: الكفران والغفران والشكران... واستخلص الرازي من قول الزمخشري أن الله سبحانه جعل الشمس والقمر على حساب، لأن حساب الأوقات لا يُعلم إلاّ بدورها وسيرهما. ولذلك ختم الله الآية بقوله "ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ"، إشارة إلى كمال قدرته (العزيز)، وكمال علمه (العليم)، أيْ أن هذه الحركات بهذه المقادير المحددة لا يمكن حدوثها إلاّ بقدرة كاملة متعلقة بجميع الممكنات وبعلم نافذ في جميع

المعلومات (من الكليات والجزيئات)، وهذا تصريح بأن حصول هذه الأحوال والصفات ليس مرجعه إلى طبيعة الأجرام، بل إلى تخصيص الفاعل المختار سبحانه وتعالى لها...

وهذا الذي توصل الفخر الرازي إلى فهمه من الآية، لم يزد عليه من جاء بعده، مثل أبو السعود (ت ٩٥١ هـ) (في تفسيره "إرشاد العقل السليم")، ومحمود الألوسي (ت ١٢٧٠هـ) (في تفسيره "روح المعاني)، وغيرهما... وإن كان محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣هـ) قد فصّل القول (في تفسيره "التحرير والتنوير") بعض الشئ، فقال: جعل الله تعالى للشمس حسبان كما جعل للقمر حسبان، كما جعلهما علامة حساب للناس يحسبون بحركاتهما أوقات الليل والنهار والشهور والفصول.

ويأتي الشعراوي (ت ١٤١٨ هـ) في القرن الخامس عشر الهجري ليشرح (في تفسيره "خواطر") اللفظتين "حُسباناً" في سورة الأنعام- التي نعيش في رحابها الآن- و"بحسبان" الواردة في قول الله تعالى: "الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{٥}" [سورة الرحمن]، فيقول: "حُسْبَانٍ" هنا تعني أن نحسب الأشياء، فنحن نحسب السنة بدورة الشمس في مدة مقدارها ٣٦٥ يوما وربع اليوم، وهى تمرّ بالبروج خلال هذه المدة. والقمر يبدأ بروجه (يقصد منازله) كل شهر في ثمانية وعشرين يوما وبعض اليوم. ونحن نحسب اليوم بالشمس، ونحسب بها العام، ولكننا نحسب الشهر بالقمر. والاثنتان (يعني الشمس والقمر) حُسبان: الشمس لها حساب والقمر له حساب. وكلاهما مخلوق ليُحسب به شئ آخر، لأنهما خلقا بحسبان، أيْ أنهما قد أريد بهما الحساب الدقيق، لأن الشمس مخلوقة بحساب، وكذلك القمر، ولم تكن الشمس والقمر حُسابا لنا نحسب بهما الأشياء إلاّ إذا كان كل منهما مخلوق بحساب... ولم يقل الحق سبحانه: (حسابا)، بل قال: "حُسباناً" في سورة الأنعام، وقال "بحسبان" في سورة الرحمن، لأن الأمر يقتضي مبالغة في الدقة، فهذا ليس مجرد حساب لكنه حسبان ...

نعود إلى الفخر الرازي، ولكن مع آية (الحُسبان) في سورة الرحمن، لنجده يشرح حكمة الترتيب في الآيات (من الأولى إلى السادسة)، ويركز على الهدف من ذكر هذه النعم الإلهية على الإنسان، فيقول: إن الله لما ثبت كونه رحمن وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن، ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان... ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما الشمس والقمر، ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة، بخلاف غيرهما من الكواكب والأجرام... ثم بيّن كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير. ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول... واختار (الله) الشمس والقمر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص (لا يستطيعه بشر)... واتخذ الفخر الرازي من هاتين النعمتين الظاهرتين برهانا على التصديق بنزول الوحي من الله عن طريق الملاك جبريل عليه السلام على قلب رسول الله ﷺ وأن في "الشمس والقمر" دليل عقلي مؤكد للدليل السمعي (الوحي) .

من خلال هذه الجولة السريعة عرفنا أن الشمس والقمر كلاهما من خلق الله سبحانه، وهو الذي قدّر حركته كل منهما (أو حركاته) بدقة بالغة، أيْ بحُسبان . كما أنه سبحانه جعل من منافعهما حساب الناس الأزمان والأوقات بهما، أيْ بدورانهما... وهناك آيات أخر تشير إلى هذه النعمة الظاهرة على الناس، وهى خلق الله الشمس والقمر ليسهل على البشر حساب الوقت، مثل قول الله تعالى :{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥)} (١٨) .

هذا، وقد توصّل علماء الفلك حديثا إلى دقة التوازن بين جاذبية الشمس لمكوناتها في اتجاه مركزها، وبين دفع هذه المكونات بعيدا عن المركز (بواسطة القوى الناتجة عن تمدد الغازات المكونة لها بتأثير الحرارة الفائقة في مركزها)... وعلى الرغم من حجم وكتلة الشمس العظيمتين، فإن التوازن فيما بين هاتين القوتين (قوة التجاذب إلى الداخل وقوة الدفع إلى الخارج)،

هو السبب في بقاء الشمس على حالتها الغازية الملتهبة المتوهجة. ولو تغير حجم الشمس أو كتلتها لتغير سلوكها وانفجرت وانهارت...!! وقد عرفنا من تعليقاتنا العلمية على آيات قرآنية أخر كيف تسبح الشمس في فلك بدقة بالغة، تتحرك وتدور، بل وتسبح سباحة حقيقية ...

وأما القمر فهو التابع الأمين لكوكبنا الأرضي، وهو الذي ينير سطح الأرض ليلا بنور استمده أصلا من أشعة الشمس الضوئية، وهو يدور على محوره الخاص، كما يدور حول الأرض في فلك خاص، وهو على شكل شبه كروي وكتلته مقدرة بنحو ٧٣٥ مليون مليون طن، وقطره بنحو ٣٤٧٤ كيلومتر، ومساحة سطحه بنحو ٣٨ مليون كيلومتر مربع، وحجمه بنحو ٢٢ مليون مليون كيلومتر مكعب... وهو يدور حول الأرض في مدار شبه دائري يبلغ طوله نحو ٢.٤ مليون كيلومتر، بمتوسط سرعة كيلومتر/ ثانية ليتم دورته الاقترانية حول الأرض في ٢٩.٥ يوم من أيام الأرض، تقريبا، هي الشهر القمري الاقتراني للأرض...

وختاما، فإن الله تعالى أنزل في كتابه الكريم الآيات التي ذكرناها (١٩) . ليصحّح للبشر نظرتهم الخاطئة إلى الأجرام السماوية والظواهر الفلكية، لأن هناك شعوب ضلت فعبدت مخلوقات من دون الله الخالق الأعظم... كما أنه سبحانه يلفت نظر المسلم إلى هذه المخلوقات التي خلقها بقدر وبحساب بالغ، للاستفادة من وجودها، استفادة ظاهرة، واستفادة أخرى لا يستطيعها إلاّ العلماء، وهو دراسة سُننها وقوانينها ليقفوا ولو على طرف من عظمة صُنع الصانع الحكيم، ودقة تقديره للنواميس التي وضعها سبحانه في الكون...
ونكتفي بهذا القدر من المعلومات التي حاولنا بها أن نبرز إشارة علمية واردة في قول الله تعالى "وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً"، وإن كان عطاء الآية القرآنية، بل والكلمة القرآنية، عطاء غير مجذوذ، عطاء ممدود إلى يوم القيامة، فليدخل العلماء الأكفاء إلى كتاب الله المجيد، وليغترفوا من بحره المديد...

شبهة سجود الشمس تحت العرش :

روى البخاري رحمه الله في بدء الخلق عن أبي ذر رضي الله عنــــه قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس أتدري أين تذهب قلت الله ورسوله أعلم قال فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش فتستأذن فيؤذن لها ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها وتستأذن فلا يؤذن لها يقال لها ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها فذلك قوله تعالى والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم.

الشبهة: هذا الحديث يقول إن الشمس تدور حول الأرض.
الجواب: كل العلماء الذين قالوا بدوران الأرض حول الشمس يعلـــمون بهذا الحديث الشريف، ولم يشكل عندهم أي شبهة تنفي ذلك.
فالمقصود (كما تبدو للناظر)

ولكن كيف تسجد الشمس، وهل تقف لتسجد ثم تسير ؟

١. هذا الحديث من الغيب ولا يجوز قياس الغيب بذات المقاييس التي نقيس بها الأمور المحسوسة.

٢. كل مخلوق من مخلوقات الله تعالى يسبح الله تعالى ويخضع له بما يتناسب مع حاله.. فمن معاني السجود في اللغة الخضوع كما ذكره ابن منظور وغيره. وعليه يُحمل ما في هذا الحديث وهو المقصود في قوله تعالى في آية الحـــج: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}(٢٠) .

قال ابن كثير رحمه الله : { يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها وسجود كل شيء مما يختــص به } ا.هـ.

فسجود الشمس مما يختص بها ولا يلزم ان يكون سجودها كسجود الآدميين كما أن سجودها متحقق بخضوعها لخالقها وانقيادها لأمره وهذا هو السجود العام لكل شيء خلقه الله كما في آية الحج السابقة إذ كل شيء من خلق الله تعالى يسجد له ويسبح بحمده، قال تعالى في آية النحل: { ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون }(٢١) .

والشمس داخلة في دواب السماء لأن معنى الدبيب السير والحركة والشمس متحركة تجري لمستقر لها كما هو معلوم بنص القرآن وكما هو ثابت بالعقل

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ } (٢٢) .

وفي سورة الحشر: { هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢٤) }.(٢٣) .

وفي الإسراء: { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا(٤٤) }. (٢٤) .

كما لا نفقه تسبيحها لا نفقه سجودها

٣. ولكن هل تكون الشمس ساجدة تحت العرش مادامت الحياة الدنيا ؟

الراجح أن الشمس لها سجدتان: سجود عام مستديم وهو سجودها المذكور في آية النحل والحج مع سائر المخلوقات وسجود خاص يتحقق عند محاذاتها لباطن العرش فتكون ساجدة تحته وهو المذكور في الحديث وفي كلا الحالتين لا يلزم من سجودها أن يشابه سجود الآدميين لمجرد الاشتراك في لفظ الفعل الدال عليه. ومن أمثلة ذلك من واقعنا أن مشي الحيوان ليس كمشي الآدمي وسباحة السمك والحوت ليست كسباحة الإنسان وهكذا مع انهم يشتركون في مسمى الفعل وهما المشي والسباحة.

٤. لا تظن أن سجود الشمس كسجودنا، لذلك لما كان يلزم من سجودنا التوقف عن الحركة لبرهة من الزمن وهو الاطمئنان الذي هو ركن في الصلاة فإنه لا يلزم بالمقابل أن يتوقف جريان الشمس لتحقيق صفة السجود. لأننا رأينا دلالة عموم لفظ السجود من آيتي الحج والنحل ومن شواهد لغة العرب على إن السجود هو مطلق الخضوع للخالق سبحانه. ومن المعلوم أن السجود عبادة والله قد تعبد مختلف مخلوقاته بما يناسب هيئاتها وصفاتها وطبائعها فكان الإنحناء والنزول للآدميين وكان غير ذلك من كيفيات السجود لسائر الكائنات والمخلوقات مع اشتراكهما في عموم معنى السجود الذي هو الخضوع لله تعالى طوعا أو كرها.

ومثال ذلك طواف الرجل حول الكعبة إذ لا يلزمه أن يقف عند الحد الممتد من الحجر الأسود ليتحقق حساب طواف كامل إذ أنه حتى لو طاف وواصل مسيره وتجاوز الحد دون الوقوف لإستلامه فإنه يتحقق له شوط كامل ويكون قد قضى جزءا من شعيرة الطواف دون ان يقف عند الحد الذي ذكرنا، وكذلك الشمس تجري في الفلك ونراها تشرق وتغرب دائبة ومع ذلك لها سمت أو منتهى يقابلها على وجه الأرض تسجد عنده لله تعالى ويكون ذلك السمت أو الحد مقابلاً في تلك اللحظة لمركز باطن العرش كما أشار إلى ذلك ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية.

وكذلك صلاة الرجل وهو في الطائرة...... الخ

٥. من الأدلة على القوة العلمية للحديث الشريف فائدتان:

الفائدة الأولى في قوله عليه الصلاة والسلام: { فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش } عند البخاري وغيره. ولم يقل عليه الصلاة والسلام أنها { تغرب تحت العرش أو حتى تغرب تحت العرش } وهذا فهم توهمه بعض الناس الذين أشكل عليهم هذا الحديث وهو فهم مردود لأن ألفاظ الحديث ترده. فقوله: {تذهب . دلالة على الجريان لا دلالة على مكان الغروب لأن الشمس لا تغرب في موقع حسي معين وإنما تغرب في جهة معينة وهي ما اصطلح عليه الناس

باسم الغرب والغروب في اللغة التواري والذهاب كما ذكره ابن منظور وغيره يقال غرب الشيء أي توارى وذهب وتقول العرب أغرب فلان أي أبعد وذهب بعيداً عن المقصود.

أما الفائدة الثانية فهي في قوله ﷺ: { فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا } والشاهد منه قوله ﷺ: { لا يستنكر الناس منها شيئا} وكأن في هذا دلالة ضمنية بأن هناك من الناس ممن يبلغه هذا الحديث من قد يستشكله فيتوهم أن الشمس تقف أو تتباطأ للسجود فينكر الناس ذلك ويرهبونه. إلا أنه ﷺ أشار في الحديث إلى جريان الشمس على عادتها مع انها تسجد ولكنه سجود غير سجود الآدميين ولذلك تصبح طالعة من مطلعها تجري لا يستنكر الناس منها شيئاً ويتضح من كلامه ﷺ مفهوم المخالفة الدال على عدم استنكار الناس رغم سجود الشمس واستئذانها وكما قدمنا فإن سجود الشمس لا يستلزم وقوفها وهو اللبس الذي أزاله ﷺ بقوله: { فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئا } (٢٥) .

كما أن العقل يدل على ذلك إذ أن فرق المسافة التي يقطعها الضوء القادم من الشمس إلى الأرض يبلغ حوالي ثمان دقائق وهذا يعني انه لو حدث خطب على الشمس أو فيها فإننا لا نراه إلا بعد ثمان دقائق من حصوله وعليه فلا يمنع أن تكون الشمس ساجدة في بعض هذا الوقت ولو بأجزاء من الثانية لله تعالى تحت عرشه ونحن لا نعلم عن ذلك لغفلتنا وانشغالنا بضيعات الدنيا. ولهذا يقول الله تعالى: { وكم من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون} (٢٦) .
والإعراض صور متعددة منها الغفلة واللهو عن تدبر الآيات كونية وشرعية ولذلك فإن البعض ممن ساء فهمهم لبعض الآيات و الأحاديث إنما أوتوا من قبل أنفسهم بعدم إمعان النظر في آيات الله الكونية وبهجرهم لتدبر كتاب الله وإعراضهم عن التفقه في سنة رسول الله مع عزوفهم عن الاستزادة من العلوم الدنيوية النافعة في هذا الباب.

والخلاصة أن سجود الشمس على المعنى الذي ذكرناه غير ممتنع أبدا وبما ذكرنا يزول الإشكال إن شاء الله ولا يخالف الحديث صريح العقل إنما قد يخالف ما اعتاد عليه العقل وألفه وهذا ليس معياراً تقاس بها الممكنات في العقل فضلاً عن الممكنات في الشرع لأن الله على كل شيء قدير ولأن العادة نسبية باعتبار منشأ الناس واختلاف مشاربهم ومجتمعاتهم وعلمهم. والسامع مثلاً لما تخرج به علينا فيزياء الكم من العجائب والأسرار كنظرية ريتشارد فينمان و مبدأ اللاحتمية لها ي، وغيرها من السنن والظواهر في هذا الكون مما يحير عقول العلماء يوقن بأن لله حكمة بالغة يطلع من يشاء عليها ويستأثر بما يشاء عنده، قال تعالى: { ويخلق ما لا تعلمون } ، (٢٧)

وقال تعالى: { والله يعلم وأنتم لا تعلمون }، (٢٨)

وقال: { وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً }. (٢٩)

والإنسان الأصل فيه الضعف والجهل، قال تعالى: { وخلق الإنسان ضعيفا } (٣٠) وقال في آية الأحزاب: { إنه كان ظلوما جهولا }(٣١) ولذلك فابن آدم يسعى على الدوام لدفع ذلك عن نفسه بطلب ضديهما وهما القوة والعلم.

قال تعالى في صفة طالوت لما بعثه ملكا: { وزاده بسطة في العلم والجسم } فجمع له بين القوة العلمية والقوة الجسمية. (٣٢) .

المراجع: للباب الرابع : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٣)
(٢) (سورة نوح ، آية : ٣٣)
(٣) (سورة يونس ، آية : ٥)
(٤) (سورة الإسراء ، آية : ١٢)
(٥) (سورة القصص ، آية : ٧١)
(٦) (سورة القصص ، آية : ٧٢)
(٧) (سورة الفرقان ، آية : ٦٢)
(٨) (سورة النور ، آية : ٤٤)
(٩) (سورة يس ، آية : ٣٨)
(١٠) (سورة يس ، آية : ٣٨-٤٠)
(١١) (سورة الأنعام ، آية : ٩٦)
(١٢) (سورة فصلت ، آية : ٣٧)
(١٣) (سورة الحج ، آية : ١٨)
(١٤) (سورة الإسراء ، آية : ١٢)
(١٥) (سورة المعارج ، آية : ٤٠-٤١)
(١٦) (سورة النور ، آية : ٤٠)
(١٧) (سورة الأنعام ، آية : ٩٦)
(١٨) (سورة يونس ، آية : ٥)
(١٩) (سورة الأنعام ، آية : ٩٦) + (سورة الرحمن ، آية : ٥) + (سورة يونس ، آية : ٥)
(٢٠) (سورة الحج ، آية : ١٨)
(٢١) (سورة النحل ، آية : ٤٩)
(٢٢) (سورة النور ، آية : ٤١)
(٢٣) (سورة الحشر ، آية : ٢٤)
(٢٤) (سورة الإسراء ، آية : ٤٤)
(٢٥) (أخرجه مسلم ص ١٥٩ عن الراوي أبو ذر الغفاري)
(٢٦) (سورة يوسف ، آية : ١٠٥)
(٢٧) (سورة النحل ، آية : ٨)
(٢٨) (سورة البقرة ، آية : ٢١٦)
(٢٩) (سورة الإسراء ، آية : ٨٥)
(٣٠) (سورة النساء ، آية : ٢٨)
(٣١) (سورة الأحزاب ، آية : ٧٢)
(٣٢) (سورة البقرة ، آية : ٢٤٧)

الباب الرابع : الفصل الثالث : خلق النجوم :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام والإيمان .ولك الحمد أن جعلتنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد :
قال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٩٧)} ... (١) .
وقال الله تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (٥)} (٢) .

خلق الله تبارك وتعالى النجوم لثلاث:
زينة للسماء .. ورجوماً للشياطين .. وعلامات يهتدى بها.
فما أعظم حكمة الله سبحانه وتعالى تبارك وتعالى في خلق النجوم والكواكب، وكثرتها وعجيب خلقها، وما جعل الله فيها من النور والضوء، بحيث ترى مع بعدها المفرط، فهي منقادة بأمر ربها، جارية على سنن واحدة لا تخرج عنه.

فسبحان من خلق الكواكب والنجوم، وجعل لها البروج والمنازل، وجعل منها الثوابت والسيارة، والكبير والصغير، والقريب والبعيد، والمفرد والمجموع.

وفاوت بين ألوانها وأحجامها وحركاتها، وسيرها بقدرته:
فمنها الثابت، ومنها المتحرك، ومنها ما يسير وحده، ومنها ما يسير مع رفقته.
وسبحان من فاوت بينها، وحفظها وأبقاها، فلا تتقدم إلا بأمره، ولا تتأخر إلا بأمره، ولا تسكن ولا تحرك إلا بأمره كما قال سبحانه: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢)} (٣) .

وخالف سبحانه بين الكواكب في الطلوع والسير والمنازل:
فبعضها يطلع، وبعضها يغيب، ومنها السائر والمتحرك، ومنها ما يسير إلا مجتمعاً كالجيش الواحد، ومنها ما يسير وحده كالقائد.
ومنها ظاهر لا يغيب أبداً، جعلها الله بمنزلة الأعلام المنصوبة التي يهتدي بها الناس في الطرق المجهولة في البر والبحر، فهم ينظرون إليها متى أرادوا، ويهتدون بها حيث شاءوا كما قال سبحانه: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦)} (٤) .

فما أعظم هذه النجوم المنثورة في السماء، وما أحسنها وما أجملها.
والجمال في خلق هذا الكون مقصود كالكمال.
والقرآن يوجه النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظر إلى كمالها كما قال سبحانه: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)} (٥) .

فقد زين الله السماء الدنيا بمصابيح، وهي النجوم والكواكب الظاهرة للعين، نراها حين ننظر إلى السماء.
ومشهد النجوم في السماء جميل، وهو جمال يأخذ القلوب، متجدد تتعدد ألوانه بتعدد أوقاته، ويختلف من صباح إلى مساء، ومن شروق إلى غروب، ومن الليلة القمراء، إلى الليلة الظلماء، ومن مشهد الصحو، إلى مشهد السحاب والضباب، بل إنه ليختلف من ساعة إلى ساعة، وكله جمال يأخذ الألباب.

فسبحان الجميل الذي خلق الجمال في هذا الكون العظيم.
هذه الشمس الساطعة .. وهذا القمر الساري .. وهذا الفلك الواسع .. وهذه النجوم المنتثرة .. في هذا الفضاء الواسع .. الذي لا يمل البصر امتداده .. ولا يبلغ البصر آماده .. وهذه الأجرام الهائلة التي تزين السماء ..وتجري بأمر ربها مشرقة ومغربة.
فسبحان من خلقها، وسبحان من جملها، وسبحان من سيرها .. وسبحان من أمسكها.

إن القرآن يوجه الإنسان إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون، لأن إدراك جمال الكون، هو أقرب وسيلة لإدراك جمال خالق الوجود وعظمته: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦)} (٦) .

فكم من نجم سابح في الفضاء؟ .. وكم من كوكب ساري؟ .. وكم من شهاب ثاقب؟.
وكل كوكب وكل نجم له أمر من الله في خلقه .. وأمر في بقائه .. وأمر في حركته وسكونه.

فسبحان من خلقها وأمدها بالنور، وسيرها في ملكه العظيم، وهي سامعة مطيعة منقادة لأمر ربها، لا يصطدم منها نجم بآخر، ولا يواجه كوكب آخر.
وسبحان من نوع الآيات الدالة على عظمته وقدرته، وعلى صدق رسله، وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللبصر تارة، وجعلها آفاقية ونفسية، ومنقولة ومعقولة، ومرئية بالعيون، ومرئية بالقلوب، فاستجاب من استجاب، وأبى الظالمون إلا كفوراً: {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦)} (٧) .

وإذا تأمل الإنسان ما في خلق هذا الكون من الآيات والعجائب .. وتدبر ما فيه من الحسن والتصريف والتدبير .. ورأى ما فيه من النعم والخيرات .. وظل معرضاً عن ربه .. ولم يخشع قلبه .. فليعلم أنه قد خسف بعقله وقلبه .. وأنه قد ركبه عدوه .. وسار به إلى النار.

فليطلب السلامة والنجاة من عدوه من ربه العزيز الرحيم.
{وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)} (٨) .

ما الحكمة من خلق النجوم :

النّجم: هو جسم سماوي مضيء ومشعٌ، يشع الضّوء من داخله ويقال يكتسب الضّوء من إشعاعات الشّمس التي يمتصها

لقد خلق الله تعالى النجوم والكواكب لحكم كثيرة منها:

١- من أجل التفكر بها وبعظمتها وعظمة خالقها، قال الله تــعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَــا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (٩) .

فإن الله تعالى يزين السماء الدنيا للناظرين إليها من أهل الأرض بزينة الكواكب فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضووءها جرم السماء الشفاف فتــــضيء لأهل الأرض.

٢- من أجل تزيين السماء ورجم الشياطين، قال الله تعالى:
{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ} (١٠) .

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ (١١) .

٣- من أجل هداية الناس لطرقهم في البر والبحر، قال الله تعالى:
{وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (١٢) .

٤- من أجل معرفة عدد السنين وحساب أشهر العام، قال الله سبحانه وتعالى:
{هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (١٣) .

٥ـ من أجل تسخير هذه النجوم لخدمة هذا الكون عموما وهذه الأرض والإنسان بشكل خاص، قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (١٤).

٦ـ الاستدلال بها على عبادة الله تعالى مثل: معرفة استقبال القبلة، ومعرفة الأشهر الهجرية وخاصة شهر رمضان وشهر ذي الحجة.

٧ـ الاستدلال بها على الجهات الأربعة، كمعرفة أن القطب يقع شمالاً، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالاً وهكذا، فهذا جائز، قال تعالى: {وعلامات وبالنجم هم يهتدون} (١٥).

٨ـ الاستدلال بها على فصول السنة، وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر، فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون، والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء، أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد، أو بالحر، أو بالرياح، والصحيح عدم الكراهة.

فالنّجوم هي من الأجرام السّماوية التي ينبغي للإنسان أن يتفكر في خلقها وخاصة في وقت الليل، وينبغي أن نعلم بأن النّجوم دائماً موجودة في السّماء لكننا لا نراها في النّهار لأن أشعة الشّمس تغطي على إشعاعها.

لماذا خلق الله النجوم :

خلق الله النجوم لثلاث(زينة للسماء ، رجوما للشياطين ، علامات يهتدي به) ، وتلك الحقائق الثلاث هي من فوائد النجوم في القران ، فما أعظم حكمة الله عز وجل في خلق النجوم والكواكب وكثرتها وعجيب خلقها ، وما جعل الله فيها من الضوء والنور فهي منقادة بأمر ربها جارية على سنن واحدة لا تخرج منـــــها .

علامات يهتدي به .

قال تعالى { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}(١٦)

يتم تحديد الاتجاهات عن طريق النجوم ، وهي أحد فوائد النجوم ويـــــــمكن الاعتماد على نجم الشمال في تحديد الاتجاه ، فمثلا استخدم البحارة الـــــقدماء النجوم للمساعدة في إرشادهم أثناء وجودهم كانوا في البحر ،

النظام الشمسي وموقعه في درب التبانة ومكانها بين الأنظمة السماوية الأخرى ، رائعة في حد ذاتها ولكنها متواضعة بالنسبة للآخرين ؛ موقع هذه الأنظمة بين أنظمة أخرى أكبر ؛ المسافات بين النجوم محسوبة بدقة بين النجوم وبيـــــن الأقمار الصناعية لكل نجم – كل شيء في الكون هو جزء من الانسجام الأحادي ومتأصل بشكل متناغم في السماء ويعمل في علاقة دقيقة مع كل شـــيء آخر ، تشير عبارة "مواقع النجوم" في القرآن أيضًا إلى هذه الحقائق.

زينة للسماء .

خلق الله النجوم لزينة السماء الدنيا قال تعالى{ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ }(١٧) .

رجومًا للشياطين :

قبل مبعث الرسول ﷺ ونزول الوحي ، كان يصعد الجن و الشياطين إلى السماء وكانوا يحاولون استراق السمع ، ولكن بعد مبعث النبي أراد الله حفظ السماء ، وكان عن طريق النجوم .

قال تعالى : { وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ } . (١٨) .

مواقع النجوم :

قال تعالى { فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } (١٩) .

هذه طريقة أخرى تعمل بها كـ "علامات طريق" وتوفر "إرشادات" لنا ، لذلك ، بقسم "مواقع النجوم" ، يلفت الله تعالى أنظارنا إلى الترتيب والانسجام والمشاهد الرائعة التي تعرضها ، إذا لم يكونوا موجودين في مكانهم ، ولولا وجودهم من قبل الله في هذه الأماكن ، لما كان هناك نظام وانسجام في كل من السماء والكون ككل ، ولن يتمكن البشر من الاستفادة منهم.

جمال صنع الله في النجوم والكواكب :

إن الوضع الحالي للنظام الشمسي والكون ككل والتكوين الحالي للعالم هما نتيجة لوجود ظروف لا تعد ولا تحصى وتعايشهما وتعاونهما وفقًا لمعايير حساسة للغاية ، على سبيل المثال ، يؤدي هروب جزيئات الهواء والذرات من الغلاف الجوي وتدمير البالات بين الغازات المكونة للهواء إلى تدمير بنية الغلاف الجوي مما يؤدي إلى إطفاء الحياة على الأرض. في الواقع ، إن التعاون بين الأرض والسماء صعب للغاية. تحاول الجزيئات والذرات الموجودة في الغلاف الجوي الهروب إلى الفضاء بينما تحاول الأرض جذبها والاحتفاظ بها ، إن الله هو الذي يجمعهم ويعملون في طاعة لقوانين الله ، وراء هذا الجاذبية والقوانين الأخرى القوة الإلهية وقد جاء في القرآن في هذا:

{ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (٢٠) .

معنى يمكن استنتاجه من قسم الله بمواقع النجوم هو أن النجوم موجودة تمامًا في أماكنها المناسبة ، لدرجة أن دراسة نظام معين ستعطي وجهات نظر ثابتة حول الأنظمة الأخرى في الكون. علاوة على ذلك ، سيكون من الممكن إقامة حوار مع الأنظمة وإيجاد أماكن للسكن هناك ، تم إنشاء جميع الأنظمة بشكل صحيح ومتناسق وهناك روابط حساسة فيما بينها بحيث لا يوجد أدنى قدر من عدم الانتظام والخلل بينها وبينها ، بدلاً من ذلك ، نجد ترتيبًا رائعًا ومثاليًا وتوافقًا وتناغمًا .

حقائق عن النجوم :

النجوم تحافظ على الأرض دافئة بما يكفي لنعيش عليها ويوفر الضوء اللازم للنباتات والحيوانات للبقاء بصحة جيدة ، عندما ندرس النجوم ، نتعلم أيضًا شيئًا عن دورة حياة النجوم ، يساعدنا هذا في فهم كيفية تشكل نظامنا الشمسي ، حيث يتم تصنيف معظم النجوم في مجرتنا ، بما في ذلك الشمس ، اقرب نجم للارض على أنها نجوم متسلسلة رئيسية ، توجد في حالة مستقرة من الاندماج النووي ، وتحويل الهيدروجين إلى الهيليوم وتشع الأشعة السينية ، تبعث هذه العملية كمية هائلة من الطاقة .

هل تعلم أنه يمكن رؤية الكتلة النجمية Pleiades – المعروفة أيضًا باسم نجم الثريا أو Seven Sisters أو M45 – من كل جزء من العالم تقريبًا ، يمكن رؤيته من أقصى الشمال حتى القطب الشمالي ، وأبعد جنوبا من الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية ، وقد اعتمد الإنسان منذ القدم وفي الحضارات المختلفة على النجوم في تحديد الاتجاهات ، وكذلك البدو في الصحراء ، ومن أسماء النجوم عند البدو العقرب الشمالي – عين الثور – منقار الدجاجة .

هل تعلم أن أول نجم يظهر بعد الغروب ليس نجمً ، إنه كوكب الزهرة. كوكب الزهرة يقع في الغرب وهو شديد السطوع بحيث يمكنك رؤيته بسهولة قبل أن يحل الظلام تمامًا ، ربما يكون النجم الأول الذي ستلاحظه في هذا الوقت من العام عندما تصبح السماء مظلمة هو Arcturus ، ويظهر من ناحية الغرب وليس ساطعًا .

هل تعلم كيف تولد وتموت النجوم ، هناك عدة خطوات في تكوين النجم:

أولاً ، تتجمع سحابة الغاز والغبار معًا ، بسبب الجاذبية ، لتشكل (نجمًا أوليًا) (نقطة ساخنة ليست نجمة تمامًا ولكنها ستصبح في النهاية نجمًا) تستغرق آلاف السنين.

ثم يصبح مركز النقطة ساخنًا بدرجة كافية لإصدار ضوء مرئي وسقــطت فيه معظم سحابة الغاز والغبار. حتى الآن تبدو وكأنها نجمة ، يستغرق ذلك حوالي مليون سنة ، إذا كان النجم حول كتلة (وزن) شمسنا.

ثم تسقط بقية سحابة الغاز والغبار في النجم أو تنفجر بعيدًا ، ويصبح النجم أكثر سخونة وأصغر بسبب الجاذبية.

أخيرًا ، يصبح المركز ساخنًا جدًا لدرجة أن غاز الهيدروجين يبدأ في الخضوع لتفاعلات نووية ليصبح الهيليوم ، والذي يوفر الطاقة للنجم ليظل ســــاطعًا لمليارات السنين. يستغرق النجم الجديد حوالي ٢٠ مليون سنة للوصـول إلى هذه النقطة. الشيء المضحك هو أن النجم الصغير أكبر من النجم البالغ!

من أهم خصائص النجوم إنها ليست مشتعلة رغم أنها تبدو هكذا ، تـــتألق النجوم لأنها شديدة السخونة ، مصدر طاقتهم هو التفاعلات النووية التي تحدث في أعماق النجوم ، في معظم النجوم ، مثل الشمس ، يتم تحويل الهــيدروجين إلى هيليوم ، وهي عملية تنتج طاقة تسخن النجم ، الداخل هو في الواقع ملايين الدرجات ، شديد الحرارة ، يعمل ذلك على تدفئة الطبقات الخارجية للنجم ، مما يؤدي إلى إطلاق الحرارة والضوء.

كما تتعدد أشكال النجوم في السماء واسمائها ومن أشهر هذه النجـــــوم في سمائنا هو الشمس ، مصدر الحرارة والضوء الذي يمد النظام الشمسي بالطاقة ، إنه نجم من النوع G تشكل منذ حوالي ٤.٦ مليار سنة ، الشمـــس قزم أصفر-أبيض سيستمر في طور احتراق الهيدروجين لمدة ٥ مليارات سنة أخــرى أو نحو ذلك.

المراجع: للباب الرابع : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة الأنعام ، آية : ٩٧)
(٢) (سورة الملك ، آية : ٥)
(٣) (سورة النحل ، آية : ١٢)
(٤) (سورة النحل ، آية : ١٢)
(٥) (سورة ق ، آية : ٦)
(٦) (سورة ق ، آية : ٦)
(٧) (سورة الحج ، آية : ٤٦)
(٨) (سورة يوسف ، آية : ١٠٥)
(٩) (سورة آل عمران ، آية : ١٩٠-١٩١)
(١٠) (سورة الملك ، آية : ٥)
(١١) (سورة الصافات ، آية : ٦)
(١٢) (سورة الأنعام ، آية : ٩٧)
(١٣) (سورة يونس ، آية : ٥٥)
(١٤) (سورة الاعراف ، آية : ٥٤)
(١٥) (سورة النحل ، آية : ١٦)
(١٦) (سورة الأنعام ، آية : ٩٧)
(١٧) (سورة الصافات ، آية : ٦)
(١٨) (سورة الملك ، آية : ٥)
(١٩) (سورة الواقعة ، آية : ٧٥)
(٢٠) (سورة فصلت ، آية : ١١)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب الخامس :

الفصل الأول : خلق الله سبحانه وتعالى الرياح :
الفصل الثاني : خلق الله الأرض :
الفصل الثالث : خلق الله الجبال : وأيضاً خلق النبات والزرع :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربـوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صـلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

لله عز وجل في خلقه آيات باهرة، ومعجزات قاهرة، تبهر العقول، وتـملك النفوس، وتخوف العباد، وتقهر الأقوياء. وله سبحانه وتعالى جند في الأرض وفي السماء، من الملائكة والإنس والجن، ومن الحيوان والوحش والطـير، ومن الزواحف والحشرات والطفيليات والجمادات، ومن الكواكب والأنجـم والنيازك، ومن البحار والرياح والزلازل والأعاصير والبراكين والأوبئـة، في البر والبحر، وفي الأرض والأجواء، لا يعلم عدتها إلا الله تعالى، ولا يـدرك قوتها إلا هو سبحانه، تأتمر بأمره عز وجل، يسلطها على من شاء من خلـقه فلا يقف أمامها شيء، حتى تنهي مهمتها، وتؤدي وظيفـتها { وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ } (١) .

والرياح خلق من خلق الله تعالى لا يراها البشر، ولكنهم يحسـونها، ويرون أثرها، تكون رحمة وتكون عذابا بأمر خالقها ومدبرها جل في علاه، وهي من أعظم الآيات الدالة على عظمته وقدرته، ووجوب إخلاص العـبادة له وحده لا شريك له؛ ولذا جاء في معرض ذكر آيات الله تعالى الدالة على ربوبيـته وألوهيته: ذكر الرياح وتدبيرها { وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آَيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (٢) .

والريح آية في حال كونها رحمة من الله تعالى يرحم بها عباده :{ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ } (٣) . وفي الآية الأخرى { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (٤) .

كما أن الريح آية عظيمة من آيات الله تعالى في حال كونها عذابا؛ فقد عدد الله عز وجل جملة من آياته الدالة على قدرته سبحانه، وذكر منها آية إهلاك عاد بالريح { وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ } (٥) .

وللرياح منافع عظيمة لأهل الأرض، وبفقدها تموت الأرض ومن عليها؛ فالرياح هي سبب الغيث المبارك بأمر الله تعالى، وهي البشرى بين يديه { وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا } (٦) .
وفي الآية الأخرى { اللهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ } (٧) .
فهم يستبشرون بها لما يعقبها من الرحمة والغيث المبارك الذي تكون به حياتهم، وحياة أنعامهم وأشجارهم وزرعهم، ونماء أموالهم، ورغد عيشهم.

والرياح هي التي تسوق السحب في السماء أمثال الجبال إلى حيث يأمر الله تعالى، فيسقي به من يشاء من عباده { وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ }(٨) .
وفي الآية الأخرى { وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا } (٩) .

والرياح تلقح السحب بأمر الله تعالى فينزل الماء، وتلقح الزرع والشجر فيهتز خضرا مثمرا، وتنقل البذور من أرض إلى أرض حتى إذا سُقيت اكتست خضرة وربيعا، ومهما عمل البشر وبكل إمكانياتهم فهم أعجز من أن يزرعوا صحارى

تمتد مد الناظرين بساطا أخضر بأنواع النبات الطيب في مـــــشارق الأرض ومغاربها، ولكن الرياح تفعل ذلك بأمر الله تعالى وقدرته وتدبيره { وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ }(١٠) .

قال عبيد بن عمير الليثي رحمه الله تعالى:{يبعث الله تعالى المثيرة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله تعالى الناشئة فتنشئ السحاب، ثم يبعث الله تعالى المـــؤلفة فتؤلف بينه، ثم يبعث الله تعالى اللواقح فتلقح السحاب}.

والرياح سبب بإذن الله تعالى لدورة المياه حول الأرض، ولولا ذلك لأسن الماء، ولم تنتفع به الأحياء، بل إن كل الأحياء على الأرض لو فقدت الرياح لهـــلكت، يقول كعب الأحبار رحمه الله تعالى: (لو حبست الريح عن الناس ثلاثا لأنتن ما بين السماء والأرض).

والرياح فيها ما لا يحصى من منافع العباد، وتسير بالسحب التي فيها حـــياة الأرض، وتذروا البذور، وفيها أرزاق العباد والحيوان والطير، وقد أقسم الله تعالى بها { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا * فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا } (١١) .
فالذريات هي الرياح، والحاملات هي السحب، وفي سورة أخرى { وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا } (١٢) .
وابن عباس رضي الله عنهما لما وصف جود النبي ﷺ استعار الرياح المرسلة في وصفه فقال رضي الله عنه (فلرسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل أجود بالخـــير من الريح المرسلة) متفق عليه. وما هذا الوصف من ابن عباس رضـــي الله عنهما إلا لأن الريح ينتج عنها خير عظيم للأرض ومن عليها.

والرياح جند من جند الله تعالى يسخرها سبحانه لقوم ساكنة طيبة، تجري بها فلكهم في البحار حيث يريدون { إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَـــى ظَهْرِهِ } (١٣) .

وفي لحظة يأمرها الله عز وجل، فتتحرك بعد السكون، وتتحول من ريح طيبة هادئة إلى عاصفة تكاد تغرقهم، فلا ملجأ لهم منها إلا الله تعالى{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }(١٤) . ولذلك حذر الله تعالى العباد من الكفر به، وأمن مكره، وهددهم بريح تغرقهم { أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ } (١٥) .

ولما كانت الريح من جند الله تعالى فإنه سبحانه سخرها لبعض رسله؛ كما سخرها لسليمان عليه السلام { وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا } (١٦) . وفي آية الأخرى { فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ } (١٧) .

ونصر الله تعالى بالريح هودا عليه السلام، وأهلك بها عادا لما كذبوا { فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا } (١٨) وكان من شدة هذه الريح أنها ترفع الواحد منهم في السماء، ثم تلقيه صريعا على الأرض حتى يُفصل رأسه عن جسده كما قال الله تعالى في وصف فعلها بهم { تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ } (١٩) . نسأل الله تعالى العافية من سخطه ونقمته.

لقد فرحت عاد بها في بادئ الأمر يظنون أنها من المبشرات فإذا هي من المهلكات، وانقلب فرحهم بها إلى حزن وعذاب، فأخذتهم وصرعتهم، ودمرت حضارتهم، وأبادت خضراءهم { فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ } (٢٠) .

وحاقت بهم أياما عددا، لا يستطيعون لها دفعا، ولا يجدون لهم منها مهربا، وما عجزت الريح عنهم في مساكنهم فأخرجتهم منها، وألقتهم صرعى، فما أقواها من ريح! وما أشدها على المكذبين! وما أطوعها لرب العالمين! { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ } (٢١) .

ونُصِر رسول الله ﷺ بالريح في أعسر موقف أحاط بالمسلمين، لما حاصرت جموع المشركين المدينة في غزوة الأحزاب، ففرقت الريح جموعهم، وفكت تحالفهم، وصدعت أحزابهم { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } (٢٢) . قال مجاهد رحمه الله تعالى: {سلط الله تعالى عليهم الريح فكفأت قدورهم، ونزعت خيامهم حتى أظعنتهم}.

وهي ريح الصبا، كما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم: (قال نُصرت بالصبا، وأُهلكت عاد بالدبور) (٢٣) .
والصبا مهبها شرقي، والدبور مهبها غربي.

ورأينا قبل سنوات قلائل ما فعلت الريح بأمر الله تعالى في تسونامي وكاترينا حين حركت البحر فأخرجت أمواجه العاتية أمثال الجبال لتضرب مدنا ساحلية فتغرقها، وتطمر جزرا كاملة، وتهلك بشرا كثيرا، وتتلف مالا كبيرا، وتخلف خرابا عظيما.

بلدان كانت قبل الريح عامرة متحركة، تدب الحياة في أرجائها، ويأتيها البشر من كل مكان؛ لجمال أرضها، وصفاء أجوائها، وحسن سواحلها، وفي غمضة وإفاقتها أضحت موحشة يبابا، لا ساكن فيها ولا زائرا، فسبحان من خلق الريح لها، وسبحان من سخرها عليها، وسبحان من أمرها ففعلت فعلها، فأهلكت من أهلكت بأمر ربها، ونجا من نُجّي منها؛ ليحكي للناس ما رأى، وما نجا منها بقوته وهو الضعيف، ولا هلك القوي فيها لضعفه، ولكنه أمر الله تعالى وقدره، يصيب من يشاء من عباده.

إن الريح أعجوبة من الأعاجيب يحتاج البشر إليها ولكنهم يخافون منـــها، ولو عملوا ما عملوا من وسائلهم ومخترعاتهم لما حركوها وهي ساكنـــــــــــــة.
وإذا تحركت فلا طاقة لهم بإيقافها أو تخفيفها، أو تحويل مسارها.
وغاية ما يفعلون الهرب منها، والاحتماء بالملاجئ عنها، حتى إنهم يُجْلـــــون أهل المدن والقرى التي في طريقها، ثم يتربصون تربص العاجز البائس، الذي انقطعت حيلته، وغلبه يأسه، ينتظرون قدومها، وينظرون إلى آثارها.
ثم إذا سكنت دفنوا موتاهم، وداووا جرحاهم، وآووا مشرديهم، وحســــــــبوا خسائرهم، وأصلحوا ما دُمِّر من عمرانهم، وبكوا على ما أصابهم.

ولما ضرب إعصار كاترينا جزء من الدولة الكبرى في الأرض، ظهر عــجزها فأعلنت حالة الطوارئ، وقبلت المساعدات من الدول الفقيرة المعدمة، فمـــا أضعف البشر. وما أعجزهم! وما أقل حيلتهم أمام الريح! وهي آية واحدة من آيات الله تعالى، وجندي واحد من جنود لا تحصى { وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَـــــاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا }(٢٤) . { كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ } (٢٥) .

الريح خلق من خلق الله تعالى، سخرها لمنافع عباده ومصالحهم، تكون رحمــة وتكون عذابا، وما أُنزل بها على البشر من رحمات أرحم الراحمين أكثر مـــما أخذت من المكذبين، وهذا من إعذار الله تعالى للبشر،وإملائه لهم، ورحمته بهم.

والمشروع للمسلم عند هبوب الريح أن يخاف العذاب؛ فقد عذب أقوام بـــها في القديم والحديث، وما الأعاصير التي وقعت في الشرق والغرب فأهلكـــــت بشرا كثيرا إلا من عذاب الله تعالى بها، روت عائشة رضي الله عنها: {أن النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر، فإذا مطرت سُرَّ به وذهب عنه ذلك، قالت عائشة: فسألته، فقال: إني خشـــــيت أن يكون عذابا سُلِط على أمتي) وفي رواية (فقال: يا عائشة ما يؤمنني أن يــكون فيه عذاب، قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هـــــذا عارض ممطرنا} (٢٦) .

ولما كانت الريح من أمر الله تعالى، وقد يتضرر بها بعض الناس، بفساد زروعهم وثمارهم، أو نفوق أنعامهم وتلف أموالهم، أو خراب مدنهم وعمرانهم كما في العواصف والأعاصير الشديدة فإنه لا يحل لأحد سبها؛ فمسبتها مسبة لله تعالى؛ لأنه خالقها وآمرها ومدبرها جل في علاه، بل ينبغي للمسلم عند هبوبها أن يلحظ قدرة الله تعالى فيها، ويلتزم بما ورد في السنة. روى أبي بن كعب رضي الله عنه فقال: قال رسول الله ﷺ:

{لا تسبوا الريح فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أمرت به} (٢٧) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (أخذت الناسَ ريحٌ بطريق مكة وعمر بن الخطاب حاجٌّ فاشتدت عليهم، فقال عمر لمن حوله: من يحدثنا عن الريح؟ فلم يرجعوا إليه شيئا، فبلغني الذي سأل عنه عمر من ذلك، فاستحثثت راحلتي حتى أدركته فقلت: يا أمير المؤمنين، أُخبرت أنك سألت عن الريح وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: الريح من رَوْحِ الله تأتي بالرحمة وتأتى بالعذاب فإذا رأيتموها فلا تسبوها وسلوا الله خيرها واستعيذوا به من شرها) (٢٨) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رجلا نازعته الريح رداءه على عهد النبي ﷺ، فلعنها فقال النبي ﷺ: لا تلعنها فإنها مأمورة، وإنه من لعن شيئا ليس له بأهل رجعت اللعنة عليه) (٢٩) .

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩)} (٣٠) .

وقال الله تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢)} (٣١) .

إن من أعظم آيات الله الباهرة، هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض، نحس بجسمه، ولا نرى شخصه.

أوجده الله عزَّ وجلَّ في كل مكان، حاراً وبارداً ودافئاً، يتنفس منه الإنسان والحيوان، والمؤمن والكافر، والمطيع والعاصي، كالماء الذي وهبه الله للإنسان والحيوان، وكالشمس التي سخرها الله للإنارة والحرارة لجميع المخلوقات.

وهذا الهواء العظيم الذي خلقه الله، إذا شاء سبحانه حركه بحركة الرحمة فجعله رخاء ورحمة، وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحاً للسحاب والثمار كما قال سبحانه: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢)} (٣٢) .

وإن شاء سبحانه حركه بحركة العذاب فجعله عقيماً، وأودعه عذاباً، فيجعله بقدرته صرصراً ونحساً وعاتياً، ومفسداً لما يمر عليه كما قال سبحانه عن قوم عاد: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥)} (٣٣) .

والرياح المذكورة في القرآن ثمان:
أربع رحمة ..
وأربع عذاب.

فرياح الرحمة:
الناشرات، والمبشرات، والمرسلات، والرخاء.

ورياح العذاب: العاصف والقاصف وهما في البحر،
والعقيم والصرصر وهما في البر.

وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في القرآن رياح الرحمة ورياح البر بلفظ الجمع، لأنها متعددة المنافع، مختلفة الصفات.
أما رياح العذاب فذكرها بلفظ الإفراد، لأن المطلوب ريح واحدة مدمرة، وكذلك رياح البحر ذكرها بلفظ الإفراد، لأن السفينة لا تسير لمقصدها إلا بريح واحدة، ذات اتجاه واحد.
وفي الشتاء يغلظ الهواء بسبب البرد، فيصير مادة للسحاب، فيرسل العزيز الحكيم الريح المثيرة، فتثيره، ثم تنشره بين السماء والأرض، ثم يسخر الله له الريح الحاملة التي تحمله على ظهرها.

ثم يرسل الله عليه الريح المؤلفة التي تؤلف بين كسفه وقطعه حتى يصير طبقاً واحداً، ثم يرسل الله عليه الريح اللاقحة التي فيها مادة الماء، فتلقحه كما يلقح الذكر الأنثى فيحمل الماء.

ثم يرسل الله عليه الريح المزجية التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أُمر أن يفرغ ماءه، فإذا أراد الله نزوله على الأرض أرسل عليه الريح الذارية بعد إعصاره فتذروه وتفرقه في الهواء، لئلا يقع صبة واحدة، فيهلك ما على الأرض، ويقل الانتفاع به.
فهذه ثمان رياح سخرها الله للمطر.

فإذا أسقي ما أمر بسقيه من البلاد والعباد قامت الرياح السائقة فساقته وأزجته إلى قوم آخرين، وأرض أخرى محتاجة إليه لسقي النبات والحيوان والإنسان: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)} (٣٤) .

وقال سبحانه: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)} (٣٥) .

والسحاب من أعظم آيات الله في الجو، فهو في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد فيصير أثقل شيء.
فسل السحاب من خلقه وأنشأه؟ .. ومن حمله بالماء والثلج والبرد؟ .. ومن حمله على ظهور الرياح؟ .. ومن أمسكه بين السماء والأرض؟ .. ومن أحيا به البلاد؟ .. ومن صرفه بين الخلق كما أراد؟.
وكم أودع الله في هذا الهواء من المنافع التي لا يحصيها إلا الذي خلقها، فهو حياة هذه الأبدان، تستنشق منه وتتغذى به، وينقل الأصوات للقريب والبعيد، وينقل الروائح على اختلافها من مكان إلى مكان، ويحمل الحر والبرد الذين بهما صلاح الحيوان والنبات والإنسان، ويلقح الشجر والنبات، ولولاه لكانت عقيماً، وفسد الثمر.

والرياح من أعظم آيات الله في الجو .. فهي أقوى خلق الله .. يحبـــسها الله إذا شاء .. ويرسلها إذا شاء .. تحمل الأصوات إلى الأذن .. والرائحة إلى الأنف .. والسحاب إلى الأرض والجزر .. وتأتي بالرحمة تارة .. وبالعـــــذاب تارة.
وكذلك الرياح تسير السفن، ولولاها لوقفت على ظهر البـــــــــحر.
وكذلك من منافعها أنها تبرد الماء، وتضرم النار، وتجفف الأشـــــياء.
فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته، ولطفه ونعمته:
{وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦)} (٣٦) .

وكم من البحار التي خلقها الله في هذا العالم، وكم أودع فيها من المـــنافع والمصالح لعباده:
بحر عظيم من الماء فيه ما لا يحصيه إلا الله من النعم والمنافع والخـــلائق.
وبحر عظيم من الهواء فيه ما لا يحصيه ولا يعلمه إلا الله من النعم والمنافع والخلائق.

وبحر عظيم من النور فيه ما لا يحصيه ولا يعلمه إلا الله من النعم والــمنافع.
فسبحان من خلق هذه البحار العظيمة، وحفظها، وأودع فيها منافع للـــبلاد والعباد على مر الدهور.

والله تبارك وتعالى خلق هذا الجسم اللطيف من الهواء الذي يحركه ويخرقه أضعف المخلوقات، وأعطاه من الشدة والقوة ما يفلق به الأجسام الصلـــبة القوية، ويزعجها عن أماكنها، ويحملها على متنه في جو السماء.

فانظر إليه إذا وضع في قربة أو جلد وامتلأ به، ووضع على الماء، فإنــه لا يرسب فيه، بينما ينغمس فيه الحديد الصلب.

فامتنع هذا اللطيف بأمر الله من قهر الماء له، وبهذه الحكمة أمسك الله السفن على وجه الماء مع ثقلها، لأن الهواء يمتنع من الغوص في المـــــــاء.
فتأمل قدرة العزيز الحكيم كيف جعل هذا الجسم العظيم الثقيل من الـــــسفن، يستجير بهذا اللطيف الخفيف من الهواء، حتى أمن من الغرق.

فسبحان من علق هذا المركب العظيم الثقيل، بهذا الهواء اللطيف من غير علاقة، ولا عقدة تشاهد: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)} (٣٧) .

والهواء بأمر الله ﷻ، ينقل الأصوات العظيمة والبعيدة إلى مسامع الناس، فينتفعون بذلك، كالهاتف والجوال والإذاعة.
ولو بقيت هذه الأصوات في الهواء، كما تبقى الكلمات في القرطاس، لامتلأ العالم من الأصوات، ولعظم الضرر به، واحتاج الناس إلى محوه من الهواء.

فإن ما يلقى في الهواء من الأصوات والكلمات، أضعاف ما يودع في القرطاس.
فمن رحمة العزيز الحكيم أن جعل هذا الهواء قرطاساً خفيفاً يحمل الكلام بقدر ما يبلغ الحاجة ثم ينمحي بإذن ربه، فيعود جديداً نقياً لا شيء فيه:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)} (٣٨) .

فما أعظم آيات الله في خلق الرياح:
فهي آية في هبوبها وسكونها .. وآية في شدتها ولينها .. وآية في حرها وبردها .. وآية في اختلاف طبائعها ومهابها وتنوع منافعها.
فللمطر ثمان رياح .. وللنبات ريح تلقحه .. وللسفن ريح تسيرها .. وللرحمة ريح بلا رياح .. وللعذاب ريح متعددة الصفات، إلى غير ذلك من أنواع الرياح التي لا يعلمها إلا الله.

واختلاف الرياح، واختلاف مهابها يدل على خالق مدبر، حكيم عليم، يصرفها كيف يشاء:
فيجعلها رخاء تارة .. وعاصفة تارة .. ورحمة تارة .. وعذاباً تارة .. وتارة يحيي بها الزرع والثمار .. وتارة يعطبها بها .. وتارة يسير بها السفن .. وتارة يغرقها بها .. وتارة ترطب الأبدان .. وتارة تذيبها، وتارة حارة .. وتارة باردة .. وتارة عقيماً .. وتارة لاقحة.

فسبحان من جعل في هذا الهواء الواحد هذه المنافع الكثيرة العجيبة.
والذي خلقها هو الذي يصرف مهابها في البر والبحر:
فتارة تهب من الشمال، وتارة من الجنوب، وتارة صبا، وتارة دبوراً.
وقد جعل الله مهب الشمال أرفع من مهب الجنوب، ولولا ذلك لبقي الماء واقفاً.
وهذه الرياح مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض.
ولشدة حاجة كل نبات وحيوان وإنسان إليها، يسرها الله في كل مكان، وصرفها وحده بين عباده، ورفع تحكم البشر فيها، فحيثما سار الإنسان أو الحيوان وجدها، وحيثما وجد نبات فهي مرافقة له.
ولو قطعت عن النبات والحيوان لهلك، كبحر الماء الذي لو فارقه السمك هلك.

يحبسها الله إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الأذن بأمر الله، وتحمل الرائحة إلى الأنف، وتحمل السحاب إلى الأرض الجرز.
وهي خلق عظيم من أقوى خلق الله، وهي من أعظم آيات الله الدالة على قدرته.
فسبحان من أنشأ الرياح بقدرته، وملأ بها الكون، وصرفها بحكمته، وسيرها بمشيئته، وسخرها بإرادته، وأرسلها بشرىً بين يدي رحمته، وجعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته.

فهل عرف الله، وعرف قدرته وعظمته، من بارزه بالمعاصي، وبدل نعمه كفراً؟.
ألا ما أعظم الجهل بالله وأسمائه وصفاته، وما أعظم الغفلة عن آلائه وإحسانه؟:
{فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)} (٣٩) .

إن في خلق الرياح آية .. وفي هبوب الرياح آية .. وفي تصريف الرياح آية.
فالرياح الساخنة هي المثيرة للبخار، والرياح الباردة هي المكثفة له حتى يصير سحاباً، ثم يسوق الله هذا السحاب بواسطة الرياح، ويصرفه كيف شاء بعلمه وحكمته، بين البلاد والعباد
والله تبارك وتعالى بيده هذا الملك العظيم، وله الخلق والأمر وحده لا شريك له، يصرف الرياح ليلاً ونهاراً، ويجعلها كما يشاء دافئة وباردة، ومنحرفة ومستقيمة، وعاصفة وهادئة، وعذاباً ورحمة.

ولهذه الرياح كلها أوامر من ربها لا تتعداها، ولها علاقة بالكائـــــنات الأخرى، تتعاون معها في تحقيق مشيئة الله في خلق هذا الكون، وتصريفه كـــــما أراد. فمتى يتجول العقل البشري في هذا المعرض الإلهي المملوء بالآيات والعجائب، فله هنا عمل، وله في هذا الميدان مجال:
{وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّـــهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٥)} (٤٠) .

ولما كانت الرياح مختلفة في مهابها وطبائعها، جعل الله لكل ريح ريحاً مـقابلة لها، تكسر سورتها وحدتها، وتبقي لينها ورحمتها، فرياح الرحمة متعـــــددة لاختلاف منافعها.

وأما ريح العذاب، فإنها ريح واحدة ترسل من وجه واحد لإهلاك ما ترســــل بإهلاكه، فلا تقوم لها ريح أخرى تقابلها.
بل تكون كالجيش العظيم الذي لا يقاومه شيء، فيدمر كل شيء كمـــــا قال سبحانه: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَـــاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨)} (٤١) .

أخي القارئ :

إن آيةٌ من آيات الله في هذا الكون العظيم، تتوقَّفُ عليها الحياة في جسم الإنسان الحي، وتبعثُ النشاطَ والحركة، وتمنحُ العزيمةَ بعد الفتور، بوجـــــودها يقوَى الإنسانُ بعد ضعفٍ، ويتَّسِعُ بعد ضيقٍ، إن تفكَّرَ فيها المرءُ ازدادَ إيـــــمانًا بربِّه، وعلِمَ أنه خالقُ كلِّ شيءٍ ومليكُه، وأنه لا إله بحقٍّ سِواه.

هي آيةٌ في الأرض وفي السماء، أقسمَ الله بها في كتابه، وقد ذكَرَها الـــباري ـ جلَّ شأنه ـ في مُحكَم التنزيل مُتصرِّفةً في تسعةٍ وعشرين موضِعًا، وكلُّ قسَمٍ يُقسِمُه الله في كتابه فهو عظيمٌ، { وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } (٤٢) .

نعم، لقد أقسمَ الله بهذه الآية العظيمة أربع مراتٍ في كتابه العزيز، فـــــقد قال ـ سبحانه وتعالى ـ: { وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا * فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا * وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا } (٤٣)، وقال ـ سبحانه ـ: { وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا } (٤٤). إنها آيةُ الرِّيـــح والرياح ـ عباد الله ـ.

الرِّيح التي يُصرِّفُها الله كيف يشاءُ مُطيعةً له ـ سبحانه ـ، إنما يقول لها: كونــي، فتكون، مُذلَّلةً لخالقها ومُدبِّرها كما ذلَّت السماوات والأرضُ له ـ سبحانه وتعالى { ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًـــــا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ } (٤٥) .

وقد جعلَ الله ـ سبحانه ـ تصريفَ الرِّياح من الآيات لقومٍ يعقِلون، فتكون باردةً وحارةً، وجنوبًا وشرقًا، وشمالاً ودبورًا، وتُثيرُ السَّحاب وتُؤلِّفُ بينَه، وتجـعلُه رُكامًا يخرُجِ الودْقُ من خلاله، وتكونُ لواقِحَ للمطر والنبات، ومصدرًا للـــطاقة الكهربائية، والطواحين، وسير السُّفن، وحركة الطيران، ولا يُخرِجُها ذلـكم كلُّه عن كونـها آيةً من آيات الله، ومحلاًّ لإطلاق الفِكر والنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلقَ الله من شيءٍ.

وإن تعجَبوا - عباد الله -، فعجبٌ وصولُ فِكر بعض المُسلمين إلى درجةٍ من الهوان العقليِّ والدُّونِ العلميّ؛ حيث إنهم قد خُدِعوا بدراساتٍ ومُعتقَدات وثقافاتٍ ليست من الإسلامِ في شيءٍ، تجعلُ النظرةَ إلى الظواهر الكونيَّة، والكوارِث المُشاهَدة نظرةً ماديَّةً بحتةً، من جهة مصدرها، وسببها، ومن جهة التعامُل معها، في زمنٍ يُدرِكُ فيه بعضُ من يُنسَبُون إلى غير الإسلام في دراساتهم واكتشافاتهم لأحوال تلك الظواهر أن الأمرَ ليس مُوكلاً إلى الطبيعة لا ابتداءً ولا انتهاءً، وأن هذه الرِّياح لها حكمةٌ وحكيمٌ مُدبِّرٌ يعلمُ وهم لا يعلَمون. وربما ازدادَ عجبُهم، بل وربما أسلمَ بعضُهم حينما يعلمُ أن الإسلامَ قد أصَّلَ هذا الجانبَ، وأن الرِّياحَ خلقٌ من مخلوقات الله العجيبة في كونه العظيم.

ففي الوقت الذي يظنُّ فيه بعضُهم أنه بلغَ درجةً من الاكتِشافِ لأسرار الرِّياح بعد لأْيٍ وأبحاثٍ ومُضيِّ أعمارٍ علىٍ أن الرِّياح لا تخلو من أربع حالاتٍ: إما أن تكونِ رِيحًا ساكنةً، أو رِيحًا هادئةً ساكِنةً عليلةً، أو رِيحًا عاصِفةً، أو رِيحًا قاصِفًا.

وتبلغُ الدهشةُ أوجَها، والمُفاجأةُ ذروتها حينما يعلَمون أنّض كتاب الله - سبحانه قبل خمسة عشر قرنًا من الزمان قد بيَّن هذه الأصنافَ للرِّيح بهذا الترتيب في زمن الأمة الأُمِّيَّة التي لا تقرأُ ولا تكتُب؛ فقد قال - سبحانه وتعالى – عن الرِّيح الساكِنة: { وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ } (٤٦) .

وقد كان المفهومُ عند عموم المُفسِّرين الذين فسَّروا كتابَ الله تعالى منذ أمدٍ بعيدٍ أن المقصودَ بذلكم هي السُّفُن الشراعِية التي لا تستطيعُ السيرَ في البحر إذا سكَنَ الهواء، وإذا بالإعجاز العلميِّ في القُرآن الكريم يُبهِرُنا بأنه قد سبقَ الاكتِشافات الحديثة، وأنَّ الرِّيح إذا سكَنَت سُكونًا تامًّا فلن تستطيع السُّفُن السيرَ على البِحار؛ لا السُّفُن الشِّراعيَّة، ولا السُّفُن البُخاريَّة، ولا السُّفُن العملاقة التي تعملُ بالطاقة النوويَّة؛ لحاجةِ كلِّ مصادر الطاقة المُستخدَمة في دفع تلك السُّفُن إلى أوكسجين الهواء، فإذا سكنَت الرِّيح انعدمَ الأوكسجين فركَنَت السُّفُن. وقولوا مثلَ ذلكم في الطائرات والطواحين الهوائيَّة ونحو ذلكم.

وأما الرِّيحُ الطيبة والرِّيحُ العاصِف، فقد ذكرَها الله بقوله:
{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ } (٤٧) .
الآية؛ حيث إن الموتَ يصِلُ في الارتفاع إلى درجةٍ تعلُو فوقَ السُّفُن، مع شدَّةٍ في السُّرعة مُغرِقة، حيث استحالَت رِيحًا عاصِفًا بعد أن كانت رِيحًا طيبَةً.

وأما الرِّيحُ القاصِف، فهي التي تُسمَّى الإعصار، وهي التي تكونُ بشكلٍ عموديٍّ إلى السماء، وتجعلُ أمواجَ البحر شاهِقةً تُدمِّرُ السُّفُن وتغرَقُ بسببها، وقد يكونُ الإعصارُ فيه نارٌ، وقد يكونُ بلا نارٍ، وهو الأكثر.

ومن الاكتِشفات الحديثة عند رُوَّاد الأبحاث الجيولوجيَّة والجُغرافيَّة أنَّ الإعصارَ الذي فيه نارٌ إنما يكونُ ويتولَّدُ من حرائق الغابات الكثيفة، ومن المعلوم بداهةً أن القُرآن أُنزِل على أمَّةٍ يغلِبُ عليها الوضعُ الصحراويُّ وتُفتقَد فيه الغابات، ومع ذلك قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ في زمنهم: { أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ } (٤٨) .

فها هو كتابُ الله قد سبقَهم بخمسة عشر قرنًا من الزمان، دينًا حقًّا قِيَمًا، { هو صِبغةُ الله وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } (٤٩) .

فإن الرِّيحَ جندٌ من جنود الله، تكونُ رأفةً لعباده المُؤمنين، وبُشرى بين يدي رحمته، تُقِلُّ سحابًا ثِقالاً فيسوقُه الله إلى بلدٍ ميِّتٍ ليُسقِيَه مما خلقَ أنعامًا وأناسِيَّ كثيرًا، وتكونُ نعمةً لعباد الله المُؤمنين، وهي من جنود ربِّ العالمين . سبحانه ـ حين يُرسِلُها على عدوِّهم ومن بغَى عليهم؛ فقد صحَّ عن النبي ﷺ ـ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبا»؛ (٥٠) .

وقد تكون الرّيح نقمةً وعذابًا يرسِلُه الله على من يشاءُ من عباده وهو الحكيمُ العليمُ؛ فقد أهلكَ عادًا بالدَّبُور العقيم الصَّرصَر، { وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ } (٥١) ، وأهلكَ بها الأحزابَ الذين تآمَروا على النبي ـ ﷺ ـ وأصحابه، فقال الله عنهم: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } (٥٢) .

والرّيحُ أيضًا من دلائل نبُوَّته ـ ﷺ ـ؛ فقد قال جابرٌ ـ رضي الله عنه ـ: "قَدِمَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ من سفَر، فلما كان قُربَ المدينة هاجَت رِيحٌ شديدة تكادُ تدفِنُ الرَّاكِبَ، فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ: «بُعِثَت هذه الرّيحُ لموت مُنافِقٍ»، فلما قدِمَ المدينة فإذا مُنافِقٌ عظيمٌ من المُنافقين قد مات"؛ (٥٣) .
ألا فاتقوا الله ـ عباد الله ـ، وتأمَّلوا في منَّة الله على عباده بالرِّيح الطيّبة والرِّياح؛ حيث يقول ـ سبحانه ـ: { وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } (٥٤) .

قال بعضُ السَّلَف: (أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ فتفرحُ النفوسُ بالرِّياح، وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ أي: بالمطر الذي تحمِلُه الرِّياح، وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ أي: الفُلك التي تُحرِّكُها الرِّياح، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أي: بتجارة البحار التي تُحرِّكُ الرِّياحُ بواخِرَها، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أي: تشكُرون اللهَ على نعمة الرِّياح).

{ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } (٥٥) .

لله ما أعظمَ هذا الدين وما أحسنَه، وما أوسعَه وأشملَه، لم يدَع شرًّا إلا حذَّرَ منه، ولا خيرًا إلا دلَّ عليه، قال أبو ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ: "لقد تُوفِّي رسولُ الله ـ ﷺ ـ وما طائرٌ يُقلِّبُ جناحَيْه في السماء إلا ذكرَ لنا منه علمًا"؛ رواه أحمدُ، وابن حبان.

وقد جاء في شريعتنا الغرَّاء ما هو محلُّ التوجيه والإرشاد إلى كيفيَّة التعامُل مع الرِّيح والرِّياح؛ فقد صحَّ أن النبي - ﷺ - إذا عصَفَت الرِّيح يقول: «اللهــــتم إني أسألُك خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسِلَت به، وأعوذُ بك من شرِّها وشــرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسِلَت به»؛ (٥٦) .

وقد نهانا - صلوات الله وسلامه عليه - عن سبِّ الرِّيح بأي نوعٍ من أنواع السبِّ أو الذَّمِّ؛ بل إنه - ﷺ - إذا كان يومُ الرِّيح والغَيْم عُرِفَ ذلكَ في وجهه، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مطَرَت سُرَّ به، وذهبَ عنه ذلك. قالت عائشة - رضي الله عنها -: فسألتُه فقال: «إني خشيتُ أن يكون عذابًا سُلِّط على أمتي»؛ (٥٧) .

المراجع: للباب الخامس : الفصل الأول :

---

(١) (سورة الرعد ، آية : ١١)
(٢) (سورة الجاثية ، آية : ٥)
(٣) (سورة الروم ، آية : ٤٦)
(٤) (سورة النمل ، آية : ٦٣)
(٥) (سورة الذاريات ، آية : ٤١-٤٢)
(٦) (سورة الفرقان ، آية : ٤٨)
(٧) (سورة الروم ، آية : ٤٨)
(٨) (سورة الاعراف ، آية : ٥٧)
(٩) (سورة فاطر ، آية : ٩)
(١٠) (سورة الحجر ، آية : ٢٢)
(١١) (سورة الذاريات ، آية : ١-٢)
(١٢) (سورة المرسلات ، آية : ١-٢)
(١٣) (سورة الشورى ، آية : ٣٣)
(١٤) (سورة يونس ، آية : ٢٢)
(١٥) (سورة الإسراء ، آية : ٦٩)
(١٦) (سورة الأنبياء ، آية : ٨١)
(١٧) (سورة ص ، آية : ٣٦)
(١٨) (سورة فصلت ، آية : ١٦)
(١٩) (سورة القمر ، آية : ٢٠)
(٢٠) (سورة الاحقاف ، آية : ٢٤)
(٢١) (سورة الحاقة ، آية : ٦-٧)
(٢٢) (سورة الأحزاب ، آية : ٩)
(٢٣) (متفق عليه)
(٢٤) (سورة الفتح ، آية : ٧)
(٢٥) (سورة المدثر ، آية : ٣١)
(٢٦) (رواه مسلم)
(٢٧) (رواه الترمذي وقال حديث صحيح)
(٢٨) (رواه احمد)
(٢٩) (رواه أبو داود)
(٣٠) (سورة فاطر ، آية : ٩)
(٣١) (سورة الذاريات ، آية : ٤١-٤٢)
(٣٢) (سورة الحجر ، آية : ٢٢)
(٣٣) (سورة الاحقاف ، آية : ٢٤-٢٥)

(٣٤) (سورة الروم ، آية : ٤٨)
(٣٥) (سورة الاعراف ، آية : ٥٧)
(٣٦) (سورة الروم ، آية : ٤٦)
(٣٧) (سورة الشورى ، آية : ٣٢-٣٣)
(٣٨) (سورة الشعراء ، آية : ٦٧-٦٨)
(٣٩) (سورة الجاثية ، آية : ٦)
(٤٠) (سورة الجاثية ، آية : ٤-٥)
(٤١) (سورة الحاقة ، آية : ٦-٨)
(٤٢) (سورة الواقعة ، آية : ٧٦)
(٤٣) (سورة المرسلات ، آية : ١٠٣)
(٤٤) (سورة الذاريات ، آية : ١)
(٤٥) (سورة فصلت ، آية : ١١)
(٤٦) (سورة الشورى ، آية : ٣٢-٣٣)
(٤٧) (سورة يونس ، آية : ٢٢)
(٤٨) (سورة البقرة ، آية : ٢٦٦)
(٤٩) (سورة البقرة ، آية : ١٣٨)
(٥٠) (رواه مسلم)
(٥١) (سورة الحاقة ، آية : ٦)
(٥٢) (سورة الاحزاي ، آية : ٩)
(٥٣) (رواه مسلم في صحيحة)
(٥٤) (سورة الروم ، آية : ٤٦)
(٥٥) (سورة الاعراف ، آية : ٥٧)
(٥٦) (رواه مسلم في صحيحة)
(٥٧) (رواه مسلم في صحيحة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـــــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربـــوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صـــلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

قال الله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّـــرُونَ (٤)} (١) .

وقال الله تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨)} (٢) .

خلق الله الأرض مختلفة الأجناس والصفات والمنافع:

فهذه الأرض سهلة .. وهذه حزنة. وهذه صلبة .. وهذه رخوة .. وهذه سوداء .. وبجوارها بيضاء .. وهذه حصى كلها .. وبجوارها أرض ليس فيها حـــــجر .. وهذه سبخة مالحة .. وبجوارها أرض خصبة طيبة .. وهذه طين أو رمل ليس فيها جبل .. وهذه مسجرة بالجبال .. وهذه تصلح لنبات كذا .. وهذه لا تصلح له .. وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ .. وهذه تنبت الكلأ، ولا تمـــــسك الماء:

{وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِـــنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)} ... (٣) .

فسبحان من نوعها هذا التنوع .. وفرق أجزاءها هذا التفريق .. ومن خص كل قطعة منها بما خصها به من المنافع والنبات والمعادن.
وسبحان من ألقى عليها رواسيها .. وفتح فيها السبل .. وأخرج منها السماء والمرعى .. ومن بارك فيها .. وقدر فيها أقواتها.
وإذا نظر الإنسان إلى الأرض، وكيف خُلقت، رآها من أعظم آيات فاطرها ومبدعها.
خلقها الله عزَّ وجلَّ فراشاً ومهاداً، وذللها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، وجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم.
ووسع سبحانه أكنافها، ودحاها، ومدها، وبسطها، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء، وبطنها وطن للأموات كما قال سبحانه:
{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا (٢٦)} (٤) .

والأرض كائن حي، يحيا ويموت، فالماء حين يصيب الأرض، يبعث فيها بأمر الله الخصب، فتنبت الزرع الحي النامي، وتموج صفحاتها بألوان وأشكال من الأحياء من النباتات، والماء رسول الحياة من الله، فحيث كان تكون الحياة:

{وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤)} (٥) .
فانظر إلى الأرض وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وتحركت، وربت واخضرت، وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب النبات في المنظر والمخبر.
أقوات وأزهار وثمار على اختلافها، وتباين مقاديرها وأشكالها، وألوانها ومنافعها، وأنواع الفواكه والثمار، ومراعي الدواب والطير:
{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥)} (٦) .

ثم انظر إلى قطع الأرض المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحد، فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل، والرائحة والطعم، والمنفعة والحجم، واللقاح واحد، والأم واحدة، والنتاج مختلف.
فسبحان من أودع هذه الأجنة المختلفة في بطن هذه الأم، وجعلها تحمل بذلك من لقاح واحد أمم وقبائل من النبات: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَـــيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)} (٧) .

وسبحان من أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات، الشوامخ الصم الـصلاب، ونصبها فأحسن نصبها، ورفعها وجعلها أصلب أجزاء الأرض، لئلا تضمحل على تطاول السنين، وترادف الأمطار، وتوالي الرياح، وأتقن صنعها، وأحكم وضعها، وأودعها من المنافع والمعادن والجواهر والعيون ما أودعها، ثم هدى الناس للاستفادة منها، ولولا هدايته لهم إلى ذلك لم يعرفوه ولم يقدروا عليه: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)} (٨) .

والله تبارك وتعالى هو الذي أنزل من السماء ماء مباركاً، وأسكنه في الأرض، يستفيد منه الإنسان والحيوان والنبات على مدار العام كما قال سبحانه: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ (١٨)} ... (٩) .
فسبحان من أودع الماء في الأرض، ثم أخرج به أنواع الأغذية والأدوية والأشربة والأقوات على مدار العام.

فهذا لغذاء الإنسان .. وهذا لغذاء الحيوان .. وهذا سم قاتل. وهذا شفاء من السم .. وهذا حار .. وهذا بارد .. وهذا حلو .. وهذا مر .. وهذا حامض .. وهذا مالح .. وهذا ثمر .. وهذا ورق .. وهذا حب متراكب .. وهذ منفرد .. وهذا ثمر مستور .. وهذا مكشوف .. وهذا ثمر أبيض .. وهذا أصفر .. وهذا أحمر .. وهذا أسود.

وهذا ثمره في باطن الأرض .. وهذا على سطح الأرض .. وهذا ثمره في أعلاه .. وهذا في أسفله .. إلى غير ذلك من عجائب النبات التي لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده، والذي لا تكاد تخلو ورقة ولا زهرة، ولا ثمرة ولا خشبة منه، من منافع تعجز العقول عن الإحاطة بها: {هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)} (١٠) .

وانظر إلى قدرة الله في سوق الماء في تلك العروق الرقيقة الضعيفة، وكيف يستقبله النبات، وكيف يجذبه من مقره ومركزه إلى فوق، ثم ينصرف في تلك الأغصان والأوراق والثمار.
فسبحان من أنزل الماء بقدرته، ورفعه بقدرته، وسيره بقدرته، وقسمه بعلمه ومشيئته، وأحيا به الأموات، وأخرج به من كل الثمرات:
{هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)} (١١) .

وسبحان الخلاق العليم الذي خلق الأرض وبسطها، وشق أنهارها، وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها، ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤)} (١٢) .

وسبحان الذي يمسك الأرض أن تتحرك أو تزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور، وتبلع ما على ظهرها.
وإذا خسف الله بالأرض، فمن ذا يمسكها سواه، وإذا زلزلها فمن ذا يثبتها سواه:
{إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)} (١٣) .

وهو سبحانه الذي جعل الأرض خزانة حافظة لما استودع فيها من المياه، والأرزاق، والمعادن، والنبات والحيوان، وجعل فيها الجنات والحدائق والعيون، إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار.

والله عزَّ وجلَّ هو الحي الذي يحيي الأرض بعد موتها، فينزل عليها الماء من السماء، ثم يرسل عليها الرياح، ويطلع عليها الشمس، فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة، مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج، بإذن ربها وفاطرها.

فتبارك الله أحسن الخالقين، الذي جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، وصب عليه الماء، وكان في الموسم، انتفخت الحبة، وانفلقت عن ساقين، ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العروق، ثم عظم ذلك الولد، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب في حبة واحدة، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم، وجعل ذلك دليلاً على إخراج من في القبور، ليوم البعث والنشور:

{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)} (١٤) .

فالأرض كالأم تحمل في بطنها أنواع الأولاد من كل صنف، ثم تخرج بأمر الله من ذلك للإنسان والحيوان ما أذن لها فيه ربها أن تخرجه، إما بعملهم وإما بدونه، ثم يرد إليها ما خرج منها، فينبته الله مرة أخرى .. وهكذا.

وجعلها سبحانه كفاتاً للأحياء ما داموا على ظهرها، فإذا ماتوا استودعتهم في بطنها، فكانت كفاتاً لهم تضمهم على ظهرها أحياء، وفي بطنها أمواتاً.

فإذا جاء يوم الوقت المعلوم، وقد أثقلها الحمل، وحان وقت الولادة ودنو المخاض، أوحى إليها ربها وفاطرها أن تضع حملها، وتخرج أثقالها، فتخرج الناس بإذن ربها من بطنها إلى ظهرها.

{يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (٤٤)} (١٥) .

ثم تحدث أخبارها، وتشهد على بنيها بما عملوا على ظهرها من خير أو شر:
{يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)} (١٦).

فسبحان من أخرج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، وأخرج الذكور والإناث بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه، وذكور النبات وإناثه، على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس.

وسبحان من جعل الأرض بالنسبة للإنسان كالأم، بل أشفق من الأم، فقد أمر الله الأم أن تسقيك لوناً واحداً من اللبن، وأمر الأرض أن تطعمك وتسقيك ألواناً من المأكولات والمشروبات.

وكنت في بطن الأم الصغرى تسعة أشهر فما مسك جوع ولا عطش، كنت مطيعاً لله، دعاك إلى الخروج إلى الدنيا فخرجت إليها مطيعاً.

وأنت الآن في بطن الأم الكبرى، وقد سخر الله لك كل شيء، وهو اليوم يدعوك إلى الخروج إلى الآخرة بالإيمان والأعمال الصالحة مراراً فلا تجيبه؟.

فما أجهل الإنسان بربه، وما أجهله بما ينفعه وما يضره، وما أظلمه لنفسه ولغيره: {إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)} (١٧).

وفي خلق الأرض آيات وعجائب وعبر، لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله كما قال سبحانه: {وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠)} ... (١٨).

ومن آياتها خلقها بهذا الحجم الهائل العظيم، وسعتها وكبر خلقها، وتسطيحها ليستقر عليها الحيوان، فهي كروية لها سطح.

ومن آياتها أن جعلها سبحانه قراراً وفراشاً، لتكون مقر الحيوان ومساكنه.

وجعلها سبحانه بساطاً يسير عليها الحيوان والإنسان بيسر وسهولة، وجعل فيها الفجاج والسبل: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠)} (١٩).

وجعلها الله عزَّ وجلَّ مهاداً ذلولاً، تُوطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول والفئوس، وتُحمل على ظهرها الأبنية الثقال، فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها في تحقيق مصالحه، من بناء وزراعة وصناعة.

ومن رحمته سبحانه أن جعل الأرض ذلولاً، لم يجعلها في غاية الصلابة والشدة كالحديد فيمتنع حفرها وشقها، والغرس والزرع فيها، ولم يجعلها سائلة لا يمكن الزرع والغرس فيها، ولا رخوة لا يمكن السير عليها، والبناء فوقها.
بل جعلها سبحانه قراراً بين الصلابة والدماثة، بحيث تصلح للسير والمشي وتقبل الزرع والغرس، وتحمل المباني والأجسام الثقيلة:
{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)} (٢٠) .

وأشرف الجواهر عند الإنسان الذهب والفضة، ولو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها.
ومن هنا نعلم أن جواهر التراب ومنافعه أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أعز وأغلى، فغلاؤها وعزتها لقلتها، وإلا فالتراب أنفع منها وأبرك وأنفس.
ومن رحمته سبحانه أن خلق الأرض كثيفة غبراء، فصلحت أن تكون مستقراً للنبات والحيوان والأنام.
لم يجعلها سبحانه شفافة لا يستقر عليها النور، فلا تقبل السخونة، فتكون باردة لا يعيش عليها ولا فيها حيوان ولا نبات.
ولم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف عليه.
ومن الآيات في الأرض ما أوقعه الله بالأمم التي كذبت رسله، وخالفت أمره، فأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال سبحانه:
{أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ (٢٦)} ... (٢١) .
وقال سبحانه: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ} (٢٢) .
فكم من آية؟، وكم من عبرة؟، وكم من تبصرة؟، وكم من ذكرى في هذه الأرض ما عليها؟.

وأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لا مال له ولا عدة ولا عدد.
فيدعو الأمة العظيمة إلى توحيد الله والإيمان به وطاعته، ويحذرهم بأسه ونقمته، فيكذبونه ويعادونه، فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجة عن قدرة البشر، والتي أوقعها الله بمن كفر به وكذب رسله.
فيغرق المكذبين كلهم تارة كما فعل سبحانه بقوم نوح، وفرعون وقومه.
ويخسف بغيرهم الأرض تارة كما فعل بقارون وغيره.
ويهلك آخرين بالريح كم فعل بقوم عاد.
ويهلك آخرين بالصيحة كما فعل بقوم ثمود.
ويهلك آخرين بالمسخ .. وآخرين بالصواعق .. وآخرين بالحجارة .. وآخرين بأنواع العقوبات .. وينجو داعيهم ومن معه من المؤمنين .. والهالكون أضعاف أضعافهم عدداً وقوة ومنعة وأموالاً:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)} (٢٣) .

وكل أخذه الله بذنبه عقوبة على جرمه: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)} (٢٤) .

والله ﷻ يُري أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الإله الحق، وأن رسله صادقون، وأن دينه حق: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣)} (٢٥) .

وخلق السموات والأرض آية كبرى تشهد بأن الذي خلقها وأنشأها هو الله وحده، وتنطوي آية السموات والأرض على آية أخرى في ثناياها: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)} ... (٢٦) .
والحياة في هذه الأرض وحدها، فضلاً عما في السموات من أحياء ومخلوقات لا ندركها آية أخرى، وهي سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد، وعلمه إلى الله وحده دون سواه.

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق هذه الأحياء المبثوثة في كل مكان، فوق سطح الأرض، وفي ثناياها، وفي أعماق البحار، وفي جو السماء.
وهذه آية أخرى من آيات الله في الأرض.
أسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله، الذي خلقها، وقسم رزقها وسيرها في ملكه الواسع العظيم.
وأسراب من النحل وأخواتها لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده.
وأسراب من الحشرات والهوام والذر، لا يعلم موطنها إلا الله الذي لا يخفى عليه شيء.
وأسراب من الأنعام والوحش، سائمة وشاردة في كل مكان، لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده.
واسراب من الحيوانات والأسماك في البحر، لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده.

وأمم من البشر مبثوثة في الأرض في كل مكان، مختلفة الأجناس والألوان واللغات والأشكال، لا يحصيها إلا الله الذي: {وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩)} (٢٧) .
وخلائق اخرى أربى عدداً، وأخفى مكاناً، في السموات والأرض، لا يعلمها إلا الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.
وهذه المخلوقات التي تدب في السموات والأرض يجمعها الله حين يشاء، لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب، وبنو آدم يعجزهم أن يجمعوا سرباً من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم، أو سرباً من النحل يطير من خلية لهم.

وليس بين بعث هذه المخلوقات وجمعها، وبين موتها وحياتها، إلا كلمة واحدة من الخلاق العليم: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢)} (٢٨) .
وهذه الأرض الواسعة بما فيها من تراب وجبال وبحار، عائمة في الهواء، سابحة في الفضاء، غير مستندة إلى شيء إلا إلى قدرة الذي خلقها وأمسكها ودبرها كيف شاء، بهذا النظام الذي لا يتخلف، وبهذا القدر الذي يسمح للأحياء والأشياء أن تظل على سطح هذا الكوكب السابح السارح الدائر في الفضاء.
فسبحان الذي: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} (٢٩) .

وسبحان من خلق الأرض ودحاها وملأها بالخيرات والأرزاق، وجـــــهزها لاستقبال الأحياء، وحضانتهم على اختلاف أشكالهم وألوانهم، وطريقة حياتهم، من نبات وحيوان، وطير وحشرات، وإنس وجن، وغيرهم مما لا يعلمه إلا الله العليم الخبير.

وكل هؤلاء جماعات وقبائل وشعوب، لا يحصيها إلا الله الذي خلقها، وخلـــق أرزاقها، وحدد آجالها.

والله تبارك وتعالى هو المولى الكريم الرحيم، الذي خلق هذه الأقوات المدخرة في الأرض، للأحياء التي تسكن على ظهرها، أو تسبح في أجوائها، أو تمـخر ماءها، أو تختبئ في مغاورها وكهوفها، أو تختفي في مساربها وأجوافهـــا.

هذه الأقوات الجاهزة من جهزها وأعدها بمختلف الأشكال والألوان؟.

إن الله هو الذي خلقها، لتلبي حاجات هذه الأحياء التي لا تحصى، ولا تحصى أنواع غذائها، ولا يحصب كميات أرزاقها إلا الذي خلقها.

هذه الأقوات التي أودعها الله في جوفها، والساربة في مجاريها، والســابحة في هوائها، والنابتة على سطحها، والقادمة إليها من الشمس، ومن العوالم الأخرى، وكلها تتدفق وفق تدبير الله الذي خلق هذا المحضن لهذا النوع من الحــــــياة، وجهزه بكل ما يلائم، وبكل ما يلزم لهذه الأنواع الكثيرة التي لا تحصـــى، والتي تتوالد وتتكاثر على مرِّ الدهور.

فسبحان المصور الذي نوع مشاهد الأرض، حيثما امتد الطرف، وحـيثما تنقلت القدم، سهول وجبال، وبحار وأنهار، ونبات وحيوان، وأزهار وثمار وأشـــجار.

وعجائب هذه المشاهد لا تنفد من وهاد وبطاح، ووديان وجبال، وبحار وأنـهار.

وكل مشهد من هذه المشاهد في تغير دائم، يمر به الإنسان وهو أخضر، ثم يمر به إبان الحصاد حين يهيج ويصفر، فإذا هو مشهد آخر: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (٦)} (٣٠) .

ألا ما أعظم الآيات والعجائب في هذا الكون العظيم.

فمتى يستيقظ القلب البشري للتأمل والتدبر والتفكر في هذا المعرض الإلهـــي الهائل؟:

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠)} (٣١) .

إن كثيراً من الناس يمرون بهذا المعرض العجيب من المخلوقات، مغمضي العيون .. مقفلي القلوب .. لا يحسون فيه حياة .. ولا يفقهون لغة .. لأن لمسة اليقين لم تحيِ قلوبهم .. وقد يكون منهم علماء يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

أما حقيقة الحياة والأحياء فتظل محجوبة عن قلوبهم، فالقلوب لا تفهم الوجود، ولا تفتح أسراره إلا بمفتاح الإيمان، ولا تراها إلا بنور اليقين: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)} (٣٢) .

والله عزَّ وجلَّ وضع هذه الأرض للأنام كما قال سبحانه:
{وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)} (٣٣)
والإنسان لطول استقراره على هذه الأرض، وإلفه لأوضاعها وظواهرها، لا يحس يد القدرة الإلهية التي وضعت هذه الأرض للأنام، وجعلت استقرارنا عليها ممكناً ميسوراً إلى الحد الذي لا نكاد نشعر به، ولا نعلم بعظمة نعمة الله علينا فيه إلا حين يثور بركان، أو يمور زلزال، فيؤرجح هذه الأرض المطمئنة من تحتنا، فتضطرب وتمور: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)} (٣٤) .

إن البشر لو ألقوا بالهم إلى أنهم محمولون على هذه الهباءة السابحة في هذا الفضاء الكبير، وهي معلقة تسبح في هذا الفضاء، لا يمسكها شيء إلا قدرة الله، الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، لو أدركوا ذلك لظلوا أبداً معلقي القلوب والأبصار، راجفي الأرواح والأوصال، لا يركنون إلا للواحد القهار: {ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣)} ... (٣٥) .
وما أعظم نعم الله على العباد في خلق هذه الأرض الذي أودعها خالقها ما لا يحصى من النعم.
فهي ذلول وحلوب .. وهي مذللة للسير عليها بالقدم .. وعلى الدابة .. وعلى السيارة .. وعلى الفلك التي تمخر البحار .. ومذللة للزرع والجني والحصاد .. ومذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات.
هذه الأرض التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، وهي دابة متحركة، بل رامحة راكضة، وهي في الوقت نفسه ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تهزه وترهقه كالدابة غير الذلول.

ثم هي حلوب كما هي ذلول، فكم يخرج الله منها من المياه؟، وكم يخرج الله منها من الثمار والحبوب؟، وكم يخرج الله منها من البترول والغاز والمعادن؟.
فهذه النعم والأرزاق يسوقها الله إلينا من كل مكان.
فهل أدينا حق الله علينا من العبادة والطاعة؟.
{يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٢)} ... (٣٦) .

إن هذه الدابة التي نركبها تدور بأمر الله حول نفسها .. وتدور حول الشمس .. وتدور مع المجموعة الشمسية .. فهذه ثلاث دورات للأرض.
فسبحان من خلقها، وسبحان من أمسكها، وسبحان من أجراها وحركها.
ومع هذا الركض كله، يبقى الإنسان على ظهرها آمناً مستريحاً، مطمئناً معافى، لا تتمزق أوصاله، ولا تتهدم بيوته، ولا يقع مرة عن ظهره هذه الدابة الذلول:
{هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥)} (٣٧) .

وهذه الحركات الثلاث لها حكم وأسرار:
فدورة الأرض حول نفسها كل يوم ينشأ عنها الليل والنهار.
ولو كان الليل سرمداً لجمدت الحياة والكائنات من البرد، ولو كان النهار سرمداً لاحترقت الحياة والكائنات من الحر.
ودورة الأرض حول الشمس هي التي تنشأ عنها الفصول الأربعة، الصيف والربيع، والخريف والشتاء.
أما الحركة الثالثة فلم يكشف ستار الغيب عن حكمتها، إلا أنها تدل على كمال قدرة خالقها ومحركها.
وهذه الدابة الذلول، تتحرك بأمر القوي القدير هذه الحركات الثلاث الهائلة في وقت واحد، ثابتة على وضع واحد في أثناء الحركة.
وهؤلاء البشر الذين يعيشون على ظهر هذه الدابة آمنين مطمئنين .. ويحلبونها فينالون من رزق الله فيها نصيبهم المعلوم .. يعرفون كيف تتحول إلى دابة غير

ذلول ولا حلوب في بعض الأحيان .. عندما يأذن الله لها بأن تضطرب قليلاً .. فيرتج كل شيء فوق ظهرها أو يتحطم .. ويمور كل ما عليها ويضطرب .. فلا تمسكه قوة ولا حيلة.

وذلك عند الزلازل والبراكين التي تكشف عن الوحش الجامح الكامن في الدابة الذلول، التي يمسك الله بزمامها، فلا تثور إلا بقدر، ولا تجمح إلا ثواني معدودات، فيتحطم كل شيء شيده الإنسان على ظهرها، أو يغوص في جوفها عندما تفتح أحد أفواهها، ويخسف جزء منها فتبلعه بأمر ربها انتقاماً وعقوبة ممن عصاه في ملكه وأرضه.

وهي تمور بالبشر، وهم لا يملكون شيئاً من هذا الأمر ولا يستطيعون، وهم كذلك يشهدون العواصف الجامحة الحاصبة التي تدمر وتخرب، وتحرق وتصعق: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦)} (٣٨) .

والبشر يبدون في هول الزلازل والبراكين، والخسوف والعواصف، خلقاً ضعافاً مهازيل، لا يملكون شيئاً، ويقف الإنسان أمامها صغيراً هزيلاً، حسيراً مرعوباً، حتى يأخذ الله بزمامها فتلين وتسكن بأمره.

والقرآن يذكر البشر الذين يخدعهم سكون الدابة، ويغرهم الأمان، بنسيان خالقها وممسكها ومروضها، يذكرهم بهذه الجمحات التي لا يملكون من أمرها شيئاً، والأرض الثابتة تحت أقدامهم ترتج وتمور، وتقذف بالحمم وتفور.

والريح من حولهم تتحول إلى إعصار حاصب لا تقف له قوة في الأرض من صنع البشر، ولا تصده عن التدمير، يحذرهم وينذرهم بقوله: {أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧)} (٣٩) .

وهذا الفضاء العظيم الواسع بين السماء والأرض من خلقه؟.
ومن ملأه تارة بالنور الشامل .. وتارة بالظلام الدامس؟.
ومن ملأه تارة بالحرارة .. وتارة بالبرودة؟.
ومن ملأه بالهواء اللطيف تارة .. وبالعواصف المدمرة تارة؟.
ومن سير فيه الشمس الجارية .. والقمر الساري .. والكواكب النيرة؟.
ومن سير فيه السحب المتراكمة .. والذرات الطائرة .. والطيور السابحة؟.
فسبحان من له الخلق والأمر، والتصريف والتدبير، والدين والشرع.
وسبحان الخلاق العليم ... الذي خلق السماء والأرض ... وخلق الكبير والصغير ... وخلق البر والبحر ... وخلق اليابس والرطب ... وخلق كل شيء.
{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢)} (٤٠) .

أخي القارئ : تعال معي نتعرف كيف خلق الله الأرض :

خلق الأرض بأربعة أيام :

يعتبر خلق الأرض من مظاهر قدرة الله -عزّ وجلّ- التي ينبغي على المسلم التفكّر بها، واستشعار عظمة الله -عزّ وجلّ- وقدرته الفائقة في إبداع الكون وتصويره، تُرى كم يوماً استغرق خلقُ الأرض؟

قال الله -تعالى- في كتابه العزيز محدّداً لأيام خلق الأرض: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ}. (٤١) .

تدلُّ الآية الكريمة السابقة على أنّ مجمَلَ أيامِ خلقِ الأرض، وتهيئتها لعيش الكائنات هو أربعة أيام، ففي المرحلتين الأولتين خلق الله -عز وجل- الأرض، وجعل في الأرض الرواسي؛ وهي الجبال ثوابت للأرض، ومصدر لليـنابيع وتَفَجُّر الأنهار، وبارك ما فيها من خيرات، وقدّر في الأقوات؛ أي جعل فيها ما يقتات عليه كائنات من الأرض ويعتاشون به من النباتات والحيوانات؛ فبذلك يُصبح مُجمل أيام خلق الأرض هو أربعة أيام. (٤٢) .

أصل الكون المادي من الدخان :

يحاول علماء الفضاء جاهدين معرفة المكوّن الأساسي الذي تشكّل منه الكون، ويسعَون بكلّ ما أوتوا من علمٍ و وسائل حديثة أن يعرفوا الطريقة التي وُجِد فيها هذا الكون، وتكوّن منها الكواكب، والنجوم، والسماوات، وما على الأرض، ولكنّهم مهما حاولوا فلن يستطيعوا أن يصلوا إلى اليقين في هذه الأمور؛ لقول الله -تعالى-: (ما أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَما كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً). (٤٣) .

إلا أنّهم استطاعوا التخمين أنّ المادة الأولية التي تكوّن منها الكون واحدة، ومن الأدلة على هذا قول الله -تعالى-: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَجَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ* وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ* وَجَعَلْنَا السَّماءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آياتِها مُعْرِضُونَ}. (٤٤).

وقد دلَّلَ القرآن الكريم على أنّ المكوّن المادي للكون هو الدخان، كما ورد في الآية الآتية، قال -تعالى-: {ثُمَّ اسْتَوى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخانٌ فَقالَ لَها وَلِلْأَرْضِ ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ}، (٤٥).

وعلى الرغم من التطور الكبير الذي وصلنا إليه، إلا أنّ العلماء ما زالوا في حيرةٍ من أصل المادة المكوّنة للكون، ولكنّهم عندما توصّلوا إلى علوم الذَّرّة، وانقساماتها، وما ينبعثُ منها من غازات، توقّعوا أن تكون هذه الغازات هي الدّخان المكوّن المادي للكون وهي ذاتها التي تُشكّل النجوم ومجموعاتها.

الدورات التكوينية للأرض والسماء معًا :

لقد خلق الله -سبحانه وتعالى- السماوات والأرض في ستة أيام، وهذا واضحٌ وصريح في الكثير من الآيات، قال الله -تعالى-:
{إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)،[٨] وقال -تعالى-: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ}،(٤٦) . وغيرها العديد من الآيات التي تُبيّن ذلك

ولكن قد يقع المرء في مشكلة ويتساءل كيف تُخلق السماوات والأرض في ستة أيام؟ وقد ثبت علميّاً أنّ خلقها استغرق بلايين السنين؟ فالرّد على هذا يكون: أنّه لا تعارض بين الآيات التي تُصرّح بخلق السماوات والأرض في ستة أيام وبين الحقائق العلمية، حيث إنّ مدّة اليوم عند الله -تعالى- تختلف عن مدّة اليوم الذي في حياة البشر، ويدلّ على ذلك، قوله -تعالى-:

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ} ،(٤٧) و(ألف سنة) الواردة في الآية إنّما هي على سبيل التشبيه، فاليوم عند الله -تعالى- يختلف عن مقاييس البشر ولا يُعلَمُ كم يعادل من أيامنا إلا هو.

وقد يتساءلُ البعض أيضاً عن مدّة خلق السماوات في الأرض، فهناك من يعتقد بأنّها ثمانية أيام؛ وذلك لما ورد في قول الله -تعالى-: { قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ}، (٤٨)

على فرض أن خلق الأرض كان في يومين، وخلق الجبال و تقدير الأقوات في أربعة أيام، وخلق السماوات كان في يومين، فيصبح المجموع ثمانية، وهذا ليس صحيحاً، فقد خلق الله الأرض وجعل فيها الرواسي وقدّر فيها الأقوات جميعها في أربعة أيام، وخلق السماء في يومين فبذلك يكون المجموع ستة أيام.

تهيئة الأرض للحياة :

لقد خلق الله -تعالى- الأرض ومهّدها وهيّأها؛ لتكون موطناً للعديد من الكائنات، و وَفَرَ فيها سُبلَ العيش، فقد جعل فيها الجبال لتثبّتها، ثمّ جعل فيها أصناف الدّواب والأنعام، ثمّ أنزل عليها المطر من السماء، فانشقّت الأرض وأنبتت صنوف النباتات والثمار من الزيتون، والنخيل، والأعناب، كلُّ ذلك مسخّرا لمخلوقات الأرض، ومن الآيات القرآنية الدّالة على هذا ما يأتي:

قال -تعالى-: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ }. (٤٩)

قال -تعالى-: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ}.[١٥] قال – تعالى-: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا* ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا، وَعِنَبًا وَقَضْبًا* وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْبًا* وَفَاكِهَةً وَأَبًّا* مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}. (٥٠) .

إرساء الجبال وتقدير الأقوات :

تعدُّ الجبال من المظاهر الكونية التي تدلّ على عِظَمِ قدرة الله -تعالى- ووحدانيّته، فقد حثّ الله -تعالى- النّاس على النظر إليها والتفكّر فيها، قال الله – تـــعالى : {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْـــجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ}.(٥١) فالمتفكّر في حال الجبال والآيات الواردة فيها، هذه الحجارة الشامخة الصّلبة، يرى أنّها رغم شدّة صلابتها إلا أنّها تخشع وتلينُ لذكـــر الله . تعالى- وكلامه، وتسجد وتهبط من خشيته، وتُدَكُّ وتخرُّ لتجلّي ربّها لـــها، وقد أشفقت من حملِ الأمانة التي عرضها الله -عزّ وجل- عليها،(٥٢) وقد جعل الله . تعالى- الجبال كالوتد للخيمة في تثبيتها، فقد أرسى الله الجبال وثبّت بها الأرض؛ كي لا تميد بمن عليها من المخلوقات.(٥٣) .

ملخص المقال:

بيّن المقال مدّة خلق الأرض وهي أربعة أيام، تشمل خلق الأرض، وإرســـــاء الجبال، وتقدير الأقوات، وأنّ مدة اليوم عند الله -عزّ وجل- لا تُعادل مدّة اليـــوم عند البشر، وأنّ الأصل المادي للكون واحد، وهو الدخان، ولم يستطع العـلماء حتى الآن تحديد هذه المادة بدقّة، كما وذكر المقال كيفية تهيئة الأرض للحـــياة، من إرساء الجبال، وبثّ الدّواب، والأنعام؛ ليستفيد منها الإنسان، وإنزال الأمطار حتى يخرج النبات من الأرض لتقتات عليه المخلوقات، فتصبح مهيّأة للـــحياة.

المراجع: للباب الخامس : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة السجدة ، آية : ٤)
(٢) (سورة ق ، آية : ٦ـ٨)
(٣) (سورة الرعد ، آية : ٤)
(٤) (سورة المرسلات ، آية : ٢٥ـ٢٦)
(٥) (سورة الروم ، آية : ٢٤)
(٦) (سورة الحج ، آية : ٦)
(٧) (سورة الانبياء ، آية : ٣٠)
(٨) (سورة النبأ ، آية : ٦ـ٧)
(٩) (سورة المؤمنون ، آية : ١٨)
(١٠) (سورة لقمان ، آية : ١١)
(١١) (سورة النحل ، آية : ١٠ـ١١)
(١٢) (سورة الشعراء ، آية : ١٧٤)
(١٣) (سورة فاطر ، آية : ٤١)
(١٤) (سورة الحج ، آية : ٥ـ٧)
(١٥) (سورة المعارج ، آية : ٤٣ـ٤٤)
(١٦) (سورة الزلزلة ، آية : ٤ـ٨)
(١٧) (سورة الاحزاب ، آية : ٧٢)
(١٨) (سورة الذاريات ، آية : ٢٠)
(١٩) (سورة نوح ، آية : ١٩ـ٢٠)
(٢٠) (سورة الملك ، آية : ١٥)
(٢١) (سورة السجدة ، آية : ٢٦)
(٢٢) (سورة العنكبوت ، آية : ٣٨)
(٢٣) (سورة الشعراء ، آية : ٦٧ـ٦٨)
(٢٤) (سورة العنكبوت ، آية : ٤٠)
(٢٥) (سورة فصلت ، آية : ٥٣)
(٢٦) (سورة الشورى ، آية : ٢٩)
(٢٧) (سورة آل عمران ، آية : ٢٩)
(٢٨) (سورة يس ، آية : ٨٢)
(٢٩) (سورة الحج ، آية : ٦٥)
(٣٠) (سورة الجاثية ، آية : ٦)
(٣١) (سورة العنكبوت ، آية : ٢٠)
(٣٢) (سورة يوسف ، آية : ١٠٥)
(٣٣) (سورة الرحمن ، آية : ١٠)
(٣٤) (سورة الملك ، آية : ١٦)

(٣٥) (سورة يونس ، آية : ٣)
(٣٦) (سورة البقرة ، آية : ٢١-٢٢)
(٣٧) (سورة الملك ، آية : ١٥)
(٣٨) (سورة الملك ، آية : ١٦)
(٣٩) (سورة الملك ، آية : ١٧)
(٤٠) (سورة غافر ، آية : ٦٢)
(٤١) (سورة فصلت ، آية : ٩-١٠) عبد الرحمن المعلمي اليماني (١٤٣٤)، كتاب تفسير آيات خلق الأرض والسماوات ضمن آثار المعلمي (الطبعة ١)، صفحة ٢٨٨. بتصرّف.
(٤٢) أحمد بن مصطفى المراغي (١٩٤٦)، تفسير المراغي (الطبعة ١)، مصر:شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده ، صفحة ١١٠، جزء ٢٤. بتصرّف.
(٤٣) (سورة الكهف، آية:٥١) ، مصطفى مسلم (٢٠٠٥)، كتاب مباحث في إعجاز القرآن (الطبعة ٣)، دمشق:دار القلم، صفحة ١٦٥. بتصرّف.
(٤٤) (سورة الأنبياء، آية:٣٠-٣٢) ،) ب ت مصطفى مسلم (٢٠٠٥)، كتاب مباحث في إعجاز القرآن (الطبعة ٣)، دمشق:دار القلم، صفحة ١٦٦. بتصرّف.
(٤٥) (سورة فصلت ، آية : ١١)
(٤٦) (سورة الأعراف ، آية:٥٤)
(٤٧) (سورة الحج، آية:٤٧)
(٤٨) (سورة فصلت ، آية : ٩)
(٤٩) (سورة لقمان، آية:١٠)
(٥٠) (سورة النحل، آية:٥)
(٥١) (سورة عبس، آية:٢٤-٣٢)
(٥٢) (عبد المجيد بن محمد الوعلان (١٤٣٣)، كتاب الآيات الكونية دراسة عقدية، الرياض:جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، صفحة ٤٠٤. بتصرّف.)
(٥٣) (أسعد حومد، أيسر التفاسير، صفحة ٥٥٥٦. بتصرّف.)

الباب الخامس : الفصل الثالث : خلق الله الجبال : وأيضاً خلق النبات والزرع :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـــــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربـــوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صـــلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : خلق الله الجبال :

قال الله تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧)} (١) .
وقال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)} (٢) .

خلق الله تبارك وتعالى الجبال، وجعل فيها من المنافع ما لا يحصيه إلا من خلقها ونصبها.
وجعل سبحانه الثلج يسقط عليها، فيبقى في قُللها حاضناً لشراب البهائم والناس إلى حين نفاده.
ويذوب الثلج من الجبال تدريجياً، فتجيء منه السيول الغزيرة، وتســـــيل منه الأنهار والأودية، فينبت في المروج والوهاد والربى ضروب النبات والأشجـــار.
والله حكيم عليم، فلولا الجبال لسقط الثلج على وجه الأرض، فانحل جملة،وساح دفعة واحدة، فعدم وقت الحاجة إليه.
ولو انحل جملة لأهلكت تلك السيول ما مرت عليه من نبات وحـــــــيوان، ودار وإنسان.

وقد خلق الله الجبال مختلفة الأشكال والألوان والأحجام، متـــــــــعددة المنافع والصفات:

فمنها جبال بيض، وجبال حمر، وجبال خضر، وجبال صفر، وغرابيـــــب سود وغيرها من الألوان المختلفة.
ومنها جبال كبيرة، وأخرى صغيرة، وجبال طويلة، وأخرى قصـــــيرة، وجبال متصلة، وأخرى منفصلة.

وفيها من المنافع والمصالح والجواهر والمعادن ما لا يحصيه إلا الذي خلـــقها وأبقاها وأرساها، وملأها بالمنافع التي عرف بعضها الخلق، واكثرها لم يعرفوه.
ومن منافعها أن الله جعلها أعلاماً يستدل بها الناس في الطرقات، في البر والبحر والجو.

ومن منافعها أن الله جعلها للأرض أوتاداً تثبتها، ورواسي لها لئلا تضــــطرب.
ومن منافعها ما يكون في حصونها وقللها من المغارات والكهوف والمعاقل التي هي بمنزلة الحصون والقلاع، وهي أيضاً أكنان للناس والحيوان: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا} (٣) .

ومن منافعها أنها ترد الرياح العاصفة، وتكسر حدتها، فلا تدعها تـــــــصدم ما تحتها، وجعلها سبحانه سبباً لرد السيول النازلة من أعلى، فلا تنزل جمـــلة بل تأخذ ذات اليمين، وذات الشمال.
وخلقها الله عزَّ وجلَّ على أكمل هيئة وأنفعها، فلو طالت واستدقت كالحــــــائط، لتعذر الصعود عليها والانتفاع بها، ولسترت عن الناس الشمس والهـــــواء.
ولو بسطت ممتدة على وجه الأرض، لضيقت عليهم المزارع والمســـــاكن، ولملأت السهل، ولما حصل لهم الانتفاع بها، ولما سترت عنهم الرياح، ولـــما حجبت السيول.
ولو جعلت مستديرة كالكرة لم يتمكنوا من صعودها.
فكان شكلها الذي خلقت عليه أولى الأشكال وأليقها وأحسنها وأوقعها على وفق المصلحة.

وخلق الله فيها من النباتات والأدوية والعقاقير ما لا ينبت في السهول والرمال.
ومن منافعها ما ينحت من أحجارها للبيوت والمباني، والأصباغ على اختلاف أصنافها وألوانها.

وأودع الله عزَّ وجلَّ في الجبال من الجواهر والمعادن على اختلاف أصنافها من الذهب والفضة، والنحاس والحديد، والرصاص والألماس، والزمرد والزبرجد، وغير ذلك من المعادن النفيسة، والتي ما يزال الإنسان يجهل أكثرها.
وفيها ما يكون الشيء اليسير منه تزيد منفعته وقيمته على قيمة الذهب بأضعاف كثيرة كاليورانيوم والألماس وغيرها.

وفي الجبال من المنافع ما لا يعلمه ولا يحيط به إلا الله الذي فطرها وأبدعها، وقد عرف الإنسان من معادنها على ما يزيد على مائة نوع، وما جهله الإنسان أكثر.
وهذه المخلوقات والمنافع من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها.
وهذه الجبال تسبح بحمد ربها، وتخشع له، وتسجد له، وتنشق وتهبط من خشيته كما قال سبحانه:
{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)} (٤) .

وقال سبحانه: {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨)} (٥) .

وكل ما في الكون كائنات حية تسبح بحمد ربها، وتخشع له، ومنها هذه الجبال العظيمة التي تهبط من خشية ربها كما قال سبحانه:
{وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٧٤)} (٦) .

وهذه الجبال العظيمة هي التي خافت كالسموات والأرض من ربها وفاطرها من حمل الأمانة، فأبت حملها، وأشفقت من ذلك كما قال سبحانه:
{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢)} (٧) .

وقد فرق الله الجبال في الأرض، وفضل بعضها على بعض:
فمنها جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ـ ﷺ ـ.
ومنها الجبل الذي تجلى له ربه فساخ وتدكدك من عظمة الله.
ومنها جبل أحد، الذي حبب الله رسوله وأصحابه له.
ومنها الجبلان اللذان جعلهما الله سوراً على بيته، وجعل الصفا في ذيل أحدهما، والمروة على ذيل الآخر.
ومنها جبل عرفات، فلله كم ينزل عليه من الرحمات، والعفو عن الذنوب العظام في يوم عرفة.
ومنها جبل حراء، الذي كان رسول الله ـ ﷺ ـ يخلو فيه بربه، حتى أكرمه الله بالرسالة في ذلك الغار.
فسبحان الكريم الذي يخلق ما يشاء ويختار، ويختص برحمته وتكريمه من شاء من الجبال والرجال، والأيام والليالي والبقاع.

وهذه الجبال العظيمة الشاهقة، لتعلم أن لها موعداً تنسف فيه نسفاً، وتصير كالعهن من هوله وعظمته، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له، وهو يوم القيامة: {يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا (٩) وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (١٠)} (٨) .

وقال سبحانه: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨)} (٩) .

وهذه الجبال العظيمة مع شدتها وصلابتها، أخبر عنها خالقها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت وتصدعت من خشية الله كما قال سبحانه:
{لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١)} (١٠) .

فوا عجباً من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال .. تسمع آيات الله ومواعظه تتلى عليها .. ويذكر الرب ﷻ فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب .. وتفر من المواعظ كفرار الحمر من الأسود: {فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١)} (١١) .

فليس بغريب على الله عزَّ وجلَّ، ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها إذا لم تلن على كلامه وذكره، ولم تروعها زواجره، ولم تؤثر بها مواعظه.
إن من لم يلن لله قلبه في هذه الدار، ولم ينب إليه، ولم يبك من خشيته، فليتمتع قليلاً، فإن أمامه الملين الأعظم، وسيرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم كما قال سبحانه: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)} (١٢) .

يا حسرة على العباد .. متى يستفيدون من عقولهم؟ .. ومتى يرون بأبصارهم؟ .. ومتى يؤمنون بقلوبهم؟ .. وماذا ينتظر المكذبين لربهم.
{فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤)} (١٣) .
وإذا عرفنا قوة السموات والأرض .. وقوة الملائكة العظام .. وقوة المياه والرياح .. وقوة البحار والجبال.
فكم تكون قوة الجبار الذي خلق هذه المخلوقات .. ؟.
وكم سعة خزائنه التي وسعت هذه المخلوقات العظام .. ؟.
ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا: {أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥)} (١٤) .

خلق الله النبات والزرع :

الحمد لله العزيز الغفار، يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، يعلم غيب السماوات والأرض، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

أما بعد :

كم لله -عز وجل- من حكمة بالغة وقدرة شاملة في خلقه وفي كونه، وكـــم له آيات باهرات ومعجزات ظاهرات في أدنى مخلوق في أرضه وسمائه، فلقد أقام المولى -جل وعلا- الكون على نظام دقيق محكم، خلق فيه كل شيء بإحكـــام وبديع صناعة، بحيث يستحيل أن تجد شيئا ناقصا أو به خلل أو يحـــتاج إلى تعديل أو تغيير للأفضل.

هذا الإبداع والإتقان الإلهي في الخلق والكون دفع كثيرا من علمـــاء الغرب لإعلان إيمانهم بقدرة الله وربوبيته، وكثير منهم دخل الإسلام وآمـــن بالله ورسوله.

هذه الآيات الباهرات قد تجلت في خلق الله جميعا، ودعانا الله -عز وجل- للسير في الأرض، والنظر في الكون، والتأمل في الخلق؛ للتدبر والاتعاظ، والتصديق والإيمان بقدرة العزيز الحكيم.

وما من مخلوق إلا وتتجلى فيه القدرة الإلهية والمعجزات الربانية، ولـــكن من مخلوقات الله -عز وجل- ما تجلت فيه القدرة الربانية أكثر من غيره، وعـــلى رأس هذه المخلوقات التي جعلها الله -تعالى- آية للعالمين النبات والزرع، ففـيه من الآيات والمعجزات التي يتعين على كل مسلم صادق أن يقف عندها مشدوها متأملا معترفا ومقرا بعظمة وقدرة الواحد الأحد.

أخي القارئ: لقد اهتم الإسلام بالنبات، وعرف قيمته ورفع قدره، فذُكـــر في القرآن بمشتقاته ومنتجاته المختلفة في أكثر من سبعين موضعا من كـــتاب الله، ختمها الله -عز وجل- كلها بالدعوة للاعتبار والتفكر، وإعمال العقل والتذكر.

ولقد حث الإسلام على استصلاح الأرض وزرعها، جاء من حديث أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ } (١٥) .

وبلغ من عناية الإسلام بالنبات والزرع أنه وصف من يقطع الزرع والنبات دون فائدة، وصفه بالفساد في الأرض، قال تعالى: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ} (١٦) .
وتوعد من يقطع النبات دون فائدة بدخول النار؛ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُبْشِيٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: { مَنْ قَطَعَ سِدْرَةً صَوَّبَ اللَّهُ رَأْسَهُ فِي النَّارِ } (١٧) .

وقد ذكر الإمام أبو داود أن ذلك يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم؛ عبثاً وظلماً بغير حق يصوّب الله رأسه في النار، وفي هذا حماية للأشجار البرية من القطع الظالم، وحماية لأشجار الغابات من القطع الجائر.

وقد أَذِنَ الله -عز وجل- للإنسان بالاستفادة من ثمار النبات ومنتجاتها، حيث يقول تعالى: { وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ * وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا * كَذَلِكَ الْخُرُوجُ} (١٨) .

وقال: { وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (١٩) .

والله -عز وجل- قد أعطانا العبرة والعظة من خلق النبات، وذلك في آيات كثيرة من كتابه الحكيم، فحديث القرآن عن النبات حديثٌ واسعٌ وكبيرٌ، زاخرٌ بالدلائل والإشارات لأولي النهى والأبصار، فالقرآن يتحدث عن النبات ورحلته العمرية من العدم إلى الوجود إلى العدم، وعلاقته بالكون وسائر المخلوقات من إنسان وحيوان؛ ليعطينا الكثير من المعاني والدلالات والعظات عن خلق النبات، مع

ربط هذه المعاني بباقي منظومة الكون والخلق بكل مفرداته من إنسان وحيوان وجامد.

ومن هذه المعاني والعظات والدلائل:

أولا: حياة النبات: فليست الحياة قاصرة على شكلها المعهود عند البشر؛ بل حتى النبات والحيوان أمم وقبائل، وأشكال وألوان لا يحصيها إلا الله.
فالنبات منه ما هو معمر، ومنه ما هو حولي، ومنه ما هو فصلي، ومنه الأبيض والأسود، ومنه الأخضر والأزرق، ومنه زهر بلون، وزهر بلونين، وزهر بألوان، ومنه حلو، ومنه مر، ومنه حار، ومنه بارد، ومنه مالح، ومنه حامض، ومنه ثمر بنوى، وثمر بدون نوى، ومنه ثمر ظاهر على الأرض، ومنه ثمر على رأس الشجر، ومنه ثمر في باطن الأرض، ومنه ما يتكاثر بالنواة، ومنه ما يتكاثر بالعروق، ومنه ما يتكاثر بالأغصان، ومنه ما هو في البر، ومنه ما هو في البحر، ومنه ما هو رطب، ومنه ما هو يابس، ومنه ما هو مجموع كالرمان، ومنه ما هو مفرود كالتمر، ومنه الكبير، ومنه الصغير، ومنه الكروي، ومنه المستطيل، ومنه القائم، ومنه النائم، ومنه المعلق.

فسبحان الخلاق العليم الذي خلق هذه المواليد المختلفة من أم واحدة!
{سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ} (٢٠).

وقد خلق الله ـ سبحانه- أصناف الأشجار والنبات، وزينها بالأوراق والأزهار والثمار، وجعل الأوراق زينة للأشجار، وستراً ولباساً للثمار، ووقاية لها من الآفات التي تمنع كمالها، ولهذا إذا جردت الشجرة من الورق، ماتت الشجرة، وفسدت الثمرة ولم ينتفع بها، ويكسو الله -عز وجل- الأشجار كل سنة لباساً جديداً من الأوراق.
فتبارك الله رب العالمين الذي يعلم مساقط تلك الأوراق ومنابتها، فلا تخرج منها ورقة إلا بإذنه، ولا تسقط إلا بعلمه: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (٢١).

فما أشبه النبات بالإنسان في النشأة والخلق! فإنّ تكوّن حمل الشجر، وتقلبه من حال إلى حال كتنقل أحوال الجنين في بطن أمه؛ فبينما ترى الشجرة عـارية، إذ كساها ربها بالزهر والورق أحسن كسوة، ثم أطلع فيها حملها ضعيفاً صغيراً، ثم ساق إليه غذاءه في تلك العروق، فتتغذى به كما يتغذى الطفل من لبن أمـه، ثم رباه ونماه حتى استوى وكمل.

فسبحان العليم القدير الذي أخرج ذلك الجنى اللذيذ اللين الحلو من تلك الحـطبة الصماء، في تلك الأرض الغبراء؛ إن الذي أحياها لمحيي الموتى، إنه علـى كل شيء قدير:

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَـتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٢٢) .

ومن عجائب النبات أنه يشعر ويتألم؛ بل ويخاطب النباتات من حوله! وحـادثة حنين جذع النخلة للنبي -ﷺ- دليل على ذلك الذي انتقده المشككون والملحدون، حيث قالوا: هل يعقل أن النبات يشعر ويحن ويتألم؟ ولكن جاء الجواب مـن باحثين أمريكيين غير مسلمين فأكدوا أن النبات لديه إحساس بالألم، بل ويـفرز مادة مسكنة لألمه، بل ويحذر بقية النباتات من الأخطار بواسطة مادة يفـرزها. وأمام هذه الحقيقة لا نملك إلا أن نقول: سبحان الله! فمن الذي علم النبات إفراز هذه المادة المسكنة أثناء تعرضه للألم؟ ومَن الذي زوّده بهذه الأجهزة الدقيـقة لإفراز المواد الكيميائية لتحذير الآخرين أثناء الإحساس بالخطر؟ إن الذي خلق النبات وزوده بهذه العجائب، قادر على جعل الجذع يحنّ ويئن إلى فراق رسول الله -ﷺ-!.

ثانيا: تسبيح النبات؛ فمن كمال الخلق وتمام المشابه بين الإنسان والنـبات وسائر المخلوقات أن النبات هذا الخلق البديع يذكر الله -عز وجل- ويسـبحه، فمع هذا الجمال والزينة، وهذه الثمار المتنوعة، هناك جمال آخر، فلو شاهدها الناس وهي تسبح بحمد ربها، أغصانها وأوراقها، وأزهارها وثمارها لشاهدوا أمراً آخرا، ولرأوا خلقها بعين أخرى، ولعلموا أنها لشأن عظيم، فهي ساجـدة لربها، مطيعة لخالقهـا الذي: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورً} (٢٣) .

فسبحان العزيز الجبار! الذي يسبح ويسجد ويصلي له جميع ما في السموات وما في الأرض من الكائنات، وسبحان من تؤوب له الجبال بالتسبيح، وتهبط من خشيته الأحجار، وتتفجر بالماء من خشيته الصخور الصماء!.

ثالثا: الإنسان والنبات: ومن تمام نعمة الله أنْ نشر النبات على سطح الأرض ونوّعه وزوّده بالقدرة على العيش في بيئات الأرض المختلفة؛ ليكون متاعاً للناس ولأنعامهم في تلك البيئات، وبهذا لا يعدم إنسان أو حيوان رزقه أينما كان، قال -عز وجل-: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وفَاكِهَةً وأَبّاً * مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ * فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ } (٢٤) .

وبذلك ربط القرآن في ذهن المسلمين بين الطعام والحساب في الآخرة، فيتحرى المسلم الطعام الحلال؛ ثم ربط أيضاً بين الطعام والبعث؛ لأن الطعام يتفكك في المعدة لجزيئات تزوّد الخلايا الحية بالطاقة، وهذه صورة مصغرة لإحياء من في القبور.

فالله -تبارك وتعالى- خلق الأرض، وزينها بما على ظهرها من المياه والنباتات والأشجار، وفرشها بأنواع النبات، وجملها بالزهور، وحملها بالثمار من أجل الإنسان، الذي كرمه الله على سائر المخلوقات، قال الله تعالى: { أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (٢٥) .

ووضع المولى الكريم مائدة نِعَمِهِ عليها، مِن حُلْوٍ وحامض، ورطْبٍ ويابس، وثمر وحبوب، وزرع ونخيل، وعنب وزيتون، وفواكه مختلفة، وأعشاب متنوعة:

{ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ } (٢٦) .

أخي القارئ: إنك إذا تأملت في غذائك في كل أطوارك، وغذاء جميع الكائـــنات من حيوان ونبات في كل أطوارها وجدتَّ أن أصل الغذاء للإنسان والحـيوان هو النبات، ومصنع الغذاء في النبات هو ذلك المصنع الأخضر التي توجد في أوراق النباتات، وتُنتِج غذاء الكائنات كلها دون ضجيج أو مخلفات تفسد البـــيئة، قال تعالى-: { وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْـرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (٢٧) .

فأين تتجهون أيها المعاندون؟ وبأي آيات الله تجحدون؟ أليس الله هو الــقائل: {أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ} (٢٨) .

إن جميع الحيوانات والطيور والحشرات وسائر البشر، كلهم يأكلون من هذه المائدة التي خلقها الله، ووضعها لهم على هذه الأرض، وقد خلق الله -سبحانه- كل دابة ورزقها، فلا تموت حتى تستوفيَه:
{ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (٢٩) .

فما أجهل البشر بخالقهم! وما أشدّ جرأة أكثرهم على معصيته! حيث جهـــــلوا الكثير من آياته، وغفلوا عن العجيب من خلقه:
{ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ} (٣٠) .

رابعا: النبات وشفاء الأسقام: من آيات رحمة الله أن جعل لنا من النــبات رزقاً تقوم به الحياة، وشفاء ورحمة ودواءً لكثير من الأمراض، ويتجه الطب اليوم إلى العلاج بالأعشاب بدلاً من المواد المصنعة.

ولقد ذكر القرآن الكريم العسل الذي تجمع النحل مادته من ثمار النباتات ورحيق أزهارها، فقال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٣١).

لقد بينت الآية أن في العسل شفاء للناس، كما بينت أن النباتات هي مصدر ذلك العسل، ولقد أثبتت الأبحاث الطبية الحديثة القدرة الشفائية الواسعة للعسل، وأشارت أحاديث الرسول -ﷺ- إلى بعض النباتات ذات الفائدة الطبية.

خامسا: النبات والبعث والنشور: مثَل هذه الحياة الدنيا كَمَثَل المطر، ينزل على الأرض، فيختلط نباتها به، فتنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيما تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.
كذلك هذه الدنيا! بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذة أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه، إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابَه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله.
هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات، بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلة والسكرات، بالتوبة والأعمال الصالحات.
فسبحان من غير بالماء الأرض المغبرة، حتى صارت مخضرة، وزينها بالنبات والأزهار، كما زين الإنسان بالثياب والأخلاق، وأنجب منها وأظهر ملايين المواليد من النباتات، ذلك هو الله الحق الذي لا ينبغي العبادة إلا له، فهو خالق كل شيء، كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، يحيي الموتى، ثم يجازيهم، وهو على كل شيء قدير.

وقال تعالى: { سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الماَء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثـــمرات } (٣٢) ، فأراد الحق -سبحانه- وتعالى أن يلفتنا وينبهنا إلى القـــــــــضية اليومية التي نراها دائما في صور شتى، وهي أن الأرض تكون في بعــــض الأحيان جدباً، ثم يهبط عليها بعض المطر، وبمجرد أن ينزل المطر على الجبل، وبعد يومين من نزول المطر نجد الجبل في اليوم الثالث وهو مخضر، فمن الذي بذر البذرة للنبات ذلك اليوم؟ إذن؛ فالنبات كان ينتظر هذه المياه، وبــمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً.

ولقد شبه ـ سبحانه- الحياة الدنيا بماء السماء دون ماء الأرض؛ لأن ماء السماء ـ وهو المطر- لا تأثير لكسب العبد فيه بزيادة أو نقص بخلاف ماء الأرض، فكان تشبيه الحياة به أنسب.

وقوله: (مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ)، فهذا النبات الذي نما وازدهر بــسبب نزول المطر من السماء، بعضه مما يأكله الناس؛ كالبقول والفواكه؛ وبعضه مما تأكله الأنعام كالحشائش والأعشاب المختلفة...
(حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ): تصوير بديع لما صارت عليه الأرض بعد نزول الماء عليها، وبعد أن أنبتت من كل زوج بهيج، حتى إذا اســــتوفت الأرض حسنها وبهاءها وجمالها، وازينت بمختلف أنواع النباتات ذات الـمناظر البديعة، والألوان المتعددة.
قال صاحب الكشاف: (وهو كلام فصيح، جعلت الأرض آخذة زخرفها وزينتها على التمثيل بالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون فاكتستها، وتزينت بغيرها من ألوان الزينة).

أخي القارئ: لقد تجلت القدرة الإلهية في خلق النبات، وظهرت آثارها وأماراتها في حياة النبات، تجلت في مشاهدَ عديدةٍ في هذه الزروع التي تنبت، والأشــجار التي تثمر، آية من آيات الله الباهرة، الذي خلقها ونمّاها، وأخرج منها الثـــمار والحبوب؛ فلكل نبتة، ولكل شجرة، ولكل ورقة، ولكل ثمرة، أمر من الله بالخلق، وأمر بالبقاء، وأمر بالنفع والضر.

ويقتصر دور البشر في أنهم يحرثون، ويُلقُون الحَبَّ الذي خلقه الله في الأرض التي خلقها الله، ويسقونه بالماء الذي خلقه الله، ثم ينتهي دورهم:
{ أَفَرَأَيْتُم مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ} (٣٣) .

إن الحبة أو البذرة تأخذ طريقها إلى الحياة بأمر الله -عز وجل-، وتسير فيه سيرة العاقل العارف الخبير بمراحل الطريق، الذي لا يخطئ مرة كما يخطئ الإنسان في عمله، ولا ينحرف عن طريقه، ولا يضل الهدف المرسوم، فسبحان من خلقها! وسبحان من دبرها! وسبحان من كبّرها! وسبحان من صوّرها!.

ومن مشاهد القدرة الربانية في النبات ما يلي:

أولا: الخلق من العدم: إن يد القدرة الإلهية هي التي تتولى خطا النبات على طول الطريق في هذه الرحلة العجيبة التي ما كان العقل ليصدقها لولا أنه أبصرها ورآها؛ فأي عقل يصدق، وأي خيال يتصور أن حبة القمح مثلاً يكمن فيها هذا العود، وهذا الورق، وهذه السنبلة، وهذا الحب الكثير؟ أو أن هذه النواة تكمن فيها نخلة كاملة سامقة بكل ما تحتويه من جذور وأوراق وثمار وأولاد؟ العقل لا يصدق هذا لولا أنه يراه..

إن كل حبة، وكل نبتة، وكل بذرة تنبت وتنمو وترتفع بأمر خالقها، ولو شاء – سبحانه- لم تبدأ رحلتها، ولو شاء لم تُتم قصتها، ولو شاء لجعلها حطاماً قبل أن تؤتي ثمارها، وهي بمشيئة الله تقطع رحلتها من البدء إلى الختام، وتقدم نفسها طعاماً للإنسان، وهو يعصي ربه، ويخالف أمره، بل قد يستعملها في معصيته.

لكن الله غفور حليم يمنحهم الثمر، ويسمح للنبتة أن تتم دورتها، وتكمل رحلتها: { إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ }(٣٤) .

ثانيا: تنوع النباتِ والماءُ واحد: إن الله -عز وجل- أنزل من السماء ماء، فمازج الأرض، فأوجد الله بينهما بسبب هذه الممازجة والمخالطة أنواعاً مخـــتلفة من الثمار والفواكه والحبوب، والزروع والأشجار، وسائر الأغذيـــــــة والأقوات المختلفة الألوان والأشكال، والأحجام والطعوم، كما قال – ســـبحانه-: { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (٣٥) .

وفي آية أخرى يقول: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (٣٦) .

ولذلك؛ من يتأمل في هذا التنوع الكبير في خلق الله للنباتات، وفي كلٍّ منها طعم مختلف وفوائد صحية متنوعة، يرى أنها تتكامل لتشكل الغذاء الضـــــــروري والمفيد واللذيذ والمتنوع لجسم الإنسان.

ثالثا: غذاء النبات وتكاثره: خلق الله -تبارك وتعالى- النبات وهو أكـمل وجوداً من الحجر والمدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي لا تُنمى ولا تُـــغذى؛ فإن النبات خلق الله فيه قوة بها يجتذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في الأرض، وهي له آلات، فبها يجتذب الغذاء، وهي العروق الدقيـقة التي تراها في كل ورقة، ثم تغلظ أصولها، ثم تتشعب، ولا تزال تستدق وتتشعب إلى عروق شعرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تغيب عن البصر.

إلا أن النبات -مع هذا الكمال- ناقص؛ فإنه إذا أعوزه غذاء يساق إليـــه ويماس أصله جف ويبس، ولم يمكنه طلب الغذاء من موضع آخر، فإن الطلب إنما يكون بمعرفة المطلوب وبالانتقال إليه، والنبات عاجز عن ذلك. هذا عن غذائه.

أما عن تكاثره وانتشاره، فلما قضى الله أن يكون النبات ثابتاً في مكانه، تكفَّل – سبحانه- بإيصال حبوب اللقاح من الزهرة المذكرة إلى الزهرة المؤنثة أو من عضو التذكير إلى عضو التأنيث في نفس الزهرة ثنائية الجنس لإنجاز عملية

الإخصاب، وخلق لها -سبحانه- من الوسائل ما ييسر لها تزاوجها، وجند لها مخلوقاته من إنسانٍ وحيوانٍ وريحٍ وماءٍ، والكل يؤدي دوره كما قدر له ربه - سبحانه-.

عجائبُ لا تنتهي في النـــباتِ ... تَدُلُّ على الـــــــخالِقِ الْمُقْتَدِرْ

عجائبُ في أصْلِ تَكْوِينِـــــهِ ... عجائبُ فِي نَجْمِــــــهِ والشَّجَرْ

عجائبُ لا تنقضي في الـــجذورِ ... وفي السُّوقِ ثـــــم بفَيْضِ الثَّمَرْ

عجائب تَبْدو بأوراقــــــهِ ... وما جمــــــعت في ثُغور كُثُرْ

نسيجٌ به يَدْهَشُ الناظـــرون ... وتحتار فـــــــيما حواه الفِكَرْ

ومختلفات به لا تُـــــعَدّْ ... فتحلو صنوفٌ وأخـــــرى تَمرّْ

وكُلٌّ لَهُ مَيْزَةٌ في الحـــــياةِ ... يعرِفُ قيمـــــــتها من خَبرْ

أخي القارئ: إن رسول الله -ﷺ- ربط بين المؤمن والنبات ربطا هـــو الأروع والأفصح في تاريخ ضرب الأمثال النبوية، وهو مثل النخلة؛ فعن عـــبد الله بن عمر قال: قال رسول الله -ﷺ-: { مثل المؤمن كمثل شجرةٍ خضراءَ، لا يســقط ورقها ولا يتحاتّ . فقال القوم: هي شجرة كذا، هي شجرة كذا، فأردت أن أقول: هي النخلة، وأنا غلامٌ شاب، فاستحييت، فقال: هي النخلة} (٣٧)

والنخلة إنما حازت هذه الفضيلة العظيمة بأَنْ جُعلت مثلاً لعبد الله المؤمن؛ لأنَّها أفضلُ الشجر وأحسنُه، وأكثرُه عائدةً، قال البغوي -رحمه الله-: "والحـكمة في تمثيل الإيمان بالشجرة هي أنَّ الشجرةَ لا تكون شجرةً إلاَّ بثلاثة أشــياء: عِرق راسخ، وأصلٌ قائم، وفرع عالٍ؛ وكذلك الإيمان لا يتمّ إلا بثلاثة أشـياء: تصديقٌ بالقلب، وقولٌ باللسان، وعمل بالأبدان .

كن كالنَّخِيلِ عن الأحقادِ مُرْتَفِــــــعاً   يُرمَى بحـــــــجر فيُلقِي أطيبَ الثمَرِ

ولابن القيم ـرحمه الله- كلام رائع في حكمة وجه الشبه بين المؤمن والنـــخلة، وذلك في سِفره الحافل: (مفتاح دار السعادة)، جاء فيه: (تأمل هذه النخلــــة التي هي إحدى آيات الله، تجد فيها من الآيات والعجائب ما يبهرك. وهي تشبه المؤمن من وجوه كثيرة).

أحدها: ثبات أصلها في الأرض، واستقراره فيها، وليست بمنزلة الشجرة التي اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار.

الثاني: طيب ثمرتها وحلاوتها وعموم المنفعة بها؛ كذلك المؤمن: طيب الكلام، طيب العمل، فيه المنفعة لنفسه ولغيره.

الثالث: دوام لباسها وزينتها، فلا يسقط عنها صيفا، ولا شتاء؛ كذلك المؤمن، لا يزول عنه لباس التقوى وزينتها حتى يوافي ربه تعالى.

الرابع: سهولة تناول ثمرتها، وتيسُّرهُ؛ أمَّا قصيرُها، فلا يُحْوِجُ المــــتناولَ أن يرقاها، وأما باسِقُها فصعوده سهل بالنسبة إلى صعود الشجر الطوال، وغيرها، فتراها كأنها قد هيئت منها المراقي والدرَج إلى أعلاها. وكذلك الــمؤمن، خيره سهل قريب لمن رام تناوله لا بالغِرّ، ولا باللئيم.

الخامس: أن ثمرتها من أنفع ثمار العالم، فإنه يؤكل رطبه فاكهة وحـــــلاوة، ويابسه يكون قُوْتًا وأُدُمًا وفاكهة، ويتخذ منه الخل والحلوى، ويدخـــــــل في الأدوية، والأشربة، وعموم المنفعة به وبالعنب فوق كل الثمار.

الوجه السادس: أن النخلة أصبر الشجر على الرياح والجهد وغيرها مــــــن الدوح العظام؛ تميلها الريح تارة، وتقلعها تارة، وتقصف أفنانها، ولا صــــبر لكثير منها على العطش كصبر النخلة. فكذلك المؤمن صبور على البـــــلاء لا تزعزعه الرياح.

السابع: أن النخلة كلها منفعة، لا يسقط منها شيء بغير منفعة؛ فثمرها منفعة، وجذعها فيه من المنافع ما لا يجهل للأبنية والسقوف، وغير ذلك؛ وسعفها تسقف به البيوت مكان القصب، ويستر به الفُرج والخلل، وخُوصُها يتخذ منه المكاتل، والزَّنابِيل، وأنواع الآنية، والحُصُر، وغيرها؛ وليفها وكربها فيه من المنافع ما هو معلوم عند الناس.
وقد طابق بعض الناس هذه المنافع، وصفات المسلم وجعل لكل منفعة منها صفة في المسلم تقابلها.
فلما جاء إلى الشوك الذي في النخلة جعل بإزائه من المسلم صفة الحِدّة على أعداء الله، وأهل الفجور، فيكون عليهم في الشدة والغلظة بمنزلة الشوك، وللمؤمنين والمتقين بمنزلة الرُّطَب حَلاوة ولِينا: أشداء على الكفار رحماء بينهم.

الثامن: أنها كلما أطال عمرها ازداد خيرها، وجاد ثمرها، وكذلك المؤمن، إذا طال عمره ازداد خيره، وحسن عمله.

التاسع: أن قلبها من أطيب القلوب، وأحلاه؛ وهذا أمر خُصَّت به دون سائر الشجر، وكذلك قلب المؤمن من أطيب القلوب.

العاشر: أنها لا يتعطل نفعها بالكلية أبدا؛ بل إن تعطلت منها منفعة، ففيها منافع أُخَر، حتى لو تعطلت ثمارها سنة، لكان للناس في سعفها وخوصها وليفها وكربها منافع.

وهكذا المؤمن، لا يخلو عن شيء من خصال الخير قط، إن أجدب منه جانب من الخير أخصب منه جانب، فلا يزال خيره مأمولا، وشره مأمونا.
ورد في الترمذي مرفوعا إلى النبي -ﷺ-:{ خيركم من يرجى خيره، ويؤمن شره، وشركم من لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره}. انتهى كلامه رحمه الله.

المراجع: للباب الخامس : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة النبأ ، آية : ٦-٧)
(٢) (سورة فاطر ، آية : ٢٧-٢٨)
(٣) (سورة النحل ، آية : ٨١)
(٤) (سورة الحج ، آية : ١٨)
(٥) (سورة ص ، آية : ١٧-١٨)
(٦) (سورة البقرة ، آية : ٧٤)
(٧) (سورة الاحزاب ، آية : ٧٢)
(٨) (سورة الطور ، آية : ٩-١٠)
(٩) (سورة طه ، آية : ١٠٥-١٠٨)
(١٠) (سورة الحشر ، آية : ٢١)
(١١) (سورة المدثر ، آية : ٤٩-٥١)
(١٢) (سورة الغاشية ، آية : ٢٥-٢٦)
(١٣) (سورة الانشقاق ، آية : ٢٠-٢٤)
(١٤) (سورة الأعراف ، آية : ١٥٥)
(١٥) (رواه البخاري)
(١٦) (سورة البقرة ، آية : ٢٠٥)
(١٧) (رواه ابو داود)
(١٨) (سورة ق ، آية : ١٠-١١)
(١٩) (سورة يس ، آية : ٣٣-٣٥)
(٢٠) (سورة يس ، آية : ٣٦)
(٢١) (سورة الأنعام ، آية : ٥٩)
(٢٢) (سورة فصلت ، آية : ٣٩)
(٢٣) (سورة الإسراء ، آية : ٤٤)
(٢٤) (سورة عبس ، آية : ٢٤-٣٢)
(٢٥) (سورة الشعراء ، آية : ٧-٨)
(٢٦) (سورة عبس ، آية : ٢٤-٣٢)
(٢٧) (سورة الانعام ، آية : ٩٩)
(٢٨) (سورة الملك ، آية : ٢١)
(٢٩) (سورة هود ، آية : ٦)
(٣٠) (سورة الشعراء ، آية : ٧-٨)
(٣١) (سورة النحل ، آية : ٦٨-٦٩)
(٣٢) (سورة الاعراف ، آية : ٥٧)
(٣٣) (سورة الواقعة ، آية : ٦٣-٦٧)

(٣٤) (سورة البقرة ، آية : ٢٤٣)
(٣٥) (سورة الحج ، آية : ٥)
(٣٦) (سورة الرعد ، آية : ٤)
(٣٧) (رواه البخاري والنسائي وغيرهما)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السادس :

الفصل الأول : خلق الله المياه والبحار
الفصل الثاني : خلق الله النار :
الفصل الثالث : خلق الحيوانات : مع آيات الله في البحر :

الباب السادس : الفصل الأول : خلق الله المياه والبحار :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : خلق المياه والبحار:

قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١)} (١) .

وقال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠)} (٢) .

وقال الله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤)} (٣) .

الله تبارك وتعالى خالق كل شيء، خلق الماء، وأودع بعضه في السحاب، وأرسل عليه الرياح تحمله بأمر الله، وتسوقه إلى ما شاء الله من البلاد والعباد:

{وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠)} (٤) .

إن خلق الماء بذاته آية، يجتمع ويتفرق بأمر الله، إن شئت رأيته قطرات، وإن شئت رأيته بحراً محيطاً بهذه الأرض، وبهذا الماء جعل الله كل شيء حـــــــي.
ثم جمعه في السحاب آية أخرى، ثم سير هذا البحر العظيم في جو السمـاء آية أخرى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَـحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧)} (٥) .

ثم نزول الماء من السحاب إلى الأرض على شكل قطرات آية أخرى.
ثم جمعه وإسكانه في الأرض وحفظه آية أخـــــــرى.
ثم تفجره بعد ذلك من الأرض ينابيع وعيوناً آية أخرى.

ويد الله تمسكه فلا يذهب في الأغوار البعيدة التي لا يظهر منها أبداً:
{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِـــي الْأَلْبَابِ (٢١)} (٦) .

وحياة النبات التي تعقب نزول الماء وتنشأ عنه آية عجيبة من آيات ربـــــــك.
وقبول الأرض لهذا الماء وابتهاجها به، وإظهارها زينتها بسببه آية أخـــــرى.
ورؤية النبتة الصغيرة وهي تكشف حجاب الأرض عنها، وتزيح أثقال الركام من فوقها، وتتطلع إلى الفضاء والنور والحرية آية أخرى.

ورؤية النبتة والشجرة، وهي تصعد رويداً رويداً إلى الفضاء آية أخـــــــرى.
كل ذلك كفيل بأن يملأ القلب المفتوح ذكرى، وأن يثير فيه الإحساس بالله الخالق المبدع: {الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣)} (٧) .
وهذا الزرع المختلف الألوان في البقعة الواحدة .. بل في النبتة الواحدة .. بل في الزهرة الواحدة .. يسقى بماء واحد .. ويخرج من أم واحدة .. إنه معرض لإبداع قدرة الرب تبارك وتعالى.

وهذا الزرع النامي، له أجل وله عمر يبلغ تمامه، ويستوفي أيامه، ثم يهيج فتراه مصفراً، وقد بلغ غايته المقدرة له، فينضج للحصاد، ثم يكون حطاماً، قد استوفى أجله، وأدى دوره، وأنهى دورته مطيعاً نافعاً، كما قدر له واهب الحياة سبحانه، وفي ذلك ذكرى لأولي الألباب والعقول.
وكما ينزل الله الماء من السماء، فيحيي به الأرض بعد موتها، وينبت للعباد به زرعاً مختلفاً ألوانه، كذلك ينزل سبحانه من السماء وحياً وذكراً تتلقاه القلوب الحية فتنفتح وتنشرح، وتغير به بإذن الله وجه الحياة البشرية، بأحسن الأخلاق، والآداب، والعبادات، والمعاملات، والمعاشرات.
وتتلقاه القلوب القاسية فلا تنتفع به، كما تتلقى الصخرة القاسية الماء فلا يؤثر فيها: {أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)} (٨) .

والله عزَّ وجلَّ عليم حكيم، يشرح للإسلام قلوباً يعلم منها الخير، فيصلها بنوره، فتشرق به وتستضيء.
أما القلوب القاسية فهي مظلمة جافة معتمة، لا تقبل الهدى وإن رأته وسمعته، كما لا يقبل الحجر الإنبات مع نزول المطر عليه.
فسبحان من أنزل من السماء الماء والهدى، وجعل من القلوب ما يقبل الهدى، ومنها ما لا يقبل، وجعل من الأرض ما يقبل الماء، ومنها ما لا يقبل، والله بكل شيء عليم، وبعباده خبير بصير.
ألا ما أجهل الإنسان بربه، وما أجهله بمخلوقاته، وما أجهله بنعمه؟.
هذه المياه الغزيرة المتوفرة في العالم من خلقها؟.
وهذه المياه التي يحملها السحاب من أنزلها من السماء؟.
وهذه المياة المجموعة في بطن السحاب من فرقها على الجبال والسهول والوهاد والبطاح؟.

ومن سيّرها في الأنهار؟ .. ومن فجّرها من العيون؟.
ومن ساقها شراباً عذباً للبهائم والأنعام، والناس والنبات؟
{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)} (٩) .

والماء الذي ينزل من السماء في كل لحظة في العالم يعرفه كل إنسان، ويراه كل إنسان، ولكن أكثر الناس يمرون عليه ويمر بهم، وهم في غفلة لا يذكـرون من خلقه وأنزله وقسمه، وذلك لطول الإلفة والتكرار: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)} (١٠).

والله سبحانه ينزل الماء بقدر إلى الأرض، لا يزيد فيغرق الأرض ومـــن عليها، ولا يقل فتجف الأرض، وتذبل الحياة ويهلك من عليها: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)} (١١).
فالله أنزل الماء بقدر معلوم، ليحيي به الأرض بعد موتها، ويسقي به العـــــباد والبهائم، وليدل على البعث والنشور.

فالذي أنشأ الحياة أول مرة، كذلك يعيدها سبحانه، والذي أخرج الأحياء أول مرة من الأرض الميتة، كذلك يخرج الأحياء منها يوم القيامة: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِـــنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١)} (١٢).

فسبحان من خلق هذه المياه العظيمة، وصرفها في البلاد والعباد، وجعل منها ما يجري في جو السماء، ومنها ما يجري على ظهر الأرض كالأنهار، وما يستكن في باطن الأرض، وما يستقر في البحار، وما ينبع من الأرض.
وسبحان من خلق الماء نوعاً واحداً، وجعل منه الحار والبارد .. والحلو والمر .. والعذب والمالح .. والساكن والجاري .. والسائل والجامد.
ومنه ما يعيش فيه هذا النبات، وهذا الحيوان، ومنه ما لا يعيش فيه إلا هـــذا النبات وهذا الحيوان، كما في البحار والأنهار.
وسبحان من جعل من هذا الماء بحرين، وجعل فيهما من المنافع والأرزاق والنعم ما لا يحصيه إلا الله، وجعل لكل بحر طبيعة وأحياء لا تعيش إلا فيه، وخلائق ومنافع تحصل منهما معاً:
{وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُـــلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)} (١٣).

ومن آيات الله عزَّ وجلَّ، وعجائب مخلوقاته، هذه البحار العظيمة المكتنفة لأقطار الأرض والمحيطة بها، حتى إن المكشوف من الأرض بالنسبة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مغمور بالماء، فالأرض في البحر كبيت في جملة الأرض.

ولولا إمساك الرب تعالى للماء بقدرته، لطفح على الأرض وعلاها كلها، وهذا طبع الماء، ولكن الذي خلقه وطبعه حبسه وقهره.
وخلق الله عزَّ وجلَّ في البحار أجناساً مختلفة من الحيوانات، لها أشكال ومقادير وألوان، ولها منافع ومضار، حتى إن فيها حيواناً كالجبل لا يقوم له شيء، وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر مثله غالباً، وفيه أجناس كثيرة لا يعهد لها نظير في البر أصلاً.

وقد خلق الله هذه البحار العظيمة، وجعلها داراً وسكناً ومسرحاً لما لا يحصيه إلا الله من الأسماك المختلفة الأشكال والأحجام:
فمنها الكبير والصغير .. والطويل والقصير .. والمسالم والمفترس .. وما يبيض وما يلد .. وما يعيش في أعلاه .. وما يعيش في أسفله .. وما يعيش في البحار .. وما يعيش في الأنهار.
والأسماك أمم وقبائل لا يعلمها إلا الله، ولا يحصيها إلا الذي خلقها، وتكفل بأرزاقها، وقام بأمرها، وأذن ببقائها.
فسبحانه من إله ما أرحمه، ومن رب ما أعظمه، ومن غني ما أكرمه:
{ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٦)} (١٤) .
وخلق الله الحكيم العليم السمك بدون قوائم، لأنه لا يحتاج إلى المشي، إذ كان مسكنه الماء الذي يسبح فيه.
وخلق له سبحانه عوضاً عن القوائم أجنحة شداداً، يقذف بها من جانبيه، وكسى جلده قشوراً متداخلة ليقيه من الآفات، وأعين بقوة الشم، لأن بصره ضعيف والماء يحجبه، فصار يشم الطعام من بعد فيقصده ويأكله.
وجعل سبحانه من فيه إلى صماخه منافذ، فهو يصب الماء فيها بفيه، ويرسله من صماخيه فيتروح بذلك، كما يأخذ الحيوان البري النسيم البارد بأنفه، ثم يرسله ليتروح به.

فالماء للحيوان البحري كالهواء للحيوان البري، فهما بحران، أحدهما ألطف من الآخر، وفي كل بحر أمم تعيش فيه.
بحر الهواء يسبح فيه حيوان البـر.
وبحر الماء يسبح فيه حيوان البحر.
ولو فارق أحد الصنفين بحره إلى البحر الآخر لمات، فكما يختنق الحيوان البري في الماء، يختنق كذلك الحيوان البحري في الهواء.
فسبحان من خلق هذا وهذا، وجعل لهذا عالم من الحيوان والنبات يناسبه، ولهذا عالم آخر يناسبه: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣)} (١٥) .

والسمك أكثر الحيوانات نسلاً، ولهذا يوجد في السمكة الواحدة من البيض أعداد هائلة، وحكمة ذلك أن يتسع لما يتغذى به من أصناف الحيوان، فإن أكثرها يأكل السمك.
فالناس تأكل السمك .. والطير تأكله .. والحيوانات والسباع تأكلـــــه .. ودواب الأرض تأكله .. والسمك الكبار تأكله .. فكثَّره جل وعلا ليكون غذاء وطـــعاماً لهذه الأصناف التي لا يحصيها إلا الله.

والبحر قسمان:
علوي .. وسفلي.

فأما البحر السفلي فهو في الأرض، وهو نوعان: عذب، ومالح.
وأعظمها وأكبرها وأوسعها، هذا البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، وهـو البحر المالح، ويغمر نحو ثلاثة أرباع الأرض، ويتصل بعضه ببعض، ويشغل اليابس الربع، وهذا اليابس كجزيرة صغيرة في بحر عظيم.

وأما البحرالعذب فيشمل الوديان والأنهار.
وقد خلق الله البحرين، وجعلهما يلتقيان، ولكنهما لا يبغيان، ولا يتجاوز كـــل منهما حده المقدر، ووظيفته المقسومة، وبينهما برزخ من صنع الله وآياتـــه العجيبة: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١)} (١٦) .

وتقسيم الماء على هذا النحو في الأرض، لم يجيء مصادفة ولا جزافاً، بل هـو مقدر تقديراً عجيباً من العزيز العليم.
وهذا القدر الواسع من الماء المالح، هو اللازم بدقة لتطهير جو الأرض، وحفظه دائماً صالحاً للحياة والعافية.
ومن هذا البحر الواسع تنبعث الأبخرة بأمر الله، تحت تأثير حرارة الشمس، وتأتي الرياح فتثيرها سحاباً يجري في السماء، وهي التي تعود بأمر الله فتسقط أمطاراً، يتكون منها الماء العذب، فيروي الأرض، وتجري منه الأنهار:
{اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨)} (١٧) .

وعلى هذا الماء العذب الذي ينزله الله من السماء، ويفرقه في البلاد، تقوم حياة النبات والحيوان والإنسان.
وتصب جميع الأنهار في البحار، وهي التي تنقل إليها أملاح الأرض، ومستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على النهر الذي يصب فيه، ولا يغمرمجراه بمائه المالح فيحوله عن وظيفته:
{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣)} (١٨) .

وهذا البحر العظيم لولا أن الله يمسكه لفاض على الأرض وأغرق ما فيها، ولكن الله يحبسه ويمسكه، وسيفجره عند قيام الساعة ويسجره.
وفي البحر نباتات وأشجار لا يحصيها ولا يعلمها إلا الله وحده.
ومن آيات الله في البحرين أنه: {يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢)} (١٩) .

واللؤلؤ أصله حيوان، ففي البحر عجائب، ولعل اللؤلؤ من أعجب ما في البحار، فهو يهبط إلى الأعماق، وهو داخل صدفة، وله شبكة تسمح بدخول الماء والهواء والغذاء إلى جوفه، وتمنع دخول الرمل والحصى، وتحت الشبكة أفواه الحيوان، فإذا دخلت ذرة رمل أو حصاة إلى الصدفة سارع الحيوان إلى إفراز مادة لزجة يغطيها بها، ثم تتجمد مكونة لؤلؤة، وعلى حسب حجم الجسم الذي دخل يختلف حجم اللؤلؤة.

والمرجان من عجائب مخلوقات الله التي تعيش في البحار، يثبت نفسه على صخرة أو عشب، وفتحة فمه محاطة بزوائد إذا لمست الفريسة أصيبت بالشلل في الحال، فتأكلها بعد دخولها الفم.
ومن اللؤلؤ والمرجان يتخذ الناس حلياً غالية الثمن، جميلة المنظر.
هذا مع ما فيه من العنبر، وأصناف النفائس التي يقذفها البحر، أو يستخرجها الناس بوسائل الصيد.

ثم انظر إلى عجائب السفن وسيرها في البحر، تشقه وتمخره بواسطة الرياح التي سخرها الله، فإذا حبس الله القائد والسائق ظلت راكدة على ظهره:
{وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٣٢) إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣)} (٢٠) .

وهذه البحار العظيمة، والمحيطات الواسعة من أنشأها؟.
ومن أودع هذه البحار خصائصها من كثافة وعمق وسعة، حتى تحتضن ما لا يحصيه إلا الله من الأسماك والمخلوقات والنباتات؟.
ومن سخرها لتحمل السفن الضخام، والسفن الجواري، وحفظها من أمواج البحار والعواصف والقواصف؟.
وهذه السفن التي كالجبال من أنشأ مادتها، وأودعها خصائصها، وجعلها تطفو على وجه الماء بما فيها من الأجسام الثقيلة؟.
وهذه الريح التي تدفع ذلك النوع من السفن، وغير الريح من القوى التي دل الله الإنسان عليها وسخرها له من بخار أو ذرة أو وقود، تدفع تلك السفن الضخام، من جعلها قوة في هذا الكون تحرك الجواري في البحر كالأعلام؟.

إن الله تبارك وتعالى هو الذي يسير المخلوقات في البر والبحر، لو شاء أسكن الريح، أو عطل محركات السفن، فظلت هذه الجواري راكدة على ظهر البحر.
وإنها لتركد أحياناً، فتهمد هذه الجواري وتركد كما لو كانت قد فارقتها الحياة، إن في إجرائهن وركودهن على السواء لآيات لكل صبار شكور:
{إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)} (٢١) .

فسبحان من خلق المياه، وسقى بها البلاد والعباد.
وسبحان من أسكنها في باطن الأرض، وأجراها في الأنهار، وجمعها في البحار، وحملها في السحاب، وفرقها على النبات والحيوان والإنسان.
وسبحان الكريم الذي ملأ البحر بضروب من الحيوانات والنباتات، واللؤلؤ والمرجان، والجواهر والنفائس.
وما أوسع ملكه .. وما أكثر خلقه وجنوده التي لا يعلمها إلا هو:
{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١١)} (٢٢) .

وهذا الماء العذب الذي نشربه كل يوم ما دور الإنسان فيه؟.
دوره أنه يشربه وينتفع به، أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه فهو الله سبحانه.
وهو سبحانه الذي قدر أن يكون الماء عذباً فكان.

فمتى يشكر الإنسان فضل الله عليه في خلق رزقه وسوقه إليه حيثما كان:
{أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)} (٢٣) .

فسبحان من جمع المياه العظيمة في السحاب، وأمسكها بقدرته، وسيرها في هذا الكون العظيم، ثم أنزلها على شكل قطرات لا يحصيها إلا الله، وفرقها على الجبال والسهول والوديان والبحار، ثم جمعها في العيون والأنهار والبحار.
وسبحانه من حكيم عليم يجمعها إذا شاء لمن شاء، ويفرقها حيناً إذا شاء لمن شاء: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦)} (٢٤) .

وأما البحر العلوي فهو البحر الذي فوق السماء السابعة، الذي عليه عرش الرحمن، وهو بحر عظيم لا يعلم عظمته وسعته إلا علام الغيوب: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} (٢٥) .

وقال النبي - ﷺ -: { كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلائقِ قَبْلَ أنْ يَخْلُقَ السموات وَالأرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ} أخرجه مسلم . (٢٦) .

فسبحان من خلق هذه الروايا العظيمة، وحملها على ظهر الريح، وسيرها بأمره حيث شاء، فهي مأمورة مدبرة بأمر ربها.

قال رسول الله - ﷺ -: { بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلاةٍ مِنَ الأرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتاً فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ} (٢٧) .

اللهم إنا نستغفرك من جهلنا .. وظلمنا .. وتقصيرنا .. فاغفر لنا .. إنك أنت الغفور الرحيم.

أخي القارئ : أعلم :
إنّ من آياتِ اللهِ الدالّةِ على عظمتِه هذه الملوحةَ التي نجِدُها في البحارِ، حيث يقول العلماءُ: إنّ في كلِ لترٍ واحدٍ من .ماءِ البحرِ سبعةً وعشرين غراماً من الملح، وإنَّ العالمَ بأسره يستهلكُ في السنةِ ما يزيدُ على خمسين مليونَ طنٍّ ملح البحرِ في مياهِ البحرِ تعادلُ ثلاثةً ونصفاً بالمئة من المجموع مياهِ البحرِ، بل إنَّ في الكيلومترِ المكعَّب، (وهو مكعبٌ ضلعُه كيلومتر) من مياهِ البحرِ أربعةً وثلاثين مليون طنٍّ من الملحِ.

لو استخرجَ ملحُ البحارِ وجُفِّفَ، ووضعَ على اليابسة- على قارّاتها الخمسِ- ولم نغادرْ مكاناً إلا فرشْنَا عليه هذا الملحَ الذي استخرجِناهُ من مياهِ البحارِ، لبلغَ ارتفاعُ الملحِ المجفَّفِ على سطحِ اليابسةِ كلِّها مئةً وثلاثةً وخمسين متراً.

السؤالُ الذي يلفتُ النظرَ: من أينَ جاءتْ هذه الكميةُ الكبرى من ملحِ البحارِ، الذي هو كلور الصوديوم؟
يقول بعضهم: إنّ في البحارِ من الملح ما يساوي أربعة ملايين ونصفَ ميلٍ مكعبٍ، هذه كلُّها أقامٌ دقيقةٌ مستخلصة من كتبٍ علميةٍ.

فمِن أين جاء هذا الملح؟ كيف وُضع في البحر؟ هناك نظرياتٌ كثيرةٌ، بعضها يقول: إنّ في قيعان البحار صخوراً ملحيّةً تفتّتتْ، وذابتْ في هذا الماء، وبعضهم يقول: إنَّ السببَ مياهُ الأنهارِ،

كلُّ هذه النظرياتِ التي تحاولُ أنْ تفسّرَ ملوحةَ مياهِ البحرِ تجدُ الطريقَ مسدوداً لسببٍ بسيطٍ، هو أنَّ في الأرض عدداً كبيراً من البحيرات العذبةِ، فإذا كانتْ مياهُ الأنهارِ وحدها كافيةً لتمليح مياهِ البحارِ، فلماذا بقيتْ هذه البحيراتُ الضخمةُ عذبةً حلوةَ المذاقِ- وهي أشبهُ ما تكون ببحارٍ صغيرةٍ- مئاتِ الملايينِ من السنين،
وما تفسيرُ ذلك؟ لا يزالُ سببُ تكون الملوحةِ في مياه البحر لُغْزاً كبيراً، ولا يفسَّرُ إلا بالآياتِ التاليةِ، يقول الله تعالى:
{وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} (٢٨) .
فلن يصبحَ مالحاً؛ ولو صُبَّتْ عليه الأنهارُ، ولو تفتّتتْ فيه الصخورُ، ولو كانت على مَسِيرِ الأنهارِ جبالٌ من الملحِ، تبقى البحيرةُ العذبةُ عذبةً.

قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ } (٢٩) .
فهذا الملحُ الأجاجُ من خلق الله، ومن إرادة الله عزَّ وجل، { وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا} (٣٠) .
فلا يبغي هذا على هذا، ولو أن نهراً عذباً صُبَّ في بحرٍ لَسَارَ عشراتٍ، بل مئاتِ الكيلومترات، وبقي عذباً، لأنّ بينَ البحرينِ برزخاً ما زالتْ طبيعتُه مجهولةً حتى الآن.
أمّا: {وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا} (٣١) .
فإنّ الحجرَ يمنعُ انتقالَ أسماكِ المياهِ العذبةِ المالحة، والعكسُ صحيحٌ.
يقول الله عز وجل في سورة الواقعة: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ٥٦/٦٨أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ٥٦/٦٩لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ} (٣٢) .
فلو شاء لجعله أجاجاً كمياهِ البحرِ... أفلا تشكرون هذه النعمةَ؟!!

آيةٌ ثالثة، قال سبحانه: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ} (٣٣) .
ثمَّةَ قصصٌ كثيرةٌ تتحدَّثُ عن موتِ ألوفِ الأشخاصِ في مياه البحر عطشاً، فقد تغرقُ السفنُ، وينجو بعضُ ركَّبِها، ويركبون سفينةَ النجاةِ، لكنَّهم يموتون عطشاً، وهم على ظهر البحر، إذاً: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٣٤) .

آيةٌ أخرى، هذه البحارُ ما كان لها أنْ تكونَ لولا أنّ اللهَ سبحانه وتعالى حينما خلقَ الأرضَ جعلَ لها أحواضاً كبيرةً، يكفي أنَّ بعضَ المحيطاتِ يزيدُ عُمْقُها على عشرةِ كيلومتراتٍ، من خلقَ هذه الأحواض؟
إنّ أحواضَ البحارِ آيةٌ، ومياهَ البحارِ آيةٌ، وملوحتها آيةٌ، وما فيها من أسماكٍ آيةٌ، وما فيها من أصدافٍ وحليٍّ آيةٌ، والله سبحانه وتعالى بثَّ في الأرض آياتٍ كثيرةً، فقال تعالى:
{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ} [الذاريات: ٢٠]. (٣٥) .

لماذا تكون مياه البحر مالحة :

إن مياه الأمطار ليس فقط مياه نقية دائماً تحتوي على كميات قليلة من بعض المواد الكيميائية مثل ثاني أكسيد الكربون وثاني أكسيد الكبريت وهي مواد يمكن أن تمتصها مياه الأمطار وهي لا تزال في الهواء قبل أن تتساقط.

لماذا خلق الله ماء البحر مالح :

إن الله سبحانه وتعالى لا يخلق شيئاً إلا لحكمه منها خلق مياة البحر مالحة فأوضح الشيخ السعدي في تفسيره لقول الله تعالى { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (٣٦) .
أي أن الله سبحانه وتعالى خلق مياة البحر مالحاً حتى لا تفسد في الهواء عن طريق روائح الحيوانات الميتة داخل البحر وهذه الملوحة تمنعه من التغير أو الفساد .

سبب ملوحة البحر :

يوجد البحر الميت في شرق الأراضي الفلسطينية وغرب الأردن ويتميز البحر الميت بانه أكثر المسطحات المائية ملوحة على وجه الأرض والسبب وراء تسميته بهذا الأسم هو فقره لوجود حياة فطرية أو نباتية أو حيوانية به فلا يحتوي على أسماك أو نباتات أو طحالب وذلك بسبب ملوحته الزائدة ولكنه يشتهر بأحتوائه على التلال الصخرية المالحة والوحل الذي يصنف ضمن علاج العديد من الاعراض الخاصة بعالم الصحة والجمال ومن المتعارف أيضاً إن نسبة الملوحة في البحار أو المحيطات تتراوح من ٤% إلى ٦% ولكن البحر الميت دوناً عن غيره تصل نسبة أملاحه الخاصة به إلى نسبة ما بين ٣٥% إلى ٥٥% لذلك هو أعلى نسبة ملوحة في العالم ونسبة الأملاح الموجودة في المسطحات المائية تعمل على ذوبان الأملاح الموجودة في الصخور حيث تقوم الأحماض الموجودة في مياة الأمطار بإذابة الصخور وخروج الأملاح منها على شكل أيونات ثم ترجع لتختلط من جديد مع مياة البحار.

وأكثر الأيونات الموجودة في البحار والمحيطات هي أيونات الصوديوم والكلور وفي حال إذا تم استخراج جميع نسبة الأملاح من البحار والمحيطات فسوف تصبح طبقة من اليابسة على سطح الأرض ويبلغ ارتفاعها إلى ١٥٠ متر ولكن هذه كمية صغيرة من الأملاح الموجودة في البحر الميت لأن الأملاح الموجودة في البحر الميت هي من ٥ إلى ٩ أضعاف النسب الموجودة في البحار الأخرى وكلما تعمقت أكثر في البحر الميت كلما زادت نسبة الأملاح أكثر حيث وجد العلماء أن الأملاح تصبح مركزة أكثر عندما نصل إلى عمق ١٠٠ متر وتتكون الأملاح في القاع على شكل تلال متراكمة.

والموقع الجغرافي للبحر الميت سبب إضافي لجعله أكثر ملوحة حيث يوجد البحر الميت في منطقة وادي الصدع الذي على مساحة ١٠٠٠ كيلو متر بدءً من شبه جزيرة سيناء حتى الشمال في إتجاه تركيا وهذه هي المنطقة الأدنى من حيث الأرتفاع على سطح الأرض كما يوجد العديد من البحار والأنهار التي تغذي هذا البحر ولا يوجد تصريف آخر لهذا البحر إذاً تتبخر الماء وتبقى الأملاح موجودة في القاع وهذا هو السبب وراء وجود كمية مهولة من الأملاح

في القاع ويوجد العديد من الدراسات التي توضح إن مياة البحر الميت تنحصر بمعدل متر واحد لكل عام وذلك بسبب استخدم مياة نهر الأردن في أغـــــراض الزراعة .

لماذا البحر مالح والنهر عذب :

هذا لأن البحر تتبخر مياهه عن طريق أشعة الشمس فتتبخر ويترسب الملح في القاع وتتبخر الماء لتكون السحب ثم تنزل مرة أخرى على هيئة أمطار عــلى الأنهار والفارق الآخر بين البحار والأنهار بأنه يوجد ما يسمى بالبــرزخ الذي يعمل على تصفية الأملاح في البحار والبرزخ هو أعمق منطقة يستطــيع النهر صب المياة فيها حيث يوجد لكل نهر منبع من مكان محدد وينتهي بأن يصـــب المياة في البحر حيث يصب الماء العذب في الماء المالح لعدة كيلو مترات داخل البحر.

ما الفرق بين البحر المالح والعذب :

يوجد عدة فروق بين البحر المالح والنهر العذب وهم:

١ـ البحر المالح غير صالح للشرب
٢ـ النهر العذب يكون صالح للشرب
٣ـ البحر دائماً وأبداً يكون أكبر من النهر
٤ـ النهر يصب مياهه في البحر وليس العكس
٥ـ البحر يعيش به أنواع كثيرة من الكائنات البحرية مثل سمك الـــقرش والأخطبوط والحوت والدلافين وغيرهم من الكائنات المائية ولكن النهر لا يعيش فيه سوى الأسماك.

نسبة ملوحة البحر المتوسط :

نسبة الأملاح في معظم البحار تصل لنسبة ما بين ٣.١% إلى ٣.٨% فهـــي نسبة غير موحدة في جميع البحار الموجودة حول العالم زذلك بسبب أختــلاط مياه البحار مع مياه الأنهار أو بسبب ذوبان الجليد أيضاً وذلك بسبب انخفاض مسبة الأملاح الموجودة في مياة البحار فيعد البحر الأحمر من أكثر الـــبحار المفتوحة ملوحة وذلك بسبب نسبة تبخر المياة وإنخفاض هطول الأمطار ويعد

البحر الميت من أكثر البحار المعزولة في نسبة الملوحة وبناء نسبة الملوحة ودرجة الحرارة تصبح كثافة المياة السطحية للبحار تصل ما بين ١.٠٢٠ إلى ١.٠٢٩ كيلو جرام لكل متر مكعب وتصل كثافة مياة البحار إلى ١٠٥٠ كيلو جرام لكل متر مكعب أو أعلى وذلك لأرتفاع الضغط في أعماق المحيطات كما تصل نسبة الحموضة إلى ٧.٥ إلى ٨.٤ وسرعة الصوت تصل إلى ١٥٠٠ متر في الثانية.

نسبة ملوحة البحر الأحمر :

يعتبر البحر الأحمر من إحدى المياة المالحة في العالم وذلك لأن نسبة تبخره عالية جداً وتصل نسبة ملوحته إلى نسبة ما بين ٣٦% للجزء الجنوبي وذلك لتأثر هذا الجزء بمياة خليج عدن بينما تصل إلى نسبة ٤١% في الجزء الشمالي وذلك بسبب مياة خليج السويس والتبخر المرتفع كما أنها ترتفع نسبة الملوحة أكثر في فصل الشتاء أكثر من فصل الصيف، وتتميز مياة البحر الأحمر بالشفافية العالية حتى عمق ٥٠ متر ويعد البحر الأحمر أكثر من البحر المتوسط بنسبة ٤% ويرجع ذلك إلى عدة أسباب وهى:

١- ارتفاع معدل التبخر وقلة نسبة هطول الأمطار.
٢- عدم وجود أنهار كبيرة أو أماكن تصب فيها البحار.
٣- الاتصال المحدود مع المحيط الهندي والذي يعد أقل من حيث الملوحة.

مقارنة بين المياه العذبة والمياه المالحة :

تعتبر أيونات الصوديوم والكلوريد والمغنسيوم والسولفات والكالسيوم تتفاوت النسب بين هذه الأيونات بسبب أختلاف الفترة الزمنية لتواجد أحد هذه الايونات أكثر من الأخر في الماء مثل أملاح كلوريد الصوديومالذي يتواجد في الماء قبل فترات أطول من وجود الكالسيوم كما أن نسب المواد المذابة في مياه البحر أكثر بكثير من المواد المذابة في المياه العذبة في كل هذه الأيونات.

ماهو البحر الأقل ملوحة في العالم :

١- لا تتساوى درجة الملوحة في البحر المتوسط فهي تختلف من مكان إلى آخر وذلك لأنه غير متجانس فالمياة الموجودة في الجزء الجنوبي والجزء الشرقي أكبر في نسبة الملوحة عن الجزء الشمالي.

٢- يصب نهر واحد في البحر المتوسط وهو نهر النيل لذلك المياه أكثر ملوحة.

٣- تدخل في البحر المتوسط كميات غير ثابتة من الأمطار حيث يكون المناخ بارد وممطر في الجزء الشمالي ومن الممكن سقوط الثلوج أيضاً.

٤- تختلط مع مياه البحار كميات كبيرة من المياه المختلفة مع مياه البحر المتوسط لذلك تنخفض نسبة الملوحة.

٥- الجزء الجنوبي من البحر المتوسط لا تهطل فيه أمطار.

٦- عندما يزداد نسبة التبخر يزداد نسبة الأملاح في المياه الباقية فتصبح هذه المياه أكثر ملوحة.

٧- كلما زادت درجة الحرارة كلما زاد كمية المياه المتبخرة ويتبقى المياه الأكثر ملوحة.

{ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } (٣٧) .

أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] دليلا على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: { أَفَلَا يُؤْمِنُونَ } أي: إيمانا صحيحا، ما فيه شك ولا شرك.

المراجع: للباب السادس : الفصل الأول :

---

(١) (سورة النحل ، آية : ١٠-١١)
(٢) (سورة الأنبياء ، آية : ٣٠)
(٣) (سورة النحل ، آية : ١٤)
(٤) (سورة الفرقان ، آية : ٤٨-٥٠)
(٥) (سورة الأعراف ، آية : ٥٧)
(٦) (سورة الزمر ، آية : ٢١)
(٧) (سورة الأعلى ، آية : ٢-٣)
(٨) (سورة الزمر ، آية : ٢٢)
(٩) (سورة الواقعة ، آية : ٦٨-٧٠)
(١٠) (سورة يوسف ، آية : ١٠٥)
(١١) (سورة الحجر ، آية : ٢١)
(١٢) (سورة الزخرف ، آية : ١١)
(١٣) (سورة فاطر ، آية : ١٢)
(١٤) (سورة الزمر ، آية : ٦)
(١٥) (سورة الرعد ، آية : ٣)
(١٦) (سورة الرحمن ، آية : ١٩-٢١)
(١٧) (سورة الروم ، آية : ٤٨)
(١٨) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(١٩) (سورة الرحمن ، آية : ٢٢)
(٢٠) (سورة الشورى ، آية : ٣٢-٣٣)
(٢١) (سورة الشعراء ، آية : ٨-٩)
(٢٢) (سورة لقمان ، آية : ١١)
(٢٣) (سورة الواقعة ، آية : ٦٨-٧٠)
(٢٤) (سورة النازعات ، آية : ٢٦)
(٢٥) (سورة هود ، آية : ٢٥)
(٢٦) (أخرجه مسلم)
(٢٧) (رواه مسلم)
(٢٨) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(٢٩) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(٣٠) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(٣١) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(٣٢) (سورة الواقعة ، آية : ٦٨-٧٠)
(٣٣) (سورة فاطر ، آية : ١٢)

(٣٤) (سورة فاطر ، آية : ١٢)
(٣٥) (سورة الذاريات ، آية : ٢٠)
(٣٦) (سورة فاطر ، آية : ١٢)
(٣٧) (سورة الانبياء ، آية : ٣٠)

الباب السادس : الفصل الثاني : خلق الله النار :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي نوّر بالقرآن القلوب، وأنزله في أوجزِ لفظ وأعجزِ أسلوب، فأعيت بلاغته البلغاء، وأعجزت حكمته الحكماء. أحمده -سبحانه- وهو أهل الحمد والثناء، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله المصطفى، ونبيه المرتضى، معلم الحكمة، وهادي الأمة، صلى الله عليه وعلى آله الأبرار، وصحبه الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد :

قال الله تعالى: {أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)} (١) .

وقال الله تعالى: {الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} (٢) .

الله تبارك وتعالى هو الواحد القهار، خلق المخلوقات وقهر بعضها ببعض، وسلط بعضها على بعض.
خلق سبحانه الجبال، وسلط عليها الحديد، فهو يقطعها ويكسرها.
وخلق النار، وسلطها على الحديد، فهي تذيبه بأمر الله.
وخلق الماء، وسلطه على النار، فهو يطفئها بأمر الله.
وخلق الرياح وسلطها على الماء، فهي تقهر الماء بأمر الله وتفرقه.
وخلق الظلمات وسلط عليها النور فهو يبددها.
والله حكيم عليم، خلق النار على ما هي عليه من الكمون والظهور، فإنها لو كانت ظاهرة أبداً كالماء والهواء كانت تحرق العالم، وتنتشر ويعظم الضرر بها والمفسدة.

ولو كانت كامنة لا تظهر أبداً لفاتت المصالح المترتبة على وجـــــــــودها. فاقتضت حكمة الله عزَّ وجلَّ، أن جعلها مخزونة في الأجسام، يخرجها الإنسان عند حاجته إليها.

وخص الله سبحانه بالنار الإنسان دون غيره، فإنه لو فقدها لتعطلت له مصالح كثيرة، من التدفئة والإنارة، وإنضاج الأطعمة، وتركيب الأدوية، وغير ذلك من المنافع التي يستفيد منها الإنسان.

والنار خلقها الله عزَّ وجلَّ تصعد إلى العلو، فلولا قدرة الله التي تمسكها لذهبت صاعدة، كما أن الجسم الثقيل لولا الممسك له لخرَّ نازلاً.

فسبحان القوي العزيز الذي أعطى الجسم الثقيل القوة التي يهبط بها إلى أسفل، وأعطى النار هذه القوة التي تصعد بها إلى أعلى.

وهذه النار العظيمة التي خلقها الله، والتي تأكل الأخضر واليابس، وتلـــــتهم الغابات، وتذيب الحديد والمعادن، هي جزء من سبعين جزءاً من نار جهـــــنم.

قال النبي - ﷺ -: «نَارُكُمْ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ. قِيلَ: يَـا رَسُولَ اللهِ، إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قال: فُضِّلَتْ عَلَيْهِنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءاً، كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا» (٣).

والله ﷻ خلق النار وحبسها في الحطب والخشب، وفي باطن الأرض، ولو أذن الله لها أن تخرج لأهلكت ما على وجه الأرض من مخلوق، ولكن الله عزَّ وجلَّ يخرج منها بقدر، ليتذكر الناس به النار الكبرى يوم القيامة، وليستـــــمتعوا بمنافعها، كما قال سبحانه: {نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ (٧٣)} (٤).

والنار التي خلقها الله سبحانه أربعة أنواع:

الأولى: نار لها إشراق وإحراق كالشمس، وكالنار المعروفة.

الثانية: نار لها إحراق بلا إشراق، وهي نار جهنم المظلمـــة.

الثالثة: نار لها إشراق بلا إحراق، وهي النار التي خلقها الله في الشجرة وكلّم موسى - ﷺ - عندها.

الرابعة: نار ليس لها إشراق ولا إحراق، وهي النار المحبوسة في الحطب والخشب، فهي مخزونة، فإذا أشعلت صار لها إشراق وإحراق.
فسبحان الخلاق العليم الذي جعل من الشجر الأخضر ناراً يابسة ملتهبة:
{الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠)} (٥) .

والله رؤوف بالعباد، وهو الواحد القهار .. الذي قهر هذه النيران المخزونة في باطن الأرض .. والمودعة في باطن الأخشاب والحطب .. والمشتعلة الملتهبة في الشمس.
هذه النيران لو خرجت على الناس من ذا يقف لها؟.
ومن ذا ينجو منها لو أرسلها الله على الناس؟.
ومن ذا يطفئها لو اشتعلت في الكون؟.
وقد خلق الله النار تأكل وتذيب ما وضع فيها، ولكن زمامها بيده سبحانه، إن شاء أشعلها وأحرق بها من شاء من أعدائه.
وإن شاء جعلها تشتعل ولا تحرق، بل قلب حالها برداً وسلاماً لمن شاء من أوليائه كما قال سبحانه عن خليله إبراهيم - ﷺ -:
{قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩)} (٦) .

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة .. وفي الآخرة حسنة .. وقنا عذاب النار.
{رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢)} (٧) .

اللهم {رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)} (٨) .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ: انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَرَجَعَ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: اذْهَبْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا، فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ. قَالَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَى النَّارِ وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَرَجَعَ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَدْخُلُهَا أَحَدٌ. فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا. فَنَظَرَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ، فَرَجَعَ وَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُوَ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا }. (٩) .

الشرح : (٩) .

عندما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل عليه السلام إلى الجنة وقال له: انظر إلى الجنة وإلى ما جعلت فيها من نعيم لأهلها، فلما نظر جبريل إلى الجنة قال: وعزتك لا يسمع أحد بالجنة إلا دخلها لما فيها من المرغوبات واللذات، فأمر الله أن تُحف الجنة بالمكاره أي جعلت سبل الوصول إليها المكاره والشدائد على الأنفس كالصوم والزكاة والجهاد، ثم أمر جبريل عليه السلام أن يذهب إلى الجنة بعد ما حفت بالمكاره وينظر إليها، فنظر إليها وقال: وعزتك لقد خِفت أن لا يدخلها أحد، أي: لصعوبة الوصول إليها؛ لما حفت به من المكاره، فلا يصبر الناس على المكاره والتعب والنصب والمشقة؛ لأن طريق الجنة فيه تعب ونصب، فصار الوصول إليها ليس كالحال قبل أن تكون محفوفة بالمكاره؛ لأنه ليس كل الناس يصبر على المكاره، ولهذا قل من يدخل الجنة وكثر من يدخل النار، وأمر الله عز وجل جبريل أن يذهب وينظر إلى النار وإلى ما أعده من التعذيب لأهلها، فنظر إليها فوجد النار يركب بعضها بعضًا، فرجع إلى الله عز وجل فقال:وعزتك لا يدخل النار أحد لما فيها من العذاب ولشدتها وعظم هولها، وليس هناك أحد يقدم على أن يكون من أهلها، فأمر الله عز وجل أن تجعل سبل الوصول إليها الشهوات، وأمر جبريل عليه السلام أن يرجع وينظر إليها، فنظر إليها ووجدها حفت بالشهوات، ورجع فقال: وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا وأن يدخلها وذلك لكثرة من يقدم على الشهوات، ويفضل الشهوة

العارضة واللذة العاجلة، ويغفل عن العاقبة الوخيمة وعن المضرة الكبيرة التي تترتب على ذلك. فحفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات، فطريق الجنة فيه المتاعب والمشاق وطريق النار فيه الشهوات التي من أرخى لنفسه العنان فيها وانقاد للشيطان وأطاع النَّفس الأمارة بالسوء كان مآله النار وبئس المصير، والعياذ بالله.

من فوائد الحديث :

١- الجنة والنار موجودتان الآن، ولا يقال: (إنهما إنما يخلقان يوم القيامة؛ لأن وجودهما قبل ذلك يكون بدون انتفاع وبدون تضرر)، بل الانتفاع حاصل والتضرر حاصل قبل يوم القيامة.

٢- على الإنسان أن يؤمن بالغيب وأن يصدق بكل ما جاءت به الأخبار الصحيحة، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه، وسواء عقل ذلك أم لم يعقله.

٣- الصبر على المكاره لأنها السبيل الموصل إلى الجنة.

٤- اجتناب الشهوات لأنها السبيل الموصل إلى النار.

جهنم في الدين الإسلامي :

وفي الحديث الصحيح { ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم }(١٠) .

وكذلك حديث { يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها } (١١) .
وحديث { منهم من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه إلى حجزته، ومنهم من تأخذه إلى ترقوته } (١٢) .
والحجزة معقد الإزار. والترقوة العظم الذي عند ثغرة النحر وللإنسان ترقوتان جانبي النحر.
وفيه { إن أهون أهل النار عذابًا من له نعلان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل (القدر) ما يرى أنَّ أحداً أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا } (١٣)

من أسمائها المتعددة

لجهنم أسماء عديدة نذكر منها:

جهنم : { وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ } (١٤) .

الجحيم : { وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ }. (١٥) .

النار : { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (١٦) .

الحطمة : { كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ .نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ } (١٧) .

سقر : { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } (١٨) .

الهاوية : { وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ . فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ . نَارٌ حَامِيَةٌ } (١٩) .

السعير : { وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ }(٢٠) .

أهل النار :
وأهلها على الحقيقة هم الكفرة والمشركون، فهم خالدون مخلدون فيها، كما قال تعالى: { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (٢١) .

وفي الصحيحين أن الله تعالى يأمر آدم أن يخرج بعث النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: { إن من يأجوج ومأجوج تسعمائة وتسعة وتسعين ومنكم واحد }.
وورد في جملة من الأحاديث الصحيحة أن أكثر بني آدم من أهل النار، وأن أتباع الرسل قليل بالنسبة إلى غيرهم، وغير أتباع الرسل كلهم في النار، إلا من لم تبلغه الدعوة أو لم يتمكن من فهمها، وقد ورد في الأحاديث أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة، وهي من كان على مثل ما عليه النبي ﷺ وأصحابه، وهم المتمسكون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فهذه هي الفرقة الناجية وحدها. والقرآن يدل على أن أكثر الناس في النار وهم الذين اتبعوا الشيطان، وأما عصاة الموحدين فأكثر من يدخل النار منهم النساء كما في الصحيحين في خطبة صلاة الكسوف وغيرها قال رسول الله ﷺ: { اطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء } متفق عليه. (٢٢) .

صفات أهل النار :
من صفات أهل النار ما ذكره الله بقوله: {مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ . قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ .وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ } (٢٣) .

فكان من أسباب دخولهم النار أنهم لا يصلون ولا يزكون، وخوضهم في الباطل، وتكذيبهم بيوم الجزاء يوم القيامة حتى ماتوا على هذه الحالة. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: { ألا أخبركم بأهل النار كل عتل جواظ مستكبر }(٢٤) . والعتل الغليظ الجافي، والجواظ الذي جمع ومنع، والمستكبر المتعاظم في نفسه،

الذي يرد الحق، ويحتقر الناس كما قال النبي ﷺ:
« الكبر بطر الحق وغمط الناس » وبطر الحق رده وغمط الناس احـــتقارهم، وقال تعالى: { وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُـــسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ } (٢٥) .
وقد تبين من الأحاديث الواردة في هذا الباب أن صحة الجسد وقوته، وكثـــرة المال والتنعم بشهوات الدنيا، والتكبر والتعاظم على الخلق هي من صفات أهل النار. وفي صحيح مسلم: أهل النار خمسة:

١- الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق، إلا خانه ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان، وكذلك الخيانة في الأمانات، ويدخل في ذلك من خــــان الله ورسوله بارتكاب المحارم سراً مع إظهار اجتنابها.

٢- المخادع الذي دأبه مخادعة الناس صباحاً ومساءً، مخادعة النــــاس على أهليهم وأموالهم، والخداع من أوصاف المنافقين، ومعناه إظهار الخير وإضمار الشر بقصد التوصل إلى أموال الناس وأهليهم والانتفاع بذلك، وهو من جـملة المكر والحيل المحرمة، وفي الحديث: « من غشنا فليس منا والمكر والــخداع في النار ».

٣- الكذب والبخل، وكلاهما ينشأ عن الشح وهو شدة حرص الإنسان علـــى ما ليس له من الوجوه المحرمة، وينشأ عنه البخل وهو إمساك الإنسان ما في يده والامتناع عن إخراجه في وجوهه التي أمر بها، وهذا الصنف هو البـــخيل. فالشحيح أخذ المال بغير حقه والبخيل منعه من حقه.

٤- الشنظير وفسر بالسيء الخلق والفاحش، وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال: { إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه } وفي الترمذي: { إن الله يبغض الفاحش البذيء } (٢٦) .
وهو الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام. فالفاحش هو الذي يفحش في منطقه، ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه.

أول من يدخل النار من عصاة الموحدين

خرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: { عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة فالشهيد وعبد مملوك لا يشغله رق الدنيا طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال، وأول ثلاثة يدخلون النار فأمير مسلط، وذو ثروة مال لا يؤدي حق الله منه، وفقير فخور }. وخرج الترمذي (٢٧) .أوله وقال: حديث حسن وأوصاف هؤلاء الثلاثة هي الظلم والبخل والكبر. وقد أنذرنا ربنا منها بقوله : { وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (٢٨) .

أسباب عذاب النار :

ولعذاب النار سببان رئيسيان أحدهما تكذيب القلب بخبر الله ورسوله، والثاني إعراض البدن عن طاعة الله ورسوله {إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى } (٢٩) .

طعام وشراب أهل النار :

وطعام أهل النار الضريع وهو شجر قد بلغ غاية الحرارة والمرارة وقبح الرائحة وهو الزقوم، أو غيره، وكذا الغسلين وهو صديد أهل النار.
شراب أهل النار الحميم الذي بلغ غاية الحرارة إذا قرب من وجوههم شواها، فإذا شربوه قطع أمعاءهم { مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ } (٣٠) .

لباسهم :
لباس أهل النار القطران والحديد ولهم ثياب من نار.

مكان جهنم ووصفها :
١- مكان النار سجين (قيل هي الأرض السابعة السفلى)، كما أن العرش سقف الجنة، فالمخلوقات كلما ارتفعت اتسعت، وكلما هبطت تضايقت، فالجنة في أوسع مكان وأعلاه، والنار في أسفل مكان وأضيقه، نعوذ بوجه الله منها ومما يقرب إليها.

٢- لجهنم سبعة أطباق وهي: جهنم، ولظى، والحطمة، والسعير، وسقر، والجحيم، والهاوية.

٣- قعر جهنم مسافة سبعين عاما، كما في الأحاديث التي رواها مسلم وغيره.

أبواب جهنم وأسوارها :
أبواب جهنم مغلقة على أهلها كما قال تعالى: {عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ }(٣١) .

٢- أبواب جهنم مغلقة قبل دخول أهلها إليها لقوله تعالى:
{ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ } (٣٢) . في وجوههم.

٣- إحاطة سرادق جهنم بالكافرين قال الله تعالى: { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا } (٣٣) . وهو كل ما أحاط بشيء نحو الحائط .

لونها :

جهنم سوداء، وأهلها سود، وكل شيء فيها أسود، وقد دل على سواد أهلها قوله تعالى: { وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } (٣٤) .

وقوله تعالى: { يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ } (٣٥) .

، وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن من عصاة المسلمين من يحترق في النار حتى يصير فحما.

شدة حرها :

قال الله تعالى: { فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ } (٣٦) .

وفي الصحيحين { اشتكت النار إلى ربها فقالت: أكل بعضي بعضا. فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء، ونفس في الصيف. فأشد ما تجدون من الحر من سمومها، وأشد ما تجدون من البرد من زمهريرها } . (٣٧) .وفيهما أيضا:
{ ناركم هذه التي يوقد بنو آدم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم } . (٣٨) .

أوقات تسعيرها :

تسجر جهنم أي تسعر كل يوم نصف النهار، وتسعر أحيانا في غير نصف النهار، وتسعر أيضا يوم القيامة. قال الله تعالى: { وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ }(٣٩) .

ومعنى ذلك أوقدت مرة بعد مرة بخطايا بني آدم التي تقتضي غضب الله عليهم فتزداد تلهبا وتسعراً. وتسعر على أهلها بعد دخولهم إليها كما قال تعالى:
{ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا } (٤٠) . فكلما طفئت أوقدت ناراً تسعر وتتلهب.

غضب جهنم وزفيرها :

وفي تغيظها وزفيرها قال الله تعالى: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا } (٤١) .

نار جهنم :

وفي ذكر دخانها وشررها ولهبها قال الله تعالى: {وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ . فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ } . (٤٢) .

وهذه الآية تضمنت ذكر ما يتبرد به في الدنيا من الكرب والـــــحر وهو ثلاثة أنواع:

الماء والهواء والظل، فهواء جهنم السموم وهو الريح الشديدة الحر، وماؤها الحميم الذي قد اشتد حره، وظلها اليحموم وهو قطع دخانها.

سلاسل وأغلال جهنم :

وفي ذكر سلاسلها وأغلالها وأنكالها قال الله تعالى:

{ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا }(٤٣) .

وقال تعالى: { وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (٤٤) .

وقال تعالى: { إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا . وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا .} (٤٥) .

فهذه ثلاثة أنواع من العذاب: أحدها الأغلال وهي في الأعناق، الثاني الأنكال وهي القيود، الثالث السلاسل.

قال الله تعالى: { ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ }(٤٦) .

تدخل السلسلة من دبره حتى تخرج من فمه كما ينظم الدجاج في الـــحديد ليشوى.

حجارة جهنم :

وفي ذكر حجارتها قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ } (٤٧) .

وقال تعالى { فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ } (٤٨) ،

واختلف المفسرون في هذه الحجارة فقالت طائفة منهم الربيع بن أنس: الحجارة هي الأصنام التي عبدت من دون الله كما قال تعالى:

{إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ } (٤٩) .

وأكثر المفسرين على أن المراد بالحجارة الكبريت توقد بها النار، ويقال إن فيها خمسة أنواع من العذاب ليست في غيرها من الحجارة: سرعة الإيقاد، ونتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا أحميت.

طعام وشراب أهل النار:

تقدم الكلام على طعام أهل النار وشيء من شرابهم، وقد ذكر الله تعالى من شرابهم أربعة أنواع وهي:

١ـ الحميم وهو الحار الذي يحرق ويشوي الوجوه ويقطع الأمعاء.
٢ـ الغساق وهو البارد شديد البرد.
٣ـ الصديد يعني القيح والدم والعرق.
٤ـ الماء كالمهل أي كالزيت المحروق أسود غليظ منتن.

وكان كثير من السلف من الخائفين ينغص عليهم ذكر طعام أهل النار وشرابهم طعام الدنيا وشرابها حتى يمتنعوا من تناوله أحيانا لذلك، فكان الإمام أحمد يقول: الخوف يمنعني من أكل الطعام والشراب فلا أشتهيه.

أغطيتهم وفراشهم :

{ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ }(٥٠) .

لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ «فراش» وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ «غطاء ولحف».

خلقة أهل النار وأشكالهم :

وفي عظم خلق أهل النار فيها وقبح صورهم وهيئاتهم، خرج البخاري من حديث أبي هريرة: { ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب السريع } وخرجه مسلم ولفظه عن أبي هريرة يرفعه قال: { ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع } ، وخرج مسلم أيضا عن أبي هريرة عن النبي محمد ﷺ قال: { ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أُحد وغلظ جلده مسيرة ثلاثة أيام } . (٥١) . (٥٢) .

من أشكال عذاب أهل النار :

قال الله تعالى: { تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ } (٥٣) .
عن أبي سعيد عن النبي محمد ﷺ قال:
{ وهم فيها كالحون تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته } (٥٤) .

١ـ ومن عذاب أهل النار سحبهم على وجوههم: { يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ } (٥٥) .
٢ـ ومن أهل النار من يعذب بالصعود إلى أعلى النار ثم يهوى فيها.
٣ـ قاتل نفسه المنتحر في النار، في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي محمد ﷺ قال: { من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأبها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن قتل نفسه بسم فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً } . (٥٦)
٤ـ ومن أهل النار من يدور في النار ويجر أمعاءه كما في الصحيح عن أسامة بن زيد، وحديث { وَرَأَيْتُ أَبَا ثُمَامَةَ عَمْرَو بنَ مَالِكٍ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النَّارِ، وإنَّهُمْ كَانُوا يقولونَ: إنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لا يَخْسِفَانِ إلَّا لِمَوْتِ عَظِيمٍ، وإنَّهُمَا آيَتَانِ مِن آيَاتِ اللهِ يُرِيكُمُوهُمَا، فَإِذَا خَسَفَا فَصَلُّوا حتَّى تَنْجَلِيَ.
[وفي رواية]: وَرَأَيْتُ في النَّارِ امْرَأَةً حِمْيَرِيَّةً سَوْدَاءَ طَوِيلَةً، وَلَمْ يَقُلْ: مِن بَنِي إسْرَائِيلَ} (٥٧) .

ومن أهل النار من يلقى في مكان ضيق لا يتمكن فيه من الحركة لضيقه قال الله تعالى: { وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا }(٥٨) .

عذاب أهل النار دائم :

وعذاب الكفار في النار لا يفتر عنهم ولا ينقطع ولا يخفف، بل هو متواصل أبدًا. قال الله تعالى: { إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ . لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ }(٥٩) . { وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّـــمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُـــــورٍ } (٦٠) .

أعظم عذاب أهل النار وأهونه :

وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله تعالى وإبعادهم عنه، وإعراضه عنهم وسخطه عليهم قال الله تعالى: { كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُـــــــونَ } (٦١) . وفي الحديث الصحيح { إن أهون أهـــل النار عذابًا من له نعلان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجـــــل (القدر) ما يرى أنَّ أحداً أشد منه عذابًا وإنه لأهونهم عذابًا } (٦٢) .

ما يتحف به أهل النار عند دخولهم إليها :

قال الله تعالى: { ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ . لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ . فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِـــيمِ . هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ } (٦٣) .

والنزل هو ما يعد للضيف عند قدومه. فدلت هذه الآيات على أن أهل النـــــار يتحفون عند دخولها بالأكل من شجر الزقوم، والشرب من الحميم، وهم إنمـــا يساقون إلى جهنم عطاشا، كما قال تعالى: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا} (٦٤) .

بكاء أهل النار ودعائهم :
قال الله تعالى: { فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ }(٦٥) .
الزفير في الحلق، والشهيق في الصدر، مثل صوت الحمار، أوله زفير وآخره شهيق .

طلب أهل النار الخروج منها :
يطلب أهل النار الخروج منها فلا يجابون قال الله تعالى:
{ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ } (٦٦) .
وقال تعالى: {وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ } (٦٧) .

شدة رجاء أهل النار الفرج :
ولا يزال أهل النار في رجاء الفرج حتى يذبح الموت، فحينئذ يقع منهم الإياس، وتعظم عليهم الحسرة والحزن، وفي الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي محمد ﷺ قال: { يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيؤمر به فيذبح. ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ رسول الله ﷺ { وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ } (٦٨) .
وفي رواية الصحيحين { فيزداد أهل الجنة فرحا إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزنا إلى حزنهم }.(٦٩) .

ذكر مجيء جهنم يوم القيامة وخروج عنق منها يتكلم :
قال الله تعالى: { وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى } (٧٠) . وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: { يؤتى يوم القيامة بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها } (٧١)
عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال « يخرج يوم القيامة عنق من النار يقول: إني وكلت بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصورين }. (٧٢) .

ذكر ورود النار :

قال الله تعالى { وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا } (٧٣) .

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في تفسير الورود. فقالت طائفة الورود هو المرور على الصراط. وهذا قول ابن مسعود وجابر والحسن وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم والكلبي وغيرهم. وقالت طائفة الورود هو الدخول، وهذا هو المعروف عن ابن عباس. وروي عنه من غير وجه: فتكون على المؤمن برداً وسلاماً ويستقر فيها الكافر والمشرك، ولعل القول الأول أصح فيكون مرور الناس على الصراط في السرعة وعدمها بحسب أعمالهم، ولعل الصواب في ذلك والله أعلم أن ورود الكافر للنار هو دخولها وورود المؤمن هو المرور على الصراط.

استقبال النار :

وقد أخبر النبي محمد ﷺ أن العبد إذا وقف بين يدي ربه للحساب فإنه تستقبله النار تلقاء وجهه، وأخبر أن الصدقة تقي صاحبها من النار. ففي الصحيحين عن عدي بن حاتم عن النبي ﷺ قال: { ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر يمينه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر شماله فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة } . وفي رواية للبخاري: { فمن لم يجد فبكلمة طيبة }، وفي حديث عبد الرحمن بن سمرة عن النبي ﷺ أنه قال: { رأيت رجلا من أمتي يتقي وهج النار وشررها بيده، فجاءته صدقته فظللت رأسه } (٧٤) .

حال الموحدين في النار وخروجهم منها :

ورد في الأحاديث أن الموحدين يمرون على الصراط فينجو منهم من ينجو، ويقع منهم من يقع في النار، فإذا دخل أهل الجنة الجنة فقدوا من وقع من إخوانهم الموحدين في النار، فيسألون الله عز وجل إخراجهم منها.

الأعمال المنجية من النار :

ومما ينجي من النار التعوذ بالله منها والبكاء من خشية الله واجتـناب الأعمال الموصلة إليها. وكان النبي رسول الله ﷺ كثيراً ما يستعيذ من النار ويأمر بذلك في الصلاة وغيرها. وكان أكثر دعاء الرسول ﷺ { ربنا آتنا في الدنيا حسـنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار } (٧٥) عن أنس بن مـالك رضي الله عنه.

ولم يزل الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون يخافون من النـار ويخوفون منها. والقدر الواجب من الخوف ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم. وكان من السلف من إذا رأى النار اضطرب وتغيرت حـاله وقد قال تعالى: { وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ } (٧٦) .

ومن الخائفين من منعه خوف جهنم من النوم وقد قال بعض السلف: عجـبت للجنة كيف نام طالبها! وعجبت للنار كيف نام هاربها؟.

ومن الخائفين من منعه خوف جهنم من الضحك، وكان جماعة من السـلف قد عاهدوا الله أن لا يضحكوا أبدا. قال سعيد بن جبير رحمه الله: كيف أضـحك وجهنم قد سعرت، والأغلال قد نصبت، والزبانية قد أعدت!.

ومن السلف من حدث له من خوفه من النار مرض ومنهم من مات مـن ذلك. وقال الله تعالى { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ } (٧٧).

وقال عليه الصلاة والسلام { لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيرا } فغطى أصحاب رسول الله محمد ﷺ وجوههم ولهم خنين وهو البكاء مع غنـة.

وعنه ﷺ أنه قال: { لا تنسوا العظيمتين الجنة والنار، ثم بكى حتى جـرت دموعه } (٧٨). النار خلقها الله لعصاة الجن والإنـس وبهما تمتلئ قال تعالى: { إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَـةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } (٧٩).

القرآن الكريم. والبكاء من خشية النار ينجي منها، والتعوذ بالله من النار يوجب الإعاذة منها كما تقدم، وفي الحديث: { لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع } رواه النسائي والترمذي وقال: صحيح. وفيـه: { عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحـرس في سبيل الله } (٨٠)

جهنم في المعتقد المسيحي

يتحدث الكتاب المقدس عن جهنم والعذاب في الآخرة في عدة مواضع نذكر منها:

غضب الله ولعنته

ملعونين، بعيدين عن رحمة الرب.

سيحاسبون ويعاقبون ويمكثون في الخسارة الأبدية، بعيدا عن وجه الرب ومن مجد قوته.

عذاب أبدي

نارهم لا تطفأ وديدانهم لا تموت.
اقتباس يدل على ذلك من الكتاب المقدس: «فَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ أَوْ رِجْلُكَ فَاقْطَعْهَا وَأَلْقِهَا عَنْكَ. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَاةَ أَعْرَجَ أَوْ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تُلْقَى فِي النَّارِ الأَبَدِيَّةِ وَلَكَ يَدَانِ أَوْ رِجْلاَنِ.» (متى ١٨ :٨).

مصير الملعونين لا تتغير أبدا
إنهم ذاهبون إلى عقاب أبدي.

النار

بعيد عن رحمة الله، في النار الأبدية.

الظلمات

ألقوه في ظلمات العذاب.

الاقتران (ملاصقة الشيطان)

بعيد عن رحمة الله، في النار الأبدية التي أعدها الله للشيطان وأتباعه وجنوده.

الندم

يوم الحسرة يبكون ويعظون على شفافهم من شدم الندم على ما فرطوا في حياتهم.

أراء أخرى حول جهنم في الفكر المسيحي

الخلاص الكوني

يرى اتباع هذه الفكرة إن جهنم هي شيء مؤقت لايدوم إلى ما لانـــــــــــــهاية ويعتبرونه نوع من الإصلاح والتصحيح للشر اذ يرون ان العقاب الأبـدي فكرة تتعارض مع صلاح وعدل ومحبة الله ويؤمنون بخلاص كوني يشمل الجميع إلا أن المؤمنون سيخلصون أولا في المجئ الثاني

يستندون في ذلك إلى أن الكتاب المقدس في لغته الأصلية يتحدث عن عذاب دهري إذ ورت كلمة AEON اليونانية بمعني يحتمل ان تكون تلك الـفترة منتهية وأيضا غير منتهية فهي تشير إلي دهر غير محدد الـــــــــــــمدة

وفي الختام : أخي القارئ :أعلم :

إن الله تبارك وتعالى لم يخلق الإنسان ليدخل النار بل خلقه ليعبده ويعرفه فيدخل الجنة، ولكن مقتضى نظام الأشياء وحكمة الخلق تقتضي أن يوجد الصالح والطالح والخير والشر والحق والباطل وكل هذه الأمور في صراع دائم مع أضدادها، فلا يمكن أن يتبين الصالح إلا بوجود الطالح، ولا يتميز الخير إلا بوجود الشر، ولا يعرف الحق إلا من خلال افتراقه عن الباطل... ولولا ذلك لخفيت الحكمة من خلق الأشياء، فمن رحمته عز وجل بخلقه أن ندبهم لطاعته ووعدهم دخول جنته وجعل المسببات مترتبة على أسبابها، والمعلولات على عللها، وكل شيء خلقه بمقدار وفقا لقوانين وضعها، وأحكم صنع الأشياء، وأتقن تنظيم الأجزاء في كلها والجزيئات في مركباتها، ووهب الإنسان آلات الحس وأدوات الفعل والحركة، وتفضل عليه بمنحة الإرادة، وأنعم عليه بنعمة العقل، وسخر له الكائنات من البهائم والنباتات وغيرها، ثم ندبه للسعي والكدح في الدنيا لتحصيل الكمال الذي يؤهله للخلود في الجنة التي أعدها له في الدار الآخرة، وأرسل له الرسل وشرع له الشرائع التي تعينه على سلوك طريق التكامل؛ فإنه لا يعلم ما يصلحه إلا بالتجارب الطويلة والخبرات المريرة التي تفتقر إلى قرون وقرون، فاختصر عليه المشوار وجهزه بمناهج لو اتبعها لأغنته عن التعب والنصب تحصيلا للخبرات والتجارب، إذ لا يخوله عمره القصير من بلوغ المنهج الصحيح التي يقوده إلى السعادة، فالله تعالى أعلم بما يصلح العباد من أنفسهم، وهكذا كان... وحينما خلق الله الناس علم أنه سيكون منهم صالح يدخل الجنة وطالح يدخل النار، ولكن الحكمة تقتضي وجودهما كلاهما في الحياة، ومع ذلك فليس الإنسان مجبورا على فعل القبائح والمعاصي، والله تعالى لا يتحمل مسؤولية دخول العصاة النار إنما هم أنفسهم من يتحمل ذلك، ومع ذلك جعل الله تبارك وتعالى للعائد التائب منهم سبيلا إلى التدارك من خلال الاستغفار والتوبة، وجعل أمد التوبة حتى آخر لحظة من حياة الإنسان... أليس من يفعل كل ذلك هو أرحم الراحمين؟

وأما علمه السابق بدخول زيد أو عمرو النار فلا ينبغي أن يحول بينه وبين فعل المصلحة الكلية والحكمة السببية التي من دونها يبطل النظام وتختل النواميس ويضمحل العدل... فدخول العصاة إذن النار هو منتهى الصواب ومقتضى العدل.

وبالرغم من كل ذلك فإن رحمة الله في الآخرة أكبر بكثير من رحمته في الدنيا، وما ادخره الله تعالى للعباد من الرحمة والفضل في القيامة يجعل مثل إبليس اللعين يطمع في دخول الجنة.

فضلا عمن تنالهم شفاعة الشافعين فينجون من النار، وفضلا عمن يدخلون النار لبرهة تطول أو تقصر ثم يخرجون منها برحمته عز وجل. ومن ثم فأن من يخلد في النار هم المشركون والمنافقون والقتلة والطغاة... وأما سائر المذنبين فلا يخلدون فيها بل يخرجون منها برحمته بعد أن ينالوا جزاءهم على ما اقترفته أيديهم من المعاصي التي لم يتسن لهم التكفير عنها وهم في الدنيا.

ودمتم في رعاية الله .

المراجع: للباب السادس : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة الواقعة ، آية : ٧١-٧٣)
(٢) (سورة يس ، آية : ٨٠)
(٣) (متفق عليه)
(٤) (سورة الواقعة ، آية : ٧٣)
(٥) (سورة الواقعة ، آية : ٨٠)
(٦) (سورة الانبياء ، آية : ٦٨-٦٩)
(٧) (سورة آل عمران ، آية : ١٩٢)
(٨) (سورة الفرقان ، آية : ٦٦-٦٧)
(٩) (رواه ابو داود والترمذي والنسائي) ، سنن أبي داود (٧/ ١٢٢) (٤٧٤٤)، سنن الترمذي (٤/ ٢٧٤) (٢٥٦٠)، سنن النسائي (٧/ ٣) (٣٧٦٣)، شرح سنن أبي داود للعباد (٥٣٧/ ١٥)، حاشية السندي على سنن النسائي (٧/ ٣).)، فتح الباري (٣١٧/١٨)، ذخيرة العقبى في شرح المجتبـــــى (٢٧٦/٣٠).
(١٠) (متفق عليه)
(١١) (رواه مسلم)
(١٢) (رواه مسلم)
(١٣) (متفق عليه)
(١٤) (سورة الحجر ، آية : ٤٣)
(١٥) (سورة المائدة ، آية : ٨٦)
(١٦) (سورة البقرة ، آية : ٢٤)
(١٧) (سورة الهمزة ، آية : ٤-٦)
(١٨) (سورة القمر ، آية : ٤٨)
(١٩) (سورة القارعة ، آية : ٨-١١)
(٢٠) (سورة الملك ، آية : ١٠)
(٢١) (سورة البقرة ، آية : ٢٤)
(٢٢) (متفق عليه)
(٢٣) (سورة المدثر، آية : ٤٢-٤٧)
(٢٤) (متفق عليه)
(٢٥) (سورة الزمر ، آية : ٦٠)
(٢٦) (سنن الترمذي)
(٢٧) (سنن الترمذي)
(٢٨) (سورة آل عمران ، آية : ١٣١)
(٢٩) (سورة طه ، آية : ٤٨)
(٣٠) (سورة محمد ، آية : ١٥)

(٣١) (سورة البلد ، آية : ٢٠)
(٣٢) (سورة الزمر ، آية : ٧١)
(٣٣) (سورة الكهف ، آية : ٢٩)
(٣٤) (سورة يونس ، آية : ٢٧)
(٣٥) (سورة آل عمران ، آية : ١٠٦)
(٣٦) (سورة التوبة ، آية : ٨١)
(٣٧) (متفق عليه)
(٣٨) (متفق عليه)
(٣٩) (سورة التكوير ، آية : ١٢)
(٤٠) (سورة الإسراء ، آية : ٩٧)
(٤١) (سورة الفرقان ، آية : ١٢)
(٤٢) (سورة الواقعة ، آية : ٤١-٤٤)
(٤٣) (سورة الإنسان ، آية : ٤)
(٤٤) (سورة سبأ ، آية : ٣٣)
(٤٥) (سورة الزمر ، آية : ١٢-١٣)
(٤٦) (سورة الحاقة ، آية : ٣٢)
(٤٧) (سورة التحريم ، آية : ٦)
(٤٨) (سورة البقرة ، آية : ٢٤)
(٤٩) (سورة الأنبياء ، آية : ٩٨)
(٥٠) (سورة الأعراف ، آية : ٤١)
(٥١) (صحيح البخاري)
(٥٢) (صحيح مسلم)
(٥٣) (سورة المؤمنون ، آية : ١٠٤)
(٥٤) (أخرجه الإمام احمد في مسنده ، والترمذي ، والحاكم وقالا صحيح)
(٥٥) (سورة القمر ، آية : ٤٨)
(٥٦) (متفق عليه)
(٥٧) (صحيح مسلم)
(٥٨) (سورة الفرقان ، آية : ١٣)
(٥٩) (سورة الزخرف ، آية : ٧٤-٧٥)
(٦٠) (سورة فاطر ، آية : ٣٦)
(٦١) (سورة المطففين ، آية : ١٥)
(٦٢) (متفق عليه)
(٦٣) (سورة الواقعة ، آية : ٥١-٥٦)
(٦٤) (سورة مريم ، آية : ٨٦)
(٦٥) (سورة هود ، آية : ١٠٦)
(٦٦) (سورة المؤمنون ، آية : ١٠٦ - ١٠٨)
(٦٧) (سورة الزخرف ، آية : ٧٧)

(٦٨) (سورة مريم ، آية : ٣٩)
(٦٩) (متفق عليه)
(٧٠) (سورة الفجر ، آية : ٢٣)
(٧١) (رواه مسلم وخرجه الإمام احمد في مسنده)
(٧٢) (رواه الإمام احمد والترمذي)
(٧٣) (سورة مريم ، آية : ٧١- ٧٢)
(٧٤) (رواه الحافظ أبو موسى المديني والطبراني، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية يعظم شأنه ويقول شواهد الصحة عليه) .
(٧٥) (رواه البخاري)
(٧٦) (سورة الواقعة ، آية : ٧٣)
(٧٧) (سورة الرحمن ، آية : ٤٦)
(٧٨) (رواه أبو يعلى الموصلي وغيره
(٧٩) (سورة هود ، آية : ١١٩)
(٨٠) (رواه النسائي والترمذي)

الباب السادس : الفصل الثالث : خلق الحيوانات : مع آيات الله في البحر :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بــــها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيـــته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صلـــى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

قال الله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)} (١) .

وقال الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَـــاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)} (٢) .

الله ﷻ هو الخلاق العليم، خلق السموات، وملأها بالملائكة التي تسبحه وتقدس له.

وخلق الأرض، وخلق منها الإنسان، وجعله خليفة فيها.

وخلق حول الإنسان مخلوقات عظيمة من الحيوانات، تدب على وجه الأرض .. أو تحلق في جو السماء .. أو تسبح في قعر البحر.

وهذه الحيوانات أمم وقبائل، وأنواع وأجناس، وأشكال وألوان، وذكور وإنـــاث.

وهي أعداد هائلة لايحصيها إلا الله الذي خلقها ودبرها، والذي يطعمها ويسقيها، وينميها ويعافيها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

فهي سارية منتشرة، في ملكه بأمره سبحانه، تأكل وتشرب من مائدة نعـــمه الكبرى في هذه الأرض:

فمنها ما يمشي على بطنه .. ومنها ما يمشي على رجلين .. ومنها ما يمـــشي على أربع .. ومنها ما يطير بجناحيه .. ومنها ما يسبح في البحار والأنهار.

وكلها تسبح بحمد ربها طائعة لخالقها، عابدة ساجدة له، حتى تستكمل آجالـــها، وتستوفي أرزاقها: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّـــــةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)} (٣) .

وهذه الحيوانات المختلفة الأجناس والأنواع، والأحجام والألوان.

كل فرد منها معجز في خلقه .. معجز في تصريفه .. معجز في طريقة حــــاته .. معجز في نموه وتكاثره وولادته .. بحيث لا يزيد جنس عن حدود معينة تحفظ وجوده وامتداده .. وتمنع طغيانه على الأجناس الأخرى طغيان إبادة وإفنـــاء. فسبحان العليم الحكيم الذي يمسك بزمام الأنواع والأجناس، يزيد فيها وينقص بحكمة وتقدير، ويضع في كل منها من القوى والخصائص والوظائف ما يحفظ التوازن بينها جميعاً.

فالإبل والبقر، والغنم والمعز خلقها الله عزَّ وجلَّ لمنافع العباد كما قال سبحـانه: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)} (٤) .
فسبحان العزيز الكريم الذي سخرها للإنسان يأكل من لحومها، ويـــــشرب من ألبانها، ويلبس من أصوافها، ويفترش من أوبارها.

وهذه الأنعام قليلة النسل، إذ قلما تلد في السنة إلا واحداً، ولكن الله سبحانه جعل فيها البركة، فهي مع قلتها وكثرة من يأكلها من البشر والسباع إلا أنها أكـــثر الحيوانات نماءً وكثرةً وبركة ومنافع.
والنسور من الطيور الجارحة الضارية وعمرها مديد، ولكنها في مقابـــل هذا نزرة قليلة البيض والفراخ بالقياس إلى العصافير.
وكيف يكون الأمر لو كان للنسور نسل العصافير؟.
إنها ستقضي على جميع الطيور، وتحرم منها بقية الأجناس والبشر.
فسبحان من أكثر من هذا، وقلل من هذا لمصالح عباده.

والأسود كذلك في عالم الحيوان كاسرة ضارية، والفهود كذلك والنمور كذلك.
كيف تكون الحال لو كانت تنسل نسل الشياه والـضباء؟.
إنها ما كانت لتبقي على لحم تجده من حيوان أو إنسان.

فسبحان العليم القدير الذي يمسك بزمام مخلوقاته .. فجعل نسل هذه محدوداً بالقدر المطلوب .. وبارك في نسل الضباء والشاء وغيرها من ذوات اللحوم لمصالح ومنافع عباده: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥)} (٥) .

والذبابة الواحدة تبيض في الدورة الواحدة بمشيئة الله مئات الألوف، وفي مقابل هذا لا تعيش إلا أسبوعين تقريباً. فكيف لو أفلت الزمام فعاشت الذبابـــة الواحدة أشهراً أو سنوات؟.

إذاً لكان الذباب يغطي الأجسام والقرى والدور، ويأكل العيون والطعام.
ولكن الحي القيوم العليم بكل شيء أحكم الأمور وفق تقدير محكم، محسوب فيه حساب كل الحاجات والأحوال والظروف.

فسبحان الذي خلق كل شيء فقدره تقديراً، كما أحسن خلقه وأتقنه.
وسبحان من خزائنه مملوءة بكل شيء، ولكنه حكيم لا ينزل منه إلا بقـــدر ما يصلح أحوال البلاد والعباد: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١)} (٦) .

إنها آيات وعجائب في الخلق والتدبير، والتحريك والتسكين، والإحياء والإماتة في عالم البشر، وفي عالم الحيوان، وفي عالم البر، وفي عالم البـــحر، وفي العالم العلوي، وفي العالم السفلي كما قال سبحانه: {إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُـــونَ (٤)} (٧) .

إنها آيات ناطقة لكل مؤمن يراها ويتدبرها.
واليقين هو الحالة المهيئة للقلوب كي تحس وتتأثر وتنيب.
اليقين بالله الذي يدع القلوب تثبت وتطمئن، وتتلقى كل ما تراه وتسمعه في الكون في هدوء ويسر، وفي راحة من القلق والحيرة.
والميكروبات مخلوقات عظيمة هائلة الكثرة، فهي أكثر الأحياء عدداً، وأسرعها تكاثراً، وأشدها فتكاً، لكنها أضعف الأحياء مقاومة، وأقصرها عمراً.

وهي تموت بالملايين في كل لحظة بسبب البرد، أو الحر، أو الضوء أو عوامل أخرى.
ولو كانت قوية المقاومة، أو طويلة العمر لدمرت الحياة والأحياء.
فسبحان من بهرت حكمته القلوب والعقول، ومن دبر خلقه بمشيئته وحده لا شريك له.
وسبحان من خلق هذه الخلائق، وأسكنهم في ملكه، وأطعمهم من رزقه:
{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤)} (٨) .

وكل حي وكل كائن من هذه الحيوانات والطيور والحشرات، مزود بسلاح يتقي به هجمات أعدائه، ويغالب به خطر الفناء، في البر أو في البحر، وتختلف هذه الأسلحة وتتنوع.
فكثرة العدد سلاح .. وقوة البطش سلاح .. وبينهما ألوان وأنواع:
فالحيات الصغيرة مزودة بالسم أو بالسرعة للهرب من أعدائها.
والثعابين الكبيرة مزودة بقوة العضل، ومن ثم يندر فيها السام.
والضباء مزودة بسرعة الجري والقفز.
والأسود والسباع مزودة بقوة البأس والافتراس.
والطيور الجارحة مزودة بمخالب ومناقير تمزق اللحوم.
وبعض الأسماك مزودة بمناشير تذبح من يقترب منها.
وهكذا كل حي من الأحياء الكبار والصغار على السواء.
فسبحان من خلقها، ومن دبر أرزاقها، ومن يسر لها القوة التي تدافع بها عن نفسها.

وكل حي مزود كذلك بالخصائص والوسائل التي يحصل بها على طعامه، والتي ينتفع معها بهذا اللون من الطعام، الإنسان والحيوان، والطيور والحشرات، كل خلق الله له ما يناسبه، من الطعام والشراب والسكن.

والحيوانات تحصل على أرزاقها التي قسم الله لها بطرق شتى: فمنها ما يعيش على النبات والحبوب كالإبل والبقر والغنم والغزال ونحوها.
ومنها ما يعيش على اللحوم كالحيوانات الكاسرة، والسباع الضارية التي تعيش في الفلاة، ولا غذاء لها إلا ما تفترسه من كائنات لا بد من مهاجمتها، والتغلب عليها كالأسود والنمور، والضبع والفهد، والذئاب والثعالب.
فهذه قد زودها الله بأنياب قاطعة، وأسنان حادة، وأضراس صلبة.
ولما كانت في هجومها لا بد أن تستعمل عضلاتها، جعل الله لها عضلات قوية، وسلحها بأظفار ومخالب حادة، لتتمكن من الاستيلاء على فريستها، وجعل سبحانه في معدتها من الأحماض التي تساعدها على هضم اللحوم والعظام.
فسبحان: {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠)} (٩).

وأما الحيوانات المجترة المستأنسة، التي تعيش على المراعي، فهي تختلف فيما زودت به من الآلات، وقد خلق الله أجهزتها الهاضمة بما يتناسب مع البيئة.
فأفواهها واسعة نسبياً، وقد تجردت من الأنياب القوية، والأضراس الصلبة، وبدلاً منها خلق الله لها أسناناً قاصمة قاطعة، فهي تأكل الحشائش والنباتات بسرعة، وتبلعها دفعة واحدة، حتى يمكنها أن تؤدي للإنسان ما خلقت لأجله من خدمات.

ولما كانت هذه الحيوانات هدفاً للسباع، فهي تأكل غذاءها بسرعة وتختفي، ثم تهضمه في وقت طويل جداً، فلو لم تكن مجترة، وبمعدتها مخزن خاص، لضاع وقت طويل في الرعي.
فسبحان من خلقها، ووهبها سرعة الأكل، وهداها إلى تخزينه، ومكنها من إعادته بعد أن يصيب شيئاً من الرطوبة، ليبدأ الطحن والمضغ والبلع.
والطيور الجارحة كالبوم والحدأة والصقر، ذات منقار مقوس حاد، على شكل خطاف لتمزيق اللحوم.

بينما الأوز والبط لها مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة، توائم البحث عن الغذاء في الطين والماء، وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالأسنان لتساعد على قطع الحشائش.
أما الدجاج والحمام، وباقي الطيور التي تلتقط الحب من الأرض، فمناقيرها قصيرة مدببة لتؤدي هذا الغرض.
أما منقار البجعة فهو طويل طولاً ملحوظاً، ويمتد من أسفله كيس يشبه الجراب، ليكون كشبكة الصياد، إذ أن السمك هو غذاء البجعة الأساسي.
فسبحان الحكيم العليم الذي يخلق ما يشاء لما يشاء، ويهديه للحصول عليه بما يشاء.
ومنقار الهدهد طويل مدبب، أعد بإتقان للبحث عن الحشرات والديدان التي غالباً ما تكون تحت سطح الأرض.
وإنه ليمكن للإنسان أن يعرف غذاء أي طير من النظرة العابرة لفمه ومنقاره.
أما باقي الجهاز الهضمي للطير فهو غريب عجيب، فلما لم يعط أسناناً، فقد خلق الله له حوصلة وقانصة تهضم الطعام، ويلتقط الطير مواد صلبة وحصى لتساعد القانصة على هضم الطعام.

فسبحان رب العالمين، الذي خلق العوالم من الحيوانات التي لا يحصيها ولا يعلمها ولا يرزقها إلا هو:
عالم البهائم والأنعام .. عالم السباع .. عالم الطيور .. عالم الذر .. عالم النحل .. عالم النمل .. عالم الجراد .. عالم الحشرات .. عالم الخيل .. عالم الإبل .. عالم البقر .. عالم الغنم .. عالم الدجاج .. عالم الحمام .. عالم الأسماك.
وغيرها من العوالم التي لا يحصيها إلا الله.
فتبارك الله أحسن الخالقين الذي خلق جميع هذه الخلائق، ودبر أمرها، وقسم أرزاقها، وقدر آجالها: {ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)} (١٠).

والله تبارك وتعالى خالق كل شيء، خلق جميع هذه الحيوانات والطيور والحشرات من ماء كما قال سبحانه: {وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)} (١١).

فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة حين يلقح الذكر الأنثى، والتي تتولد من الأرض كالحشرات، تتولد من الرطوبات المائية بقدرة الله.
وقد تكفل الله عزَّ وجلَّ بأرزاق الخلائق كلهم، البشر والحيوان، والطيور والحشرات، قويهم وضعيفهم، قادرهم وعاجزهم، يسوقهم إلى أرزاقهم، أو يسوق أرزاقهم إليهم: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦)} (١٢).

ولا يزال الله يسخر لهذه الخلائق أرزاقها في كل وقت بوقته، ولا يمكن أن تهلك دابة من عدم الرزق، بسبب أنها خافية عليه، فهو سبحانه السميع العليم الذي لا يخفى عليه شيء: {وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)} (١٣).

فسبحان خالق هذا الكون العظيم، وما فيه من المخلوقات المختلفة.
وهي مخلوقات إلى جانب منافعها، تحمل آيات وعبر، وهي مخلوقة مقدرة، مأمورة مدبرة، صغيرها وكبيرها، ذكورها وإناثها، قويها وضعيفها، كلها في قبضة الله، ونواصيها بيده، وسكنها في ملكه: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦)} (١٤).

وكل فرد من هذه المخلوقات، قدر الله زمانه فلا يكون إلا فيه .. وقدر مكانه .. وقدر خطاه .. وقدر طعامه .. وقدر أجله .. وقدر كمية أفراده .. وهو محسوب كغيره من المخلوقات والأحداث العظام الضخام: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩)} (١٥).

وهذا العود الأخضر البري النابت وحده هناك في الصحراء، إنه الآخر قائم هناك بقدر، وهو طعام أعده الله للكائنات هناك.

وهذه النملة السارية، وهذه الهباءة الطائرة، وهذه البهائم السائمة، وهذه الخلية السابحة في الماء، كالأفلاك والأجرام الهائلة سواء:

لها تقدير في الزمان، وتقدير في المكان، وتقدير في المقدار، وتقدير في الشكل: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} (١٦).

وفي خلق الأنعام عبرة، حيث يسقي الله العباد من بطونها المشتملة على الفرث والدم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦)} (١٧).

وعالم النحل عالم عظيم عجيب، فقد خلق الله هذه النحلة الصغيرة، وهداها هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم أرجعها إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها.
ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)} (١٨).
فسبحان الخلاق العليم، الذي خلق كل شيء في السماء والأرض، في البر والبحر، من الجماد والنبات، والإنسان والحيوان.
وكل ناطق وصامت .. وكل متحرك وساكن .. وكل ذكر وأنثى .. وكل ماض حاضر .. وكل معلوم ومجهول .. وكل صغير وكبير .. كل ذلك مخلوق بقدر .. ومصرف بقصد .. ومدبر بحكمة.
لا شيء جزاف، ولا شيء عبث، ولا شيء مصادفة، ولا شيء ارتجال:
{إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠)} (١٩).

فهو سبحانه لم يخلق السموات والأرض والمخلوقات الأخرى لعباً ولا لهواً، بل خلقها بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، ليعبد الله وحده، وليأمر الله العباد وينهاهم، ويثيبهم ويعاقبهم.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون، لأنهم لم يتفكروا في خلق السموات والأرض وما فيهما من الخلائق: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩)} (٢٠) .

والطيور التي تسبح في الفضاء على اختلاف ألوانها وأحجامها وطيرانها، ماذا يعرف الإنسان عنها؟.
إنها أمة عظيمة من الأمم، خلقها الله عزَّ وجلَّ، وهي كغيرها مظهر من مظاهر قدرته سبحانه، وأثر من آثار التدبير الإلهي اللطيف: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)} (٢١) .
فهذه الآية العظيمة التي تقع كل لحظة، تنسينا بوقوعها المتكرر ما تشي به من قدرة الله وعظمته.

فكم من طائر الآن يطير في السماء؟، وكم من طائر يلقط الحب من الأرض؟. وكم من طائر يجمع العيدان لعشه؟، وكم من طائر يبيض؟، وكم من طير يخرج من بيضه؟، وكم من طائر يعلم فراخه ويطعمهم؟.
وجميع المخلوقات من جماد ونبات وحيوان، تسبح بحمد ربها، وكل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى لها كباقي المخلوقات: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١)} (٢٢) .

إن تأمل هذه الطيور السابحة في الفضاء، وهي تصف أجنحتها وتقبضهما في يسر وسهولة، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة به لا يمله النظر، ولا يمله القلب، وهو متعة فوق ما هو مثار تفكر وتدبر في خلق الله العجيب الذي يجمع الحسن والجمال والكمال.
إن يد الرحمن تمسك بالسموات والأرض، وتمسك بكل طائر، وبكل جناح، والطائر صاف جناحيه، وحين يقبض، ويبصره ويراه وهو معلق في الفضاء.

إن صنع الله كله إبداع وإعجاز، وكل قلب، وكل جيل يدرك منه ما يطيقه، ويلحظ منه ما يراه: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩)} (٢٣) .

فسبحان القوي العزيز، العليم الخبير، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

إن إمساك الطيور في الجو، كإمساك الدواب على الأرض، كإمساك الشمس والقمر، كإمساك النجوم المعلقة في الفضاء، كإمساك السموات والأرض، وكإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، فالله خالقها وحده، وهو الذي يمسكها بقدرته وحده.

فسبحان العزيز الجبار، القوي القهار الذي يمسك كل هذه المخلوقات بقدرته: {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١)} (٢٤) .

فمن هذا ملكه، وهذا خلقه، وهذه قدرته، وهذه رحمته، يجب أن يُطاع فلا يعصى، ويُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى: {فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ (٢١)} (٢٥) .

{قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣)} (٢٦) .

أخي القارئ : تعال معي نتعرف على { آيات الله في البحر} .

تأمل معي البحر بأمواجه وأحيائه تجده آية من آيات الله، ومن عـــــــجائب مصنوعاته، وكم لله من آية، ثم أضف إلى علمك أن الماء في الأرض يملأ ثلاثة أرباع سطح الأرض، فما الأرض بجبالها، ومدنها، وسهولها، وأوديتها بالنسبة إلى الماء إلا كجزيرة صغيرة في بحر عظيم يعلوها الماء من كل جانب، وطبعه العلو، ولولا إمساك الرب -سبحانه وبحمده- له بقدرته ومشيئته؛ لطفـــح على الأرض فأغرقها ودمرها وجعل عاليها سافلها، فتبارك الله لا إله إلا هـــو رب العالمين.

ثم تأمل معي أخرى عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها ومضارها وألوانها تجد عجباً وقدرة قادر جل وعـــلا، في البحار حيوانات كالجبال لا يقوم لها شيء، وفيه من الحيوانات ما يـــرى من ظهورها فيظن من عظمها أنها جزيرة فينزل عليها الركاب ويشعـــلوا نارهم فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فَيُعْلَم أنه حيوان كما ذكر ابن القيـــم ذلك في مفتاح دار السعادة، قال ابن القيم: وما من صنف من أصناف حـــيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، بل فيه أجناس لا يعهد لها نظير أصلاً، مع ما فيه أيضاً من اللآلئ والجواهر والمرجان، فسبحان الخالق الرحيم الرحمن!

ثم انظر إلى السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخر عبابه، بلا قائد يقودها ولا سائق يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الريح الذي سخره الله لإجرائهـــا، فإذا حبست عنها الريح ظلت راكدة على وجه الماء، فذاك قـــول الله: {وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ * إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} (٢٧) .

نعم.

سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، لا بأمر غيره سبحانه وبحمده، سخرها بأمره تجري ليست وفق رغبات النفوس الأمارة بالسوء، ولا رغبات الجشعين من الأفراد والهيئات التي استعملت أساطيلها منذ أقدم العصور إلى يومك هـــذا لقهر الإنسان ونهب خيراته واحتقار آدميته، فلك الحمد ربنا، ولك الأمر من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي صنع الإنجليز باخرة عظيمة، كانت كما يقولون فخر صناعاتهم، ثم انطلقت في رحلة ترفيهية حاملة على متنها علية القوم ونخبة المجتمع كما يصفون أنفسهم، وقد بلغ الفخر والاعتزاز ببناة السفينة درجة كبيرة من الصلف والغرور فسموها: الباخرة التي لا تقهر، بل سمع أحد أفراد طاقمها يتشدق فخراً أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: حتى الله نفسه لا يستطيع أن يغرق هذا المركب.

جل الله وتعالى وتقدس لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيي ويميت: {إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (٢٨) .
وفي اليوم الثالث من سيرها في المحيط الأطلسي وفي خضم كبرياء صنّاعها وركّابها تصطدم بجبل جليدي عائم؛ فيفتح فيها فجوة بطول تسعين متراً- طعنت فانبجست- وبعد ساعتين وربع تستقر الباخرة التي لا تقهر -كما زعموا- في قعر المحيط ومعها ألف وخمسمائة وأربعة ركاب وحمولة بلغت ستة وأربعين ألف طن: {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} (٢٩) .

تأمل معي أخرى كيف مد الله البحار وخلطها، وجعل مع ذلك بينها حاجزاً ومكاناً محفوظاً، فلا تبغي محتويات بحرٍ على بحر، ولا خصائص بحرٍ على آخر عندما يلتقيان: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} (٣٠) ، في إيران أنهار عندما تلتقي بمياه البحر ترجع مياهها عائدة إلى مجاريها التي جاءت منها، ونهر الأمازون يجعل مياه المحيط الأطلسي عذبة لمئات الكيلو مترات من مصبه فيه فلا يختلط بمياه المحيط الأطلسي، وتلتقي مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر الأبيض فتبقى مياه البحر الأبيض أسفل لثقلها ولكثرة ملحها وتعلو مياه المحيط لخفتها.

وكذلك لا تختلط مياه البحر الأسود بمياه البحر الأبيض عندما تلتقي بل تـــشكل مجريين متلاصقين فوق بعضهما البعض، فمياه البحر الأسود تجري في الأعلى نحو مياه البحر الأبيض لأنها أخف، ومياه البحر الأبيض تجري في الأسفل لأنها أثقل فتجري نحو البحر الأسود، فتبارك الذي: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَــذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً} (٣١) {لا إِلَـــــهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (٣٢) . عجائب البحر أعظم من أن يحصيهـــــا أحد إلا الله.

كشف علماء البحار من النصف الثاني من القرن العشرين أن في البحار أمواجاً عاتية دهماء مظلمة حالكة، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها، فعلى عمق ستين متراً عن سطح البحر يصبح كل شيء مظلماً في البحار، بمعنى أننا لا نستطيع رؤية الأشياء في أعماق تبعد ستين متراً عن سطح البحر، ولـــــذلك زود الله الأحياء البحرية التي تعيش في أعماق البحار اللجية بنور تولده لنفسها، ومن لم يجعل الله له نوراً في تلك الظلمات فما له من نور.

نسي هؤلاء المكتشفون أن الله ذكر تلك الظلمات في قوله قبل أن يخلقوا وآباؤهم وأجدادهم: {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِـــــنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} (٣٣) .

تُرْجِمَ معنى هذه الآية لعالم من علماء البحار أفنى عمره في ذلك وظن أنــه على شيء وأنه اكتشف شيئاً وجاء بشيء فيه إبداع، فقال في دهشة بعد ترجمـــــة الآية: إن هذا ليس من عند محمد الذي عاش حياته في الصحراء، ولم يعاين البحر ولججه وظلماته وأمواجه، إن هذا من عند عليم خبير، ثم شهد شهادة الحـــق ودخل في دين الله نعم.

لا يملك إلا ذلك.

من واصف الظلمات في قعر الـ بحار سوى الله العليم البــــاري
سبحانه ملكاً على العرش استوى وحوى جميع المُلْكِ والسلطان

لا إله إلا الله!

كيف تعمى العيون وتعمى القلوب عن آيات الله: {أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ}(٣٤) .
سأل رجل أحد السلف عن الله، فقال له: ألم تركب البحر؟ قال: بلى.

قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم.

قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم.

قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك بأن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟
قال: نعم.

قال: فذاك هو الله لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (٣٥) .

ومن عجائب البحر التي تدل على إدراكه وعبوديته لله جل وعلا: أنه يعظم عليه أن يرى ابن آدم يعصي الله عز وجل مع حلم الله عليه، فيتألم البحر لذلك ويتمنى هلاك عصاة بني آدم، بل ويستأذن ربه في ذلك، جاء في مسند الإمام أحمد فيما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: {ليس من ليلة إلا والبحر يشرق فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينتضح عليهم -أي على العصاة- فيكفه الله بمنه وكرمه} فلا إله إلا الله! البحر يتمعر، ويتمنى إغراق العصاة، ويستطيع لكنه مأمور، ومنا من لا تحرك فيه المعصية ساكناً، تُنْتَهَك حرمات الله، وتُتَجَاوز حدوده، وتُضَيَّع فرائضه، ويعادى أولياؤه، ثم لا تتمعر الوجوه، فأين الإيمان يا أهل الإيمان؟(٣٦) .

إن في ذلك لآية وكم لله من آية، فتأملوا يا أولي الألباب!

أخي القارئ : تعال معي نتعرف أيضاً على { آيات الله في النمل } .

تأمل تلك النملة الضعيفة، وما أعطيت من فطنة وحيلة في جمع القوت وادخاره، وحفظه ودفع الآفة عنه، ترى عبراً وآيات باهرات تنطق بـــــقدرة رب الأرض والسماوات وتقول: { أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ} (٣٧) .

انظر إليها تخرج من أسرابها طالبة أقواتها، فإذا ظفرت بها شرعت في نقـــلها على فرقتين اثنتين، فرقة تحملها إلى بيوتها ذاهبة، وأخرى خارجة من بيوتـها إلى القوت، لا تخالط فرقة أخرى كخيطين أو جماعتين من الناس، الذاهبون في طريق والراجعون في أخرى في تناسق عجيب.

ثم إذا ثقل عليها حمل شيء، استغاثت بأخواتها فتعاونت معها على حـــملها، ثم خلوا بينها وبينه، وبلا أجرة، تنقل الحب إلى مساكنها ثم تكسره اثنتين أو أربعة، لئلا ينبت إذا أصابه بلل، وإذا خافت عليه العفن، أخرجته إلى الشمس حــــــتى يجف، ثم ترده إلى بيوتها، ولعلك قد مررت يوماً عليها وعلى أبواب مــساكنها حب مكسر، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه حبة واحدة.

والنمل مع ذلك يعتني بالزراعة وفلاحة الأرض، فقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما فيها أرز قصير من نوع بري مساحة القـــطعة خمسة أقدام في ثلاثة، ويترائى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أن أحـداً لا بد أن يعتني بها، الطينة مشققة، والأعشاب مستأصلة والغريب أنه ليس هنــــاك مناطق أرز حول ذلك المكان.

ولاحظ ذلك العالم أن طوائف من النمل تأتي إلى هذه المزرعة الصغيرة وتذهب، فانبطح على الأرض ذات يوم ليراقب ماذا يصنع النمل، فإذا به يفاجــأ أن النمل هو صاحب المزرعة، وإنه اتخذ الزراعة مهنة تشغل كل وقته، فبعضه يــــشق الأرض ويحرث، والبعض يزيل الأعشاب الضارة وينظف، وطال الأرز واستوى ونضج، وبدأ موسم الحصاد، وهذا لا زال بمناظيره يراقب، فيشاهد صفاً مــــن النمل وهو في وقت الحصاد متسلقاً شجر الأرز، إلى أن يصل إلى الحبوب فتنتزع

كل نملة حبة من تلك الحبوب، ثم تهبط سريعاً إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض لتخزنها ثم تعودَ.

وطائفة أخرى أعجب من ذلك تتسلق مجموعة كبيرة منها أعواد الأرز، فتلتقط الحب وتلقي به فبينما هي كذلك، إذ بمجموعة أخرى تحتها تتلقى هذا الحب وتذهب به إلى المخازن.

ويعيش النمل هناك عيشة مدنية في بيوت، بل في شقق وأدوار، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء أخرى فوقها، له حراس وخدم وعبيد وهناك ممرضات تعنى بالمرضى ليلاً ونهاراً، وقسم آخر يرفع جثث الموتى ويشيعها ليدفنها، كل هذا يتم بغريزة أودعها الله في هذا القلب، فتبارك الله: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} (٣٨) .

عالم النمل عالم عجيب، من تأمله ازداد إيماناً ويقيناً بأن وراء ذلك التنظيم المحكم حكيماً خبيراً، بإفراد العبادة له جديراً لا شريك له.

إنها تعرف ربها، وتعرف أنه فوق سماواته مستوٍ على عرشه، بيده كل شيء يوم ضل من ضل، روى الإمام أحمد في الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال: {خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تدعو ربها، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بغيركم}.

للنمل مدافن جماعية يدفن فيها موتاه كالإنسان، والنمل ذكي جد ذكي، ويصطاد بطريقة ذكية، يأتي إلى شجرة فينقسم إلى قسمين، قسم يرابط تحت الشجرة قرب جذعها، وآخر يتسلق جذعها لمهاجمة الحشرات التي تكون عليها، وبذلك يحكم الطوق على كل حشرة لا تطير، فتسقط التي تنجو من النمل المتسلق فتقع في شباك النمل المتربص بها عند قاعدتها، من هداها؟ من هيأ لها رزقها؟ إنه القائل: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (٣٩) ألا له الخلق والأمر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

المراجع: للباب السادس : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة الأنعام ، آية : ٣٨)
(٢) (سورة النور ، آية : ٤٥)
(٣) (سورة النحل ، آية : ٤٩- ٥٠)
(٤) (سورة يس ، آية : ٧١- ٧٣)
(٥) (سورة النحل ، آية : ٥)
(٦) (سورة الحجر ، آية : ٢١)
(٧) (سورة الجاثية ، آية : ٣-٤)
(٨) (سورة الزخرف ، آية : ٨٤)
(٩) (سورة طه ، آية : ٥٠)
(١٠) (سورة الأنعام ، آية : ١٠٢)
(١١) (سورة النور ، آية : ٤٥)
(١٢) (سورة هود ، آية : ٦)
(١٣) (سورة العنكبوت ، آية : ٦٠)
(١٤) (سورة هود ، آية : ٥٦)
(١٥) (سورة الشورى ، آية : ٢٩)
(١٦) (سورة القمر ، آية : ٤٩ - ٥٠)
(١٧) (سورة النحل ، آية : ٦٦)
(١٨) (سورة النحل ، آية : ٦٨- ٦٩)
(١٩) (سورة القمر ، آية : ٤٩- ٥٠)
(٢٠) (سورة الدخان ، آية : ٣٨- ٣٩)
(٢١) (سورة الملك ، آية : ١٩)
(٢٢) (سورة النور ، آية : ٤١)
(٢٣) (سورة الملك ، آية : ١٩)
(٢٤) (سورة فاطر ، آية : ٤١)
(٢٥) (سورة الانشقاق ، آية : ٤١)
(٢٦) (سورة الأعراف ، آية : ٢٣)
(٢٧) (سورة الشورى ، آية : ٣٢- ٣٣)
(٢٨) (سورة آل عمران ، آية : ٤٧)
(٢٩) (سورة العنكبوت ، آية : ٤٠)
(٣٠) (سورة طه ، آية : ٥٤)
(٣١) (سورة الفرقان ، آية : ٥٣)
(٣٢) (سورة التوبة ، آية : ٣١)
(٣٣) (سورة النور ، آية : ٤٠)

(٣٤) (سورة النمل ، آية : ٦٣)
(٣٥) (سورة يونس ، آية : ٢٢-٢٣)
(٣٦) (مسند الإمام احمد)
(٣٧) (سورة النمل ، آية : ٦٢)
(٣٨) (سورة الأنعام ، آية : ٣٨)
(٣٩) (سورة هود ، آية : ٦)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب السابع :

الفصل الأول : آيات الإعجاز في خلق الله لا حصر لها ولا عدّ :
الفصل الثاني : علم الإنسان ما لم يعلم :
الفصل الثالث : الإيمان والجحود : عبادة التفكر والتدبر :

الباب السابع : الفصل الأول : آيات الإعجاز في خلق الله لا حصر لها ولا عدَّ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله إقرارا بوحدانيته، والشكر له على سوابغ نعمته، اختص بـها أهل الصدق والإيمان بصدق معاملته، ومن على العاصي بقبول توبته، ومد للمسلم عملا صالحا بوصيته، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المفضل على جميع بريته. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته، والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

إن آيات الإعجاز في خلق الله لا حصر لها ولا عدَّ، وهي مبثوثة في كلِّ ناحية من نواحي هذا الكون الفسيح؛ فالإنسان ذاته آية، والسماء وما أظلَّت آية، والأرض وما أقلَّت آية.. وغيرها كثير، وما على الإنسان إلا أن يفتح عينيه متأمِّلاً ليرى، ويصغي بأذنيه متعقِّلاً ليسمع، فيتفتَّح قلبه، وتتنوَّر بصيرته، ويحدث التَّماسُّ بينه وبين الإيمان بخالق هذه الآيات العظام. وقد بين عليه الصلاة والسلام شيئا من عظمة ربه فيما خلق ،
ففي سنن أبي داود : عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- قَالَ :
{ أُذِنَ لِى أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلاَئِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ }. ،(١)
قال ﷺ : { أذن لي أن أحدث عن ملك قد مـرقت رجلاه الأرض السـابعة، والعرش على منكبه وهو يقول: سبحانك أين كنت وأين تكون }
، وسئل بعض السلف عن عظمة الله تعالى فقال للسائل: (ما تقول فيمن له عبد واحد يسمى جبريل له ست مئة جناح، لو نشر منها جناحين لستر الخافقين) ،

فسبحان الله وبحمده عدد كل شيء. واقتضت رحمه الله سبحانه وتعالى :أن جعل ماء الأذن مرا: في غاية المرارة، لكي يقتل الحشرات والأجزاء الصغيرة التي تدخل الأذن. وجعل ماء العين مالحاً: ليحفظها لأن شحمتها قابله للفساد فكانت

ملاحتها صيانة لها ،وجعل ماء الفم عذباً: ليدرك طعم الأشياء على ماهية عليه إذا لو كانت على غير هذه الصفة لأحالها إلى غير طبيعتها ،والمؤمنون بربهم، المتفكرون في خلقه؛ يدركون عظمته، فيقرون بربوبيته، ويخضعون لألوهيته، ويخلصون في عبادته، ولا يشركون معه غيره،لا في محبة ولا رجاء ولا خوف، يتأملون آياته، ويتفكرون في مخلوقاته، فتخشع قلوبهم، وتقشعر أجسادهم، وتفيض بالدمع أعينهم؛ إجلالا لله تعالى وتعظيما وإخلاصا ، وتلهج ألسنتهم بذكره عز وجل وتسبيحه وتكبيره وحمده قائلين
{ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } ،(٢)

لقد دلت دلائل الوجود على عظمة ربنا جل في علاه، وخضعت له المخلوقات، وبهذا الخضوع انتظم العالم، وصلحت أحوال الخلق، فقنوت الكل له عز وجل دليل على عظمته ، قال تعالى { وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ } ،(٣)
وفي الآية الأخرى: { وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } (٤)

أخي القارئ : أعلم إن :
تلك بعض النصوص التي تدل على آيات الله الظاهرة، وقدرته القاهرة، وعظمته الباهرة، فهل قدرنا الله حق قدره؟! هل عظمناه حق تعظيمه؟! هل قمنا بحقه جل وعلا علينا، ونحن خلقه وعبيده؟!. فعَنْ مُعَاذٍ – رضى الله عنه – قَالَ كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ – ﷺ – عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ ، فَقَالَ { يَا مُعَاذُ ، هَلْ تَدْرِى حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ » . قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ « فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ قَالَ (لاَ تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا) } (٥) .

وإن من أظلم الظلم ، وأعظم الإثم ، الإشراك بالله، وصرف خالص حقه لـغيره، وعدل غيره به، قال الله تعالى { إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ } (٦) .
ويقول جل وعلا: { فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ } (٧) .

ومن عظمته عز وجل: أنه لا قيام للموجودات إلا به تبارك وتعالى :
{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ * وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ } (٨) .

وما يجري في القيامة من أهوال وأحوال، وأوصاف الجنة والنار، كـل ذلك من دلائل عظمة الكبير المتعال ، ومن ذلك ما روى سلمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: {يوضع الميزان يوم القيامة فلو وزن فيه السماوات والأرض لوسعت، فتقول الملائكة: يا رب لمن يزن هذا؟ فيقول الله تعالى: لمن شئت من خـلقي، فتقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك، ويوضع الصراط مثل حـد الموسى فتقول الملائكة: من تجيز على هذا؟ فيقول عز وجل: من شئـت من خلقي، فيقول الملائكة: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك} (٩) .

فهو ﷻ عظيم في ربوبيته، عظيم في ألوهيته، عظيم في أسمائه وصفاته، عظيم في ملكه وخلقه، عظيم في حكمته ورحمته، عظيم في افتقار خلقه إليـه وغناه هو عنهم، عظيم في تدبيره شؤون خلقه، عظيم في الفصل بين عـباده، وكل عظمة في الوجود فهي دليل على عظمة خالقها ومدبرها؛ جل في علاه، وتعاظم في مجده. أيها المسلمون ومن تأمل أعظم آية في القرآن وهي آية الكرسي علم أنها قد جمعت أوجه العظمة للخالق سبحانه فاستحقت أن تكون أعظم آيـة في كلامه عز وجل كما استحقت الفاتحة أن تكون أعظم سورة؛ لأنها دلت المؤمنين على عظمة العلي العظيم.

لذا وصف النبي – ﷺ – آية الكرسي بأنها أعظم آية في كتاب الله – عز وجل -، وكل القرآن عظيم. ففي صحيح مسلم : عَنْ أُبَىِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – ﷺ- { يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ « يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَىُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ». قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ. قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ « وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ }. (١٠)

وقد بين لنا الرسول ﷺ عظمة الخالق وجلاله وكماله ففي صحيح مسلم :
عَنْ أَبِى مُوسَى قَالَ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ- بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ فَقَالَ
{ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ حِجَابُهُ النُّورُ – وَفِي رِوَايَةِ أَبِى بَكْرٍ النَّارُ – لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ }. (١١)

فهو – سبحانه – المالك، وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبر، وغيره مخلوق مرزوق لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولهذا قال – سبحانه -: { مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ } (١٢)

فلا يملك الشفاعة إلا الله، ولا يشفع عنده أحد إلا من بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع فيه، فإذا أراد – سبحانه – أن يرحم من يشاء من عباده، أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه قال – تعالى -: { قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا } (١٣)، وقال تعالى : { وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى } (١٤)،
وقال تعالى : { وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لاَ تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى } (١٥) .

فهو – سبحانه وتعالى {يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ} – وهو بكل شيء عليم، وبكل شيء محيط، ووسع كل شيء علمًا، يعلم ما كان وما هو كائن وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، أما الخلق فقد وصفهم الله – سبحانه -:

{ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ} ، فلا يطلعون على شيء مـن ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم عليه، ولا يحيطون به علمًا، ولا يعلمون من أمـر الكون أو الشرع إلا بما أعلمهم الله – عز وجل -. وعلم الخلائق جميعًا لا يساوي قطرة في بحر علم الله – عز وجل – كما قال الخضر لموسى . عليهما السلام -، ولهذا قال الله – تعالى -: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (١٦) .

ولقد صح عن النبي – ﷺ -: {ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلـــقةٍ ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحـــــلقة } (١٧) .

أخي القارئ :

أعلم إن في الأرض من الآيات الدالة على عظمة الخالق وقدرته الباهرة مـما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوان والجبال والقفار والأنهار والبحار، وما دق وما عظم من المخلوقات ما يدل على عظيم قدرة الله – تعالى -وبديع صنعه الذي تحار فيه العقول.

وما في السماء من آيات أعظم مما في الأرض، فقد بناها الخلاق العظـــيم بقوة وأوسع خلقها، وبغير عمد رفعها وأقامها، وزينها بالنجوم والكواكب، حـتى إن الناظر إليها بأعظم وسائل التقنية من تلسكوب أو أقمار صناعية ليـــــحار من عظمتها وسعتها: قال تعالى { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ } (١٨) .

وقال تعالى: { أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَـــــــعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّـــــرُونَ * أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّـــمَاءِ وَالأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ } (١٩) .

نعم أيها الأحبة وأخي القارئ:
أإله مع الله؟ أإله مع الله يخلق؟
أإله مع الله يدبر؟ أإله مع الله يأمر؟
أإله مع الله ينهى؟ أإله مع الله يشرع؟ أإله مع الله يخلق من عدم؟
أإله مع الله يعز من يشاء ويذل من يشاء؟
أإله مع الله يعطي الملك ويسلب الملك؟
أإله مع الله يخفض أقواماً ويرفع آخرين؟
أإله مع الله يبسط ويقدر؟
أإله مع الله يحي ويميت؟!

لا وألف لا، سبحان الله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ولقد عرف السلف قول الله عز وجل: { فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } (٢٠)
وقالوا: إن ذلك إشارة إلى أماكن النجوم، ثم تطور العلم وتقدم الإعجاز فاكتشف علماء الفلك أن هناك نجوماً ذهبت من أماكنها، أرسلها الله، سرعتها كسرعة الضوء أو أكثر ولم ترتطم بالأرض إلى اليوم وبقيت مواقعها هناك ، فقال عز وجل: { فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ } (٢١) .

ولم يقل الله فلا أقسم بالنجوم تعظيماً لمواقعها التي قدرها وشاءها ولا تخرج عن مسارها ومدارها ولا تتعدى ما حدد الله لها قيد أُنملة ، لذا قال سبحانه : { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ } (٢٢) .

وروى البخاري بسنده : عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ عَنْ أَبِيهِ – رضى الله عنه – قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ – ﷺ – يَقْرَأُ فِي الْمَغْرِبِ بِالطُّورِ فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ } (٢٣) .

كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ ،فالحمد لله الذي أودع في مخلوقاته ما يشهد بربوبيته ، ويدل على وحدانيته .. فلا يعلم ما يستحق إلاّ هو ، ولا يحسن الثناء عليه غيره ، ولا يحيط بعلمه سواه ، بالجمال تفرّد .. وبالكمال اتصف ، وله نعوت العز ، وغلبة القهر وجبروت العظمة .. لا إله إلاّ هو ، أتته السماء والأرض طائعة وتضامنت لكبريائه الجبال خاشعة . شدا الطير بذكره وهدل الحمام بشكره وتعلقت الخلائق بعفوه ولطفه . وما أجمل قول من قال في وصف قدرة الله وعظمته في خلـقه :

قل للطبيب تخطفته يد الـردى من يا طبيب بطبه أرداكـــــــــا
قل للمريض نجى وعوفي بعدما عجزت فنون الطب من عافاكا
قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا يا صحيح دهاكـــــا
قل للبصير وكان يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواكـــا
بل سائل الأعمى خطى بين الزحام بلا اصطدام من يقود خطاكا
قل للجنين يعيش معزولاً بـلا راع ولا مرعى ما الذي يرعـــاكا
قل للوليد بكى وأجهش بالبكا بعد الولادة ما الذي أبكاكـــــا
وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسموم حـــــشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكـــــا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد من حلاكـا
بل سائل اللبن المصفى كان بين دم وفرث ما الذي صفاكـــــا
وإذا رأيت الحي يخرج من حنا يا ميت فاسأله من أحياكـــــا
قل للهواء تحسه الأيدي ويخفى عن عيون الناس من أخـــفاك
قل للنبات يجف بعد تعهد ورعاية من بالجفاف رماكــــــا
وإذا رأيت النبت في الصحراء يربو وحده فاسأله من أربـــاكا
وإذا رأيت البدر يسري ناشراً أنواره فسأله من أسراكـــــــا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناكا
قل للمرير من الثمار من الذي بالمر من دون الثمار غذاكـــا
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى فاسأله من يا نخل شق نواكا
وإذا رأيت النار شب لهيبها فاسأل لهيب النار من أوراكــــا
وإذا ترى الجبل الأشم مناطحاً قمم السحاب فسله من أرساكا
وإذا ترى صخراً تفجر بالميـاه فسله من بالماء شق صـــفاكا

وإذا رأيت النهر بالعذب الزلال جرى فسله من الذي أجراكـــــا
وإذا رأيت البحر بالملح الأجا ج طغى فسله من الذي أطغاكـــــا
وإذا رأيت الليل يغشى داجيـاً فاسأله من يا ليل حاك دجاكـــــا
وإذا رأيت الصبح يسفر ضاحياً فاسأله من يا صبح صاغ ضحاكا
هذى عجائب طالما أخذت بها عيناك وانفتحت بها أذناكـــــا
يا أيها الماء المهين من الذي في ظلمة الأحشاء قد ســـــواكا
ومن الذي تعصي ويغفر دائماً ومن الذي تنسى ولا ينـــــساكا
يا أيها الإنسان مهلاً ما الـذي بالله ﷻ أغراكا
أتراك عيناً والعيون لها مـدى ما جاوزته ولا مدى لـــــمداكا
إن لم تكن عيني تراك فإنني في كل شيء أستبين علاكـــــــا.

نعم فهو العظيم القدير ، فمن رَفعَ بغير عمدٍ السماء ، ومن نصـــب الجبال في البيداء ، ومن أجرى في الجداول الماء ، ومن حمل الطير في الـــــهواء ، ومن شق بعد الظلمة الضياء ، أإله مع الله قليلا ما تذكرون ، كم زهرة فيحاء ، ونبتة خضراء ، وحدــيقة غناء ، من أنبت شجرها ، وشكل مطاعمها ، وأزهى بالحسن ألوانهـــــا ، أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون . ترى الكواكـــب السيارة فتذهلك كثرتها ، وتعجب من بديع صنعها ، قد لزم كل منها مـساره فلا يتجاوزه ، بل ولا يحيد عنه ، ومع ذلك فلا تصادم بينها ولا ارتطام ، معلقــة في أجواء السماء ، إن أَمْسكها من أحد سواه ، تعاظمت قدرته ، وجل ثناؤه .

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَـــرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} (٢٤) .

أما أبصرت يوماً الأرض وقد ظمأ ترابها ؟ وأجدبت بطحاؤها ، ويبست عروق أشجارها ، وتحاتت أوراقها ، فما لبثت أن أصابتها دلمة السماء بسقيا رحمة ونماء ، وخير من الكريم وعطاء فإذا الفيافي تبهرك خضرتها ،وتشنفك بطيب عبير أزهارها . قال تعالى { وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ } (٢٥) .

أخي القارئ : أعلم :

إن عظمة الله لا يحدها لسان ولا يسطرها قلم، ولا يحويها ورق ، إنها عظمة تعجز الألسنة عن وصفها، وتعجز الأقلام عن كتابتها، وتعجز الأسفار أن تحويها، ولكن الله عز وجل بما شرع على لسان نبيه ﷺ، وعلمنا أن ندعو، وأن نتملق، وأن نخضع، وأن نسبح الله عز وجل لنقول: سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. قال تعالى :
{ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } (٢٦) .

نعم أيها الأحبة: إننا لا نحصي ثناءً على الله ولا نحصي على الله أسمائه الحسنى، ولا نحصي على الله صفاته العلا، وكننا نقول كما علمنا رسول الله ﷺ كما في مسند أحمد { أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ } ، (٢٧) .

وأما علمنا عنه سبحانه فهو قليل من كثير ، وما أوتينا من العلم إلا قليلاً. إذا أدركنا هذا -أيها الأحبة- زدنا يقيناً وشعوراً بأننا خلق حقير في مقابل عظمة مطلقة لا متناهية، وهي عظمة الله عز وجل، فأنى لعبد أن يصارع أو يكابر أو يدابر، أو يتكبر أو يصعر أو يتجبر ليعرض عن طاعة الله عز وجل. عجباً لنا معاشر الخلق من أي شيء خلقنا وما الذي نحمله في أجوافنا؟ أليست أعيننا تحمل القذى؟ أليست أنوفنا تحمل المخاط؟ أليست آذاننا تحمل ما تعلمون؟ أليس في أجوافنا البول والغائط؟ أليس في مغابننا من الروائح ما يجل اللسان عن ذكره ووصفه؟ عجباً لنا وقد خلقنا من ماء مهين : { فَلْيَنظُرْ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ} (٢٨) .

وقال تعالى { أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ } (٢٩) .

أنى لهذا الإنسان الضعيف المسكين الذي هو من أصل مهين أن يتجبر أو يعرض عن طاعة الله، فحق كل عبد من عباد الله، والواجب عليه أن يعرف مقدار ذله وحقارته وصغره أمام عظمة الله عز وجل المطلقة التي لا يحدها حد أبداً؛ ومن أدرك ذلك فإن هذا من أعظم أبواب الإقبال على الله عز وجل، فإن أطعت فإنما تطيع من يستحق الطاعة، وإن عبدت فإنما تعبد من يستحق العبادة وحده لا شريك له، وإن أذنبت فليس بحقيق لك ولا يجوز لك أن تصر على الذنب وأن تمعن في المعصية، بل واجبك أن تنكسر وأن تفر من الله إلى الله، وأن تهرب من سخط الله إلى رحمة الله، ترجو حلمه وستره ومغفرته. نعم أيها الأحبة: من أدرك هذا فإنه يزيده بربه إيماناً، ويزيده لخالقه طاعة وانقياداً لوجهه سبحانه، أوليس الله عز وجل يقول في الحديث القدسي كما في صحيح مسلم:

عَنْ أَبِى ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ -ﷺ- فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ :

{ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلاَ تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّى فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِى فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ }. (٣٠) .

فمن عظم الله سبحانه وقدره حق قدره تحقق فلاحه ونجاحه وسعادته في دنياه وأخراه ، بل إنَّ تعظيمه سبحانه أساس الفلاح، وكيف يفلح ويسعد قلب لا يعظم ربه وخالقه وسيده ومولاه، ومن عظم الله عرف أحقية الله عز وجـل بالذل والخضوع والخشوع والانكسار، وعظّم شرعه ، وعظّم دينه ، وعرف مـكانة رسله. وهذا التعظيم لله سبحانه يعد أساسا متينا يقوم عليه دين الإسلام. بل إن روح العبادة في الإسلام هو التعظيم، وقد ثبت في الحديث الصحيـح عن نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – سيد ولد آدم إمام الأولين والآخرين وقـدوة الخلائق أجمعين وأتقى الناس لرب العالمين – أنه صلوات الله وسلامه علـيه كان يقول في ركوعه وسجوده بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه :

{ سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ} ، (٣١) .

وكان يقول عليه الصلاة والسلام :{فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ}، (٣٢) .

وكان عليه الصلاة والسلام يقول في ركوعه :{سُبْحَانَ رَبِّيَ الْعَظِيـم}، ويقول في سجوده :{ سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى} ، ويقول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّـمَ : { كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ} .(٣٣) . فهو سبحانه (العظيم) ،

وهو جل وعلا عظيم في أسمائه ، وعظيم في صفاته ، وعظيم في أفعـاله ، وعظيم في كلامه ، وعظيم في وحيه وشرعه وتنزيله ، بل لا يستحـقّ أحدٌ التّعظيم والتكبير والإجلال والتمجيد غيره، فيستحق على العـباد أن يعظّموه بقلوبهم وألسنتهم وأعمالهم، وذلك ببذل الجهد في معرفته ومـحبّته والذّل له والخوف منه، ومن تعظيمه سبحانه أن يطاع فلا يُعصى، ويُذكر فـلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر، ومن تعظيمه وإجلاله أن يخضع لأوامره وشرعـه وحكمه، وأن لا يُعترض على شيء من شرعه. إنها آيات عظام وشواهد جـسام على عظمة المبدع وكمال الخالق { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (٣٤) .

أي براهين واضحات وشواهد بينات ودلائل ساطعات على عظمة المبدع وكماله جل شأنه، بادية لمن أبصرها وقد رقمت سطورها على صفحات المـخلوقات يقرأها كل عاقل وغير كاتب نصبت شاهدة لله بالوحدانية والربوبية والعـلم والحكمة والعظمة .. تأمل سطـور الكائنات فإنها ... من الملأ الأعلى إلـيك رسائل ..وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

إن تفكر المؤمن وتأمّله في آيات الله العظيمة ومخلوقاته الباهرة تـــهدي قلبه وتسوقه إلى تعظيم خالقه ، تفكر في هذه الأرض التي تمشي عليـــها والجبال المحيطة بك ، إن نظرة منك متجردة إلى هذه الأرض متفكراً فيها تــــجد أنها مخلوقات عظيمة ؛ عظمة تبهر القلوب، فإذا ما وسّعتَ النظر ونــظرت فيما هو أعظم من ذلك وتأملت في السماء المحيطة بالأرض تتضاءل عندك هذه العظمة ؛ عظمة الأرض بالنسبة إلى عظمة السماء ، ثم إذا تأملت فيما هو أعــظم وهو السماوات السبع المحيطة بهذه الأرض يزداد الأمر عظمة ، ثم إذا تأملـــت في ذلكم المخلوق العظيم الذي قال الله عنه في أعظم آية في كتاب الله – قال جـــل شأنه – : { وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ } (٣٥) .

أي أحاط بها ؛ فتتضاءل عظمة السماوات وعظمة الأرض أمام عظـــــمة هذا المخلوق ، ثم تتضاءل هذه العظمة إذا تأمل العبد في النسبة بين عظمة الكرسي وعظمة العرش المجيد أوسع المخلوقات وأعظمها . فما بال الإنـــسان يتغافل ويتجاهل وينسى هذه الحقائق العظيمة والبراهين الساطعة . ثـــم يكون غافلا عن تعظيم ربه وخالقه ومولاه ، فترى في الناس ملحداً زنديقاً، وترى في الناس مشركاً مندِّداً، وترى في الناس كافراً بربه ليس موحِّدا ، وترى في الــــناس مستهزئاً بشرع الله مستخفاً بدين الله ، وترى في الناس متهكماً ساخــراً برسل الله ، { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } (٣٦) .

إلا القليل من عباد الله يوفقهم جل شأنه إلى تعظيم الخالق عز وجل ، فإذا عظّمت القلوب الله عظُم في النفس شرع الله ، وعظُمت حرمات الله ، وصلـــحت أحوال العباد ، قال تعالى : { ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ }(٣٧) .

إن تعظيم الله جل شأنه فرع عن المعرفة بالله جل وعلا ؛ فكلما كان العـبد أعظم معرفة بالله كان أشد لله تعظيما وأشد له إجلالا وأعظم له مخافة وتحقيـقا لتقواه جل شأنه ، وإذا عظّم القلب ربه خضع له سبحانه وانقاد لحكمه وامتثل أمـــره وخضع له جل شأنه. وجميع صنوف الانحرافات وأنواع الأباطيل والضلالات في جميع الناس منشؤها من ضعف التعظيم لله أو انعدامه في القلوب. ونســـتكمل الحديث عن دلائل عظمة الله وقدرته في خلقه في لقاء قادم إن شاء الله .

المراجع: للباب السابع : الفصل الأول :

---

(١) (سنن ابو داود)
(٢) (سورة آل عمران ، آية : ١٩١)
(٣) (سورة البقرة ، آية : ١١٦-١١٧)
(٤) (سورة آل عمران ، آية : ٨٣)
(٥) (متفق عليه)
(٦) (سورة المائدة ، آية : ٧٢)
(٧) (سورة الحج ، آية : ٣٠ - ٣١)
(٨) (سورة الروم ، آية : ٢٥-٢٦)
(٩) (رواه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم)
(١٠) (صحيح مسلم)
(١١) (صحيح مسلم)
(١٢) (سورة البقرة ، آية : ٢٥٥)
(١٣) (سورة الزمر ، آية : ٤٤)
(١٤) (سورة الأنبياء ، آية : ٢٨)
(١٥) (سورة النجم ، آية : ٢٦)
(١٦) (سورة الإسراء ، آية : ٨٥)
(١٧) (السلسلة الصحيحة)
(١٨) (سورة الذاريات ، آية : ٤٧)
(١٩) (سورة النمل ، آية : ٦٠-٦٤)
(٢٠) (سورة الواقعة ، آية : ٧٥)
(٢١) (سورة الواقعة ، آية : ٧٥)
(٢٢) (سورة غافر ، آية : ٥٧)
(٢٣) (سورة الطور ، آية : ٣٥-٣٦-٣٧)
(٢٤) (سورة يس ، آية : ٣٨-٤٠)
(٢٥) (سورة الحج ، آية : ٥)
(٢٦) (سورة لقمان ، آية : ٢٧)
(٢٧) (مسند الإمام احمد)
(٢٨) (سورة الطارق ، آية : ٥-٧)
(٢٩) (سورة المرسلات ، آية : ٢٠-٢٣)
(٣٠) (صحيح مسلم رقم ٢٥٧٧)
(٣١) (أخرجه أبو داود: باب تفريع أبواب الركوع والسُّجود، باب ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، برقم (٨٧٣)،
(٣٢) (أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل برقم (٧٧٢).

(٣٣) (أخرجه البخاري رقم ٦٦٨٢ ، ومسلم برقم ٢٦٩٤)
(٣٤) (سورة آل عمران ، آية : ١٩٠)
(٣٥) (سورة البقرة ، آية : ٢٥٥)
(٣٦) (سورة يوسف ، آية : ١٠٣)
(٣٧) (سورة الحج ، آية : ٣٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق فسوى وقدر فهدى ، وأشهد أن لا إله إلا الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا تحصى نعمه عدا ، ولا نطيق لها شكرا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المصطفى والخليل المجتبى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن على النهج اقتفى ، وسلم تسليماً كثيرا .

أما بعد :

في العلوم الكونية اعتاد الناس أن يسألوا ثم يحاولوا البحث عن الإجابة في القرآن الكريم، وهذا صحيح من حيث العقيدة والمنهج معاً، ولكن عندما يسأل القرآن الكريم سؤالاً محمولاً على محمل التأكيد أو التقريع أو الحث والتحريض فإن الإجابة هي الصمت أولاً.

من بعد الصمت تأتي محاولة الإجابة بالنص القرآني نفسه، اقتباساً واستدلالاً، وهذا أيضاً صحيح من حيث المبدأ والمنهج سوياً. أما إذا توجه أحدهم نحو الإجابة المباشرة، بعد المرحلتين السابقتين فما أمامه إلا ما قاله الآخرون من مفسرين ومجتهدين وفقهاء، حتى إذا استنفد كل هذه الوسائل الرشيدة حاول بنفسه استخلاص ما يريد إن تعذّر عليه ما يريد وفق ما سبق! هنا، لابد من العلم الموسوعي والعلم الخاص في معالجة مثل هذه المواقف الصعبة. وبقدر تعلق الأمر بعلوم الفيزياء الفلكية فإن سؤالاً من مضمون الآيات الكريمة الآتية { أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا، وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا} (١) .

تسهل الإجابة عنه بالقرآن نفسه وبالآية الكريمة: { لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} (٢) .

ولو تركنا آية غافر هذه لأصبح الجواب متعذّراً على نحو حاسم ومباشر على الرغم من العطف الواسع في (بَنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا.. وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا)،

ولقد يقال إن قراءة السؤال على نظام آخر يوفر الجواب من متنه في مضمون {بنَاهَا، رَفَعَ سَمْكَهَا.. وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا }، وهذا مقبول إلى حد ما، بيد أن قراءة السؤال بتقدير المحذوف في الآية بلاغة: { أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاء } يـؤكد أرجحية السؤال التقريعي ثم يعيد فضل بناء هذه السماء واستـــخلاص آيات (سَمْكَهَا ـ تفسير لكيفية البناء)، أي جعل سمتها في جهة العلـــو رفيعاً وقيل سمكها سقفها، (فَسَوَّاهَا ـ جعلها مستوية بلا عيب)، (وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا ـ أظلمه) (وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ـ أبرز نور شمسها وأضيف إليها الليل لأنه ظلها والشـمس لأنها سراجها).

وفي هذا الجزء من التفسير مداخلة بين مفهوم السماء الدنيا والسـماوات السبع، أي جعل السماء الواحدة، الدنيا حصراً، أشدَّ خلقاً من الإنسان أم مجموع السماوات حتماً؟ فإذا كانت السماء الواحدة، الدنيا أو غيرها، أشـد خلقاً، فإن السماوات السبع تصبح محصلة مضاعفة، وإذا كانت السماوات السـبع موضع النص قصداً على سبيل الجمع في صيغة سماء فإن السماء الواحدة قد تكون أقل أو في مستوى خلق الناس، وإن حاصل جمع خلق السماوات، عـنـدئذ، يجاوز حالة خلق الناس، والناس مجتمعين يعاملون كنفس واحدة تصديقاً لقوله تعالى: { مَّا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ } (٣) .

وإذا عاملنا خلق السماوات كخلق السماء الواحدة كما في (النفس – النـفوس)، فإن النص يستوي فيه الجمع والإفراد قياساً وإعجازاً.

(١) {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاء لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْـسَ عَلَيْهِ دَلِيلا، ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا} (٤) .

قصدنا في الآية (١): أن نستذكر آيات لم تشر إليها الآية مما يحدث في السماء وتراه عين الراصد في الأرض في أوقات محددة من اليوم، ليلاً أو نـهاراً، ومن ذلك مسألة (الظل القرآني) المحيّر أو اللغز، أو هو في آخر الأمر (آية) إعجازية ذكرته الآية الكريمة.

تعامل عدد من المفسرين الأجلاء مع النص القرآني العظيم بالإيمان المطلق بالمعجزة من دون التدخل في محاولة التعرف إلى كيفية حدوثها أو آليتها المنتظمة يوماً بيوم، ويوماً فيوماً، إلا أن الرؤية العلمية الفلكية أو الفيزيائية موجودة حتماً في صيرورة هذه الظاهرة المعجزة الدائمة، وهذه الرؤية العلمية تمثل جزءاً من مضمون قوله تعالى في سورة العلق:

(٢): { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (٥) .
باستعمال صيغة الفعل الماضي (علَّم) دالاً على المستقبل من جهة وجاعلاً مدلول ما لا يعلم مفتوح النهاية، أي دائماً هناك ما لا نعلم، وكلما علمنا شيئاً كشفنا عن أشياء ما زلنا نجهلها أو لم نكن نعلمها أو لم نكن نعلم بوجودها أصلاً .
من هنا فإن تحليل ظاهرة الظل هذه أو تعليلها إنما هو جزء مما نشعر أننا تعلمناه، بل هو جزء في كل مما قاله تعالى: { عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ }، فنحن نرى في هذا الصدد أن رؤية الظل الذي تشير إليه الآية الكريمة تمثل رؤية متعددة أو مركبة تبعاً لموقع الراصد على سطح الكرة الأرضية، إلا أن انحسار هذا الظل مع بدء ظهور الشمس يجعل الناظر في موقع الرائي له بألوان متغيرة. والإعجاز هنا إعجاز ظهور الظل من غير ضوء، وإعجاز تغير شكله ولونه مع مرور الدقائق ليشمل سطح القبة السماوية بالنسبة للراصد أينما كان قبل الفجر وحتى انبلاجه إذا كانت (السماء صاحية / صافية) من كل غيوم ثم يختفي .

يتبع هذا الظل القرآني في المفهوم الفلكي والفيزيائي أكثر من ظاهرة أخرى منها الشفق، والشفق القطبي الشمالي والجنوبي من ناحية العلاقة بين الأرض بإزاء الظل، وما دام الشفق عند الشروق هو معكوس الشفق بعد الغروب مما يعلمه الناس ويرونه رأي العين، فإن الشفق القطبي يعد ظاهرة ثانية مضيئة ومتغيرة الشكل تحدث قرب قطبي الأرض في أعالي الجو بين ٦٠ ــ ٤٠٠ كم تقريباً وبمعدل ١١٠ كم عند خطوط العرض العالية بحدود ٧٠°، أي أنها آية فرعية تتبع الآية الأساسية: الظل وترتبط بها. أما حدوثها فيعزى إلى اصطدام الإلكترونات والدقائق المشحونة كهربائياً والمنبعثة من الشمس بعناصر الأكسجين والهيدروجين الموجودة في أعالي الجو، أي تأيّن الهواء المخلخل عند الاصطدام.

وتحدث هذه الظاهرة في قطبي الأرض؛ لأن الإلكترونات والدقائق المشحونة المنبعثة من الشمس (الرياح الشمسية) تتجه بحكم المجال المغناطيسي الأرضي إلى مركز قطبي الأرض المغناطيسيين: الشمالي والجنوبي، فتدعى بالشفق القطبي الشمالي والشفق القطبي الجنوبي.

إذن، هناك إعجاز، وهناك تعليل عام وتحليل خاص للظواهر المتعلقة به، بل يمكن التوارد مع التحليل بكثير من الأسئلة بلماذا، وكيف، فنجد الجواب عن كيف متاحاً في الفيزياء الفلكية ونراه عن لماذا مجهولاً بقدر لا يستهان به أو تماماً! وذلك يُدخلُ الأصول والفروع في دائرة الإعجاز الواحد والمفاهيم المتعددة، من خلق الله العزيز الحكيم.

وعلى نحو معاكس، نجد ذكر أسماء فلكية مصطلحية في القرآن الكريم لا نستطيع القول عنها إنها مقحمة على نسق اللغة وسياقها العام، بل إنها يجب أن تكون ذات مدلول معين أو مضاف إلى نسق اللغة الجميل وسياقها البلاغي المدهش، مثل قسم الله في الآية الكريمة الآتية: { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} (٦) .

أخي القارئ :

فكر بالعوالم وأكنافها وأحجامها وأطرافها وتحركها ودورانها وتناسبها ونظامها، فكر في النباتات والشجر والفاكهة والثمر وفي البحر والنهر، فكر في الحيوانات على أشكالها وفي الطيور على أجناسها.

فكر في الإناث والذكور والتوالد على مر الدهور، فكر في الظلام والنور، فكر في الريح والهواء والمطر والماء، فكر في عظمة الليل والنهار والجبال والأحجار والأشجار.

أخي القارئ :

إذا طاف عقلك في الكائنات ونظرك في الأرض والسماوات رأيت على صفحاتها قدرة الله الباهرة وامتلأ قلبك بالإيمان بالله وانطلق لسانك بالتنزيه والتعظيم والتسبيح والتهليل وخضعت مشاعرك وجوارحك لسلطان الخالق العظيم والمبدع الحكيم فلا خالق غيره ولا رب سواه.

وصدق الله العظيم: { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (٧) .

أخي القارئ : أعلم إن :

الكون كله بمخلوقاته العظيمة وبأحيائه من الإنس والجن والطير وبجماداته من الشجر والحجر والماء والزرع والثمار وعالم الملائكة المسبحة بحمد ربها وغيرها من العوالم التي تدل على عظمة الخالق فتبارك الله أحسن الخالقين.

لقد جاءت آيات القرآن تأخذ المسلم في جولات تعمق الإيمان في النفوس وتزيد اليقين في الصدور أحياناً في آفاق السماء وأخرى في جنبات الأرض وثالثة في مدارات النجوم ورابعة تسبح في عالم البحار تذكر بأعماقها وأسرار خلقها وإبداعها فسبحان الذي خلق ذلك كله وأبدعه.

أخي القارئ :

أليس الله جل وعلا هو الذي خلق الْحَبِّ وَالنَّوَى وأخرج الميت من الحي وأخرج الحي من الميت.

أليس خالقنا سبحانه هو الذي فلق الإِصْبَاحِ وجعل الليل ساكناً والشمس والقمر في حسبان واستمعوا إلى ذلك كله في كلمات وجيزة وعبارات بليغة تـدل على عظيم صنع الله { إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنْ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّا تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} (٨) .

تأملوا كيف يُكون الله السحاب ويؤلف المطر ويتجمع البرد في مشهد عـجيب وترتيب بديع ينتفع به أقوام ويحرم منه آخرون ويكون عذابا على من شاء الله من المعاندين الجاحدين وصدق الله العظيم:

{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ * يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ} (٩) .

تفكر أيها الإنسان أليس الله جل وعلا هو الذي يحي الأرض بعد موتها وينـبت فيها من الحبوب والثمار ما يكون فيه معاش الخلائق وهم يرون ذلك بأم أعينهم صباح مساء وهي مشاهد واقعية تدل على عظمة الخالق سبحانه قال تعـالى:

{ وَآيَةٌ لَهُمْ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ} (١٠) .

إن في مخلوقات الله عظة وعبرة لمن تأمل ووقف عندها عوالم كثـيرة وأسرار عجيبة ومخلوقات متنوعة فهذا عالم الملائكة بما فيه من أسرار عظـيمة وما أناط الله بهم من أعمال كثيرة وكلهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يرون وعالم النحل ومملكته التي تدل على عظيم إبداع الخالق سبحانه وعالم الـنمل وسائر الطير والحيوان فسبحان من أعطى كل شيء خلقه وهدى.

وصدق الله العظيم [إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} (١١) .

وللتفكر في مخلوقات الله فوائد عظيمة منها:

١) أنه طريق موصل إلى رضوان الله ومحبته.
٢) فيه انشراح للصدر وسكينة للقلب.
٣) التفكر يورث الخوف والخشية من الله جل وعلا.
٤) التفكر سبيل لكثرة الاعتبار والاتعاظ من سير السابقين وأحوالهم.
٥) التفكر يحي القلب ويربطه بخالقه فيحجزه ذلك عن الوقوع فيما حرم الله.

أخي القارئ:

لقد خلق الله الإنسان وخلق له عقلاً، يدرك به الأمور، ويميز به بين النافع والضار، والصالح والفاسد، والخير والشر، وإذا طاف عقلك في الكائنات، وامتد نظرك في الأرض والسماوات والنجوم والكواكب، والشمس والقمر، والليل والنهار، رأيت على صفحاتها قدرة الله الباهرة، وامتلأ قلبك بالإيمان بالله، وانطلق لسانك بالتنزيه، والتعظيم والتسبيح، والتهليل، وخضعت مشاعرك وجوارحك لسلطان الخالق العظيم والمبدع الحكيم، فلا خالق غيره ولا رب سواه، وصدق الله العظيم:

{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ} (١٢) .

التفكر والاعتبار: هو تصرف القلب في معنى الأشياء للوصول إلى المطلوب، وهو عبادة تُمَارس بالقلب والعقل، وتشترك فيها الحواس، والتفكر في أي موضوع من المواضيع يعني إعمال الفكر إعمالاً واسعًا وعميقًا ومنظمًا، وهو زناد القلب، وغذاء الروح، وروح المعرفة، ودم الحياة الإسلامية، وروحها وضياؤها.

قال - سبحانه- حاضًّا على التفكر والتأمل في آيات الله -تعالى-:
{ إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ} (١٣) .

فتفكر - أيها الإنسان- أليس الله -جل وعلا- هو الذي يحيي الأرض بعد موتها، ويُنبت فيها من الحبوب والثمار ما يكون فيه معاش الخلائق، وهم يرون ذلك بأم أعينهم صباح مساء، وهي مشاهد واقعية تدل على عظمة الخالق – سبحانه-، قال تعالى-: { وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ(٣٦)} (١٤) .

وإن الله - تعالى- هو الذي خلق هذا الكون العظيم؛ سمواته وأرضه، شمسه وقمره، ليله ونهاره، وما في السموات والأرض من خلق، ومن أمم، ومن سنن، ومن جماد ونبات، ومن إنسان وحيوان.

والله وحده هو الذي خلق هذا الليل الشامل الساكن، وخلق هذا الفجر الأبيض المتفتح بعد ظلمة الليل، وهو خالق هذا الصبح الذي إذا تنفس دبَّ النشاط في الحياة والأحياء، وتحركت الكائنات في طلب الرزق والمعاش، وهو – سبحانه- خالق هذه الظلال السارية الجارية، يحسبها الرائي ساكنة، وهي تدب سائرة في هدوء ولطف، الله هو خالق هذا النبات النامي، المتطلع أبدًا إلى النمو والحياة، وهو -سبحانه- خالق هذا الطير الرائح الغادي، القافز الواثب، الذي لا يستقر على حال، فمن هداه إلى داره؟ ومن ساقه إلى طعامه؟ ومن أمسكه في الجو .

وهو - سبحانه- خالق هذه الخلائق الذاهبة الآيبة، الغادية الرائحة، مما لا يحصيه إلا الله من الحيوانات، والبهائم والأنعام، وهي تتجول في البر والبحر، في تدافع وانطلاق، وانتظام وانسجام، وهو -سبحانه- خالق هذه البشرية كلها من نفس واحدة، وخالق هذه الأرحام التي تدفع، وهذه المواليد التي تتتابع، والقبور التي تبلع.

فمن هذا خلقه، ومن هذه قدرته، ومن هذه عظمته، ومن هذا ملكه، أيحتاج إلى البشر، أو إلى عبادة البشر؟! أيليق بالعاقل أن يشرك به، ويعبد معه غيره، وقد حذرنا - سبحانه- فقال: { أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ(١٩٢)} (١٥) .

إن الله الذي خلق هذه المخلوقات ودبَّرها، هو الذي يليق أن يكون ربًّا يدين له البشر بالعبودية، ولا يشركون به شيئًا قال الله: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (١٦) .

إن هذه المخلوقات العظيمة الواسعة من الصور والأشكال، والحركات والأحوال، والمجيء والرواح، والبقاء والفناء، والحياة والممات، والذبول والنماء، والشروق والغروب، والحركة الدائبة في هذا الكون الهائل، التي لا تسكن ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار، إن هذا كله ليستجيش كل خالجة في كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتفكر.

متى يستيقظ القلب . ويتفتح لمشاهدة الآيات العظام، المبثوثة في ظواهر الكون وحناياه؟. { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} (١٧) .

إن الإنسان لو وقف لحظة واحدة، يرقب ما خلق الله في السموات والأرض، ويستعرض هذه المخلوقات العظيمة التي لا تحصى، من الأنواع والأجناس، والهيئات والأحوال، والأوضاع والأشكال؛ لامتلأ قلبه بالإيمان، وفاض بما يغنيه في حياته كلها، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ما عاش، ولا يدرك هذا إلا أهل التقوى التي تجعل القلوب سريعة التأثر، سريعة الاستجابة لخالق هذه المخلوقات، قال - سبحانه-: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (١٨) .

إن الله -عزَّ وجلَّ- العليم بما خلق، يخاطب الفطرة البشرية بآيات الله الكونية المبثوثة حول الإنسان في هذا الكون، والتي يعلم -سبحانه- أن بينها وبين فطرة الكائن البشري لغة مفهومة، وإيحاءات مسموعة، تؤدي إلى الإيمان بالله، وهذه من أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعًا، ولا تزال دلالة وجود الكون ذاته، ثم حركته المنتظمة، تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك، وتردهم إليه، قال الخلاق العليم: { وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ(٥٠)} (١٩) .

الأحباب الكرام: الفطرة البشرية بجملتها قلبًا وعقلاً، وحسًّا ووجدانًا، تواجه هذه الدلالة، وتستجيب لها، وتتأثر بها، وتدرك أن خالق هذا الكون هو الحق، وأن ما شرعه هو الحق، وأن وعده هو الحق، وإن بين الفطرة البشرية، وبين هذا الكون الذي نعيش فيه لغة خفية غنية، تسمع لهذا الكون وتعقل عنه.

إن النظر إلى ما في السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات، وزاد من الاستجابات والتأثرات، وزاد من سعة الشعور بالوجود، وزاد من التعاطف مع هذا الوجود، وذلك كله يملأ القلب بالإيمان، ويوحي إليه بوجود الله، وبجلال الله، وتدبير الله، وبحكمة الله، وبعلم الله، وبرحمة الله.

فإذا كان الإنسان مهتديًا بنور الله، إلى جوار هذه المعارف العلمية عن هذا الكون، زادته هذه المعارف من الزاد الذي يحصل من التأمل في هذا الكون والأنس به، والاشتراك معه في تسبيحه بحمد الله، ولا يفقه تسبيح كل شيء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله، وأما إن كانت هذه المعارف العلمية غير موصولة بالله، وغير مصحوبة ببشاشة الإيمان ونوره، فإنها تقود الأشقياء إلى مزيد من الشقوة، والبعد عن الله، والحرمان من بشاشة الإيمان، وفقد الأنس بالله، قال -تعالى-: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} (٢٠) .

وماذا تجدي الآيات والنذر إذا استغلقت القلوب، وتجمدت العقول، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقي في الفطرة، واحتجب الإنسان بجملته عن هذا الوجود، فلم يسمع ولم يرَ ولم يتدبر؟!.

إن كتاب الله المفتوح مملوء بالتعريف بعظمة الرب -سبحانه-، فقد جعل الله هذا الكون العظيم معرضًا جميلاً واسعًا، تتجلى فيه عظمة الخالق، وعظمة أسمائه وصفاته، وعظمة أفعاله، وعظمة مخلوقاته، في معرض كوني كبير، مفتوح طول الحياة لعموم البشرية، يتجولون فيه فيزيد إيمانهم، وتقوى عباداتهم؛ فلا يحرم من النظر إلى ذلك وتأمله من الإيمان إلا محروم، قال ذي الجلال والإكرام: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ} (٢١) .

أخي القارئ :

إن الشك في حقيقة وجود الله أو إنكاره، هو بذاته دليل قاطع على اختلال بيِّن في عقل الإنسان، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيه، ولذلك إنكار الرب قليل في العباد، وإذا تعطلت أجهزة الاستقبال والتأمل والاستجابة في الإنسان، فلا سبيل إلى قلبه وعقله لإقناعه بالجدل والمناظرة، إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه، واستجاشة كوامن الفطرة في كيانه؛ لعلها تتحرك، وتسلك الصراط المستقيم.

إن لفت الحس والقلب والعقل إلى ما في السموات والأرض من آيات ومخلوقات، وسيلة من أكبر وأعظم الوسائل لاستحياء القلب الإنساني، لعله ينبض ويتحرك، ويتلقى ويستجيب، قال الله تعالى:-

{ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ(٨)} (٢٢) .

أخي القارئ: قف وانتبه لهذه النقطة :

إن أعداء هذا الدين شغلوا البشرية عامة، والمسلمين خاصة بالعـــلم الإنساني عن العلم الإلهي، وصرفوهم عن النظر في الآيات الكونية والشرعية إلى النظر في المصنوعات البشرية، وشغلوهم عن صحف القرآن بالصحف الـــــهزيلة، وشغلوا أوقاتهم بكل مخزٍ وقبيح وضارّ، وصرفوا اهتمامهم من الآخـــــرة إلى الدنيا، بجمع الأموال، والإسراف في الشهوات، والعبث بالأوقات، وحــــــشر الأعداء البشرية كلها في هذه الميادين المسمومة، فأنى يجدوا العافيـــــــة .

إن آيات الله في الكون، وعجائبه في مخلوقاته، وآلائه ونعمه على الــــناس، تخاطب كل حاسة، وكل جارحة في الكيان البشري، وتتجه إلى العـقل الواعي كما تتجه إلى الوجدان الحساس، إنها تخاطب العين لترى، والأذن لتســــمع، والحواس لتستشعر، والقلب ليتأثر، والعقل ليتدبر جلال الله وعظـمته، وعلمه وحكمته، وقوته وقدرته، وفضله وعدله، ولطفه ورحمته، ومن ثَم يعرف العبد من يعبد ومن يطيع.

إن آيات الله الكونية منتشرة في الكون كله؛ سمائه وأرضه، وشمســه وقمره، وليله ونهاره، وجباله وبحاره، وفجاجه وأنهاره، وظلاله وأكـــــنانه، ونبته وثماره، وحيوانه وأطياره، وإنسه وجنه، فهل من متدبر؟ وهل مـــن متفكر؟، { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠)} (٢٣) .

وآيات الله الشرعية تكشف للإنسان دنياه وآخرته، وأسرار هذا الـكون وغيوبه، وما ينفع الإنسان وما يضره، وما يُصلحه وما يُفسده، وما يحب ربه وما يبغضه، وما يرضيه وما يسخطه، وتبين أسماء الرب وصفاته، وأفعاله ومـــخلوقاته، ووعده ووعيده، فهل من متفكر؟ وهل من متدبر؟، { أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْــقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} (٢٤) .

إن الآيات الكونية، والآيات الشرعية، منبّه عظيم، ومذكّر يوقظ الحــــواس والجوارح، وينبّه العقول والقلوب للإيمان بالله، { تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} (٢٥) .

إن آيات الخلق، وآيات النعم، وآيات التدبير والتصريف، وآيات العزة والتـمكين، وآيات البطش والانتقام، من أعظم الأدلة على الخالق العظيم -سبحانه-، فهل من خالق غير الله يعبده الناس؟!

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (٢٦) .

وهل يستوي من يخلق ومن لا يخلق؟ { أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَـذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَــا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُــــمْ يُخْلَقُونَ(٢٠)} (٢٧) .

أفيجوز أن يسوّي إنسان في حسّه وتقديره بين من يخلق ذلك الخلق كله، ومن لا يخلق لا كبيرًا ولا صغيرًا، بل هو مخلوق؟!.

والله - تعالى- جعل في الماء حياة كل حي، يحيي به الأرض بعد موتــــها، ومن عليها من الإنسان والحيوان والنبات، وخير ما أنزل الله على عـــــباده الوحي، الذي به حياة الروح، ويليه الماء الذي به حياة الأجسام، ومن الـناس من يقبل الوحي الإلهي، ومنهم من لا يقبله، كذلك الأرض منها ما يقبل الـماء، ومنها ما لا يقبله، {وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ} (٢٨) .

هذه الأسراب من النحل، ذلّل الله لها سبل الحياة بما أودع في فطرتها، وسخّرها لجمع الرحيق من الأزهار والثمار؛ ليخرج من بطونها شراب فيه شفاء للناس، كما أن في الوحي شفاء لأرواح الناس.

فسبحان من سخّر هذه الأمة من النحل لنفع البشرية بهذا الشـــــــراب اللذيذ، {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٢٩) . وسبحان من أنزل الوحي شفاءً للقلوب.

أخي القارئ:

من كان هذا خلقه، وهذه قدرته، وهذه عظمته، هو الذي يستحق وحده أن يُعبد، ويُشكر فلا يكفر، ويُطاع فلا يعصى، ويُذكر فلا ينسى، فكيف لا يعبد الناس ربهم الذي خلقهم ورزقهم؟ {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلا يَسْتَطِيعُونَ} (٣٠) .

وإنه لعجيب حقًّا أن ينحرف الناس إلى هذا الحدّ، فيتجهون بالعبادة والطاعة إلى ما لا يملك لهم رزقًا، ويدعون الله الخالق الرازق، وآلاؤه ونعمه بين أيديهم لا يملكون إنكارها، { يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}(٣١) . فما أخطر الجهل! وما أعظم، الجحود! وما أقبح الكذب .

إن التفكر في عظمة خلق السموات والأرض، وما فيهما من العجائب والآيات، ينشأ منه توجيه القلب إلى الله، وإيقاظه لرؤية آلائه، وشهود رحمته وفضله، وتأمل بدائع صنعه في خلقه، وامتلاء الحس بهذه البدائع والعجائب، وفيضه بالتسبيح والحمد والتكبير، وصدق الملك الحق: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} (٣٢) .

والله - تعالى- بديع السموات والأرض، ومنشئ هذه الخلائق الهائلة في السموات والأرض، وإنها لمخلوقات عظيمة، لكن إلفها وتكرارها أفقدنا الشعور بالجمال والروعة التي يحسها القلب وهو ينظر إلى هذه البدائع للمرة الأولى.

ولا يحتاج القلب الواعي الموصول بالله إلى علم دقيق بمواقع النجوم في السماء، وأحجامها وطرق سيرها، ليستشعر الروعة والرهبة، أمام هذا الخلق الهائل العجيب من الخلاق العليم، فحسبه إيقاع هذه المخلوقات على قلبه، حسبه مشهد النجوم المتناثرة في الليلة الظلماء، حسبه مشهد النور الفائض في الليلة القمراء، حسبه الفجر المنفجر كل يوم بالنور الموحي بالتنفس والانطلاق، حسبه الغروب الزاحف بالظلام الموحي بالوداع والانتهاء، حسبه الأرض وما فيها من النبات النامي، والنهر الجاري، والحب المتراكب، وما فيها من مشاهد وحركات لا تنتهي، ولا يستقصيها أهل الأرض ولو قضوا أعمارهم في السياحة والتفكر والتأمل.

إن آيات الله في الكون كفيلة بتوجيه الناس إلى الإيمان لو تدبروها، وتفكروا في خلقها وجمالها، وعظمتها ونموها، وبقائها وحركتها، وإن تأمل هـــذه الآيات العظيمة يوقظ القلوب، ويفتح مغاليقها، ويوجّه القلوب إلى تعظيم مـــبدع هذا الكون: { إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (٣) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٤) وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُــونَ (٥) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ(٦)} (٣٣).

والآيات المبثوثة في السموات والأرض، لا تقتصر على شيء دون شـــيء، ولا على حال دون حال، وإن الإنسان حيثما مدَّ بصره وجد آيات الله تطالعــه في هذا الكون العجيب، فكل شيء في الأرض آية، وكل حي آية، وفي كل جزء مـــن كل شيء في السماء والأرض آية،{ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(٢٢)} (٣٤) .

في هذه الورقة الصغيرة، وفي هذه الثمرة اللذيذة، وفي هذه الشجرة الـضخمة أو النبتة الهزيلة آية، آية في شكلها وحجمها، وآية في لونها وملمســها، وآية في وظيفتها وتركيبها، وآية في طعمها وحلاوتها، وهذه الشعرة في جســـم الحيوان آية، وفي جسم الإنسان آية، وهذه الريشة في جناح الطائـــــر آية، وحيثما مد الإنسان ببصره في الأرض أو في السماء تزاحمت الآيات أمــامه، وأعلنت عن نفسها لقلبه وسمعه وبصره، ولكن لمن تعلن هذه الآيـــات عن نفسها؟ ومن الذي يراها ويستشعرها؟ إنهم المؤمنون الذين اتصـــلت قلوبهم بالله فعرفوه بآياته ومخلوقاته.

فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء والأضواء، ورؤية النــعم والآلاء، والإيمان هو الذي تخالط بشاشته القلوب؛ فتحيى وترقّ وتلطف، وتلــــتقط ما يزخر به الكون من إيحاءات خفية وظاهرة، تشير كلها إلى قدرة الخالق المبدع الذي خلق كل شيء، وأحسن خلقه.

الإنسان الذي يعرف شيئًا عن طبيعة هذا الكون ونظامه، تدركه الدهشة والذهول، ويرى قدرة الجبار في الخلق والتحريك والتسكين والتغيير، ومن نعمة الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل.

إن القرآن يكل الناس إلى النظر في هذا الكون، وإلى تأمل مشاهده وعجائبه، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعًا على مختلف مستوياتهم العلمية والفكرية، يخاطب ساكن المدينة، كما يخاطب ساكن الغابة، ويخاطب العالم، كما يخاطب الأمي الذي لم يقرأ، وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا الكون، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة: { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (٣٥) .

فيا أيها العبد الضعيف: عماذا تبحث وفي ماذا تتفكر؟! أمام ناظريك كون مليء بالمخلوقات، والكائنات من حيوانات، وسوائل، وجمادات، والتي لا يمكن حصرها، ولا الوصول إلى قعرها، فبصرك كليل، وفكرك عليل، ألم يأن لك أن تستجيب لمن هذا خلقُه وصنعُه، ومن هذه حكمته وقدرته؟ فكيف يسوغ لعبد عرف من عظمة الله وقوته وقهره وجبروته ثم يبقى على عصيانه، ويستمر في طغيانه؟!.

لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فالله -سبحانه- هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع القربات.

أخي القارئ :

إن التفكر والتدبر من العبادات العظيمة، والأعمال القلبية الجليلة، التي يغفل عنها كثير من الناس؛ فالنظر في آيات الله المذكورة في كتابه، والمنثورة في كونه، والتفكر في أسمائه وصفاته، وجماله وجلاله، وعلمه وقدرته وقوته وحكمته، وفي حلمه -ﷻ- على عباده كل هذا مما يزيد في إيمان العبد ويقينه، فلذا كان تدبر كلام الله من أعظم مقاصد إنزاله:

{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩]، وأعظم الناس هداية، وأسلمهم عاقبةً في الدنيا والآخرة مَنْ طلب الهدى في كتاب الله، ر قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦)} (٣٦) .

فالمؤمن : إذا تلا كلام الله تأمله وتدبره، وعرض عليه عمله، فيرى أوامره فيتبعها، ونواهيه فيجتنبها، ويُحِلُّ حلالَه ويحرِّم حرامَه، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، وما خَوَّفه به مولاه من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته رُجِيَ أن يكون تلاه حق تلاوته، وكان له القرآن شاهدا وشفيعا وحرزا وأنيسا ونفع نفسه، وعاد عليها بكل خير في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم -رحمه الله-: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل" انتهى كلامه – رحمه الله تعالى-.

إذا كان القرآن هو كتاب الله المسطور، فإن الكون كتابه المنظور؛ فكل شيء فيه خاضع لأمر فاطره، منقاد لتدبيره، شاهد بوحدانيته وعظمته وجلاله، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} (٣٧) .

وكلما كان الإنسان أكثر تفكرا كان أكثر علما وخشية لله -تعالى-،
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨)} (٣٨) .
فلذا كان الأنبياء والرسل أكثر الناس تفكرا وتأملا في خلق الله.

فهذا إبراهيم الخليل -عليه السلام- يقول تعالى عنه: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} (٣٩) . وأما نبينا – صلوات ربه وسلامه عليه- فكانت الخلوة والتأمل والتفكر آخِرَ المراحل له قبل بعثته، فعن عائشة - رضي الله عنها وأرضاها- قالت في حديث بدء الوحي:
{ ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها } (٤٠) .

وظل ﷺ في حياته دائم التفكر في آيات الله وآلائه حتى لحق بالرفيق الأعلى، فقد جاء عن عائشة - رضي الله عنها وأرضاها-، أن النبي -ﷺ- قال لها ذات ليلة:
{ يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلتُ: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرَّكَ، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي ويبكي ، وقال ﷺ في حديث لعائشة: لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها؛)[آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠] } (٤١) .
{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} (٤٢) .

وكذلك كان حال الصحابة والتابعين، -رضي الله عنهم وأرضاهم-؛ فهذا ابن عباس - رضي الله عنهما- يقول: ركعتان مقتصدان في تفكُّر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ ، ولما سئلت الصحابية الجليلة أم الدرداء -رضي الله عنها وأرضاها-: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء قالت: التفكر والاعتبار، وقال الحسن البصري - رحمه الله-: تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة .

أخي القارئ :
لقد أمرنا اللهُ -عز وجل- في مواضع كثيرة من كتابه بالنظر إلى السـموات والأرض نادبًا إلى الاعتبار بها، ومثربا عن الغافلين عنها، وقال في سـورة يونس: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} (٤٣) .
وفي سورة الأعراف: { أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (٤٤) .

فلنتفكر : في عظمة هذا الكون واتساعه، في السموات وأفلاكها، والنـجوم ومواقعها، والجبال الشاهقة، والبحار الغائرة، والصحاري المنقطعة، فمن تدبَّر ذلك علم صِغَرَ حجمه، وهوانه وضَعْفه، وقلة حيلته، وكُسِرَ كبرياؤه، وتواضعت نفسُه، وصدق الله -تعالى- إذ يقول: { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} (٤٥) .
وكذلك إذا تفكر الإنسان في حاله وأصل خلقته، وأنه لم يكن شيئا مذكورا، ثم مر بأطوار مختلفة، حتى استوى خلقه، وشق الله فيه سمعه وبصره، علم مـقدار ضَعْفه وعجزه، وأيقن بفقره إلى ربه، وفضله -تعالى- ومِنَّته عليه،
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤) }(٤٦) .

فـ: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَـدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨)} (٤٧) .

وإن من التفكر المحمود -يا عباد الله-: التأمل والتدبر في حال الدنيا، وسرعة زوالها، وعظم فتنتها، وتقلب أحداثها، وتداول أيامها، وألم المزاحَمة عليـها، وما في ذلك من الغصص والأنكاد، فطالِبُها لا ينفك من هَمٍّ قبلَ حصولها، وهَمٍّ في حال الظفر بها، وحزن وغم بعد فواتها، فمن تأمل ذلك لم يتعلق قلبه بـها،

ونظر إلى الآخرة وإقبالها ودوامها، وما فيها من شرف الخيرات والمسرات، واجتهد في رضوان ربه، وعلم أن ما عنده خير وأبقى.

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٤٨) .

إن المقصود بالتفكر في مخلوقات الله -تعالى- التفكر والتأمل الذي يقود صاحبَه إلى الطاعة والتسليم، والانقياد لرب العالمين حتى قال أبو سليمان الداراني . رحمه الله تعالى-: "إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيتُ لله علي فيه نعمة، ولي فيه عبرة" ويتضح ذلك جليًّا في هَدْيِه -ﷺ-؛ ففي صحيح مسلم:عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه بات عند النبي – صلى الله عليه وسلم- ذات ليلة، فقام نبي الله -ﷺ- من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء ثم تلا هذه الآية في آل عمران: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١)} (٤٩) .
ثم رجع ﷺ إلى البيت فتَسَوَّكَ وتوضأ ثم قام فصلى، ثم اضطجع، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء، فتلا هذه الآية، ثم رجع فتَسَوَّكَ فتوضأ ثم قام فصلى، فجمع ﷺ بين التفكر في مخلوقات الله -تعالى- والقيام إلى الصلاة فجمع بين التأمل والعمل، قال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: "فيه أنه يُستحب قراءتُها عند الاستيقاظ في الليل مع النظر إلى السماء؛ لما في ذلك من عظيم التدبر، وإذا تكرر نومه واستيقاظه وخروجه استحب تكريره قراءةَ هذه الآيات كما ذكر في الحديث، والله سبحانه وتعالى أعلم .

المراجع: للباب السابع : الفصل الثاني :

---

(١) (سورة ، النازعات ، آية : ٢٧-٢٩)
(٢) (سورة ، غافر ، آية : ٥٧)
(٣) (سورة ، لقمان ، آية : ٢٩)
(٤) (سورة ، الفرقان ، آية : ٤٥-٤٦)
(٥) (سورة ، العلق ، آية : ٣-٤-٥)
(٦) (سورة ، النجم ، آية : ١-٤)
(٧) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩١)
(٨) (سورة ، الأنعام ، آية : ٩٥-٩٦)
(٩) (سورة ، النور ، آية : ٤٢-٤٣)
(١٠) (سورة ، يس ، آية : ٣٣-٣٤-٣٥-٣٦)
(١١) (سورة ، القرة ، آية : ١٦٤)
(١٢) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩١)
(١٣) (سورة ، يونس ، آية : ٦)
(١٤) (سورة ، يس ، آية : ٣٣-٣٦)
(١٥) (سورة ، الأعراف ، آية : ١٩١-١٩٢)
(١٦) (سورة ، الأنعام ، آية : ١٠٢)
(١٧) (سورة ، يونس ، آية : ١٠١)
(١٨) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠)
(١٩) (سورة ، الذاريات ، آية : ٤٧-٥٠)
(٢٠) (سورة ، يونس ، آية : ١٠١)
(٢١) (سورة ، الأنبياء ، آية : ٣٠)
(٢٢) (سورة ، ق ، آية : ٦-٨)
(٢٣) (سورة ، الغاشية ، آية : ١٧-٢٠)
(٢٤) (سورة ، النساء ، آية : ٨٢)
(٢٥) (سورة ، الجاثية ، آية : ٦)
(٢٦) (سورة ، فاطر ، آية : ٣)
(٢٧) (سورة ، النحل ، آية : ١٧-٢٠)
(٢٨) (سورة ، الأعراف ، آية : ٥٨)
(٢٩) (سورة ، النحل ، آية : ٦٩)
(٣٠) (سورة ، النحل ، آية : ٧٣)
(٣١) (سورة ، النحل ، آية : ٨٣)
(٣٢) (سورة ، الأنعام ، آية : ١)
(٣٣) (سورة ، الجاثية ، آية : ٣-٦)
(٣٤) (سورة ، الذاريات ، آية : ٢٠-٢٢)

(٣٥) (سورة ، الأعراف ، آية : ١٨٥)
(٣٦) (سورة ، المائدة ، آية : ١٥-١٦)
(٣٧) (سورة ، الإسراء ، آية : ٤٤)
(٣٨) (سورة ، فاطر ، آية : ٢٧- ٢٨)
(٣٩) (سورة ، الأنعام ، آية : ٧٥)
(٤٠) (رواه البخاري ومسلم)
(٤١) (رواه ابن حبان في صحيحة)
(٤٢) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠)
(٤٣) (سورة ، يونس ، آية : ١٠١)
(٤٤) (سورة ، الأعراف ، آية : ١٨٥)
(٤٥) (سورة ، الإسراء ، آية : ٣٧)
(٤٦) (سورة ، المؤمنون ، آية : ١٢-١٤)
(٤٧) (سورة ، الانفطار ، آية : ٦-٨)
(٤٨) (سورة ، يونس ، آية : ٢٤)
(٤٩) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠ - ١٩١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلق فسوى وقدر فهدى ، وأشهد أن لا إله إلا الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، لا تحصى نعمه عدا ، ولا نطيق لها شكرا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المصطفى والخليل المجتبى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن على النهج اقتفى ، وسلم تسليماً كثيرا .

أما بعد : أخي القارئ :
مع قوة الانفجار المعرفي، والتقدُّم الصِّناعي، الذي أصبح الإنسان به مخدومًا، وفي الوقت ذاته قلقًا مُضطربًا، نَحتاجُ إلى تَأَمُّلِ قَوْلِه تعالى:
{ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (١) .

خدمة يقدمها التطوُّر للإنسان في مآكله وملابسه ومراكبه، في حره وفي قره. وسائل للاتصال، وأخرى في سرعة الانتقال، يسّرت الحصول على المعرفة، وسهلت وصول المعلومة؛ فبينما كان طالب العلم سابقًا يقطع مئات الأميال؛ من أجل أن يحصل على حديث واحد، أصبح الآن يفتح الكتاب فتقع عينه على ما يريد، وأسهل من ذلك: يضغط على أزرار الحاسوب فإذا ما يريد أمامه.

وبينما كان الحاج يخرج إلى الحج من رمضان فلا يصل إلا وقت الحج مع الجِدِّ في السير، وقد يصل وربما لا يصل، وإذا أنهى حَجَّهُ قد يعود وربما لا يعود؛ أصبح في مقدور المسلم أن يصل مكة ويرجع منها في بضع ساعات.

من الذي علم الإنسان هذه العلوم؟ ومن الذي سَهَّلَ له طُرُقَ الوصول إليها واكتشافِها واختراعِها؟ إنه ربُّ العالمين، خالق الناس أجمعين.

يجب أن يُنْسَبَ الفضلُ إلى أهله، وربنا هو أهل الفضل والجود:
{ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ } (٢) .

كم نحتاج إلى تذاكر نعم الله علينا، وتدارس النُّصوص التي تدل على علمه وإحاطته وقدرته، مع التذكير بأنَّ هذه المكتشفات والمخترعات التي تبهر العقول هي من خلق الله تعالى، خلقها، ثم سخَّرها للبشر:
{ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (٣) .

ويتأكَّدُ التذكير بذلك؛ لأنَّ فريقًا مِنَ النَّاس بهرهم ذلك التقدمُ الهائل في العلوم التجريبية، وكثرةُ المخترعاتِ والمكتشفاتِ، حتى نَسُوا أن يَنْسبوا الفضل لصاحب الفضل تعالى وتقدس، فسجَّلوا إعجابهم وإكبارهم للبشر الضعفاء، من الباحثين والمخترعين الذين: { لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا } (٤) .
ونسوا الذي: { وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا } (٥) .
سواء كان هذا النسيان والغفلة عن قصد أم كان غير مقصود؛ لكنَّ القاصد منهم يعلن إلحاده وجحوده؛ كما قال الله عن أمثالهم: { فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ العِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } (٦) .

هذا أحدُ ملاحدة العرب يسجل إلحاده بالحرف العربي عندما بهرته تجربة من التجارب في علم الوراثة والجينيات، يقول عليه من الله ما يستحق: (ومعناه أنَّ العلماء بدؤوا بِتَحَدِّي السَّماءِ، وَمَعْنَى هَذا أيْضًا أنَّ الإنسانَ لم يعد له ربٌّ يؤمن به، ويركع في محرابه، ويصلي له ويطلب رضاه وغفرانه؛ لأن المخترعات العلمية أخذت مكان الرب) ا.هـ (٧) .
تعالى الله عن قوله وقول الظالمين علوًّا كبيرًا. مقالةٌ تطفح بالكفر والإلحاد، كيف استطاع قائلُها أن يقولها لولا ما في قلبه من المرض والزيغ.

إن هذه المقولة ومثيلاتها تجسدُ لنا حجم التقديس والتعظيم لتلك العلوم التجريبية مع أنها تصيب وتخطئ؛ بل لا يمكن أن تصيب إلا بعد الخطأ، فما هي بالنسبة لعلم الله الذي أحاط بكل شيء علمًا، والذي تنزه عن العبث والخطأ.

إن فريقًا من قومنا غطى انبهارهم بحضارة الغرب عقولهم؛ حتى إنهم يريدون منا التسليم والانقياد لكل ما يخرج من المعامل والمختبرات، والسير خلفه على أنه سائبةٌ لا ينبغي التعرُّضُ لها ولا توجيهها، فضلاً عن نقدها ولومها، وهذا يدعونا إلى إلقاء نظرة حول حقيقة مسيرة الإنسان العلمية، التي يسعى فيها لتحقيق ما يراه مصلحته ورفاهيته، فالإنسان في لهاثه العلمي إنما هو في سباق لاكتشاف جهله، جهلِه بعالم المجهول - مجهول الزمان والمكان والكم والكيف - الذي يطرقه فتنكشفُ له حقائقُ كانت حاضرةً ولا يشاهدُها، جهله الذي يراه - عندما يكتشف مخاطرَ ومضاعفات وخطأ ما ظنه سابقًا - إنجازاتٍ علميةٍ هائلة، والتي كانت غائبةً عنه حينما: { وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } (٨) .

يحاول هذا الإنسان اختراق هذا المجهول عن طريق التجربة الحسية، والحفريات والتوثيق، والتأمُّل والتحليل، والاستقراء والإحصاء، وأحيانًا عن طريق الحدس والتوهم، والمسلم يستفيد مما صلح من ذلك كله إضافة إلى وسيلة لا ينتفع بها غيرُه، ألا وهي العلمُ بالغيب الذي يخبر به الشرع، فإذا كان الأمر كذلك فإن المسلم لا يحجر على العلم الإنساني؛ ولكنه في ذات الوقت لا ينساق خلفه انسياقًا أعمى؛ بل يضعه في موضعه الصحيح: وهو أن نسبته مهما بلغ إلى علم الله قليلة: { وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } (٩) .
{ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ } (١٠) .
{ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ } (١١) .

بل حتى نفسُ الإنسان وجسدُه وروُحه وما يختلج في صدره الله أعلم به:
{ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ } (الإسراء:) { رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ } (١٢) .
(١٣]، { كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ } (١٤) .
{ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (١٥) . { تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ } (١٦) .

إنَّ الملائكة وهم أعلم وأقدر من البشر تأدَّبوا مع الله تعالى فخاطبوه قائلين { سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } (١٧) .

والأنبياء والمرسلون عندهم من العلم اليقيني ما ليس عند سائر البشر، ومع ذلك كانوا متأدِّبينَ مع الله تعالى إذ نسبوا علومهم إليه، هذا هود عليه السلام لما قال له قومه: { فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ } (١٨) .

وهذا عيسى عليه السلام لمَّا سأله الله تعالى: "هل أمر الناس أن يتخذوه وأمه إلهين من دونه قال عليه السلام: { إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ } (١٩) .
وموسى عليه السلام لما سأله فِرْعَوْنُ عن مصير القرون الأولى: { قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى } (٢٠) .
وشعيب عليه السلام قال: { وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} (٢١) .
وإبراهيم عليه السلام قال: { وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا } (٢٢) .
ومحمد ﷺ لما سأله المشركون عن وقت النشر والحشر والحساب، أمره الله أن يقول: { إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ } (٢٣) .

وكانت طريقةُ الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام نسبة علومهم إلى الله تعالى، هذا يوسفُ عليه السلام نسب قدرته على تعبير الرؤى والعلم بها إلى تعليم الله له: { قَالَ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي } (٢٤) ولا ينسبون ما يعلمون إلى أنفسهم أدبًا مع الله تعالى فسليمان عليه السلام وهو يعلم لغة الطير ما قال إني علمتها من نفسي بل قال: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ } (٢٥) .

إن نسبة العلوم إلى البشر، وتحدي الله عز وجل بهذه العلوم هي طريقة المشركين وفي مقدِّمَتِهِمْ قارون الذي قال: { إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي} (٢٦) .

ويبقى العلم الحقيقي الشامل الذي لا يُنقض ولا تشوبه آفةُ الجهل السابقِ، أو الآني، أو اللاحق هو علم الله تعالى:
{ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } (٢٧)

{ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ } (٢٨) { لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا } (٢٩) ولكنَّ الإنسان عندما يغفل عن حقيقة علمه، فإنه يمضي بَطَرًا ببعض إنجازاته التي يظنُّ أنَّها لا يأتِيها البَاطِلُ من بين يديها ولا من خلفها. ينظر إلى مسيرته الماضية فيراها ظُلُماتٍ وجهالاتٍ، يَتَعَجَّبُ مِنْ جَهْلِ مَنْ سبقوه، وينتشي بما وصل إليه من هذه الإنجازات والعلوم، ثم يأتي من بعده ويتقدم قليلًا في طريق محو الجهل فيحقق إنجازاتٍ أخرى تُبطل الإنجازات السابقة التي ينظرُ إليها من جديد فيراها ضربًا من العبث... وهكذا دواليك تسيرُ مسيرة التقدُّم الإنساني.

وإذا تناولنا أبسط الأمثلة للدلالة على ذلك، فمثلاً في الطعام الذي يطعمه الإنسان نجد أنَّ اكتشاف تصنيع المواد الحافظة في صناعة الطعام المعلب كان إنجازًا مُهِمًّا وتَقَدّمًا عظيمًا، إذ كيف يُحفظُ الطعام مِنَ الفساد والعفونة مدة طويلة، والآن كيف ينظر إلى هذا الإنجاز العظيم . ذَهَبَتْ عظمته وتلاشت حينما اكتشف أن هذه المواد الحافظة سمومٌ تسري في جسد الإنسان عبر هذا الطعام حتى تفتك به (٣٠) .
فما أشد بَطَر الإنسان. وما أعظم جَهْله. وما أسرع تراجعه عن إنجازاته الهائلة ،

وبالطبع فليس المقصدُ من عرض هذا الموضوع الدعوة إلى إيقاف عجلة البحث والتقدُّم، ولا الرجوع إلى الوراء، ولكنَّ المقصد أن يوضع علمُ الإنسان في موضعه الصحيح؛ حتى لا نرى ذا العقل الرشيدِ منبهرًا بالأحداث الجزئية التي قد تُنقض بعد حين، والمقصودُ الأعظم من ذلك أن يخرج الإنسان من حالة: {فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } (٣١) التي تقود إلى حالة: { وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا } (٣٢) التي تكون عاقبتها: { أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ } (٣٣).
أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: { وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (٣٤) .

أخي القارئ : أحذر :
مِنْ أَبْرَز صُور ضلال حضارة اليوم التخلي عن علوم الوحي، وعـــــدمُ الإيمان بالغيب، والتركيزُ على علم المادة وعالم الشهادة؛ فكان من نِتَاجها بشرٌ ماديُّون لا معنى للدين والأخلاق في قلوبهم: { يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ } (٣٥) .
والمؤمن مأمور بالموازنة بين حظوظ الدنيا والآخرة، فالدنيا مَطِيَّة الآخـــــرة، ووسيلة التقوّي على طاعة الله تعالى وليست غاية تقصد.

من أجل هذا أُمِرَ المسلم بالابتعاد عمَّنْ جَعَلَ هَدَفَهُ وغايته الدنيا مع إعـراضٍ كبير عن الآخرة: { فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ } (٣٦) .

بقي سؤال يُطرح حيال هذا الموضوع: أمع هذه الأبحاث والدراسات والمكتشفات والمخترعات وصل الإنسان إلى ما يريد . وحصَّل السعادة التي ينـــشدها . إن الواقع يجيب بالنفي؛ بل يثبت عكس ذلك فكلَّمَا خَطَا الإنسان خُطـــوة في التقدم العِلْمِيّ والبحثي، زاد لبنة في بناء شقائه، وتعقدت حياته أكثر وأكـثر على رغم وسائل الخدمة والرفاهية.

إن القلق والاضطراب والخوف من المستقبل، هو الهاجس الذي يطاردُ الإنسان في عصر المادة والتطور، ولقد أوضح ذلك متخصصون في تلك المجالات؛ حيث يقول أحدهم: (إن إنجازات الإنسان التكنولوجيةِ والتنظيمية؛ إنما هي شَـــرَك لاصطياده)[٤] ويقول آخر: (حالما ينطلقُ التقدم فلن يوقفه أحد، وهذا التـــقدمُ ذو الأوجه المتعددةِ لا يكف بالوقت نفسه عن تعقيد الحياة) .

ولكم أن تنظروا بأنفسكم إلى الفرق بين حياة الإنسان في عَصْر المادَّة والتَّطَوُّر، وبين حياته قبل ذلك؛ فالحياة السابقة كانت سهلة يسيرة خالية من التـــــعقيد والمشكلات. أمَّا حياة الإنسان المعاصر؛ فأصبحت الكماليات فيها حاجـــــات، وتحولت الحاجات إلى ضرورات، وكلُ يوم تزداد الحياة تعقيدًا وإشـــــكالات، والإنسان فيها شقي من الأشقياء إلا من آمن وعمل صالحًا، فاتقوا الله ربكـــم،

ولا تغتروا بحضارة اليوم وزخرفها واعلموا أن الله خالق كل شيء، وهـو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنَّ فوق كل ذي علم عليمًا - تبارك وتعالى ، ثم صلُّوا وسلِّموا على نبيِّكُمْ؛ كما أمركم ربكم بذلك...

أخي القارئ : خذ مني هذه النصيحة :

إن أمة الإسلام أُمَّـة عِلْم وتَعليم ، ولا عَجَب فَنَحن أُمّـة افْتُتِح تاريخهـا بـ (اقْرَأْ) ثم نَـبّه على شأن الْقَلَم بـ {اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ} . (٣٧) .
ولم يأمُر الله نَبِيَّه ﷺ بالتزوّد من شيء كما أمَرَه بالتّزوّد مِن العِلم ، فقال : {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا} .
وفيما امْتَنَّ الله بِه على هذه الأمة أنْ : {مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ}(٣٨) .

قال محمد بن إسحاق : يُعَلّمهم الخير فَيَفْعَلُوه ، والشَّرّ فَيَتَّقُوه ، ويُخْبِرهم بِرِضَا الله عنهم إذا أطَاعوه لِيَسْتَكْثِرُوا مِن طَاعَتِه ، ويَجْتَنِبُوا ما يُسْخِطُه مِن مَعْصِـــيَتِه .

ولقد عاش أسلافنا حياة حافلة بالعِلم والتعليم ، يَجُوبُون الْمَشَارِق والْمَـغَارِب بَحْثًا عن عِلم ، وفَتْشًا عن فَنّ مِن الفُنون .

قيل لابن المبارك : إلى متى تكتب العِلم ؟ قال : لعل الكَلِمَة التي أنتفع بـــها لم أكتبها بَعْد .

قال نعيم بن حماد : سمعت عبد الله بن المبارك رضي الله عنه يقول - وقد عَابَه قَوم في كثرة طَلَبِه للحديث - فقالوا له : إلى متى تَسْمَع ؟ قال : إلى الممات .

وقال الحسين بن منصور الجصاص : قلت لأحمد بن حنبل رضي الله عنه : إلى متى يَكتب الرّجل الحديث ؟ قال : إلى الموت .

وقال عبد الله بن محمد البغوي : سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول : إنما أطْلُب العِلْم إلى أن أدخل القبر .

وقال محمد بن إسماعيل الصائغ : كنت أصوغ مع أبي ببغداد فَمَرّ بنا أحـــمد بن حنبل وهو يَعْدُو ، ونعلاه في يديه فأخذ أَبي بمجامع ثوبه ، فقال : يا أبا عبد الله ألا تستحي . إلى متى تعدو مع هؤلاء . قال : إلى الموت .

وقال عبد الله بن بشر الطالقاني : أرجو أن يأتيني أمر ربي والمحبرة بين يدي ، ولم يفارقني العلم والمحبرة .
قيل لبعض العلماء : متى يحسن بالمرء أن يَتَعَلَّم . قال : ما حَسُنت به الحياة .

وشَرَف الإنسان وفضيلته بالعِلْم .
وقال النضرُ بن شميل : مَن أَرَاد أن يَشْرَف في الدنيا والآخرة فَلْيَتَعَلّم الـعِلْم .
وقال ابن القيم :
الإنسان إنما يُميَّزُ على غيره من الحيوانات بِفَضِيلَةِ العِلْمِ والبَيَان . اهـ .
ولو لم يَكن مِن شَرَف العِلم إلا أنه شرُفَتْ به الكلاب لَكَفَى !
فإن : الله سبحانه جَعَلَ صيد الكلب الجاهل مَيتة يَحْرُم أكْلها ، وأباح صيد الكلب الْمُعَلَّم . وهذا أيضا مِن شَرَف العِلْم ؛ أنه لا يُبَاح إلاَّ صَيد الكلب العَالِـــم . وأما الكلب الجاهل فلا يَحِلّ أكل صَيده ؛ فَدَلّ على شَرَف العِلْم وفَضْلِه . كما قال ابن القيم .

أخي القارئ : قال الله تعالى: { الذي علم بالقلم } :
إنك إن تأملت هذه الآية أو غيرها من كتاب الله تعالى، ستجد كتاب الله - سبحانه - غنياً بالعلوم والمعارف والهدايات القرآنية، ولا تكاد ترجع إليه بـعد كل تأمل في الآيات إلا وتجد فوائد جديدة، ولو أدَرتَ لسان اللغة العربية لتبحث عن كلمة بديلة للكلمة الذي اختارها الله - سبحانه - في هذا الموضع أو ذاك لم تجد كلمة أنسب منها، وهو الكتاب العظيم الذي لا تشبع منه العلماء، ولو تأملت كل كلمة في الآية لظهر لك من الدلائل والفوائد ما يثير في نفسك العَجَب مما يظـــهر لك من التأملات القرآنية، وكذلك إن راجعة المظان وكتب التفسير وفقه الــــقرآن، فدعنا نقف قليلا مع هذه الآية، لنستنتج منها ما يفتح الله به، فهاك بعـــــض الفوائد:

١- اهتمام الإسلام بالعلم، حيث إن القلم مصدر العلم والتعليم، وقبلها جاء قوله سبحانه -: {اقرأ} فكانت أول كلمة تنزلت على الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - هي الأمر بالقراءة، ثم الإشادة بالقلم، وسيلة نقل العلوم.

٢- أهمية القلم وما يقوم مقامه في تدوين العلم، فهو نعمة من الله عظيمة. حيث جعله الله وسيلة للعلم، فقال: {علَّم بالقلم}، ولا تخفى أهمية القلم .

ومن ذلك ما خرجه ابن جرير عن قتادة قال: القلم نعمة من الله تعالى عظيمة، لولا ذلك لم يقم دِين، ولم يصلح عيش.

وقال القرطبي - رحمه الله -: فدل على كمال كرمه - سبحانه - بأنه علَّم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّه على فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دُوِّنَت العلوم ولا قُيِّدَت الحِكَم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمور الدين والدنيا.

وقال ابن القيم عن القلم في مفتاح دار السعادة كما نقله عنه القاسمي: إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظا للعلم من الضياع، كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة الله - عز وجل - بتعليم القلم بعد القرآن من أجلِّ النعم، والتعليم به.

٣- الله منه كل خير والإنسان مهما بلغ وارتفع، فإن ما به من نعمة من علم أو توفيق إلى أي خير كان فإنما هو من الله تعالى، ليس من عنده، فلينسب الفضل لأهله، ولا يكن كقارون حين أنعم الله عليه بنعمة المال: قال إنما أوتيته على علم عندي. وليشكر نعمة الله تعالى- عليه "وما بكم من نعمة فمن الله، فالله ، سبحانه - هو الذي علمك أيها الإنسان.

٤- فإذا عرفت أن الله هو الذي علمك، وليس منك لنفسك شيء إلا ما أراده لك ربك - سبحانه - فاحذر العجب بنفسك، فإنما أنت جاهل في الأصل، وإن جاءك علم جديد فليس من صفة ذاتية امتلكتها أنت، إنما اختصك الله بها، وواجب عليك شكرها بدل أن تغتر بها، فقد قال - سبحانه - بعد قوله: {الذي علم بالقلم} علم الإنسان ما لم يعلم. فأنت كنت لا تعلم شيئا، والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا.فهل تشكر نعمة ربك بعد ذلك على هذه النعمة العظيمة؟

قال ابن القيم - رحمه الله -: وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإن الذي بلغ به وأصله إليه عطية الله وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم، هذا، ومن أعطى الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومن هيَّأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد، فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فَقِف وقفة في حال الكتابة.

٥- في الآية تنمية لمحبة الإنسان لربه -جل في علاه- فـ(الذي) في الآية اسم موصول يعود على (ربك) في أول السورة، وفي اختيار لفظ الرب دون سواه إشعار، بأن ما ورد بعد ذلك من ربوبية الله - سبحانه - لخلقه ورعايته لهم وتربيته، كما جعل - سبحانه - هذه الآية التي تمن على العباد بالتعليم بالقلم بعد صفة (الأكرم) مما يدل على أن هذه النعمة كرم رباني من الله - سبحانه -.

٦- الله - سبحانه - إنما علَّم بالقلم الإنسانَ فقط، ولم يعلِّم الحيوان، فالإنسان يستطيع التعبير عما يجول في خاطره بالقلم، فإذا جاع استطاع التعبير عن جوعه بالقلم، أما غيره فلا شيء من الحيوانات فلا يستطيع ذلك.

٧- في الآية بيان عظمة الله تعالى، في تسخيره للقلم الجامد لهذا الإنسان ليعبر عما يريد، لكأنما هو لسان صامت، قال القاسمي - رحمه الله -: أفهم الناسَ بواسطة القلم كما أفهمهم بواسطة اللسان، والقلم آلة جامدة، لا حياة فيها، ولا من شأنها في ذاتها الإفهام، فالذي جعل من الجماد الميت الصامت آلة للفهم والبيان، ألا يجعل منك قارئا مبيّنا وتاليا معلما وأنت إنسان كامل؟؟ وقال ابن القيم - رحمه الله -: وتأمل حالك وقد أمسكت بالقلم، وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم، وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر، وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى فَلَكَ المعاني على قلبك، ورسمها في ذهنك ثم أجرى العبارات الدالة على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشا عجيبا، معناه أعجب من صورته، فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك، ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله، سوى من علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم؟

٨- في الآية إعجاز قرآني، حيث نزلت هذه الآية مع أول ما نزل من القرآن على رسول الله - ﷺ -، في مجتمع أمي لا يحفل كثيرا بالقراءة والكتابة، ولا يُولِي القلمَ أهميةً كبرى، فكان للقلم فيما بعد أهمية لا تغفل،
القلم كان وما زال أوسع وأعمق أدوات التعليم في حياة الإنسان..
ولم تكن هذه الحقيقة إذ ذاك بهذا الوضوح الذي نلمسه الآن، ونعرفه في حياة البشرية، ولكن الله - سبحانه - كان يعلم قيمة القلم، فيشير إليه هذه الإشارة في أول لحظة من لحظات الرسالة الأخيرة للبشرية، في أول سورة من سور القرآن الكريم.. هذا مع أن الرسول الذي جاء بها لم يكن كاتبا بالقلم، وما كان ليبرز هذه الحقيقة منذ اللحظة الأولى لو كان هو الذي يقول هذا القرآن لولا أنه وحي ولولا أنها الرسالة!

٩- القلم نعمة من الله تعالى على الإنسان يجب عليه أن يشكرها، ويستخدمها في مرضاة الله، وهو مأجور إن استخدمها في ذلك، مأزور إن استخدمها فيما يغضب وجهه - سبحانه - وليس له أو عليه شيء إن استخدمها في مباح، فليتق الله - سبحانه - كل كاتب في كتاب أو مجلة أو جريدة أو رواية أو حاسب، فكل ما يكتبه مكتوب له أو عليه، والقلم وسيلة ناجحة في نصر الدين، وهو كذلك في هدم بنيانه، ومن ذا الذي يحجب نور الشمس بعباءته، يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره .

أما كتاباتهم وتوهينهم في عضد المسلمين، ورسوماتهم الساخرة المستهترة فستكتب عليهم، وسيطمرها التراب ويعفو آثارها الزمن، وسيزهق الباطل ويعلو صوت الحق يوما ما وإن طال الزمن.

١٠- ثم ها هو القلم اليوم يصل إلى مستوى لم يصل إليه من قبل، وتنطلق منه الكلمات كالرصاص وتصل إلى أقاصي الدنيا في لحظة واحدة يقرؤها الآلاف في دقائق معدودة، فقلم اليوم لوحة المفاتيح في الحاسوب، وإن كان العلماء والأدباء قديما أطنبوا في وصف القلم، فماذا كانوا سيقولون لو رأوا قلم اليوم، وهي نعمة لا يتمكن الإنسان من شكرها، كسائر نعم الله -تعالى- وما قلناه فيما سبق القلم يصدق على الحاسوب.

فهذه بعض الخواطر والفوائد هي ثمرة التأمل والتفكر في كتاب الله، مع الرجوع إلى ما كتبه أهل العلم في بعض تفاسيرهم أو مظان موضوع الآية، رزقني الله وإياك التدبر في آياته والعمل بها، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أخي القارئ : تعال معي نتعرف على عبادة التفكر والتدبر :

إن التفكر والتدبر من العبادات العظيمة، والأعمال القلبية الجليلة، التي يغفل عنها كثير من الناس؛ فالنظر في آيات الله المذكورة في كتابه، والمنثورة في كونه، والتفكر في أسمائه وصفاته، وجماله وجلاله، وعلمه وقدرته وقوته وحكمته، وفي حلمه -ﷻ- على عباده كل هذا مما يزيد في إيمان العبد ويقينه، فلذا كان تدبر كلام الله من أعظم مقاصد إنزاله:
{كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} (٣٩)،
وأعظم الناس هدايةً، وأسلمهم عاقبةً في الدنيا والآخرة مَنْ طلب الهدى في كتاب الله، { قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٦)} (٤٠).

فالمؤمن إذا تلا كلام الله تأمله وتدبره، وعرض عليه عمله، فيرى أوامره فيتبعها، ونواهيه فيجتنبها، ويُحِلُّ حلالَه ويحرِّم حرامَه، ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، وما خَوَّفه به مولاه من عقابه خافه، وما رغَّب فيه مولاه رَغِبَ فيه ورجاه، فمن كانت هذه صفته رُجِيَ أن يكون تلاه حق تلاوته، وكان له القرآن شاهدا وشفيعا وحرزا وأنيسا ونفع نفسه، وعاد عليها بكل خير في الدنيا والآخرة، قال ابن القيم -رحمه الله-: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل، وتهديه في ظُلَم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل" انتهى كلامه -رحمه الله تعالى-.

إذا كان القرآن هو كتاب الله المسطور، فإن الكون كتابه المنظور؛ فكل شيء فيه خاضع لأمر فاطره، منقاد لتدبيره، شاهد بوحدانيته وعظمته وجلاله، ناطق بآيات علمه وحكمته، دائم التسبيح بحمده، { تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } (٤١)،

وكلما كان الإنسان أكثر تفكرا كان أكثر علما وخشية لله - تعالى-،
{ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ(٢٨)} (٤٢)؛
فلذا كان الأنبياء والرسل أكثر الناس تفكرا وتأملا في خلق الله.

فهذا إبراهيم الخليل -عليه السلام- يقول تعالى عنه: { وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} (٤٣) .
وأما نبينا - صلوات ربه وسلامه عليه- فكانت الخلوة والتأمل والتفكر آخِرَ المراحل له قبل بعثته، فعن عائشة - رضي الله عنها وأرضاها- قالت في حديث بدء الوحي: {ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنَّث فيه - وهو التعبد الليالي ذوات العدد- قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها } (٤٤).

وظل ﷺ في حياته دائم التفكر في آيات الله وآلائه حتى لحق بالرفيق الأعلى، فقد جاء عن عائشة - رضي الله عنها وأرضاها-، أن النبي -ﷺ- قال لها ذات ليلة: { يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي، قلتُ: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سَرَّكَ، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي ويبكي"، وقال ﷺ في حديث لعائشة: لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها؛)[آلِ عِمْرَانَ: ١٩٠] } (٤٥).
{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } (٤٦) .
وكذلك كان حال الصحابة والتابعين، - رضي الله عنهم وأرضاهم-؛ فهذا ابن عباس -رضي الله عنهما- يقول: "ركعتان مقتصدان في تفكُّر خير من قيام ليلة والقلبُ ساهٍ"، ولما سئلت الصحابية الجليلة أم الدرداء -رضي الله عنها وأرضاها-: "ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء قالت: التفكر والاعتبار"، وقال الحسن البصري -رحمه الله-: "تفكُّر ساعةٍ خيرٌ من قيام ليلة".

أخي القارئ:
لقد أمرنا اللهُ -عز وجل- في مواضع كثيرة من كتابه بالنظر إلى السموات والأرض نادبًا إلى الاعتبار بها، ومثربا عن الغافلين عنها، وقال في سورة يونس: { قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ} (٤٧)، وفي سورة الأعراف: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} (٤٨) .

فلنتفكر أخي القارئ :
في عظمة هذا الكون واتساعه، في السموات وأفلاكها، والنجوم ومواقعها، والجبال الشاهقة، والبحار الغائرة، والصحاري المنقطعة، فمن تدبَّر ذلك علم صِغَرَ حجمه، وهوانه وضَعْفه، وقلة حيلته، وكُسِرَ كبرياؤه، وتواضعت نفسُه، وصدق الله -تعالى- إذ يقول: { وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا} (٤٩) .

وكذلك إذا تفكر الإنسان في حاله وأصل خلقته، وأنه لم يكن شيئا مذكورا، ثم مر بأطوار مختلفة، حتى استوى خلقه، وشق الله فيه سمعه وبصره، علم مقدار ضَعْفه وعجزه، وأيقن بفقره إلى ربه، وفضله -تعالى- ومِنَّته عليه،
{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤)} (٥٠) .

فـ: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨)} (٥١) .

وإن من التفكر المحمود -يا عباد الله-: التأمل والتدبر في حال الدنيا، وسرعة زوالها، وعظم فتنتها، وتقلب أحداثها، وتداول أيامها، وألم المزاحَمة عليها، وما في ذلك من الغصص والأنكاد، فطالِبُها لا ينفك من هَمٍّ قبلَ حصولها، وهَمٍّ

في حال الظفر بها، وحزن وغم بعد فواتها، فمن تأمل ذلك لم يتعلق قلبه بها، ونظر إلى الآخرة وإقبالها ودوامها، وما فيها من شرف الخيرات والمسرات، واجتهد في رضوان ربه، وعلم أن ما عنده خير وأبقى.

{ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٥٢) .

أخي القارئ :

إن المقصود بالتفكر في مخلوقات الله -تعالى- التفكر والتأمل الذي يقود صاحبَه إلى الطاعة والتسليم، والانقياد لرب العالمين حتى قال أبو سليمان الداراني . رحمه الله تعالى-: { إني لأخرج من منزلي فما يقع بصري على شيء إلا رأيتُ لله علي فيه نعمة، ولي فيه عبرة} ويتضح ذلك جليًا في هَدْيِه -ﷺ-؛ ففي (٥٣) .

عن ابن عباس - رضي الله عنهما- أنه بات عند النبي -ﷺ- ذات ليلة، فقام نبي الله -ﷺ- من آخر الليل، فخرج فنظر في السماء ثم تلا هذه الآية في آل عمران: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ(١٩١)} (٥٤) .

ثم رجع ﷺ إلى البيت فتَسَوَّكَ وتوضأ ثم قام فصلى، ثم اضطجع، ثم قام فخرج فنظر إلى السماء، فتلا هذه الآية، ثم رجع فتَسَوَّكَ فتوضأ ثم قام فصلى، فجمع ﷺ بين التفكر في مخلوقات الله -تعالى- والقيام إلى الصلاة فجمع بين التأمل والعمل، قال الإمام النووي -رحمه الله تعالى-: فيه أنه يُستحب قراءتُها عند الاستيقاظ في الليل مع النظر إلى السماء؛ لما في ذلك من عظيم التدبر، وإذا تكرر نومه واستيقاظه وخروجه استحب تكريره قراءةَ هذه الآيات كما ذكر في الحديث، والله - سبحانه وتعالى- أعلم".

المراجع: للباب السابع : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة ، العلق ، آية : ٥)
(٢) (سورة ، النمل ، آية : ٨٨)
(٣) (سورة ، العلق ، آية : ٥)
(٤) (سورة ، الفرقان ، آية : ٣)
(٥) (سورة ، الفرقان ، آية : ٢)
(٦) (سورة ، غافر ، آية : ٨٣)
(٧) (القائل هو نزار قباني - أخزاه الله - في مقالة بعنوان . هل يمكن استنساخ المتنبي . جريدة الحياة ٥ /١١ / ١٤١٧هـ.)
(٨) (سورة ، يونس ، آية : ٢٤) ، بتصرف واختصار من مقالة عن الاستنساخ لخالد أبو الفتوح في البيان عدد ١١٨ ص٥٨.
(٩) (سورة ، الإسراء ، آية : ٨٥)
(١٠) (سورة ، البقرة ، آية : ٢٥٥)
(١١) (سورة ، البقرة ، آية : ٢١٦)
(١٢) (سورة ، الإسراء ، آية : ٢٥)
(١٣) (سورة ، البقرة ، آية : ٢٨٢)
(١٤) (سورة ، البقرة ، آية : ٢٣٩)
(١٥) (سورة ، العلق ، آية : ٥)
(١٦) (سورة ، المائدة ، آية : ٤)
(١٧) (سورة ، البقرة ، آية : ٣٢)
(١٨) (سورة ، الأحقاف ، آية : ٢٢-٢٣)
(١٩) (سورة ، المائدة ، آية : ١١٦)
(٢٠) (سورة ، طه ، آية : ٥٢)
(٢١) (سورة ، الأعراف ، آية : ٨٩)
(٢٢) (سورة ، الأنعام ، آية : ٨٠)
(٢٣) (سورة ، الملك ، آية : ٢٣)
(٢٤) (سورة ، يوسف ، آية : ٣٧)
(٢٥) (سورة ، النمل ، آية : ١٦)
(٢٦) (سورة ، القصص ، آية : ٧٨)
(٢٧) (سورة ، المائدة ، آية : ٩٧)
(٢٨) (سورة ، الرعد ، آية : ٩)
(٢٩) (سورة ، الطلاق ، آية : ١٢)
(٣٠) (انظر: مجلة البيان عدد ١١٨ ص٨٥ وما بعدها.)
(٣١) (سورة ، غافر ، آية : ٨٣)

(٣٢) (سورة ، يونس ، آية : ٢٤)
(٣٣) (سورة ، يونس ، آية : ٢٤)
(٣٤) (سورة ، الإسراء ، آية : ٨٥)
(٣٥) (سورة ، الروم ، آية : ٧)
(٣٦) (سورة ، النجم ، آية : ٢٩-٣٠)
(٣٧) (سورة ، القلم ، آية : ٣)
(٣٨) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٦٤)
(٣٩) (سورة ، ص ، آية : ٢٩)
(٤٠) (سورة ، المائدة ، آية : ١٥-١٦)
(٤١) (سورة ، الإسراء ، آية : ٤٤)
(٤٢) (سورة ، فاطر ، آية : ٢٧- ٢٨)
(٤٣) (سورة ، الأنعام ، آية : ٧٥)
(٤٤) (رواه البخاري ومسلم)
(٤٥) (رواه ابن حبان في صحيحة)
(٤٦) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠)
(٤٧) (سورة ، يونس ، آية : ١٠١)
(٤٨) (سورة ، الأعراف ، آية : ١٨٥)
(٤٩) (سورة ، الإسراء ، آية : ٣٧)
(٥٠) (سورة ، المؤمنون ، آية : ١٢ ـ ١٤)
(٥١) (سورة ، الانفطار ، آية : ٦- ٨)
(٥٢) (سورة ، يونس ، آية : ٢٤)
(٥٣) (صحيح مسلم)
(٥٤) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠ ـ ١٩١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الثامن :

الفصل الأول : أفلا تعقلون أيها الملحدين والمشككين المشركين :
الفصل الثاني : أفلا تعقلون أيها الملحدين والمشككين المشركين :الرد على شبهات الملحدين
الفصل الثالث : أفلا تعقلون أيها الملحدين والمشككين المشركين :
(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

الباب الثامن : الفصل الأول : أفلا تعقلون أيها الملحدين والمشككين المشركين :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ لله الذي بنعمتهِ اهْتدى المهتدون، وبعدلهِ ضلَّ الضَّالون، ولحُكـمِـهِ خضعَ الخلقُ كلُّهم أجمعون، {لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}، {وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ}، سبحانهُ وبحمده، {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَـهُ كُنْ فَيَكُونُ} ..

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}، سبـــــحانهُ وبحمده، {كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} ..

والصلاةُ والسلامُ على من بعثهُ اللهُ تباركَ وتعالى هادياً ومبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فبلَّغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في الله حقَّ جهاده، صلَّى اللهُ وسلَّم وبـاركَ وأنعمَ عليـه، وعلى آله الأطـهارِ، وصحابتهِ الأبْرارِ، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ ما تعاقبَ الليلُ والنّهار، وسلَّـم تسليماً كثيراً ..

أما بعد : سبعةٌ من أبرز ظاهرة الإلحاد، وأسباب انتشارها :

فأوصيك أخي القارئ ونفسي بتقوى اللهِ، فاتقي اللهَ رحمك اللهُ، فقد تعرَّفَ إلينا ربُنا بأسمائه وصفاتهِ وأفعالهِ، فاعرِفوه حقَّ معرفتهِ، واقْدُروهُ حـــقَّ قدْرِه، واشْكُروهُ حقَّ شُكرِه، اصطفى لكم خيرَ رُسلهِ وصفْوَةَ خلْقـــهِ، {وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ}، (١) .

وأنزلَ لكم خيرَ كتبهِ وأفضلَ شرائعهِ، كِتَابٌ مُبَارَكٌ، {فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُـــمْ تُرْحَمُونَ} (٢) .

ورغبكم في الجنَّة وشوقَكم إليها، فسابقوا فيها وسارعوا إليها، وخوفَكـم النَّارَ وحذَّركم منها، فاتقوا النَّارَ ولو بشق تمرةٍ، وأعلَمكم أن عداوةَ الشيطانِ لكـم شديدةٌ، {فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ}، (٣) .

وكتبَ الموتَ على كلِّ حيٍّ فاستعدوا له ..

{وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ} .. (٤) .

أخي القارئ: المتأمّل في القرآن الكريم، يجدُ أنَّه لم يتطرق للحـديث عن وجودِ اللهِ جلَّ وعلا كثيراً؛ وما ذاك (والعلم عند الله) إلا لأن الفطرةَ السليمةَ التـي فطرَ اللهُ الناسَ عليها لم تُشكِك في وجود الخالقِ جلَّ وعلا، قال تعالى: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}. (٥)

وفي صحيح مسلم يقول ربنا تبارك وتعالى: {إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ) .. (٦) .

إلا أنَّ من المصائب الكبرى التي تفاقمت في هذه الأيام، وأزداد انتـــــــشارها، ظاهرةُ الإلحادِ وإنكارِ وجودِ الخالقِ جلّ وعلا .. حيث نلاحظُ ازديادَ الجُرأةِ علـى التصريح بالمعتقدات والأفكار الشاذة التي تحمل معاني الإلحادِ والكفرِ والزندقةِ، والتشكيك في الثوابت والمقدسات ..

ولا شكَّ أنَّ الملحِدَ أشدُّ جُرماً من المشركِ وعابدِ الصنم؛ لأنَّ عابدَ الصَنـــمِ مُقرٌ بوجود اللهِ جل وعلا، وبأنَّه خالقٌ كلِّ شيء، بل ويتوجهُ إليه بكثيرٍ من العبادات، وإنما خلَّدهُ في نارِ جهنمَ شركُهُ، فهو يعبدُ مع اللهِ غيرُهُ، قال تعالى:
{تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (٧) .
فأين هذا ممن يجحدُ وجودَ اللهِ تباركَ وتعالى بالكليةِ .. قال تعـــالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} (٨) .

أخي القارئ : أعلم أولَ خُطوةٍ من خُطواتِ عِلاجِ أيِّ مُشكلةٍ، هي الاعـــترافُ بوجودِها أولاً، ولأن الرد على المنكرين منهج قرآني واضح، قال تعالى:
{وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ}، (٩) .
وقال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَـــاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} (١٠) .

ولأنّهُ قد تبينَ أنَّ استمرارَ تجاهُلِ هذه الظاهرةِ قد ساهمَ في استِفحالِها، فلا بدَّ والحالُ كذلك من مُجابهتها .. قال تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ} (١١) .

ولأن درهم وقايةٍ خيرٌ من قنطار علاج .. ولأن صفاءَ العقيدةِ من أعظم مـا منَّ الله به على أبناء هذه البلادِ المباركة، وهذا يُحتمُ على كلّ غيورٍ أن يبذلَ كلَّ ما في وسعه حفاظاً عليها، وحمايةً لأجيالنا الغالية من هذه اللوثات الضالة، التي تُبعثِرُ تماسك المجتمع، وتُفسِدُ لُحمَتهُ، وتزرعُ الشِقاقَ والخِلافَ بين أبـــنائه .. معاشر المؤمنين الكرام: لئن كنّا نعترفُ بازديادِ ظاهرةِ الالحادِ، فإن لذلك أسباباً كثيرةً:

أولُها: ضعفُ الحصانةِ العلمية والشرعية، لكثيرٍ من أبناء المســـــلمين، فإذا صاحبَ ذلك فضولٌ قاتل، وجُرأةٌ على الخوض في أمورٍ أكبرَ من طاقـــةِ العقلِ العادي، فقد أودى الانسان بنفسه إلى التهلُكة، وضلَّ ضلالاً مبيناً . ولا نـقول أن الخوضَ في هذه الأمور ممنوعٌ مطلقاً، بل نقول إنهُ لا بدَّ من استعدادٍ علمـــــي قويٍ قبل ذلك، وعلى يَدِ شخصٍ خبير، كمن يُريد أن يغوصَ في أعـماق البحار، فلا بد أن يتجهز بأجهزةٍ خاصة، ولا بد أن يتدرَّب جيداً، وأن يتــــدرج في ذلك تحت إشراف مدربٍ خبير، ولا فما أسهلَ أن يغرقَ ويهلك ..

ثاني الأسباب: ميلُ البعض نحو الانفلات من القيود الدينية .. والاستـــعدادُ لأن يضحي عمداً بتدينه ليتمكن من تلبية شهواتِهِ المحرمة بلا أيّ قـــيودٍ أو تأنيبِ نفس .. يعني أن يقتل الانسان ضميره، ونفسه اللوامة، حتى لا يبقـى في نفسه من ينـازعه في المعصية ..

ثالثها: انفتاح القنوات الفضائية وغيرها من وسائل التواصل والإعلام على نشر مثل هذا الفكر الضال، وفتح المجال لأربابه، وتمكينهم من طرح شُبـــــــهاتهم، وتشكيك الناس في عقائدهم وأصول دينهم ..

رابعها: التقليد الأعمى والانبهار بالأقوى: فكثيراً ما تنتشر بعضُ الأفكار الخاطئة بين الشباب لا عن قناعة بها، ولكن تقليدًا لغيرهم من الشخصيات المشهورة، أو تأثراً بالأصدقاء الذين انزلقوا في هذه الهاوية ..

خامسها: اعتقادُ البعض أن تنحية الغرب للدين هو السبب الأكبر لتقدمهم، فإذا أردنا أن نصل إلى ما وصلوا، فلا بد أن نتخلى عن الدين كما تخلوا، وهذا خلاف العقل والمنطق، فالعاقل يُحسنُ إذا أحسنَ الناس، وإن أساءوا تجنت إساءتهم ..

سادسها: معاناة البعض من اضطراباتٍ نفسيةٍ عصيبة، نتيجة تعرضهم لظروف قاسية، ومشاكل اجتماعية معقدة، تجعلهم يعيشون صراعاً فكرياً مشوشاً، يفقدون به توازنهم وقدرتهم على التفكير الصحيح، فيكونون بذلك أكثر استجابة للأفكار الإلحادية من غيرهم ..

سابعها: عدم مواكبة الكثير من المشايخ والعلماء للمستجدات المتسارعة .. والتأخر في الرد على الشبهات .. وترك الشباب فريسة لها، خصوصاً مع إحجام الكثير من الشباب عن مناقشة هذه الأفكار خوفاً من أن يتعرض للأحراج أو التصنيف أو العقوبة ..

أخي القارئ: الإلحادُ فكرٌ ضالٌ مُدمِّر، له آثارٌ ونتائج دنيويةٍ سيئةٌ جداً، خلافاً لما ينتظرُ الملحِدَ من جزاءٍ أخروي مُروع، قال تعالى:
{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ} (١٢) .
فمن أسوءِ نتائجِ الإلحادِ الدنيوية: أن يقعَ الملحِد فريسةً سهلةً للقلق والصراع النفسي .. لأن الالحاد عقيدةٌ فارغةٌ، قائمةٌ على نفي الإله، فهو خَواءٌ روحيٌ وعقليٌ لا يقدمُ حلولاً مقنعة .. وحيث أنَّ هناك تساؤلاتٍ كثيرة، تظلُ تعتلجُ في نفس الملحِدِ وعقلِه، تجعلهُ يعيشُ صِراعاً نفسياً رهيباً .. هل أنا على صوابٍ أم على خطأ؟ ما هي الغاية من وجودي؟ ما هو مصيري بعد الموت؟ ..
سلسلةٌ طويلةٌ من التساؤلات التي يزدادُ تأجُّجها مع تعرضِ الملحدِ لما يذكرهُ بالموت، كالأمراض وفقدانِ الأحبةِ .. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

{أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} .. (١٣) .

ومن نتائج الإلحاد السيئة:

الأنانية والأثرة: فليس في عقيدة الملحدِ بذلٌ للمعروفِ ولا تقديمٌ للإحسانِ . فهو لا يفكرُ إلا في نفسه فقط، وأنَّ هذه الدنيا هي جنتهُ وفرصته، فإن لم يستغلها فاتته، ولأنهُ لا يؤمنُ بالآخرة، فهو لا يرجو ثواباً ولا يخافُ عقاباً .. ولذلك فلا يُنتظرُ منه برٌ بوالدٍ، ولا صلةٌ لقريبٍ، ولا وفاءٌ لصديقٍ، ولا إحسانٌ لجارٍ، فضلاً عن أن يقوم بمساعدة محتاجٍ أو إغاثةِ ملهوفٍ .. إلا بقدر ما يعودُ عليه بالفائدة، فمصالحه الخاصة هي التي تُشكّل أخلاقهُ وتصرفاتهِ ..

الجنوحُ للجريمة والانحراف: فالإلحادُ لا يربي ضميراً، ولا يبني مُراقبةً ذاتية، ولا يُزكي أخلاقاً، ولا يضبطُ سُلوكاً، بل العكس هو الصحيح .. فالملحد محرومٌ من التوجيه السليم، فاقدٌ لما يردعهُ عن الممنوعِ والحرامِ، سِوى نفسهُ وهواهُ وما يشتهيه .. كسائر الحيوانات همُّهُ أن يملأ بطنَه، وأن يقضي وطرهُ بأيّ طريقة كانت ..

ورابعُ النتائجِ السيئة: انهيارُ أنظمةِ المجتمع التكافلية، فالأسرة وغيرها من أنظمةِ المجتمع، إنما تقومُ على التعاون والتكافُل، وعلى الإحسان والتراحم، وعلى البذل والتضحية ابتغاءَ مرضاة اللهِ والدارِ الآخرة، وكلُّ هذا ليس في عقيدة الملحدِ ولا من أخلاقه ..

وخامس النتائج وأسواها: تمزقُ المجتمع وتفرقهُ، وتحولهِ إلى شيعٍ وأحزابٍ مُتصارعةٍ متناحرة، قال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ} . (١٤) .

الإلحاد فكرٌ غريبٌ، وعقيدة فارغة، مصادمٌ للعقل والمنطق، لا يَسنِدُهُ علمٌ ولا دليل .. دليلهُ ردُّ الدليل وجحده .. قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ..} (١٥١) .

والجحود هو ردُّ الحقّ بعد معرفته، قال تعالى: { فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} (١٦) .

والملحِدُ حين جَحدَ وجودَ الله تبارك وتعالى، فقد استبدلهُ بإلهٍ آخر .. فهو يؤمن بأن الكونَ والطبيعةَ أزليةٌ قديمةٌ، ليس لها بداية، وليس لها نهاية، وأنـــها قد أوجدت نفسها بنفسها عن طريق العشوائية والصدفة .. ولكي نردَّ علـــى هذا الزعم رداً علمياً ومنطقياً ! نحتاجُ لأن نعرِّفَ الصُدفةَ تعريفاً دقِيقاً يُقــــــيدها ويضبطها .. ثم نثبتُ له ولغيره أنَّ الكونَ لهُ بدايةٌ، وله نهاية، وأنه ليس بأزليٍ ولا قديم ..

الصدفةُ أو العشوائيةُ أو طبيعةُ الأشياءِ كما يحلو لهم أن يسموها كذباً .. تعني عندهم أن يتلاقى عُنصرين أو أكثرَ بلا تنسيقٍ، وبلا علمٍ مسبقٍ لأيّ منـــــها، فتتداخل هذه العناصرُ بطريقةٍ عشوائيةٍ غير مُنسقةٍ، وبلا مُرجحٍ لاحتمالٍ على آخر، فيتكونُ من ذلك التداخُل مخلوقٌ أكثرَ تطوراً من العناصرِ الّتي دخلـت في تكوينه، ثم يظلُ هذا المخلوقُ المتطورُ يتقابلُ ويتداخَلُ مع عناصِرَ أخرى، أيضاً عن طريقِ الصدفةِ والعشوائيةِ وبلا تخطيطٍ ولا مُرجحٍ .. وهكذا يـــــظلُ هذا المخلوقُ عبرَ ملايينِ السنينِ ينتقلُ من تطورٍ إلى آخرَ حتى يصلَ إلى الـصورةِ الحاليةِ، حيواناً كانَ أو نباتاً أو أيَّ شيءٍ آخر ..

وكما هو واضحٌ من شرحِ التعريفِ فأبرزُ صفاتِ الصدفةِ أنها عمياءُ، بكـــماءُ، صمّاءُ، خرقاء .. تخبط خَبط عشواء، بلا عقلٍ وبلا تفكير، وبلا حكمةٍ وبلا تدبير والملحد حين يعتقدُ أن العالمِ أزليٌ قديم، ليس له بداية، وليس له نـــهاية، فهو اعتقادٌ باطلٌ، تظافرت الأدلةُ العقليةُ والعلميةُ الموثقةُ على بُطلانِه، وعلى إثبات أن الكونَ لهُ بدايةٌ وله نهايةٌ، وأنهُ ليس بأزلي ولا قديم ..

فلو كان الكونُ أزلياً قديماً وبلا خالقٍ كما يزعمون، فلا بدَّ أن يكونَ الكـــونُ هو من خلقَ نفسهُ، والعقلُ والمنطقُ يرفُضُ هذا تماماً .. لأنَّ خالقُ الـشيءِ لا بدَّ أن يكونَ موجوداً قبل عملية الخلق، أي لا بُدَّ من وجودِ الصانع قبلَ الصنـعة .. هذا من الناحية العقلية المنطقية، أما من الناحية العلمية فهناك عدة أدلة:

أولها: أن هناك حقيقةٌ علميةٌ ثابتة، توصل لها الفلكي المشهور هابل .. وهي أنَّ المجراتِ والأفلاكَ عموماً في تباعُدٍ مستمرٍ عن بعضها، وبسرعاتٍ هـائلة، وقد نسفَ هذا الاكتشافُ خُرافةَ أزليةِ الكونِ من جذورها .. فلو كان الكون يتمدَّدُ مُنذُ الأزل، لكانت النجومُ والأفلاكُ قد تبعثرت وتشتت .. ولكان من المفترض ألا نرى أي جُرمٍ في السماء، لأنها ستكونُ قد تباعدت عن بعضها بمسافات لا نهائية .. ولو كان الكونُ أزلياً لتساوت درجاتُ حرارتِهِ .. فمعلومٌ أن الحرارةَ تنتقلُ من الأجسام الحارةِ إلى الأجسام الباردةِ حتى تتساوى تماماً .. فلو كانَ الكونُ قديماً أزلياً لفقدت كلُّ النجومِ حرارَتها تماماً، ولتساوت مع غيرها، وهذا ما لم يحدث، فالكون إذن ليس أزلياً ..

وكذلك فقد أكتشف العلماء أن هناك نجوماً تنفجِرُ وتموتُ، وأنَّ هناكَ نجوماً تولدُ وتنشأُ من جديدٍ، ولو كانَ الكونُ أزلياً لاستقرت حالةُ الكونِ وسكنت علـى حالةٍ واحدة .. أمَا والوضعُ لا يزالُ يتغيرُ ويتبدلُ، فإن هذا لا يدُلُ على الأزلـيةِ ... إلى غير ذلك من الأدلة الكثيرة ..
وطالما أننا بدأنا هذا الموضوعَ الشائكَ، فلا بُدَّ من استيفَاءِ الحديثِ عـنهُ، ولذا فسيكونُ لنا معَ الإلحادِ وقفةٌ طويلةٌ، قد تمتدُ لعِدَّةِ خُطبٍ قادمة بإذن الله، نبسط فيها الكلامَ عنه، ونقدم الأدلة المتنوعة التي تثبت وجود الخالق جلَّ وعلا، ونردُّ على جميعِ شُبهِ الملحِدين رداً علمياً ومنطقياً مُقنعاً وشافياً بـإذن الله، بل وسنطرحُ عليهم أسئلةً كثيرةً عن الإلحادِ نتحداهم أن يجيبوا على أيِّ سؤالٍ منها

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا * وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} (١٧) .

ويا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، وكما تدين تدان ..

أخي القارئ :
الأدلة العقلية في إثبات وجود خالقِ البرية رداً على الملحدين والدهرية :

أعلم أن الإيمانَ إذا وقرَ في القلبِ فاضَ على الجوارحِ، فأصبحت الحــــركات والسكنات كلها للهِ، جاء في الحديث القدسي: {فإذا أحببتُه كنتُ سـمعَهُ الذي يسمَع به، وبصرَهُ الذي يُبصرُ به، ويدَهُ التي يبطِشُ بها، ورجلَهُ التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينّهُ، ولئن استعاذني لأعيذنّهُ} .. (١٨) .
{ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (١٩) .

الدليل العقلي الأول: دليل التصميم الحكيم (العلة الغائية):
يزعم الملحد أن الطبيعة والصدفة هي التي أوجدت كل المخلوقات، وأنه لا هدف لها ولا حكمة من وراء ذلك كله، وهذا يتعارض عقلاً مع ملايين التـــــصاميم الحكيمة، التي تُظهر بوضوح أن هناك هدفاً محدداً من إيجادها بتلك الهيـــــئة المحكمة، يقول الله جل وعلا: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَـــــا لَا تُرْجَعُونَ}، (٢٠) .
يعني بلا هدفٍ ولا حِكمة .. ولكي يتضح الأمر أكثر، تخيل وعاءً يحوي مجموعةً من الآلات الدقيقة المختلفة، ولما تأملتها عن قرب تبين لك أن لكلِ واحدةٍ منــها مكاناً تركيبياً دقيقاً من الأخرى .. فأخذت تركب هذه الآلاتِ مع بعضها، وعندمـا انتهيت من تركيب آخر قطعةٍ منها، وأصبحت كلُّها جهازاً واحداً متــــكاملاً، إذا بصوتٍ رتيب يَخرجُ مِنها، دققت في الأمر فإذا هو صوتُ ساعةٍ زمنـــية .. فما الذي ستفهمه من هذا كله ؟ .. ستدرك أن لكل آلةٍ من تلك الآلات التي دخلت في تركيب الساعة، لها هدفٌ جُزئيٌ مُعين، وأن لمجموع تلك الآلات المختلفة، هدفٌ نهائيٌ مختلف، وهو ضبط الزمن .. هذا الهدف النهائي يسمى (العـــلةُ الغائية)، والغائيةُ من الغاية، يعني الهدف الذي من أجله صُنعت تلك الآلاتُ الفـــــرعية المختلفة كُلها .. فهذا الهدف النهائي أو العلةُ الغائيةُ يتَطلَبُ الوصولُ إليهَا عَقلٌ مُدبرٌ، وتَخطيطٌ مُحكمٌ، وتنفيذٌ مُتقنٌ، وكُلُّ هذا يَتنَافى كُلياً مع الطبيعةِ والعشوائيةِ والصدفة ..

فالمصنوعاتُ المعقدةِ، ذاتُ التصميمِ المرتبِ، والتكوينِ المركبِ، المبنيُ على هَدفٍ مُحدَّدٍ، لا بُدّ أنَّ هُناكَ عَقلاً أبدعَ تخطِيطِها، وأتقنَ تصميمها، وأحْكَمَ تنظيمها .. {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} (٢١) .
وكلَّما ارتقى تكوين المخلوق وتعقد، كان ذلك أشدَّ دِلالةً على وجود خالقٍ حكيم، ومدبِّرٍ عليم .. {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} (٢٢) .

إنَّ جسم الإنسان شديد التعقيد، يتكون من اثني عشر جهازاَ حيويّاً، كل جهازٍ منها يؤدي وظيفةً أساسيةً مختلفة، وكلُّ جهازٍ منها يتكون من مجموعةٍ من الأعضاء، كلُ عضوٍ منها يؤدي وظيفةً معينةً في غاية الأهمية لعمل الجهاز.. ثم هناك الدماغ الذي يُدير ويُنسق عمل كل تلك الأجهزة المتكاملة .. فهذه العلل الغائية المركبة تتنافى كُلياً مع الصدفة والطبيعة العشوائية ..

مثال آخر: زهرة الأوركيدا .. نباتٌ في غاية التعقيد، فهذه الزهرة العجيبة، ولكي تجذب النحلَ ليحُطَّ عليها، تتخذُ شكلاً وحجماً ولوناً مطابقاً تمامًا لأُنثى النحل، ليس ذلك فحسب بل إنها تُفرز نفس رائحة النحلة .. فيأتي ذكر النحلِ ويقتربُ منها وهو لا يعرف أنها زهرة، فتلتصق حبيبات الطلع بجسده، فينقلها إلى زهرةٍ أخرى دون أن يدري أنه يقوم بعملية تلقيح مثالي للزهرة .. كلُّ هذا وهي كائنٌ نباتيٌ لا يعقل ولا يعلم، ولا يعي من أمره شيئًا .. ليس هذا فحسب بل إن هذه العمليات المعقدة والمتقنة من تطابق الحجم والشكل واللون والرائحة تتم في ظل ظرفٍ زمنيٍ محدد، وفي أيامٍ معينةٌ من كلّ ِعام، إنها عملياتٌ معقدةٌ جداً، ومحسوبةٌ بكل دقةٍ، ولها هدفٌ نهائيٌ خفي ..

فهل الطبيعة والصدفة هي من صمَّم ونفَّذ كلَّ هذا .. أفلا تعقلون ..

البعوضةُ مثالٌ ثالث: فهذه الحشرةُ الصغيرةُ جداً، لها مائةُ عينٍ في رأسها، ولها ثلاثة قلوب في جوفها، ولها ستة سكاكين في فمها، وهي مزودة بجهازٍ يميز الحرارة، يدلها على مكان الجلد البشري ولو في الظلام، كما أنها مزودةٌ بجهازٍ تخديرٍ يُساعدها على غرز إبرتها دون أن يشعر الإنسان، وما يحس به

المقروص إنما هو ألم المص، والبعوضةُ مزودةٌ أيضًا بجهاز ِتحليلٍ للدم؛ فهي لا تستسيغُ كل الدماء، كما أنها مزودةٌ بجهازٍ لتمييعِ الدم واسالتهِ حتى يسري في خرطومها الدقيق ..
فهل الذي وضع كلَّ تلك الأجهزةِ المعقدةِ داخل تلك البعوضة الصغيرة، عاقلٌ حكيمٌ، له هدفٌ نهائي من كلِّ ذلك، أم أنها الصدفة والعشوائية ..
أفلا قليلٌ من الإنصاف والعقلانية يا معشر الملحدين .. فلو كان من عندِ غير اللهِ لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ..

وهناك المئات والألوف من الأمثلةِ غيرَ ذلك، كُلها تدلُ على التصميم الحكيم، والعلة الغائية .. رحلةُ السلمون الشهيرة، ورحلةُ السلطعونِ العجيبة، ورحلةُ البطرِيقِ الأشدُّ عجباً، والطيورُ المهاجرة، والحشراتُ الزاحفة، وبيوتُ النملِ المنظمةَ، وممالكُ النحلِ المذهلة .. كُل واحدةِ منها، مثالٌ صارخٌ وقويٌ على التصميم الحكيم والعلة الغائية ..

ثم يأتي الملحد ليقول: كلُّ هذا صدفة .. مالكم كيف تحكمون ..
والأشدَّ عجباً أن من يؤمنُ بالصدفة كخالقٍ للكونِ لا يقبلُ أن تكونَ الآلاتُ المعقدةُ كالطائرات والسياراتِ والحواسيبِ، لا يقبلُ أن تكون الصدفةُ هي من أوجدها ! لاعتقاده أنها لا بدَّ أن تكون من صُنع عاقلٍ مُبدعٍ حكيم .. أوليس خَلقُ الانسانِ والحيوانِ والأفلاكِ أكبرُ وأعقدُ من خَلقِ تلك الآلاتِ بملايين المرات .. صدقت يارب: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} .. (٢٣) .

لقد انزاحت الرمال منذُ سنواتٍ قريبةٍ في صحراء الربع الخالي، فظهرت بقايا مدينةٍ بائدة، مغمورةٍ تحت الرمال، فلم يتبادر إلى ذهنِ احدٍ من عُلماء الآثار أو من غيرهم أنَّ هذه المدينةِ وُجِدت صُدفةً أو بفعل العواملِ الطبيعية، أو بأيِّ سببٍ آخرَ غيرَ الإنسان، لأن إيجادها يحتاجُ إلى عاقلٍ حكيمٍ، له هدفٌ وقصدٌ من إيجادها بتلك الهيئة المحكمة ..

دليلٌ عقلي آخر: دليل السببُ والنتيجة:
فمن المعلوم عقلاً أن لكل سببٍ نتيجة، ولكل نتيجةٍ سبب .. وقد أثبتنا سابقاً بعدة طُرقٍ مختلفة، أن الكون ليس أزلياً، وأن له بدايةً .. وكلُّ ما كان له بدايةٌ فيجبٌ أن يكونَ له مُبدِيء ومُوجِد .. ولا بدَّ أن يكونَ المبدئُ أكبرَ وأعظمَ مـن كلّ ما أوجدهُ من مخلوقاتٍ .. قالَ تعالى : {أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}، (٢٤)
وقال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ} (٢٥) .

دليلٌ عقليٌ ثالث: الإثبات مُقدمٌ على النفي: هناكَ قاعدةٌ منطقيةٌ تقول: إذا لم يكن عندنا في المسألة إلا خبران، أحدهما يثبتُ وقوعَ أمرٍ ما، والآخرُ ينفيه، فيُقَدمُ المُثْبِتُ على النافي، لأن معهُ زيادةُ عِلم، ولأن من عَلِمَ حُجةً على من لم يعلم .. على سبيل المثال: جاءك خبرانِ أحدهما يقول: جاء محمد، والآخر يقول: محمدٌ لم يأت .. فالقاعدةُ تقول: يقدَّمُ المُثْبِتُ على النافي لأن معهُ زيادةُ علم، ولأن مـن عِلم حُجةٌ على من لم يَعلم .. وفي مسألة وجودِ الخالقِ جلَّ وعلا: فإنه على طولِ الزمانِ وعرضهِ لم يأتِ أحدٌ يدَّعي أنه الخالقُ لهذا الكون، ولن يجرؤ أحـدٌ على ذلك لأنه سيُفتضحُ بعجزه .. بل العكس هو الصحيح، فجميع العُقلاء يُقرونَ بأن اللهَ عزَّ وجلَّ وحدهُ هو الخالقُ لهذا الكون بكل ما فيه .. حتى أشدُّ الناس كفراً قال عنهم القرآن: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٢٦) .

هذا على فرضِ أنه لا يوجدُ أدلةٌ أخرى، تثبتُ وجودَ الخالقِ جلَّ وعلا، فإذا جاء الملحدُ لينفي وجودَ الخالقِ تبارك وتعالى، فخبرهُ مرفوضٌ عقلاً لوجودِ خـبرٍ مُثبتٍ يُعارضُهُ .. كيفَ وقد قال الله تعالى عن نفسه: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} (٢٧) .

ثم إن نفي الملحد لوجود الخالقِ جلَّ وعلا، ادعاءٌ لا سندَ لهُ من الجهةِ المنطقيةِ .. لأنَّ أثباتَ وجودِ ما هو موجودٌ سهلٌ جداً، أمّا نفيُ وجودِ الموجودِ فـمن أكبرِ المستحيلات، فكيف إذا كانَ المنفيُ هو أكبرُ الأشياءِ وخالقها،

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ..} (٢٨) .
فعلى سبيل المثال:
يمكنُ أن يدَّعِي شخصٌ ما وجودَ الدينصورات، ويمكنُ أن يدَّعِي شخـــصٌ آخرَ عدمَ وجودها بتاتاً .. فالأولُ سيحتاجُ إلى دليلٍ واحدٍ فقط ليثبتَ صحةَ قوله .. أمَّا الذي يريد أن ينفي وجودها، فيجبُ عليه أن يُفتِشَ الأمكنةَ المحـتملةَ كُلَّها، وأن يَتفقَدَها كُلها في وقتٍ واحدٍ ليتأكدَ قطعياً من خُلوها جميعاً .. وهذا مــــن أبعدِ المستحيلات على مستوى الأرض .. فكيف لأيٍّ مَنْ كانَ أنّ يُبرهِنَ علـــى عدم وجودِ اللهِ في الكونِ كله .. هذا من أمحل المحال، لا في العقلِ ولا في الخيال ..
فما معشر الملحدين أين تذهبون ..

دليلٌ عقليٌ رابع على وجود الخالق جل وعلا: دليلُ التسخير:
كُلنا نتفقُ مع الملحدِ أنَّ الصدفةَ لا تملكُ عقلاً ولا عِلماً ولا حِكمةً .. وكُلنـا يعلمُ أنَّ الإنسان والحيوانَ والنباتَ خُولِقوا محتاجينَ لأشياءَ كثيرةٍ، محتاجين للماء، وللهواء وللغذاء وللدواء، ولغيرها من الأشياء .. فإذا تأملتَ فإذا جُميعُ هــذه الاحتياجاتِ قد تمَّ توفيرها لهم في البيئة التي يتواجدون فيها، وبالقدر الـكافي لاستمرار حياتهم، بل وحياةِ نسلِهم من بعدِهم .. إذن فمن المنطقـــي أن الذي أوجدَ في الإنسان والحيوان تلك الاحتياجاتِ الضرورية، هو الــــذي وفرَّها وسخرها في البيئة من حولهم، وبالقدر الكافي، ولا يفعلُ ذلك إلا عــاقلٌ عليم، مبدعٌ حكيم .. والصدفةُ لا تملكُ عقلاً ولا علماً ولا حكمةً ..
{أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}، (٢٩) .
وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (٣٠) .

دليلٌ عقليٌ خامس: العلمُ لا يمكن أن يأتي ممن لا يعلم ..
فمثلاً: جهاز الحاسب الآلي: يمكنُ أن يطبعَ مقالاً علمياً، ولكن جميعَ الـــعقلاء يتفقونَ أنه ليس هو من أنتجَ تلك المقالةِ العلميةِ .. وأنَّ هناكَ شخـــصٌ عاقلٌ عليمٌ استخدمَ الحاسب لكتابةِ وطباعةِ تلك المقالةِ العلميةِ .. فإذا كان العـــلمُ لا يمكنُ أن يأتي ممن لا يعلم .. فإن الصدفةَ والطبيعةَ التي لا تعلمُ شيئاً، لا يمكنُ أن نقولَ بأنها هي التي أوجدت القوانينَ الطبيعيةَ، لأنَّ تلك القوانين أشدُّ تعقيداً من تلك المقالة، ولا يمكنُ أن يُوجدَها إلا خالقٌ عليمٌ خبيرٌ .. وإذا كان عـــقلُ

الإنسانِ يستطيعُ أن يعرفَ الجيدَ من الرديء، وأن يميزَ بين الجيدِ والأجود، وأن يختارَ الأفضلَ من بين عدةِ خياراتٍ، فلا يمكنُ أن يُنسبَ هذا إلى الصدفةِ والطبيعةِ، لأنها تفتقرُ للعقلِ، وللعلمِ، وللحكمةِ، وللقدرةِ على التمييزِ بين البدائلِ، وإنما ننسبُها إلى المبدعِ الحكيم، والمدبرِ العليم، سبحانهُ وتعالى، القائلِ في محكم كتابهِ الكريم: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ} (٣١) .

دليلٌ عقليٌ سادس: التصرفاتِ العقلانيةِ لا يُمكن أن تأتي من غيرِ العاقل:
تخيلْ أنَّ هناكَ عدة أطفالٍ صغار، كل طفلٍ معهُ مجموعةٌ من الأقلامِ الملونة، وأمَامهم ورقةٌ كبيرةٌ، ثم قاموا يخططونَ ويرسمون بتلك الأقلام الملونة على تلك الورقة الكبيرة، بطريقةٍ عشوائيةٍ غير مرتبة، فهل يمكنُ أن يخرجَ من تخطيطِهم خريطةٌ كاملة التفاصيلِ لمدينةٍ كبيرةٍ كالرياض أو جُدة .. فإذا كان العقلُ السليمُ يستبعِدُ حُدوثَ مثلَ هذا تماماً، ويعتبرهُ مُستحيلاً لا يمكنُ أنَّ يحدث أبداً، فلأن يكونَ الكونُ كُلهُ وجِدَ صُدفةً، أكثرَ استِحَالةً، وأبْعدَ عَقلاً، لأنَّ تركيبَ الكونِ وتَفاصيلِه، أعْقَدُ بملايينِ المراتِ من تركيبِ أيِّ خريطةٍ وجِدَت،
{قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} (٣٢) .
هذهِ ستةُ أدلةٍ لا شَكَّ ولا مِراءَ فيها، كُلُّها مِنْ نوعٍ واحِدٍ،

الدليل العلمي الأول: دليلُ الثبات:
فنلاحظُ أنَّ خواصَ الأشياءِ والأنظمةِ ثابتةٌ لا تتغير .. فالأفلاكُ لها نظامٌ وخواصٌ لا تتغير، والمطرُ لهُ نظامٌ خاصٌ لا يتغير، النباتاتُ لها أنظمةٌ وخواصٌ لا تتغير. النارُ من خواصها الثابتةُ الاحراق، ليسَ هناك نارٌ لا تحرق .. وهذه الأنظمةُ والخواصُ تظلُ موجودةٌ ولا تتخلف، ولا تستطيع المخلوقات أن تُغيّر من نظامها أو خصائصها شيئاً .. فمن الذي أوجد هذه الخواصِ في الاشياء ؟ ومن الذي يحافظُ على وجودها واستمرارها ؟ .. أهي الصدفةُ أيضاً .. فهل تملك الصدفةُ عقلاً وحكمةً لتصمّمَ مثلِ تلك الأنظمةِ المعقدةِ الثابتة، وأن ترتب الأشياء بطريقة دقيقة مُذهلة، وأن تُعطيها خصائصها الثابتة، ثم تجعلُها تحافظُ على هذه الخصائص والأنظمةِ جيلاً بعد جيل، وأزمنةً بعد أزمنة دون أن تتبدلَ أو تتوقف:
{قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى} (٣٣)

دليلٌ علميٌ ثاني: موتُ الطبيعة:

فهناك المئات، بل آلاف من الأدلة المتواترة على موت الطبيعةِ وفنائِــــها .. كلُ شيءٍ يموت ويفنى، النجومُ والأفلاكُ تنهارُ وتموت، مجراتٌ بملـيارات النجوم والكواكب تبيدُ وتفنى، الأشجارُ كلها تموت، الحيواناتُ كلها تموت وتــــنقرض، الإنسُ والجنُ يموتون، أممٌ كاملة وحضاراتٌ هائلةٌ تولدُ وتموت، وصـدق اللهُ: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ}، (٣٤) .

فإذا كانت الطبيعةُ تموت، فهذا دليلُ نقصِها وضعفِها .. ونقصُها وضــعفُها دليلٌ أنها مخلوقةٌ مُدبرة، لا تملك من أمرها شيئاً .. ولو كانت هي من أوجدت نفسها، فلماذا تموتُ إذن، لماذا لا تعيش إلى الأبد ..

يقول الملحدُ حين يَعجزُ عن الجواب: هكذا هي طبيعة الأشياء، فمن طبـعها إذن، {قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ} (٣٥) .

دليلٌ علميٌ ثالث: استحالةُ الصدفةِ حِسابياً ..

فلو تناولتَ عشرةَ كروتٍ، ورقمتها من الواحد إلى العشرة، ثم وضعتها في كيسٍ وخلطتها، ثم حاولتَ أن تخرجها مُرتبة من الكرت رقمٍ واحد إلى الـــــكرت رقم عشرة، بحيث تُعيد كلّ كرتٍ إلى الكيس بعد تناوله مرةً أخرى، فإن إمكـــانية أن تتناول الكرت رقم واحد من أول محاولةٍ هو واحد في العشرة، وأما إمــكانية أن تخرج الكرت رقم واحد، ثم تخرج بعده الكرت رقم أثنين فهي واحــــد في المئة، وأمَّا إمكانية أن تخرج الكرت الأول، ثم الثاني ثم الثالث فهي واحــــد في الألف، أمَّا إمكانية أن تخرج الكروت العشرة مرقمة بالتسلسل من (١-١٠) فهــي واحد من عشرة بلايين محاولة .. يعني أن عليك أن تقوم بعشرة بلايين محاولة لربما يصادفك الحظ فتخرُجُ هذه الكروت مرتبة من (١-١٠) ..

هذا يا عباد الله في عشرة كروت فقط .. فإذا علمت أن الخلية الحـــية في جسم الإنسان لا تُرى تفاصِيلها إلا بالمجهر الضخم، وإذا علمت أن هذه الخلية تتكونُ من مجموعةٍ هائلةٍ من البروتينات والأحماض الأمينية، وغيرها من الـمكونات الدقيقة، فقد أثبت العالم السويسري تشارلز بوجين أن احتماليةِ تكوّنِ بـــروتينٍ واحدٍ بالصدفةِ هي واحد إلى رقمٍ يتجاوزُ المائة والخمسون خانة، أي إنه رقمٌ لا يمكن قراءتهُ ولا التعبير عنه، فضلاً عن تخيله، وهو رقمٌ أكبر بكـــثير من عدد

ذرات الكون كلِها، هذا في خلق بروتينٍ واحد، وهو من ابسط مـــكونات الخلية الحية، فكيف إذا تحدثت عن الخلية كلها، أو عن الانسجة، المكونَةِ من مليارات الخلايا، ثم الأعضاء المكونَةِ من مليارات الأنسجة، ثم انتقل إلى ملـــــــيارات الكائنات الحية، ثم كونٌ هائلٌ لا يُعرف له طرف، عددُ مجراته بالمليـارات، وكلُّ مجرةٍ فيها مليارات النجوم، فلا شكَّ أن ّحِساب مثل هذا، أمرٌ فوق طــاقة العقل بل وطاقة أكبر كمبيوتر وجد إلى الآن، وبالتالي فالنسبة هي الصفر المحقق ..

أمرٌ آخر: فجسم الانسان العادي يُنتج في كلِّ ثانية أكثر من ٢٥ ملـــــيون خليةٍ جديدة .. ويحتوى دماغهُ على أكثر من ١٠٠ مليار خليةٍ عصبية، وتحتوي كبدهُ على أكثر من ٤٠٠ مليار خليةٍ كبدية، وتحتوي رئتهُ على أكثر من ٧٠٠ مليون ِحويصلهِ تنفسية، وتحتوي معِدتهُ على أكثر من ٣٥ مليون غدةٍ هاضمةٍ للطعام، وتحتوي دِمائهُ على أكثر من ٢٥ مليون كريةٍ حمراء، تجري في أوعيةٍ دمويةٍ يبلغُ طولها أكثر من من ١٠٠,٠٠٠ كم، ويوجد في جسمه أكــثر من ٣ ملايين مُستشعِر للألم، ويمكن لأنفهِ أن يُميزَ أكثر من ٥٠.٠٠٠ رائحةٍ مختلفة .

. هذه عينةٌ صغيرةٌ جداً من الاحصائيات الدالةِ على شدة تعقيدِ خـــلقِ الإنسان .. فيا ويلكم أيها الملحدون، أكل هذا صدفة ؟! أفلا تعقلون ..
{وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (٣٦) .

دليلٌ علميٌ رابع: الإعجاز العلمي والغيبيُ في القرآن الكريم:
الإعجازُ العلميُ هو سبقُ القرانِ الكريم إلى ذكرِ عدد ٍكبيرٍ من الحقائقِ الكونيةِ التي يستحيلُ التعرفُ عليها دون استخدامِ أجهزةٍ علميةٍ متقدمةٍ جداً، لــم تكن البشريةُ تملكها أبداً وقت نزول القرآن .. مما لا يدعُ مجالاً للشك في صـــــدق القرآن الكريم، وأنه لا يمكن أن يَصدُر إلا من عند الخالق جلَّ وعـلا .. فالآيات التي تتحدث عن الحقائق والظواهر الكونية في القرآن الكريم تزيــد عن الألف آية، كلُّها تتطابقُ تماماً مع الحقائق التي أثبتها العلم بوسائله الحديثة، أما ما لم يثبت علمياً من النظريات والفرضيات فلا يلتفت إليه حتى يثبت،
{قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} (٣٧) .

فمن هذه الآيات ما يتحدث عن أطوار الجنين:
{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} (٣٨) .

ومنها ما يتحدث عن طبقات الجو العليا:
{فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ} (٣٩) .

ومنها ما يتحدث عن الجلد والنهايات العصبية:
{إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} (٤٠) .

ومنها ما يتحدث عن نشأة الكون:
{أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}، (٤١) .
{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}، (٤٢) .
{وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، (٤٣) .
ومنها ما يتحدث عن نزول الحديد للأرض: {وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ} (٤٤) .

ومنها ما يتحدث عن التقاء البحار وعدم امتزاجها:
{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ} (٤٥) .

ومنها ما يتحدث عن ظلمة البحر:
{أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} (٤٦) .

ومنها ما يتحدث عن الجزء المغمور من الجبال:
{أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا} (٤٧) .

ومنها ما يتحدث عن أخفض منطقة على سطح الأرض:
{الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون} (٤٨) .
إلى غير ذلك من آيات الاعجاز المتنوعة الكثيرة ..

ومن أدلة الإعجاز، الإعجاز الغيبي، وهو إخبار القرآن بأمور ستقع في المستقبل، فتقع كما أخر، كما في قصة أبي لهبٍ، الذي كان هو وزجـته يكرهان الإسلام كرهاً شديداً، وكانا على استعداد أن يفعلا أيَّ شيءٍ ليصُدا النـــاس عن دين الله، فقد كان أبو لهب يسيرُ خلفَ المصطفى ﷺ، ويقول للـــناس: أنا عمه واعلم الناس به، لا تصدقوه فإنه كاذب، فيقول الناس، نعم عمه أعلم به، وكانت زوجته شاعرة، تعلن تكذيب الرسول في شعرها .. وقبل وفــاة هذا اللعين باثني عشر سنة كاملة، نزل في القرآن خبرٌ قاطعٌ بأنَّ أبا لهبٍ وزوجته سيذهبان للنار، أي أنَّهما سيموتان كافرين ولن يدخلا في الإسلام .. لقد كانت فرصةً سانحةً لهما أن يهدما الإسلام في لحظةٍ واحدة، فقد كان بإمكان أي منهما أن يُــعلن إسلامه أمام الناس ولو كذباً، وبذلك يثبت كذب القرآن .. ولكن ذلك لم يحدث أبداً، طوال اثني عشر سنة .. لأن هذا الكلام وحيٌ من الخلاق العليم، الذي يعلمُ أن أبا لهب لن يُسلم أبداً ..

نوعٌ ثالث من الأدلة: وهو دليل الفطرة السليمة:
فِدلالة الفطرة السليمة على وجود الله أقوى من كلِّ دليل .. أعرابي الصحراء ذو الفطرة السليمة يقول: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، ألا يدلان على الصانع الـــخبير .. وهكذا فكلُّ إنسانٍ يُحسّ من تلقاء نفسه أنّ له رباً وخالقاً خلقه وأوجـــده، ويشعرُ بالحاجة والفاقة إليه .. وَيَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ الِابْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ؛ وكل من يقـــع في ورطةٍ حقيقيةٍ ويصل إلى درجة الحرج يتجه تلقائياً بقلبه وكليته إلى الســـماء يطلب

الغوث من ربه .. ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ (٤٩) .

نوعٌ رابعٌ من الأدلة: الدليل اللغوي: فمن المعلوم في قواعد اللغة أن المـــــعنى يسبق اللفظ، والمسمَّى يوجد قبل الأسم، فاذا لم يوجد المسمَّى والـــــمعنى، فلا يوجد اللفظ والاسم، فكل اختراع يتم اكتشافه، فإن فكرته ومعناه لم تكن معروفة، ولذلك فلا يوجد له أسم، ومن ثمَّ يوضعُ له الاسم المناسب لمعناه بعد إيجاده ..

على سبيل المثال: الجوال، التلفاز .. وكل المخترعات تجد أن المـــــعنى دائماً يسبق الأسم .. ومع أن الله سبحانه وتعالى غيبٌ عنَّا ولم يره أحـــدٌ، إلا أن لفظَ الجلالة ومرادفاته موجودٌ في كلِّ لغات العالم، والعقولُ كلها تفهمه، فكيف يمكن أن يحدث هذا؟ إلّا إذا كان في داخل الجميع إيمانٌ فطريٌ مغروس، وتصورٌ ذهنيٌ واضحٌ، لمعنى لفظ الجلالة ..

هذه أربعةُ أنواعٍ من الأدلة المختلفة، كلُّ منها يكفى لإثبات وجود الـخالق جل وعلا، بلا شكِّ ولا مِراءَ، فإن بقيَ في نفس الملحد شيءُ من شكٍّ، فهو محضُ كذبٍ أو هوى ..

ناظر الأمام أبو حنيفةَ رحمه الله جماعة من الملحدين الدهريين، فقال لهم:
قد ذكروا لي أن سفينةً في البحرِ عظيمةُ الصنع، فيها أنواعٌ كثيرةٌ من الـمرافقِ والمصالح والأقسام، إلا أنَّهُ ليس بها أحدٌ يُنظِمهَا ولا يُدبرها، وليس هـناك من يسوقُها ولا يحرسُها، فهي التي تفعلُ ذلك كُله، وتُسيّرُ نفسَها بنفسِهـــا، تذهَبُ وتجيء، وتخترقُ الأمواجَ وتعبرُ المحيطاتِ، وترسو في الموانئِ بنفــــسِهَا .. وتُوصِلُ الأحمالَ من غير أن يُسيّرها أحدٌ، فقالوا: هذا شيءٌ مُستحيلٌ ولا يقولهُ عاقلٌ .. فقال: ويحكم فهذه الموجُوداتِ العظيمةِ بخلقِها البديع، ونظامُها الدقِيق، واتساعِها المذهل، وما فيها من عالمٍ عُلويٍ وسُفليٍ، وما اشتملت علـــيه من إحكامٍ وإتقانٍ عجيب، هل يعقلُ أنها تسيّرُ نفسَها بنفسِها وليس لها صانعٌ عاقلٌ، ولا مُدبرٌ حكيمٌ ؟ .. فبُهِت القوم ورجعوا إلى الحقّ ..

ومن المناظرات الرائعة الماتعة ما جرى بين أحد علماء الأعجازِ العلمي وأحد كبار الملحدين الغربيين ..

حيث بدأت المناظرة بقول العالم للملحد: إذا كنت لا تؤمن بالخالق جلَّ وعلا فمن أوجدك .. قال الملحد: أوجدتني الطبيعة .. قال العالم: هل تقصدُ بالطبيعة، الصدفةُ .. قال الملحد: نعم .. قال العالم: أليست الطبيعةُ صماءَ بكماءَ عمياءَ، ليس لها علمٌ ولا حِكمةٌ، وليس لها عقلٌ ولا تدبيرٌ .. قال الملحد: نعم .. قال العالم: أترى هذا المصباحَ الكهربائي، وأشار إلى مصباح الغرفة، لو أخبرتُك أن صانِعهُ عِندهُ زجاجٌ أتصدقني؟ .. قال الملحد: نعم .. وإلا كَيفَ سيصنعه .. قال العالم: ولو قلت لك أن هذا الصانعَ لديهِ قُدرةٌ على تشكيل الزجاج كما يريدُ أتصدقني .. قال الملحد: نعم .. قال العالم: ولو قلت لك أن صانع هذا المصباح حكيمٌ مُتقنٌ، فقد استطاع أن يُحكمَ الغِطاء حول الزجاج، أتصدقني .. قال الملحد: نعم .. قال العالم: ولو قلت لك أنَّ صانع المصباح لديه علمٌ واسعٌ بالكهرباء، أتصدقني .. قال الملحد: نعم ، لا بدَّ أن يكونَ لديهِ علمٌ بالكهرباء وإلا لما استطاع أن يجعلهُ يُضيئ ..

قال العالم: إذن فأنت ودونَ أن ترى صانِعَ المصباحِ، تقرُّ وتشهدُ بأنهُ يتصفُ بصفاتٍ كثيرة: منها أن لديهِ زجاجٌ، وأنهُ قادرٌ على تشكيلِ الزجاج، وأنه مُتقنٌ لصنعتهِ، وأنَّ لديه علمٌ متقدمٌ بالكهرُباء .. قال البروفسور: نعم أقرَّ بكلِّ ذلك .. قال العالم: كيفَ تُقرُّ بصفاتِ صانعٍ لم ترهُ ؟! .. فأشارَ اللمحد إلى المصباح وقال: هذا صُنعهُ أمامي ..

قال العالم: إذن فأنت تقرُّ بأنَّ الشيءَ المصنوعَ سواءً كان مِصباحاً أو غيرهُ يدلُ على بعضِ صفاتِ صانِعهِ، فلا تُكونُ خاصيةٌ في الشيءِ المصنوعِ إلا وعندَ الصانعِ قُدرةٌ أوجدَ بها تلك الخاصية .. قال الملحد: نعم ..

قال العالم: فلنتحول من صنعُ المصباح إلي صُنعِكَ أنت .. فهل لا زلت تزعمُ أنك خُلقت عَبثاً، وأنَّ من خلقكَ ليس لديهِ علمٌ ولا حِكمةٌ ولا عقلٌ .. قال الملحد: نعم .. قال العالم: فما هو تعريفك للعين، وأشار العالم إلى عينه .. قال الملحدُ: جهازٌ يستقبلُ الضوءَ المنعكِسَ من الأجسامِ، فيترجمها في الدماغ إلى صورٍ مُتتابعة .. قال العالم: أي أنهُ لا يعملُ في الظلام .. قال الملحدُ: بالطبع لا يعمل .. قال العالم: فأين صُنعت العين .. قال الملحدُ: في رحِمِ الأمِّ .. قال العالم: وهل في الرَّحِمِ ضوءٌ .. قال الملحدُ: لا .. قال العالم: فالذي صنعَ جهازاً خاصاً بالضوءِ في مكانٍ

مُظلِمٍ، وفي وقتٍ لم يكن الجنينُ بحاجةٍ إليه عِدةَ أشهُرٍ، هل يعلمُ بأنـــــــــــهُ سيستخدمها عندما يخرجُ للضوءِ، أم لا يعلم .. فاضطرب الملحدُ وعاندَ، وقال: لا يعلم .. لأنهُ لو قال يعلم فستنتهي خُرافةُ الطبيعةِ التي لا تعلم ..
قال العالم: فلنتكلم عن شيءٍ آخر، كم درجةُ حرارةِ الإنسان الطبيـــــــعية .. قال الملحدُ: ٣٧ .. قال العالم: أليست هذه الدرجةُ ثابتةٌ لكلِّ البشر صيفاً وشتاءً، في المناطق الباردةِ والحارةِ على حدٍّ سواء .. قال الملحد: نعم .. قال الـــعالم: أليسَ في الجسمِ عوامِلَ لتحافظَ على توازن هذه الحرارة، فتجعلها ثابتــةً طوالَ الوقتِ صيفاً وشتاءً، كإفرازِ العرقِ في الحرِّ، وحرقِ الطعامِ وتحويلِهِ إلى حــــرارةٍ في البرد، ولذلك نُكثِرُ من شُربِ الماء صيفاً، ونأكلُ أكثرَ في الشـــتاءِ .. قال الملحدُ: نعم .. قال العالم: فهل من أوجدَ هذا الميزانَ الدقيقَ ليجعلَ حرارةَ الجـــسمِ ثابتةً بشكلٍ دائمٍ عند تلك الدرجةِ، حكيمٌ أم غيرُ حكيمٍ، فاستمر الملحد في غيـــهِ وقال، لا، ليس بحكيم .. لأنَّهُ لو قالَ حكيم، فسيهدِمُ عقيدته في الطبيعة التي لا عِلمَ ولا حِكمةَ لها ..
قال العالم: شيءٌ آخر: أليس هذا الجهاز الدقيقَ الخاص بضبطَ حرارةَ الجـــسمِ دائماً عند ٣٧، أليس قد صنعَ في الرَّحم .. قال الملحد: نعم صنعُ في الرحـــــم .. قال العالم: أليست درجةُ حرارةِ الرَّحِمِ أيضاً ثابتةٌ دائماً عند ٣٧ .. قال الملحــد: نعم، لأنها داخل جسم الأم .. قال العالم: فالذي صنعَ جهازاً خاصاً بضــبط درجةِ حرارةِ الجسمِ مهما تغيرت الأجواء، صيفاً وشتاءً، وصنعهُ في مكانٍ لا تتغيرُ فيه درجةُ الحرارةِ، وفي وقتٍ لم يكن الجنينُ بحاجةٍ لهذا الميزانِ عِدةَ أشــهُرٍ، يعلمُ بأنهُ سيحتاجُهُ عندما يخرجُ للأجواء الخارجية المتغيرة أم لا يعلم .. فاســـــتمرَ الملحدُ في غيهِ وقال: لا يعلم ..
قال العالم: حسناً، أمرٌ رابع: كم نسبةُ الأُكسجينِ في الهواء .. قال الملحد: قرابة الخمس .. قال العالم: فهل هذه النسبةُ ثابتةٌ أم مُتغيرةٌ .. قال المـــلحد: بل هي ثابتةٌ دائماً .. قال العالم: فما الذي يضبطها هكذا، رغمَ كثرةِ استهلاكِ الأُكسجين من البشرِ والحيوانات .. فقال الملحدُ: النباتاتُ وتبخرُ البحارِ وغيرها مــــــــنَ العوامِلِ .. قال العالم: فالذي صنعَ هذا التوازُنَ العجيبَ، وجعل هذا النسبةَ ثابتةً لا تتغيرُ في كلِّ بقاعِ الأرضِ، رغمَ كثرةِ الاستهلاك وتغيرِ البـيئات، هل من فعلَ هذا وقدَّرهُ حكيمٌ أم غيرُ حكيم .. قال الملحد: لا ليس بحكيم .. قال العالم: فعلمتُ أنهُ سيتمرُ هكذا، إلا إذا احتلتُ عليه بحيلةٍ تُغلقُ عليه الطريقَ ...

يستأنف العالم مناظرته فيقول: سألت الملحد: لماذا يلبسُ روادُ الفضاءِ تلك البدلةَ الغريبة؟ فقال الملحد: لأنهم بدونها لا يستطيعون البقاءَ في الفضاء الخارجي، حيثُ تختلفُ درجةُ الحرارةِ والضغطِ ويقلُ الأكسجينُ وتكثرُ الإشعاعات .. قال العالم: فاخبرني عمن صنعَ تلك الملابس؟ أهم علماءٌ أم أناسٌ عاديون .. قال الملحدُ: بل علماءُ متخصِصون .. قال العالم: لماذا ؟ ..
قال الملحد: لأنهُ يجبُ أن تتوفرَ فيها مُواصفاتٌ حماية خاصة، فتحميهم من الإشعاع الضَّار، والضغط الزائد، والحرارةِ العالية، وهذه أمورٌ لا يعلمها إلا عُلماءُ متخصِصون .. قال العالم: فأنت عندما كنت في بطن أمِّك، من أين كنت تتنفسُ وتأكلُ .. قال الملحدُ: عن طريق الحبل السُّري .. قال العالم: فأنت عندما كنت في بطن أمِّك مثلَ رائد الفضاء الذي زودهُ العلماءُ بتلك البدلة الخاصة، فهل الذي زودك وأنت في بطن أمك بالجهاز التنفسي والجهاز الهضمي، في وقتٍ لم تكن تحتاجُ لهذا الأجهزة، يعلمُ أنك ستستخدِمُها عندما تخرجُ إلى الفضاء الخارجِي أم لا يعلم، فضحك الملحد وقال: يعلم .. استسلم أخيراً وأقرَّ بأن خالق الإنسان يتصف بالعلم ..

ثم تكلَّم العالم عن العظام وتداخلِها وتراكيبها المحكمة، وأنَّ كل عظمةٍ تتصل بأختها بكلِّ دقةٍ وإحكام، وعن الأسنانِ وتناسُقها وإحكامها، وتقسيمها إلى قواطع وأنيابٍ وأضراسٍ مُتناسِقة مُتكامِلة، وعن الرموش، وكيف يتقوسُ شعرها مرةً للأعلى ومرةً للأسفل، وعن تناسق الأعضاء وتناسُبها، فلا عينَ أكبرَ من عين، ولا أُذنَ أصغرَ من أُذن، ولا يدَ أطولَ من يد، ولا رِجلَ أقصرَ من رجل، مما يدلُ على حِكمةِ وإتقانِ وإبداعِ الصانعِ الحكيمِ سبحانه وتعالى، {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ} (٥٠) .

أخي القارئ: كما سمعت فالمناظرةُ وسيلةٌ فعالةٌ للتعلُّمِ والفهمِ وتبادُلِ المعارفِ والمعلومات بأسلوبٍ مُقنعٍ وجذابٍ، ولها فوائدُ مهمةٌ، من فوائدها إظهارُ الحقّ بدليه، وكشفُ عَوارِ الباطلِ، وتبيينِ زيفهِ وفسادِه، وفضح تدليس أهلِ الباطلِ وخِداعِهم، خُصوصاً لمن أغترَّ بزخرفِ كلامِهم وبهرج قولِهم .. ومن فوائدِ المناظراتِ أنها تُبينُ قوةَ هذا الدِّينَ الحقّ ومتانتهِ، وأنهُ ما شادَّ الدِّينَ أحدٌ إلا غلبهُ .. وتُبين كذلك مدى قوةَ وروعةَ ما في القرآنِ والسنة من أدلةٍ دامغةٍ،

وحُججٍ قاطِعةٍ، وبراهينَ ساطعةٍ، تجعلُ الحقَ يعلُو ولا يُعلى عليه .. كــما أنَّ من فوائِد المناظرةِ توضِيحُ أنَّ الحقَّ بحاجةٍ ماسةٍ إلى القوي الأمين، والذكيُ الفطين، الذي يعرف كيف يجلي الحق ويظهره حتى يرجِعَ إليهِ من يطلبهُ بصـــــــدق .. ويعرفُ كيف يحملُ على الباطلِ فيدمغهُ فإذا هو زاهقٌ .. ليهلك من هلك عن بينه، ويحيى من حيي عن بينه ..

وبقي معنا في موضوع الإلحاد ثلاثةُ محاور، الأول للرد على أبرز شُبُـــــهات الملحدين والتي طالما خدعوا بها ضعيفي العلم والإيمان، والمحور الـثاني عن أقوى حجج الملحدين وأكثرها رواجاً، وهو ما يسمى بمشكلة الـــشر ودِلالاتـها، والمحور الثالث: أسئلةٌ بدهيةٌ لا يستطيع الملحدون الإجابة عليها .. نـسأل الله الكريم العون والتوفيق والسداد ..

ويا ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، البر لا يبلى والذنب لا ينسى، والديان لا يـــموت، وكما تدين تدان ..

المراجع: للباب الثامن : الفصل الأول :

---

(١) (سورة النور ، آية : ٥٤)
(٢) (سورة الأنعام ، آية : ١٥٥)
(٣) (سورة فاطر ، آية : ٦)
(٤) (سورة البقرة ، آية : ٢٨١)
(٥) (سورة الروم ، آية : ٣٠)
(٦) (صحيح مسلم)
(٧) (سورة الشعراء ، آية : ٩٧)
(٨) (سورة النساء ، آية : ١٦٨)
(٩) (سورة يس ، آية : ٧٧-٨٣)
(١٠) (سورة الطور ، آية : ٣٥)
(١١) (سورة البقرة ، آية : ٢٥١)
(١٢) (سورة العنكبوت ، آية : ٦٨)
(١٣) (سورة الملك ، آية : ٢٢)
(١٤) (سورة محمد ، آية : ٢٢)
(١٥) (سورة النمل ، آية : ١٤)
(١٦) (سورة الأنعام ، آية : ٣٣)
(١٧) (سورة الإسراء ، آية : ٨١)
(١٨) (حديث قدسي ، رواه البخاري ، فتح الباري ٣٤٠٤ ، رقم ٦٥٠٢ .)
(١٩) (سورة الجمعة ، آية : ٤)
(٢٠) (سورة المؤمنون ، آية : ١١٨)
(٢١) (سورة النمل ، آية : ٨٨)
(٢٢) (سورة البقرة ، آية : ١١٧)
(٢٣) (سورة الأنعام ، آية : ٣٣)
(٢٤) (سورة النمل ، آية : ٦٤)
(٢٥) (سورة يونس ، آية : ٣٤)
(٢٦) (سورة العنكبوت ، آية : ٦١)
(٢٧) (سورة الزمر ، آية : ٦٢)
(٢٨) (سورة الأنعام ، آية : ١٩)
(٢٩) (سورة الملك ، آية : ١٤)
(٣٠) (سورة الجاثية ، آية : ١٣)
(٣١) (سورة النمل ، آية : ٨٨)
(٣٢) (سورة الزمر ، آية : ٤٦)
(٣٣) (سورة طه ، آية : ٤٨-٤٩)
(٣٤) (سورة الرحمن ، آية : ٢٦)

(٣٥) (سورة الأنعام ، آية : ٩١)
(٣٦) (سورة الذاريات ، آية : ٢١)
(٣٧) (سورة البقرة ، آية : ١١١)
(٣٨) (سورة المؤمنون ، آية : ١٢-١٣-١٤)
(٣٩) (سورة الأنعام ، آية : ٢٥)
(٤٠) (سورة النساء ، آية : ٣٠)
(٤١) (سورة الأنبياء، آية : ٥٦)
(٤٢) (سورة فصلت، آية : ١١)
(٤٣) (سورة الذاريات، آية : ٤٧)
(٤٤) (سورة الحديد، آية : ٢٥)
(٤٥) (سورة الرحمن، آية : ٢٠)
(٤٦) (سورة النور، آية : ٤٠)
(٤٧) (سورة النبأ، آية : ٧)
(٤٨) (سورة الروم، آية : ١-٢-٣)
(٤٩) (سورة الإسراء، آية : ٦٧)
(٥٠) (سورة النمل، آية : ٨٨)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ، الحمدُ للهِ مُصرّفِ الأحوالِ، مُقدّرِ الآجالِ، المتفردِ بالعزَّةِ والعظمةِ والجلالِ، منْ لهُ الغنى كلُّهُ ولهُ مُطلقُ الكمالِ، {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} ..

أَمَّا بعْدُ: تعال معي نرد على أبرز شُبهات الملحدين ووسائلُ الوقاية منها،

أولاً : الشُبْهَةُ في اللغة:

هي الالتباسُ والشكّ في صحةِ الأمرِ، وسميت شُبهةً لأنها تُشبهُ الحقَّ وهي ليست كذلك، وفي الحديثِ المتفقِ عليه: {مَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ، وعِرْضِهِ، ومَنْ وقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وقَعَ فِي الْحَرَامِ} .. (١) .

وابتداءً فنحن حين نفصلُ الحديثَ في هذا الموضوع الشائِك، فأولاً من أجلِ حمايةِ وحصانةِ وتثبيتِ أهل الإيمان، ثمَّ عسى ولعل أن يكونَ من أولئك القوم من ينشدُ الحقَّ بصدقٍ فنكون سبباً في إيصالهِ إليه .. والملاحَظُ بوضوحٍ أنَّ الملحدين حين يُكثِرونَ من طرح الشُبهِ المضلّلةِ، والأسئلةِ المغلوطة، فليسَ بحثاً عن الحقِّ، ولا رغبةً في إتباعه، وإنما جُحوداً وإنكاراً للحقِّ بعد معرفته، وصداً عن سبيلِ اللهِ، وسعياً في الإفساد ..

قال تعالى: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}، (٢) .

وقال تعالى: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} .. (٣) .

ولذلك فغالب شُبهِهم وأسئلتِهم التي يزعمون عدم القدرة على إجابتـــها، مبنيةٌ على مُغالطاتٍ منطقيةٍ، وتناقضاتٍ عقليةٍ .. فمن أشهرِ الشبه التي يُكثـــــِرون طرحها، رغم أنها قُتلت بحثاً وعلاجاً، قولهم: إذا كان اللهُ موجوداً، فمن أوجده، يعني (من خلقَ الخالق) .. ومثلها: إذا كان اللهُ أزلياً قديماً، فما الشيءُ الذي كان قبلهُ .. ومثلها أو قريباً منها: هل يستطيعُ اللهُ أن يخلقَ جبلاً لا يستطيعُ حمـلــه.. كلُّ هذه الأسئلة وأشباهُها مبنيةٌ على مغالطاتٍ منطقيةٍ، وتناقضاتٍ عقليةٍ ..

ولكي نجيبَ عليها جواباً حاسماً، نحتاجُ لأن نفرقَ بين نوعين من المســـتحيل، المستحيلُ قُدرةً، والمستحيلُ عقلاً ..

فالمستحيلُ قُدرةً: هو شيءٌ يعجزُ الانسانُ عن فِعلهِ، ولا يعجزُ عن تــــــصوره، فمثلاً: طيرانُ الإنسان بدون أدوات، يمكنُ تصورهُ عقلاً، لكن يستحيلُ فِعلهُ قُدرة، ومثله جميعُ المعجزاتِ .. تحولُ العصا إلى ثعبان، يمكن تَصورهُ عقلاً، لـــــكن يستحيلُ فعلهُ قُدرةً، إبراءُ الأكمهِ، إحياءُ الموتى، وغيرها من المعجزات .. كُلها أشياءٌ يمكنُ تصورها عقلاَ، لكن يستحيلُ على قُدرةِ البشرِ فِعلُها .. هذا هــــو المستحيل قُدرةً ..

وأمَّا المستحيلُ عقلاً، فلا علاقة لهُ بالقدرة .. وإنما هو عدمٌ لا يملك العـــقلُ لهُ تصوراً .. والعدمُ ضدُّ الشيءِ .. وحين يقول اللهُ تعالى:
{أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}،
فهو يعني المستحيلُ قُدرةً، فالمستحيلُ قُدرةً: شيءٌ يَعجزُ الانسانُ عن فِعلهِ، ولا يَعجزُ عن تصوره، بينما المستحيلُ عقلاً هو عدمٌ لا يملكُ العقلُ لهُ تصوراً .. مثلاً لو كان أمامك كأسٌ ثابتٌ على الطاولة، فإنك تقدِرُ أن تُحركَ الكأسَ، أو أن تتركهُ ساكناً بلا حركةٍ .. لكنك لا تستطيعُ أن تجعلهُ سَاكناً ومُتحركاً في آنٍ واحِد .. إنها صُورتينِ مُتناقضتينِ، مطلوبٌ من العقل أن يتصور وجودهما معاً، وهو لا يملك ذلك، لا لعجز العقل وإنما لأن المطلوبَ نوعٌ من العدمِ غيرُ موجود ..

مثالٌ آخر: إذا كان بإمكان العقل أن يتصورَ المثلثَ والمربعَ والدائـــــرةَ والخطَ المستقيمَ، فإن من العدمِ والمستحيلَ العقلي أن يتصورَ العقل مُثلثاً لـــــهُ أربعةُ أضلاعٍ، أو أنْ يتصورَ مُثلثاً دائرياً، أو يتصورَ خطينِ مُتوازيينِ مُتقاطعين، إنها صورٌ معدومةٌ، لا يملك العقل لها تصوراً .. مثالٌ آخر: إذا كان بإمكان العقل أن يتصورَ رجُلاً في غاية الأمانةِ، أو أن يتصورَ رجُلاً لِصاً، فإن من الـــــــعدم والمستحيلِ العقلي أن يتصورَ العقلُ رجُلاً أميناً سارقاً في آنٍ واحد . فالمستحيلُ العلقيُ إذن لا يعدو أن يكون مُغالطةً مبنيةً على وجودِ صفتينَ مُتناقضتينِ في آنٍ واحد .. وهذا عدمٌ ليس له تصورٌ في العقل ..

إذا فُهم هذا، فسيسهل الإجابةُ على كُلِّ جملة من أسئلة الملحدين وشبـــــههم ..

فالسؤال الأول: من خلقَ الخالِقَ، هو سؤالُ مُغالطةٍ منطقيةٍ من قـــــبيلَ العدمِ والتناقضِ العقلي المستحيل، حيثُ يتضمنُ وجودَ صفتينِ متناقضـــتينِ في آنٍ واحد، وهو أن يكون الإلهُ خالقاً ومخلوقاً في نفس الوقت .. وهذا مستحيلٌ عقليٌ، وعدمٌ ليس لهُ تصورٌ في العقل، فبطلَ السؤالُ من أساسه ..

ومِثلهُ السؤالُ الثاني: إذا كانَ اللهُ أزلياً قديماً، فما الشيءُ الذي كان قـــــبلهُ .. وأيضاً فهذه مُغالطةٌ منطقيةٌ، من قبيل العدمِ والمستحيلِ العقلي؛ مبنيةٌ علـــى وجودِ صفتينِ مُتناقضينِ في آنٍ واحد، وهو أن يكونَ اللّهُ قديماً وليس بقديمٍ في نفس الوقت، وهذا مُستحيلٌ عقليٌ لا يمكن تَصورهُ لعدميته، لا لعجزِ الـــــعقل، فبطلُ السؤالُ أيضاً ..

ومثلهُ سؤالٌ آخر: هل يستطيعُ اللهُ أن يخلقَ جبلاً لا يستطيعُ حملُهُ .. وأيضاً فهذه مُغالطةٌ منطقيةٌ، من قبيل العدمِ والمستحيلِ العقلي؛ مبنيةٌ على وجودِ صفـــتينِ مُتناقضينِ في وقتٍ واحدٍ، وهي أن يكون لله صفةُ القدرةِ المطلقةِ، والـــــقُدرةِ المحدودةِ، وهذا مُستحيلٌ عقليٌ، وعدمٌ ليسَ لهُ تصورٌ في العقل، فبطلٌ الـسؤالُ من أساسِهِ ..

ومن الشبهِ التي يروجُ لها الملحدونَ كثيراً قولهم: إذا كان الله يعلمُ ما سأكونُ قبل أن يخلقني، فلماذا يُقدِّرُ علي العذاب ..

والجوابُ: أنَّ الله تعالى لا يُعذِّبُ أحداً وفقَ ما يعلمُهُ سُبحانهُ من حالهِ، وإنما وفقَ ما يفعلهُ العبدُ أعمال حسنةٍ أو سيئةٍ، قال تعالى: { لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}،

وقد قامت حُجةُ اللهِ على عبادهِ بإرسالِ الرسلِ وانزالِ الكتبِ، فليس لهم بعد ذلك عذرٌ، قال تعالى عن أهل النار: {كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ}، (٤) .

فكل من يلقى في النار استحق العذاب بتكذيبه للنذير .. والله تعالى قد حرَّمَ على نفسهِ الظلم، فقال تعالى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} .. وأكد أنه لا يكلفُ نفساً إلا وسعها .. ثمَّ إذا سَمحَ أحدٌ لنفسهِ بمثل هذا العذر، فلا بدَّ أن يَسمحَ لغيرهِ بمثله، وبالتالي فليس لهُ حقٌّ أن يُنكرَ على من يظلِمهُ، ويتعدَّى عليه، ويأخذَ مالهُ، ويسلبُ حُقوقهُ، بل حتى إبليسَ، وفرعونَ، والأقوامَ الكافرة كُلهم بهذه الطريقةِ معذورون، لأن أفعالهم كُلَّها بعلم اللهِ وقَدرهِ، ومعلومٌ أن هذا لا يقبلهُ أحدٌ، ولو فعل الناس هذا لفسدت أحوالهم، ولما أمكن التفريقُ بين مؤمنٍ وكافر، ولا بين برٍّ وفاجِر .. فتبينَ بُطلانُ هذا القول عقلاً وشرعاً ..

ومن شُبهِ الملحدين قولهم: ما لا يُدرك بالحواسّ فلا وجودَ له ..
زاعمين أنَّ المنهجَ العلمي للمعرفة الانسانية يعتمدُ على الحواسِ المادية، كالبصر، والسمع، والحسّ، وبما أنهُ لم يسبق لأحدٍ أن رأى الإلهَ بعينهِ ولم يسمعهُ بأذنهِ، ولم يُدركهُ بأيِّ وسيلةٍ حِسيةٍ .. فهو إنما ينطلقُ من إيمانٍ غيبي بهذا الإلهِ، وليس من مُنطلقٍ عِلمي، فإنَّ هذا الإله بزعمِهم غيرُ موجودٍ عِلمياً ..

والجوابُ بنفسِ المنطقِ والمنهج: فالملحدُ يؤمنُ بأنَّ الانسانَ قد تطورَ من سُلالةِ قِرد .. فهل سبقَ وأن رأى الملحدُ هذا التطوّر بعينه، أو سمعهُ بأذنه، أو

لمسَهُ بيدهِ أو أدركهُ بأيّ وسيلةٍ حِسيةٍ من حَواسِه .. وبما أنهُ لم يسبق لأحدٍ أن رأى عمليةَ التطوّرِ بعينه، ولم يُدركها بأيّ وسيلةٍ حسيةٍ .. فهو إذن ينطلقُ من إيمانٍ غيبيٍ بهذا التطورِ الخيالي وليس من مُنطلقٍ عِلميٍ، وعليه فإنَّ عمليةَ التطورِ غيرُ موجودةٍ عِلمياً .. ثمَّ ماذا عن وجود الجاذبيةِ الأرضية ..

أليست شيئاً موجوداً ولا يمكنُ إدراكهُا بالحواس المادية .. فعدم إدراكنا الحسي بوجود الأشياء، لا يعني أنها غير موجودةٍ .. الإنسانُ إذا نامَ انتقلَ إلى عالمٍ آخر، عالمٍ مجهولٍ تماماً .. فالنائمُ لا يشعرُ بالزمن، ولئن كانت عيناهُ مُغمضتان فإنه يمكن أن يرى، ولئن كانت قدماه ثابتتان، فإنهُ يمكنُ أن يمشي، ولئن كان فمه مطبقاً، فإنه يمكن أن يتكلمُ، ولئن كان نائماً لوحده، فإنهُ يمكن أن يعايش الآخرين ويخالطهم، ويفهمُ ويحفظَ ما جري له معهم، وربما سافرَ إلى أماكن لا يعرفها، وربما رأى أشياء لم يرها من قبل، وربما قابل أناساً لم يسبق له مقابلتهم من قبل، والعلمُ خارجَ هذه المنطقةِ تماماً، ولا يستطيعُ لها تفسيراً، وكلُّ ما وصل إليه العلماء انما هو تخميناتٌ بلا دليل .. وكذلك يقال للملحد، إنَّ في جسدكَ روحاً هي التي تجعلكُ حياً مُتحركاً، وبدونها تتوقفُ حركتك، وفي دِماغِك وعيٌ وذاكرةٌ تُدركُ بها الأشياء، وفي نفسِك مشاعرٌ مُتنوعةٌ، كالحبِّ والرحمةِ والرغبةِ والخوفِ وغيرها من المشاعِر .. وبما أنهُ لم يسبق لأيّ مُلحدٍ أن أدركَ روحهُ أو عقلهُ أو مشاعِرهُ بأيّ وسيلةٍ حِسيةٍ .. فإننا نستطيعُ أن نؤكدَ حسب منهجهم العلمي أن الملحدَ بلا عقلٍ وبلا روحٍ وبلا مشاعرٍ .. قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} (٥) .

أخي القارئ:

بقي معنا شبهةٌ أخيرةٌ، يسمونها صخرةُ الإلحاد، وهي قولهم: أنَّ وجودَ الشرّ يتعارضُ مع وجودِ الإلهِ الرحيم، ولأنَّ هذه الشبهةِ هي أقوى الشبهِ عندهم، وأكثرِها تشعُباً، وأخذاً ورداً، لذلك سنؤجلها للجمعة القادمة بإذن الله ..

أهم وسائلِ الوقاية من شُبهات الملحدين: فنقول مُستعينينِ بالله تبارك وتعالى:

الوسيلةُ الأولى: هي الاهتمام بعبادة الذكرِ والتفكر في آيـــــــات الله الكونية والشرعية .. قال تعالى: {الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِـــــــمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}، (٦) .
فبمداومة الذكر والتفكر يصلُ العبدُ إلى تنزيهِ اللهِ تعالى ونفي العبثيـــــــةِ والعشوائية {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ} (٧) .

والوسيلة الثانية: هي الثباتُ والتماسكُ أمام الشبهات، حيث أنه كثـــيراً ما يضطربُ المتشككُ حين يسمع الشبهةِ لأول مرة، ظناً منهُ أنه لا جوابَ لها، بينما لو سألَ من يثقُ بعلمه ورأيهِ فسيصلُ للإجابة الصحـــــيحة بإذن الله ..

الوسيلة الثالثة: هي الاهتمامُ بالتأصيل الشرعي الكافي، ودراسةِ البراهينِ والأدلةِ الدامغةِ للرد على اعتراضات وشبه الملحدين المشككين، وذلك من خلال قراءة المراجع الخاصة بذلك، وهي كثيرةٌ ومتوفرةٌ بحمد الله ..

الوسيلة الرابعة: هي الحرصُ على تنمية الحسّ النقدي، وعدمِ قبولِ أيِّ دعوى بدونِ دليلٍ صحيح .. والإلحادُ عموماً عقيدةٌ جوفاء فارغة، مبنـــية على النفي والرفض، ودليلها عدم الدليل، وهذا ما لا يقبلهُ عاقِلٌ مُنصف ..

الوسيلةُ الخامسة: هي معرفةُ طُرقِ البحثِ عن الحقّ والصوابِ، ومعرفةُ طُرقِ التواصلِ مع المرجعيات العلميةِ والشرعيةِ الموثوقةِ والمتخصصـــــــةِ في حلّ الإشكاليات التي لم يستطع أن يحلها بنفسه .. وكذلك التعرفَ عـــــلى المواقع المتخصصةِ على الشبكة، كموقع المحاور، وموقع هداية الملـــحدين، وموقع التوحيد، وبإذن الله سيجدُ فيها الإجابةَ الشافية لكلِ الأسئلة والاشكاليات التي قد تواجهه .. كما أنَّ هناك الكثير من العلماءِ المتخصصين في هذا المجال، والذين يمكنُ الوصولَ إليهم والتواصلَ معهم بسهولةٍ عن طريق مُعرفاتِهم ومواقِعهم ..

أخي القارئ: إن وجود الشرّ لا يتنافى مع وجود الخالق جلّ وعلا ..

للرَّدِّ على ما يصرحُ به كثيرٌ من الملحدين أنَّ وجودَ الشرِّ هو السببُ الأكبرُ في الحادِهم، وأنهُ حُجتَهم الكبرى، بل ويسمونهُ صخرةُ الإلحادِ .. ودائماً ما يكونُ أولَ سُؤالٍ يطرحهُ الملحدُ، لماذا وجدَ الشرُّ ؟؟ لماذا وجِدَ المرضُ والألمُ والظلمُ .. فوجودُ الشَّرِّ بزعمِهم يتنافى مع وجودِ إلهٍ رحيمٍ قديرٍ عليمٍ، وإلا كيفَ يقبلُ إلهٌ كاملُ القدرةِ كاملُ الرحمةِ كاملُ العلمِ بوجود كلِّ هذهِ الشرورِ .. فإذا أثبتنا أنَّ وجودَ الشرِّ ليسَ فساداً من كُلِّ وجهٍ، وانَّ الشرَّ قد يُوصِلُ إلى خيرٍ أعظمَ منهُ، أو إلى دفعِ شرٍّ أشدَّ منهُ، وأنَّ وجودَ الشرِّ لهُ حِكمٌ جليلةٌ وفوائدُ عديدةٌ، فقد دُحِضَت حُجتُهم وبطُلَ زعمُهُم ..

وبداية أقول: أنَّ الاحتِجاجَ بوجودِ الشرِّ مُغالطةٌ منطقيةٌ، لا تصلحُ أنَّ تكونَ حُجةٌ لنفي الخالق .. لأنَّ الملحدَ حين يطرحُ هذه الشبهةَ، فهو يُدينُ نفسهُ، وينتقلُ بالمشكلةِ من كونها: هل الخالقُ موجودٌ أم غيرُ موجودٍ، إلى أن تكونَ: هل هو خالقٌ شريرٌ أم غيرُ شريرٍ .. وهذا اعترافٌ ضِمنيٌ بوجودِ خالقٍ .. وعند التأمُّل سنجدُ أنَّ وجودَ الخيرِ والشرِّ ضروريَّانِ لحُريةِ الإرادة والاختيارِ، وإلَّا كيفَ يكونُ الإنسان مخيراً من غيرِ وجودِ الخيرِ والشرِّ معاً، وضروريَّانِ للابتلاءِ والاختبارِ، فهما مادةُ الابتلاءِ والامتحانِ، قال تعالى:
{وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (٨) .

والخيرُ والشرُّ عموماً وجهانِ لعُملةٍ واحدة .. كُلٌّ منهما مُتممٌ ولازمٌ وضروريٌ لوجود الآخر .. ولا يكونُ أحدهما إلا بوجود الآخرِ .. فبوجوده يُوجدُ وبعدمِه ينعدِمُ .. وفي تضادِّ الخيرِ والشرِّ إبرازٌ لكُلٍّ منهما، فبضدِها تتميزُ الأشياءُ .. فلا يظهرُ جمالُ الخيرِ، ولا يظهرُ قبحُ الشرِّ إلا بوجودهما معاً .. فلا توجدُ الرحمةُ إلا في وجود الألمِ، ولا توجدُ الشجاعةُ إلا بوجود الخطرِ، ولا يوجدُ النبلُ والكرمُ إلا بوجود الحاجةِ، ولا يوجدُ الصفحُ والتسامحُ إلا بوجود الإساءةِ، ولا يوجدُ العدلُ والانصافُ والنُّصرةُ إلا بوجودِ الجورِ والظلمِ .. وقِس على ذلك، فلا معنى للصبر بلا مُصيبةٍ، ولا معنى للشبعِ من غير جوعٍ، ولا معنى للمواساةِ بلا مواجعٍ، ولا معنى للحبِّ من غيرِ تضحيةٍ، وعليه فالشرُّ إفرازٌ

طبيعيٌ لازمٌ وضروريٌ لوجود التضادِّ والاختلاف بينِ الأشياء ... وعند التأمُّل أكثر سنجدُ أنَّ غالبَ ما حولنا هو من قبيلِ الخير، وأنَّهُ هو الأصل، وأنَّ الشرَّ قليلٌ محدودٌ، بل هو استثناءٌ يؤكدُ دورَ الخيرِ ويُبرِزهُ .. فالمرضُ والألمُ استثناءٌ من الصحةِ والعافية، والجوعُ استثناءٌ من الشبع، والقلق استثناءٌ من الطمأنينةِ، والخوفُ استثناءٌ من الأمن .. وهكذا فَالخيرُ أصلٌ غالب، والشرُّ استثناءٌ محدودٌ .. وبالتالي فبإمكاننا أنَّ نقلبَ الطاولةَ على الملحد، فنسألهُ: من الذي جاءَ بكلِّ هذا الخير، والجواب:

{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (٩) .

ثم إنَّ الشرَّ قد لا يكونُ مقصُوداً لذاتِه، فالألمُ الذي يشعرُ به المريضُ نوعٌ من الشرِّ، لكنهُ ليس مقصوداً لذاته، بل هو تنبيهٌ وجرسُ إنذارٍ، يبدأُ خفِيفاً ثم يتدرجُ شيئاً فشيئاً حتى يصلَ إلى درجةٍ يصعبُ تحمُّلها، كلُّ ذلك لكي لا يتراخى المريضُ في تعاطِي العلاجِ فتتفاقَمُ المشكِلةُ فيتعرضَ للهلاكِ ..

فهل الشعورُ بالألمِ نِعمةٌ وحِكمةٌ وخيرٌ .. أم هو ظلمٌ وقسوةٌ وشرٌّ .. هل الشرُّ مقصودٌ لذاتِهِ أم هو تدبيرٌ لطيفٌ من الرحيمِ الحكيمِ سبحانهُ وبحمده ... والخيرُ والشرُّ نِسبيانِ متلازمان: وكلٌّ منهما خيرٌ من جهةٍ، وشرٌّ من جهةٍ أُخرى، ولو بنسبٍ مُتفاوِتةَ، لذلك قالوا في الأمثال: مصَائِبُ قومٍ عِند قومٍ فوائدُ ..

المطَرُ مثلاً بِالنِّسْبَةِ لِلمَزَارِعِ خَيْرٌ، وَلكنهُ بِالنِّسْبَةِ لِصَانِعِ الفَخَّارِ شَرٌّ .. ذوبانُ الثلجِ وتحوُلِهِ إلى مَاءٍ عَذبٍ يَسقِي الزُّروعَ والحيواناتِ، هو خيرٌ من هذه الجهَةِ، ولكنهُ قد يسببُ الفيضاناتِ المهلكةِ، النارُ والحرارةُ ضروريةٌ لحياة الإنسان فهي خيرٌ من هذهِ الجهةِ، لكنها قد تُسبِبُ الحرائقَ والكثيرَ من الأضرار، الأمواجُ والرياحُ وغيرها من الأشياءِ كُلِّها لا يخلو خيرها الكثير من بعضِ الشرِّ والأذى .. حتى إبليس على ضلاله وإضلاله فهو ليس شرّاً محضاً، ففي وجودهِ خيرٌ وحِكمٌ جليلةٌ منها:

كونِه سبباً في استكمال المؤمنين لمراتب العبودِية للهِ، وذلك بمجاهدةِ عدوهِ، ومراغمتِه والاستعاذة منه ..

ومنها كونهُ عِبرةً لغيرهِ، وتخويفاً للمؤمنين من شؤم الذنوب، فإبليسُ بعدَ القربِ والرفعةِ والتكريمِ، آلَ إلى الطردِ والإهانةِ واللعنةِ، فمن يأمنُ على نفسه ..

ومنها كونُه محكُّ اختبارٍ ليتميز الطيبُ من الخبيثِ .. وأن ينالَ الصالحون جزاء صلاحهم، وينالُ المجرمونَ جزاءَ إجرامهم ..

ومنها كونُه سبباً في إظهار كمالِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتهِ في خلقِ الاضدادِ، فكما خلقَ الله السماءَ خلقَ الأرضَ، وكما خلقَ النُّورَ خلقَ الظلامَ، وكما خلقَ الماءَ خلقَ النَّارَ، وكما خلقَ جبريلَ وميكائيلَ وبقيةَ الملائكةِ فكذلك خلقَ إبليس وذريتهُ من الشياطين، وغيرها من الحكم والفوائد ...

وبعد ذلك فلا شكَّ أن لوجودِ الشرّ حِكماً جليلةً أخرى، وفوائدَ عديدةٍ نذكرُ منها: أنهُ ضروريٌ لتطوير قُدراتِ الإنسان: فمن طبيعةِ البشرِ مَيلِهم للراحةِ والكسلِ، وحُبِهم للتسليةِ والاستمتاع .. خصوصاً من يعيشُ في طراوةِ النعيمِ، بينما ترى الذين تربوا على الشدائِد والمعاناةِ والألمِ والمحنِ يصبحونَ نماذجَ فاخرةٍ في العطاءِ والانجاز، والايجابيةِ والتميزِ .. ففي بعضِ الشرَّ تربيةٌ نافعةٌ لبنى آدم، وتجاربُ الايامِ قد بينت للنَّاسِ أنَّ الشِدَّةَ انفعُ لهم مِن الرخاءِ في كثيرٍ من الأحيان .. ثم إنَّ السعادةَ والنعيمَ واللذاتِ والمتع عُموماً، لا يكادُ يسلمُ طالِبُها من ألمٍ وأذى، وكلمَّا ازدادت اللذةُ والمتعةُ زادَ الألمُ والأذى من جراءِ تحصِيلها ..

وقد أكدت دراسةٌ لمتابعةِ حياةِ أكثرَ من ٣٠٠ قائدٍ وزعيمٍ مؤثرٍ في التاريخ، أنهم عانوا جميعاً من طفولةٍ قاسيةٍ، أسهمت في صقلِ شخصيتِهم، وتنميةِ مهاراتِهم، وتعويدِهم على الجدّيةِ وتحمُّلِ المسؤليةِ ..

ومن الحِكم في وجودِ الشرّ:
أن يكون سبباً في كسب الذنوب التي يُحبُّ اللهُ أن يغفِرها لعباده، فربنا العظيمُ الرحيمُ، عفوٌ كريمٌ يحبُّ العفو والمغفرة، ويفرحُ بتوبةِ التائبِ فرحاً لا تبلغُ العقولُ تَصورهُ، ويغفرُ لهُ ولو بلغت ذُنوبهُ عنانَ السماءِ،
بل جاء في الحديث الصحيح: { لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولأتى بقوم يذنبون فسيستغفرون فيغفر الله لهم} .. (١٠) .

فوجود الشرّ يستظهرُ معانيَ كثيرٍ من أسماءِ اللهِ الحسنى وصِفاتهِ العُلا، كالتوابِ والغفورِ والعفو والرحيم والحليم وغيرها من الأسماء والصــــــــفات، وكذلك يستظهِرُ معاني الأسماءِ والصفاتِ التي تدلُ على انتقامِ اللهِ من الأشرارِ كالمنتقمِ والخافضِ والمذلِ وغيرها ...

ومن الحِكم في وجودِ الشرّ أنهُ ابتلاءٌ لرفعةِ الدرجاتِ وتكفيرِ السيئـــاتِ، وعلى كلا الحالينِ فهو عطاءٌ ورحمةٌ، قال ﷺ: {ما يصيبُ المؤمنَ من نصـــــبٍ ولا وصبٍ، ولا همٍ ولا حزنٍ، ولا أذى حتى الشوكةَ يُشاكُها إلا كفَّرَ اللهُ بهـــا من خطاياه}،(١١) .

وفي الحديثِ الآخر: {عَجَباً لأمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْـسَ ذَلِكَ لأحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ: إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْراً لَهُ} . (١٢) .

ومن الحِكم في وجود الشرَّ: إشعار المؤمنِ بحقارة الدنيا وأنها أتفهُ مـــن أن يصرفَ لها همّهُ كلهُ، فإذا عضتهُ بعضُ المصائبِ بأنيابها، وأوجعتهُ بآلامِــها، زالَت عنهُ سكرةُ حُبِّ متاعِها الزائلِ، وعرفَ حقيقةَ قِيمتَها، وأنَّها كما جاء في الحديث لا تساوى عند الله جناحَ بعوضة ...

ومن الحِكمِ في وجودِ الشرِّ أنْ يُنتقَمَ بهِ من الظالمين، ويُعاقَبَ بهِ المفسِـــدين .. قال تعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (١٣) .
وقال تعالى: {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (١٤) .
ومن الحِكمِ في وجودِ الشرِّ أنهُ وسيلةٌ تُلجِئُ الإنسان إلى خالقهِ ومــــــولاه، وتضطرهُ للاستغاثةِ والاستعانةِ به جلَّ في علاه .. قال تعالى:
{وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} (١٥) .

فبسببِ ما يتعرضُ لهُ العبدُ من شُرورٍ وأذى، ينكسِرُ غُرورهُ، وترقُ نفسهُ، وتنجلي عنهُ الغفلةُ، ويتيقنُ بأنهُ عبدٌ ضعيفٌ ليسَ له إلا أن يعودَ إلى خالقهِ ومولاه .. فالشرُّ هنا كالعلاج بالكي، يؤذي لكنهُ بإذن اللهِ يشفي ..

أخي القارئ: من عقيدةِ المؤمنِ أنهُ ليسَ في أفعالِ اللهِ شرٌّ، وأنَّ الشرُّ لا يُنسبُ لهُ أبداً، وإنَّما الشرُّ من أفعالِ مخلوقاتهِ .. واللهُ جلَّ وعلا إنَّما سمحَ بوجودِ الشرِّ لحِكمٍ سبقَ أنْ ذكرنا بعضها .. وحين يزعمُ الملحدُ أنَّ بعضَ الشرِّ الموجودِ لا حِكمةَ لهُ، كموت الحيواناتِ في الحرائقِ، أو جرائمَ اغتصابِ الأطفالِ وقتلِهم .. فمن وِجهةِ نظرِ الملحدِ ينبغي للإلهِ الحكيمِ العليمِ الرحيمِ إنْ كانَ موجوداً أنْ يمنعَ مِثلَ هذهِ الشرورِ الفظيعةِ ... وكثيراً ما يلجأُ الملحدُ إلى السؤال عن سببِ عدمِ إخبارِ الرَّبِّ لنا عن حِكمةِ كُلِّ شرٍّ موجودٍ، وهو سؤالٌ بلا معنى، لأنَّ الشرَّ وجِدَ عموماً للابتلاءِ والاختبارِ، ولِمَا ذكرناهُ سابقاً، ولأنَّ في طيِّ كُلِّ محنةٍ منحةٌ، {وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} (١٦) .

ولأنَّ العقلَ البشري قد يفوتُهُ إدراكُ الكثيرِ من الحِكمةِ لعجزهِ وقُصورهِ، فعقلُ الإنسان عاجزٌ عن استيعابِ الكثيرِ من الحقائقِ الكونيةِ رغمَ وجودِها أمامهُ، فكيفَ يستوعِبُ عقلَهُ مفاهيمَ وتفاصيلَ العدلِ الإلهي والقَدَرِ خيرهِ وشرِّهِ، مع تعلُّقِها بعالَمِ الغيبِ وما اختصَ اللهُ تعالى بعلمِهِ، وقد قال ﷺ {القدر سِرُّ الله} ...

وقصورُ العقولِ وقِلَّةُ علمِها، يمكِنُ تخيُلهُ إذا تصورنا حيواناً يقعُ في مَصيدةٍ مُعقدةٍ، وحينَ يأتي إنسانٌ ليخلِصهُ منها تجِدهُ يقاومُهُ بشراسةٍ، لظنهِ أنهُ يريدُ به شراً ..
فبالرغمِ من ضخامةِ الفارقِ بين علمِ الإنسان وعِلمِ الحيوانِ، إلا أنهُ لا شيءَ، مقارنةً بالفارق المتناهي بين علمِ اللهِ تعالى وعلمِ الإنسان .. واللهُ يعلمُ وأنتم لا تعلمون .. ووجودُ الكثيرِ من الحِكمةِ لبعضِ أنواعِ الشرِّ بشكلٍ مُقنعٍ، يدلُ على وجودِ غيرها من الحِكمِ الكثيرةِ والمقنعةِ لبقيةِ أنواعِ الشر، لكننا لا نعلمها لجهلِنا أو لقصورِ إدراكنا وعجزِ عقولنا ...

ولله المثل الأعلى، فحين نجدُ في جهازِ الجوالِ قطعةً لا نعرفُ وظيفتها، فلا نقولُ أنها بلا فائدة، لأنهُ قد تراكم عندنا من تجاربَ سابقة، أنَّ الشركةَ المصنِعةَ لا تضعُ في جهازها قِطعةً إلا ولها حِكمةٌ وفائدة .. حتى ولو لم نعرفها ... والعقلاءُ قد استقرَّ في عقولهم اضطرادُ وتواترُ حِكمةِ اللهُ في خلقه، فإذا لم تظهر لهم الحكمةُ أحياناً .. فإنهم يردون ما جَهِلوه منها إلى ما استقرَّ في عقولهم، وما علِموهُ من حِكمتهِ المضطرِدةِ .. وفي قصةِ موسى مع الخضرِ عليهما السلام، عرفنا أنَّ خرقَ السفينةِ وهو شرٌّ ظاهرٌ كان هو السبب في سلامتها من شرٍّ أكبر، وأنَّ قتلَ طفلٍ صغيرٍ كان هو السببُ في رحمتهِ هو وأهلُهُ من شرٍّ أكبر لو أنهُ تُرِكَ حياً ... ثم هناكَ

أمرٌ أخيرٌ يغيبُ عن فهمِ الملحد، وهو أنَّ الغايةَ من خلقِ الإنسان ومنحهِ هذه الحياةَ المؤقتةَ، ليست إسعاده وإنَّما اختباره، وأنَّ أيَّ شرٍّ يراهُ في الدنيا فهو ليس نِهايةَ المطافِ، وإنَّما هو الفصلُ الأول فقط، وحتماً هناك فصلٌ آخر مُتممٌ للقِصةِ، وهو يومُ القيامةِ، حيثُ ينالُ فيهِ الظالمُ والمظلومُ حقهُ بالقسط والعدلِ، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} (١٧) .

أخي القارئ .. أودُّ قبل أن أبدأ أنْ أذّكرَ بالمغالطات التي بني عليها الــملحدونَ عقيدتهم الإلحادية، فهم حين جحدوا وجودَ الخالقِ جلَّ وعلا استبدلوهُ بالصُدفةِ والطبيعةِ، ثمَّ زعموا أنَّ الكونَ أزليٌ قديمٌ لا بدايةَ لهُ ولا نهاية، ثمَّ فسَّروا نشأةَ الحياةِ ووجودَ الكائناتِ الحيةِ بنظريةِ النشوءِ والارتقاء، التي تُسمى نظـــرية داروين .. وملخصُها أنَّ جميعَ الكائناتِ الحيةِ نشأت في بداياتِها من أصلٍ واحدٍ، وهو كائنٌ بدائيٌ دقيقٌ، يُسمَّى وحيدَ الخليةِ، ظهرت هذه الخليةُ من العــــدمِ وتكوَّنَت بزعمِهِم في المستنقعاتِ، ثم أخذت هذه الخليةُ كما يزعمونَ تتــــغيرُ وتتطورُ وتترقي، عبرَ ملايين السنين، حتى وصلت إلى كلّ أشكالِ وأنواعِ الحياة الموجودةِ الآن، بما فيها الإنسان وسائرُ الحيوانِ ..

وتزعُم هذه النظريةُ الخياليةُ أنَّ صفاتِ وأعضاءِ الكائناتِ الحيةِ تتغيرُ باستمرار، وأنها تتطورُ وترتقِي مع مرورِ الزمنِ، مكوّنةً طفراتٍ جديدةٍ، تُمكنُ الكائنَ الحيَّ من التكيَّفِ مع بيئتهِ بشكلٍ أفضلَ، وبالطبعِ فكلُّ هذهِ الطفراتِ والتغيراتِ تحـدثُ صُدفةً ..

ثمَّ إنَّ هذه الطفراتِ الناشئةِ، منها المفيدُ ومنها غيرُ المفيدِ، فإن كانت مُـفيدةً استمرَ توريثُها في الأجيال القادمةِ، وإن كانت غير مُفيدةٍ فإنها تنقرِضُ وتفنى ..

هكذا أخي القارئ: استبدلَ الملحدُونَ الجاحِدونَ وجودَ الخالقِ تباركَ وتــــعالى بهذه النظرياتِ الخرافية، وحيثُ أنَّنا سبق وأن أثبتنا بأنَّ الكونَ ليس بأزلي ولا قديمٍ، وأنَّ لهُ بدايةً ولهُ نهاية، ودلَّلنا على وجودِ الخالقِ جلَّ وعلا بشتى أنواعِ الأدلةِ، ورددنا على شُبهِ الملحدينَ الكاذبةِ، وبيِّنَّا مُغالطاتِهم الزائِفةِ، وتدلِيسهم المضلل، ولم يتبقى إلا مِحورٌ أخيرٌ لتكتمِلَ أدلةُ الحقِّ الدامغةِ، وتنقطِعَ حُجـجُهم الباطِلةِ من كلِّ وجهٍ ..

وهو محورُ الأسئلةِ التي يعجزُ الملحدون أن يجيبوا عليها، وتبينُ في نفــــس الوقتِ تهافت مذهبهم، وبطلان مُعتقدهم .. وحيث أنَّ هناك أسئلةً كثيرةً جداً، فقد اخترتُ منها عشرةَ أسئلةٍ فقط، وحرصتُ أن تكونَ أسئلةً واضحةً مُباشرةً، ليس فيها تدليسٌ ولا مُغالطة .. ومع ذلك فلن يستطيع أيُّ مُلحدٍ أن يجيبَ عليها ما لم يؤمن بوجودِ الخالقِ جلَّ وعلا ..

السؤال الأول:

يزعمُ الملحدون أنَّ الطبيعةَ وعبرَ ملايين السنين،هي التي خلقت كلَّ الموجوداتِ بمنتهى الدقةِ والإتقان، وهي التي تسيِّرُ كلَّ شيءٍ بانضباطٍ وثبات عجيب، فلماذا لا تتواصلُ الطبيعةُ مع مخلوقاتِها، وتبينُ لهم مُرادَها وغايتها من كل ذلك ..

السؤالُ بطريقةٍ أُخرى:

كيفَ تستطيعُ الكائناتُ التي خلقتها الطبيعة بزعمِهم أن تفعلَ ما لا تفعلهُ الطبيعةُ الخالقة، كيفَ تستطيعُ الكائناتُ المخلوقةُ أن تتواصل مع بعظها، وأن تـــعرفَ أهدافَها وحِكمةَ ما تقومُ به من أعمالٍ وانجازاتٍ، بينما تظل الطبيعةُ الخالقةُ كما يزعمون، بدون أية تواصل مع مخلوقاتها ..

{أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ} (١٨) .

فيا معشر الملحدين: إنَّكم تزعمون أنَّ الإنسان لا حِكمةَ من وجودهِ، بينما تُقرونَ أنَّ للحذاء حِكمةٌ، فهل يرضى عاقلٌ أن يكونَ حِذائُهُ خيرٌ منهُ ..

السؤالُ الثاني:

يزعمُ الملحدُون أنَّ الصُدفةَ هي من أوجدَ كلَّ الكائناتِ الحيةِ، وأنَّ الطفـــراتِ والتغيُّراتِ النَّاشِئة، هي التي جعلتها تتطورُ وترتقي، وأنَّ هذه الطفراتِ تحدثُ كثيراً وباستمرار ..

والسؤال هنا: لماذا توقفت الصُدفةُ تماماً عن أيجادِ كائناتٍ جديدةٍ .. لـــماذا لم يستطع العلمُ الحديثُ رغم تقدمِ وسائلهِ وامكانياتهِ أن يُسجلَ حـــالةَ نُشوءِ كائنٍ جديدٍ بطريقةٍ جديدةٍ .. مثلاً: لماذا لم يستمر تطورُ الإنسان إلى مخـــــلوقٍ آخرَ أرقى وأفضلَ مِنهُ، رغمَ مُضيّ وقتٍ طويلٍ، ورغمَ أنَّهُ يملكُ الآنَ من الوســـائلِ المساعدةِ، والعلومِ المتقدِمةِ ما لم يَكن يملكهُ وقتَ تطورهِ الأولِ كما يزعـــمون، السؤالُ بصورة أبسط: لماذا لم يتمكن العلمُ بُكلِّ وسائلهِ الحديثةَ من رصدِ تكوّنِ أيِّ طفرةٍ أو تغيُّرٍ حديثٍ لأيّ كائنٍ حيٍّ، سواءً كانت طفرةً مُفيدةً أو غيرَ مُفـيدةٍ، في الطبيعةِ أو حتى في المُختبر ..

السؤال الثالث:

يزعم الملحدون أنَّ الحيـاة على الأرض بدأت بظهور كائنٍ بدائيٍ دقيقٍ يُسـمى وحيدُ الخلية .. نشأ كما يزعمونَ في المستنقعات في ظل ظروفٍ مناخيةٍ وبيئةٍ كيميائيةٍ مُناسبة ..

والسؤالُ المحير هو: لماذا لم يستطع العُلماءُ رغم كلِ ما وصلوا إليه من تقدمٍ علميٍ كبيرٍ، ووسائلَ تقنيةٍ مُتقدمة .. أن يُنشئوا خليةً حيةً جديدةً من العـدم، السؤالُ بصورة أبسط: لماذا لم يستطيع العُلماء بالرغم من سعيِهم الـدؤوبُ وحرصِهم الكبير، أن يُهيئوا بيئةً وظروفاً مناخِيةً تصلحُ كما زعموا لنشوءِ الخليةَ من العدم مرةً أُخرى .. سواءً في الطبيعة أو في المختبر .. والـجواب: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ} (١٩) .

السؤال الرابع:

لا يزالُ هناك أنواعٌ كثيرةٌ من الخلايا البدائيةِ المسماةِ بوحيدةِ الخلية، لا تزالُ كما هي، لم تتغير منذُ ملايين السنين ! فلماذا لم تتطور، أو تنقرض ؟ .

السؤال الخامس:

يزعم الملحدون والمصدقونَ بنظرية النشوءِ والارتقاءِ، أنَّ الإنسان تطورَ من سُلالِة قردٍ، والسؤالُ المحير: لمَ لا يوجدُ قابليةٌ لأن يتزاوجَ آخرُ القرودِ تطوراً مع الإنسان .. لماذا لا يوجدُ قابليةٌ لأن يتزاوج رجلٌ بقردة، أو قـردٌ بإمراءة .. كما يحدث بين الخيول والحمير، وبين الأسود والنمور، وبين الكلاب والذئاب .. لأنها من فصيلة واحدة ..

السؤال السادس:

هناك أكثرُ من ثلاثةِ الآلافِ نوعٍ من القرودِ المختلفة، كلُّ نوعٍ منها لهُ شكلُـهُ وتركيبهُ وأنسجتهُ المختلِفة، فلماذا بقيت هذه القرودُ قروداً ولَم تتطور كما تطورَ الانسان، رغمَ وجودِ الامكانيةِ كما يزعمون .. وفي المقابل فإنَّ جميـعَ سُلالاتِ البشر القديمةِ والحديثةِ لها نفسُ الشكلِ والتركيبِ، وجيناتُها وأنسجـتها كُلها مُتطابقةٌ تمام التطابق .. مما يُعارضُ بصورةٍ صارخةٍ عمليةَ التطور المزعومة ..

السؤال السابع:

بحسبِ نظريةِ الارتقاء، فهناكَ فارقٌ هائلٌ، وقفزةٌ تطوريةٌ ضخمةٌ بيـــن تكوينِ الإنسان وتكوينِ أرقى القرودِ، وبالتالي فلا بدَّ للملحدِين أن يُسلِّموا بوجود كائنٍ آخرَ بينهما، كائنٌ مميز، يكونُ أرقى من القرود، وأدنى من الإنسان، ليـسدُّ هذا الفارقُ الهائلَ بينهما .. وهذا الكائن المميز يُفترضُ أنهُ ظهرَ قبل الإنسان، وأنَّهُ كان في وقته هو الأفضلُ والأقوى والأذكى والأكثرُ تواجداً، لأنهُ حسبَ زعمِهـم سيرتقي ويتطورُ ليُصبحَ إنساناً ..

والسؤالُ القاصمُ للظهر: أين هو هذا الكائنُ المميزُ، لمَ لا يوجدُ لهُ أيُ أثرٍ ماديٍّ، ولو فُرِضَ أنهُ أنقرضَ لسببٍ ما، فأين هي بقاياهُ وآثاره ؟ كيف استطاع العـلمُ الحديثُ أن يجدَ بقايا حيواناتٍ منقرضةٍ أقدمَ منهُ زمنًا، وأقلَ تطوراً، كالدينوصورات والماموث، ولم يجدَ لذلك الكائن الـــــمميزِ أيَّ أثرٍ ..

السؤالُ بطريقة أخرى: إذا كان الإنسان قد تطورَ من سُلالةِ قردٍ كما يزعمــون، فلماذا لا توجدُ قرودٌ قريبةُ الشبهِ بالإنسان ولو جُزئياً، مثلاً: لمَ لا تُوجدُ قــرودٌ تعيشُ واقفةً على قدميها كالإنسان، لمَ لا تُوجدُ قرودٌ تستطيعُ الكلامَ ولو بشكلٍ بِدائي، لمَ لا تُوجدُ قرودٌ ببشرةٍ وجلدٍ يشبهُ جِلدَ الإنسان .. وغيرها من التساؤلات المشابهة ..

السؤال الثامن:

يزعمُ الملحدون أنَّ وسيلةَ التطور في المخلوقات هي حُدوثُ الطفراتِ الجديدةِ، ويزعمون كذلك أنَّ ممَّا يُساهِمُ في ظهورِ وبقاءِ هذه الطفرات، حاجةُ الـــكائنِ الحيِّ لهذا التغيُّرِ ..

والسؤالُ: لمَ لا يُولدُ أطفالٌ مختتونَ مع أنَّ اليهودَ والمسلمين يُختتونَ أبناءهم منذُ آلاف السنين، ولمَ لا يزالُ شعرُ الأبطينِ ينبُتُ بنفس الطريقةِ، رغمَ أنَّ أكثرَ الناسِ يُزيلونهُ باستمرار .. ولماذا لا تزالُ الزائدةُ الدودية موجودةٌ عند جميعِ البشرِ بالرغم من أنها كما يزعمون عضو زائدٌ لا فائدةَ مِنهُ ..

السؤال التاسع:

من المعروف عِلمياً أنَّ الحيوانات لا تميزُ بين الألوانِ، ولا تعرفُ معنى الجمالِ، فلماذا تختارُ بعضُ الحيواناتِ ألواناً وأشكالاً جميلةً جداً تتزينُ بها، كالطاووس وبعضِ الطيورِ الأخرى .. علماً بأنَّ هذه الصفات ليست ضرورية لبقائها ..

السؤالُ العاشر:

أجهزةُ الكائنِ الحيِّ المركبةِ من عدةِ أعضاء، كالجهازِ الدموي والعصبي والهضمي والتنفسي والتناسلي، تعملُ بنظام الوحدةِ المتكاملةِ، أيّ أنها إمَّا أنْ تكونَ قد ظهرت بكلِّ أعضائها دفعةً واحدةً، وإمَّا أنَّ تطورها كان يسيرُ بخُطةٍ معلومةٍ مُحدَّدة، وكلاهما ينافي التَّطور العشوائي المزعوم ..

تلك عشرةٌ كاملةٌ .. فيا أيها الملحدون: هاتوا بُرهانكم إن كنتم صادقين، وهاكم بُرهاننا فإنَّا صادقون ..

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (سورة لقمان ١٠) (٢٠) .

الأمر الأخير أن يكثر الانسان من دعاء الله -تعالى-، وقد كان من دعاء المؤمنين انهم قالوا: {رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً} (٢١) .

وكان من دعاء إبراهيم -عليه السلام- وهو يبني البيت الحرام بأمر من الملك العلام أنه كان يقول: { وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ} (٢٢) .

ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ وقالت عائشة -رضي الله تعالى- عنها: {كان أكثر دعاء النبي -ﷺ- أنه كان يقول: يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك }.

اسأل الله -تعالى- أن يثبت قلوبنا على دينه، اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، اللهم اجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، سِلْما لأوليائك، حربا على أعدائك، نحب بحبك مَن احبك، ونعادي بعداوتك من خالفك يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم ثبت الإيمان في قلوبنا، وتوفنا عليه يا رب العالمين، اللهم أهد ضـــــال المسلمين،
اللهم أهد ضال المسلمين، اللهم رُدَّهم إليك ردا جميلا يا عزيز يا حكيـــم يا رب العالمين.
اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان ،
اللهم أصلح أحوال المسلمين في كل مكان، اللهم ولِّ عليهم خيارهم،
اللهم ولِّ عليهم خيارهم، اللهم ولِّ عليهم خيارهم، اللهم اصرف عنهم شرارهم،
اللهم اجعل ولاية المسلمين فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يا رب العالمـــين، يا ذا الجلال والاكرام.
اللهم وفق ولي أمرنا لمن تحب وترضى، وخذ بناصيته للبر والتقــــــوى،
اللهم وفقه لهداك، واجعل عمله في رضاك، وسائر ولات أمور المسلـــمين.
اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد.
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام، على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

المراجع: للباب الثامن : الفصل الثاني :

---

(١) (متفق عليه)
(٢) (سورة ، النمل ، آية : ١٤)
(٣) (سورة ، الأنعام ، آية : ٣٣)
(٤) (سورة ، الملك ، آية : ٨ ـ ٩)
(٥) (سورة ، الحج ، آية : ٤٦)
(٦) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩١)
(٧) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩١)
(٨) (سورة ، الأنبياء ، آية : ٣٥)
(٩) (سورة ، النحل ، آية : ٥٣)
(١٠) (أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب سقوط الذنوب بالاستغفار توبةً، رقم: (٢٧٤٨).)
(١١) (أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن. رقم ٢٥٧٣)
(١٢) (رواه مسلم)
(١٣) (سورة ، الروم ، آية : ٤١)
(١٤) (سورة ، السجدة ، آية : ٢١)
(١٥) (سورة ، النحل ، آية : ٥٣)
(١٦) (سورة ، البقرة ، آية : ٢١٦)
(١٧) (سورة ، الأنبياء ، آية : ٤٧)
(١٨) (سورة ، المؤمنون ، آية : ١١٥)
(١٩) (سورة ، الحج ، آية : ٧٣)
(٢٠) (سورة ، لقمان ، آية : ١٠)
(٢١) (سورة ، آل عمران ، آية : ٨)
(٢٢) (سورة ، إبراهيم ، آية : ٣٥)

الباب الثامن : الفصل الثالث : أفلا تعقلون أيها الملحدين والمشككين المشركين : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين . اللهم لك الحمد على نعمة الإسلام والايمان .ولك الحمد أن جعلتنا من أمة محمد عليه الصلاة والسلام. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

أما بعد : (إلى من ينكر وجود الله)

يقول الله تعالى في محكم آياته : { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ} الجاثية (١) .

أخي القارئ :
هذه الآيات الكريمة تبين لنا حال من عبد هواه ، فأصبح ملحدا ، كافرا بالله ، فأضله الله ، وحال بينه وبين الإيمان ،{وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً} ، (٢) .

فالإلحاد : هو مذهبٌ يقوم على فِكرةٍ إنكار وجود الله تعالى، والزَّعم بأنّ الكون وما فيه وُجِد من دون خالقٍ ،وإنّما بالصُّدفة المحضة، والادّعاء بأنّ المادّة هي الخالق والمخلوق ، ومن معتقداتهم إنكار الحياة بعد الموت وما يترتب عليه من الحِساب والعقاب والجنّة والنَّار، وإنكار كافة المعجزات التي أيدّ الله تعالى بها

الأنبياء بحُجَّة أنَّها لا تتوافق مع المنطق ويرفضها العقل، وإنكار كافة المبادئ السَّامية والأخلاق العُليا كالعدالة والنَّزاهة والجمال والحقّ ، فكلُّ من آمن واعتقد بهذه الأشياء فهو مُلحِدٌ ، ضال ، يعبد هواه ، ومن أولياء الشيطان وحزبه .

وأما عن أدلة وجود الله فهي واضحة لمن تأملها ولا تحتاج لكثرة بحث وطول نظر ، وعند التأمل نجد أنها تنقسم إلى ثلاثة أنواع : الأدلة الفطرية ، والأدلة الحسية ، والأدلة الشرعية وَأَمَّا دَلَالَةُ الْفِطْرَةِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى: فَهُوَ الِافْتِقَارُ الذَّاتِيُّ الْمَوْجُودُ دَاخِلَ نَفْسِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ وَيَظْهَرُ ذَلِكَ عِنْدَ الِابْتِلَاءَاتِ وَالشَّدَائِدِ؛ حَيْثُ يَلْجَأُ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ وَالْمَخَاطِرِ إِلَى نِدَاءِ اللهِ تَعَالَى، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ مَؤْمِنًا أَوْ غَيْرَ مُؤْمِنٍ.

يقول أحد المسافرين بالطائرة :

(بينما نحن في الطائرة ، أعلن القائد عن عطل في أحد محركاتها ، ففزع جميع الركاب ، ورفع الناس أيديهم بالدعاء (يا الله) ، ومن الغريب أن ملحدا كان بجواري ، فرفع يديه ، ونطق بلسانه ، قائلا : (يا رب ، يا الله) ،

فَفِي الشِّدَّةِ تَبْدُو فِطْرَةُ النَّاسِ جَمِيعًا كَمَا هِيَ فِي أَصْلِهَا الَّذِي خَلَقَهَا اللهُ عَلَيْهِ، وَعِنْدَمَا تَمُرُّ الْمِحْنَةُ، وَتَأْتِي الْعَافِيَةُ وَالنِّعْمَةُ، يَعُودُونَ إِلَى مُخَالَفَةِ فِطْرَتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى، وَقَدْ كَرَّرَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرًا فِي كِتَابِهِ الْكَرِيمِ؛ مِنْ ذَلِكَ: قَوْلُهُ تَعَالَى: { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا } (٣) .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: { وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } (٤) .

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْعَقْلِ عَلَى وُجُودِ اللهِ تَعَالَى: فَلِأَنَّ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ – سَابِقَهَا وَلَاحِقَهَا . لَا بُدَّ لَهَا مِنْ خَالِقٍ أَوْجَدَهَا؛ إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً. فَهِيَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجِدَ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا؛ لِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُقُ نَفْسَهُ؛ لِأَنَّهُ قَبْلَ وُجُودِهِ كَانَ عَدَمًا؛ فَكَيْفَ يَكُونُ خَالِقًا؟! وَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً؛ لِأَنَّ كُلَّ حَادِثٍ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ، وَلِأَنَّ وُجُودَهَا عَلَى هَذَا النِّظَامِ الْبَدِيعِ الْمُحْكَمِ،

وَالتَّنَاسُقِ الْمُتَآلِفِ، وَالارْتِبَاطِ الْمُلْتَحِمِ بَيْنَ الْأَسْبَابِ وَمُسَبَّبَاتِهَا، وَبَيْنَ الْكَائِنَاتِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ يَمْنَعُ مَنْعًا بَاتًّا أَنْ يَكُونَ وُجُودُهَا صُدْفَةً. وَإِذَا لَمْ يُمْكِنْ أَنْ تُوجِدَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ نَفْسَهَا بِنَفْسِهَا، وَلَا أَنْ تُوجَدَ صُدْفَةً، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ لَهَا مُوجِدٌ؛ وَهُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى هَذَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ وَالْبُرْهَانَ الْقَطْعِيَّ فِي سُورَةِ الطُّورِ؛ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى :{ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ } (٥) ،

يَعْنِي أَنَّهُمْ لَمْ يُخْلَقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمُ الَّذِينَ خَلَقُوا أَنْفُسَهُمْ؛ فَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ خَالِقُهُمْ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ وَلِهَذَا لَمَّا سَمِعَ جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ رضي الله عنه رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقْرَأُ سُورَةَ الطُّورِ فَبَلَغَ هَذِهِ الْآيَاتِ: { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ } (٦) .

وَكَانَ جُبَيْرٌ يَوْمَئِذٍ مُشْرِكًا، قَالَ: (كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ، وَذَلِكَ أَوَّلَ مَا وَقَرَ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِي) ، وَلْنَضْرِبْ مَثَلًا يُوَضِّحُ ذَلِكَ: فَإِنَّهُ لَوْ حَدَّثَكَ شَخْصٌ عَنْ قَصْرٍ مَشِيدٍ، أَحَاطَتْ بِهِ الْحَدَائِقُ، وَجَرَتْ بَيْنَهَا الْأَنْهَارُ، وَمُلِئَ بِالْفُرُشِ وَالْأَسِرَّةِ، وَزُيِّنَ بِأَنْوَاعِ الزِّينَةِ، وَقَالَ لَكَ: إِنَّ هَذَا الْقَصْرَ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ، أَوْ وُجِدَ هَكَذَا صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ، لَبَادَرْتَ إِلَى إِنْكَارِ ذَلِكَ وَتَكْذِيبِهِ، وَعَدَدْتَ حَدِيثَهُ سَفَهًا مِنَ الْقَوْلِ؛ أَفَيَجُوزُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَوْنُ الْوَاسِعُ بِأَرْضِهِ وَسَمَائِهِ وَأَفْلَاكِهِ الْبَدِيعُ الْبَاهِرُ الْمُحْكَمُ الْمُتْقَنُ قَدْ أَوْجَدَ نَفْسَهُ، أَوْ وُجِدَ صُدْفَةً بِدُونِ مُوجِدٍ؟ وَقَدْ فَهِمَ هَذَا الدَّلِيلَ الْعَقْلِيَّ أَعْرَابِيٌّ يَعِيشُ فِي الْبَادِيَةِ؛ فَلَمَّا سُئِلَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: الْبَعْرَةُ تَدُلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضٌ ذَاتُ فِجَاجٍ، وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا تَدُلُّ عَلَى السَّمِيعِ الْبَصِيرِ؟!

ومن دلائل قدرة الله تعالى أنه أعطى كل شيء ما يصلحه ويؤمن بقاءه ، ألا ترى ذلك النبات الأخضر الجميل إذا قطع الله عنه الماء هل يمكن أن يعيش ؟ كلا بل يكون حطاماً يابساً ، وكل شيء إذا تأملته وجدته متعلقاً بالله ، فلولا الله ما بقيت الأشياء .ثم إصلاح الله لهذه الأشياء ، كل شيء لما يناسبه ؛ فالإبل مثلاً للركوب ، قال الله تعالى : { وَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ} (٧) .

وهكذا إذا قلبت طرفك في المخلوقات وجدتها متناسبة مع ما خلقت من أجله فسبحان الله تعالى . وأما الأدلة الشرعية : فجميع الشرائع دالة على وجود الخالق ،وعلى كمال علمه وحكمته ورحمته ، لأن هذه الشرائع لابد لها من مشرع ، والمشرع هو الله عز وجل .

أخي القارئ :

تعال معي نخاطب كل ملحد ، ونبعث برسالة إلى كل من اتخذ إلهه هواه ، ونقول له : فكر بعقلك الذي وهبك الله إياه ، وأكرَّمك به علي سائر الخلق ، فقال الله تعالى : { وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا } (٨) ،

فكر أيها الملحد – من الذي أوجدك من العدم؟ ، يقول الله تعالى :
{هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} ،(٩) ،
فهل هي الطبيعة التي أوجدتك كما تدعي؟ ، فلو كان الأمر كذلك ،لما اختلف الناس في ألسنتهم ، وأشكالهم ، وألوانهم ، قال الله تعالي: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ } (١٠) ،
ألا تري أن الرجل يضع البذور في الأرض ، ويسقيها بماء واحد ،لكن الثمرة تكون مختلفة، فهذا حلو، وهذا حامض ، وهذا حارق ، فمن الذي نوع هذه الثمرات ، لابد لها من منوع ، وهذا المنوع هو الله تعالي ، قال الله في كتابه : { وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } (١١) .

وهذه المخلوقات ، سابقها ولاحقها ، لا بد لها من خالق أوجدها ،إذ لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها، ولا يمكن أن توجد صدفة. لا يمكن أن توجد نفسها بنفسها لأن الشيء لا يخلق نفسه، لأنه قبل وجوده معدوم ، فكيف يكون خالقًا؟ ولا يمكن أن توجد صدفة، لأن كل حادث لا بد له من محدث، ولأن وجودها على هذا النظام البديع، والتناسق المتآلف والارتباط الملتحم بين الأسباب ومسبباتها،

وبين الكائنات بعضها مع بعض يمنع منعًا باتًا أن يكون وجودها صـــــــدفة، إذ الموجود صدفة ليس على نظام في أصل وجوده ، فكيف يكون منتظمًا حال بقائه وتطوره؟ وإذا لم يمكن أن توجد هذه المخلوقات نفسها بنفسها، ولا أن تـــوجد صدفة ، تعين أن يكون لها موجد ، وهو الله رب العالمين ، فقال الله تـــعالى : { أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَـــاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ (٣٦) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (٣٧) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٣٨) أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُـــونَ (٣٩) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (٤٠) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْـــــرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (١٢) .

أخي القارئ : تعال معي نقول : (إلى من ينكر وجود الله تعالى)
(وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) (١٣) .

ولنضرب مثلاً يوضح ذلك: فلو حدثك شخص عن قصرٍ مشيد، أحاطـــــــت به الحدائق ،وجرت بينها الأنهار، ومليء بالفرش والأسرة، وزين بأنـــواع الزينة من مقوماته ومكملاته، وقال :إن هذا القصر وما فيه من كمال قد أوجــد نفسه، أو وجد هكذا صدفة بدون موجد. لبادرت إلى إنكار ذلك وتكذيبه، وعددت حديثه سفهًا من القول، أفيجوز بعد ذلك أن يكون هذا الكون الواسع بأرضه، وسمائه، وأفلاكه، وأحواله، ونظامه البديع الباهر، قد أوجد نفسه، أو وجد صدفــة بدون موجد؟ وها نحن نسمع ونشاهد من إجابة الداعين، وغوث المكروبين، ما يدل دلالة قاطعة على وجوده تعالى، حيث قال تعالى:
{وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ..} (١٤) .
وقال تعالى: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ..} (١٥) .

وما زالت إجابة الداعين أمرًا مشهودًا إلى يومنا هذا، لمن صدق اللجوء إلى الله تعالى وأتى بشروط الإجابة ،

ويقال: إن طائفة من السمنية جاءوا إلى أبي حنيفة رحمه الله، وهم من أهل الهند، فناظروه في إثبات الخالق عز وجل، وكان أبو حنيفة من أذكى العلماء ،فوعدهم أن يأتوا بعد يوم أو يومين، فجاءوا، قالوا: ماذا قلت؟ قال أنا أفكر في سفينة مملوءة من البضائع والأرزاق ،جاءت تشق عباب الماء ،حتى أرست في الميناء ،ونزلت الحمولة ،وذهبت، وليس فيها قائد ،ولا حمالون. قالوا: تفكر بهذا؟! قال: نعم. قالوا: إذاً ليس لك عقل! هل يعقل أن سفينة تأتي بدون قائد، وتنزل وتنصرف؟! هذا ليس معقول! قال: كيف لا تعقلون هذا، وتعقلون أن هذه السماوات والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والناس كلها بدون صانع؟ فعرفوا أن الرجل خاطبهم بعقولهم، وعجزوا عن جوابه، فسبحانه وتعالى ،ما أعظمه ،وما أحلمه على عباده.

المراجع: للباب الثامن : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة ، الجاثية ، آية : ٢٣ -٢٧)
(٢) (سورة ، الجاثية ، آية : ٢٣)
(٣) (سورة ، الإسراء ، آية : ٦٧)
(٤) (سورة ، يونس ، آية : ١٢)
(٥) (سورة ، الطور ، آية : ٣٥)
(٦) (سورة ، الطور ، آية : ٣٥ - ٣٧)
(٧) (سورة ، يس ، آية : ٧١ - ٧٣)
(٨) (سورة ، الإسراء ، آية : ٧٠)
(٩) (سورة ، الإنسان ، آية : ١)
(١٠) (سورة ، الروم ، آية : ٢٢)
(١١) (سورة ، الرعد ، آية : ٤)
(١٢) (سورة ، الطور ، آية : ٣٥ - ٤٣)
(١٣) (سورة ، الجاثية ، آية : ٢٤)
(١٤) (سورة ، الأنبياء ، آية : ٧٦)
(١٥) (سورة ، الأنفال ، آية : ٩)

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الباب التاسع :

الفصل الأول : آفات النفس والهوى :
الفصل الثاني : لكل شيء آفة وللعلم آفات :
الفصل الثالث : آفة كل شيء من جنسه - فهل من متعظ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوكل عليه، ونـعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وخاتم رسله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونـصح الأمة، وجاهد في الله حَقَّ جهاده، فعليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليـم، وجزاه الله خير ما جزى به نبياً عن أمته.

اللهم لك الحمد كله، وإليك يرجع الأمر كله، أنت رب الطيبين، وخالـق الخلق أجمعين، ورازقهم، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (١) .

أما بعد:

يقول المولى -عز وجل- في كتابه الكريم: { فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَـنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} (٢) .

إنه إتباع الهوى الذي حذرنا منه المولى -عز وجل-، وحذرنا منه نبيـنا محمد -ﷺ-، وبيَّن خطَره علماء الأمة، إنه الهوى الذي يغير الأمور فيجعل المعروف منكراً والمنكر معروفاً، ويصبح المسلم، بل المتبع لهواه، لا يميز بين خير أو شر، ولا بين حسن أو قبيح، إلا ما أشرب من هواه.

يقول النبي -ﷺ- في الحديث الذي رواه مسلم: { تُعرَض الفتن على الـقلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأيما قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأيما قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير القلوب على قلبين: أبيض مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه}.(٣) .

لقد أصبح هواه هو الذي يسيره فأصبح هواه هو الذي يقوده، فأصبح هوى النفس هو الذي يقود الإنسان الذي اتبع هواه؛ فاتباع الهوى – يا عباد الله- أن تكون النفس هي القائدة للإنسان، تحسّن له القبيح، وتقبح له الحسن، وتقوده إلى المهالك؛ فيطيعها في كل صغيرة وكبيرة دون أن يبحث عن دين أو عن شرع أو عن خلق أو عن قيم أو عن مبادئ، وإنما يتبع هواه: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ} (٤)؛ أصبح الهوى عند ذاك الإنسان الذي قادته نفسه الأمارة بالسوء، وقاده الهوى والشيطان، أصبح الهوى إلهاً يعبده، يحلل له ويحرم له، فيتبعه عند كل صغيرة وكبيرة.

إن الهوى -يا عباد الله- من أخطر الأمور التي يصاب بها الإنسان، ولنعلم – أيها المؤمنون- أن الفرق بين الإنسان وبين الحيوان هو هذا العقل الذي ميز الله به الإنسان فجعله يميز بين الحسن والقبيح وبين الضار والنافع، وبين ما ينفعه في دينه ودنياه وبين ما يضره، بَيْدَ أن الحيوان لا يعلم شيئاً من ذلك؛ لأنه لا عقل له، لكن النتيجة مختلفة، فالحيوان يكون تراباً يوم القيامة؛ لأنه غير مكلف، بينما الإنسان إما أن يكون إلى جنة وإما إلى نار بحسب حاله الذي كان عليه في الحياة الدنيا!.

وينبغي أن نعلم أن الفرق بين منهج الله -سبحانه وتعالى- وبين مناهج البشر أن مناهج البشر تتبع الهوى وتسير وفق الأهواء ووفق الرغبات والشهوات، بينما منهج الله -سبحانه وتعالى- لا خطأ فيه ولا ميل؛ لأنه منزل من قِبَلِ رب الأرض والسماوات، { وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ }(٥) .

إن من يتحاكم إلى غير شرع الله قد اتبع الهوى، والهوى يختلف بحسب اختلاف الرغبات والشهوات ومحال أن يتفق الناس أصحاب الأهواء على منهج واحد؛ لأن الأهواء تختلف، ولأن الرغبات تختلف بينما حكم الله واحد لا يتغير.

ينبغي أن نعلم -يا عباد الله- أن العبد في هذه الحياة بين إجابتين لا ثالث لهما: إما أن يستجيب لشرع الله، وإما أن يستجيب لهواه، لا ثالث للأمرين . إن لم يستجب لشرع الله فهو مستجيب لهواه لا محالة، يقول الله -سبحانه وتعالى-: { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ} (٦)، إذا لم يستجيبوا لك يا محمد فإنما يتبعون أهواءهم ورغباتهم، هذا هو المنهج الواضح أن الإنسان إذا لم يستجب لشرع الله -سبحانه وتعالى- فإنه مُتَّبِعٌ لهواه، رضي بذلك أم لم يرض.

لماذا -يا عباد الله- جاءت الشريعة واضحة في هذا الأمر، وجاءت النصوص الشرعية متواترة في التحذير من الهوى، وفي بيان عاقبته، وفي بيان أنه من أعظم الأمور التي ينهى عنها؟ إن الهوى -يا عباد الله- من أعظم الآفات، ومن أعظم المصائب، ومن أعظم السيئات التي يبتلى بها العباد في هذه الحياة الدنيا؛ لأن مَن يتَّبع هواه قد جعل هواه إلهاً يعبد من دون الله، (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ) (٧) ؛ لأنه جعل هواه مشرعاً يشرع له ما يريد، ويقبح له ما يريد.

لما دخل عدي بن حاتم رضي الله عنه على النبي -ﷺ- وسمعه يتلو قول الله تعالى: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} (٨)، قال: يا رسول الله، لم نعبدهم. قال: (أليسوا يحلون لكم الحرام ويحرمون لكم الحلال فتطيعوهم) قال: بلى. يا رسول الله، قال: (فتلك عبادتهم).

إن مَن اتخذ إلهه هواه قد عبد هذا الهوى، ومن جعل نفسه هي التي تحلل أو تحرم فقد جعل نفسه إلهاً من دون الله، مَن اتخذ العادة منهجاً يرجع إليه في التحليل والتحريم فقد اتخذ العادة إلهاً تعبد من دون الله، من اتخذ التقاليد الأرضية أو البشرية أو القبلية منهجاً يتحاكم إليها دون شرع الله فقد اتخذها إلهاً من دون الله تُعبد، هذا منهج واضح لا غبش فيه ولا غموض، قد بينه المولى -عز وجل- بقوله: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ}.

في اتباع الهوى استهانةٌ بالذنوب والمعاصي، فتُصبِحُ المعصية عند الإنسان لا شيءَ؛ لأنه لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أُشْرِبَ مِن هواه، يقول عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يوشك أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ وقع على أنفِهِ فقال به هكذا فطار . يستهين بالمعصية، لا يرى لها شدة المؤمن الذي يخشى الله – سبحانه وتعالى- ويخاف من عقوبته ويفكر فيما أعده الله تعالى للعصاة.

قال بعض الصالحين: إذا همت نفسك بالمعصية فذكرها بمراقبة الله – سبحانه وتعالى-، وأن الله يراك، ومطَّلِع عليك، فإن لم ترتدع عن المعصية فذكرها بالفضيحة، فإن لم ترتدع فذكرها بأخلاق الرجال، فإن ترتدع فاعلم أنك قد انقلبت في تلك الساعة إلى حمار! إذا لم يردع الإنسانَ خوفُ الله ومراقبته، ولم تردعه الفضيحة، ولم تردعه أخلاق الرجال، فما الفرق بينه وبين البهيمة؟ ما الفرق بينه وبين العجماوات؟.

هكذا يحذرنا المولى -عز وجل- من هذه المصيبة، من هذه الآفة التي ابتلي بها كثير من الناس، حذرنا المولى -عز وجل- من إتباع الهوى؛ لأن إتباع الهوى يقود صاحبه إلى النار -والعياذ بالله تعالى-، يقول النبي -ﷺ-: {حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات"؛ فكل الشهوات التي تشتهيها النفس الأمَّارة بالسوء هي قائدة إلى النار -والعياذ بالله-؛ وأما الجنة فهي محفوفة بما تكره النفس؛ فإن المسلم يجاهد نفسه في هذه الحياة الدنيا وينهاها عن الهوى، {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}. (٩) .

إن إتباع الهوى -يا عباد الله- له صور كثيرة، وله مجالات عدة ينبغي أن يتنبه لها المسلم حتى لا يقع في إتباع الهوى من حيث لا يشعر؛ فيكون ممن سخط الله عليه -والعياذ بالله-.

من ذلك أن يلهث وراء لذة عاجلة من الحرام دون أن يبحث عن الحكم الشرعي في ذلك، أن يبحث عن اللذة العاجلة من الحرام من شهوة مال أو فرج أو منصب أو دنيا أو نحو ذلك دون أن يبحث عن الحكم الشرعي، وإنما همه أن

يشبع رغبته، أن يشبع هوى نفسه، أن يشبع شهوته، سواء كان ذلك حلالاً أو حراماً، يقول النبي -ﷺ-: تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش ؛ فسمى النبي -ﷺ- من يسعى وراء الدرهم والدينار بدون أن يسأل عن الحكم الشرعي في هذه المسألة بأنه عابد له، تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم .

ومن صور إتباع الهوى -يا عباد الله- أن يكون الإنسان المتبع لهواه فاقداً للغيرة فلا غيرة عنده أبداً، يرى الحرام فلا يتحرك، يرى المنكرات فلا يتمعر وجهه، الغيرة من صفات الإيمان، "إن الله يغار، وغيرة الله أن تنتهك حرماته، كان النبي -ﷺ- لا يغضب لنفسه أبداً؛ فإذا انتهكت حرمات الله غضب لله، غضب لحرمات الله أن تنتهك.

ثبت في الحديث الصحيح أن شاباً دخل على النبي -ﷺ- فقال: يا رسول الله ائذن، لي في الزنا. فأوشك الصحابة أن يقعوا فيه، وأن ينالوا منه، فقال النبي -ﷺ-: {دعوه، ثم قال: ادنُ أيها الشاب، فأدناه إليه -بأبي هو وأمي، ﷺ- فقال: أيها الشاب، هل ترضى الزنا لأمك؟، قال: لا، جعلني الله فداك قال: فكذلك الناس لا يرضونه لأمهاتهم }.(١٠) .

قال: أترضاه لأختك قال: لا، جعلني الله فداك. قال: فكذلك الناس لا يرضونه لأخواتهم، ومازال النبي -ﷺ- يسأله: أترضاه لعمتك؟ أترضاه لخالتك؟ وهو يقول: لا يا رسول الله. عند هذا وضع النبي -ﷺ- يده على صدره وقال: اللهم اغفر ذنبه، وحصّن فرجه، وطهر قلبه، قال: فوالله لقد خرجت وما من شيء أبغض إليَّ في الدنيا من الزنا.

لقد فهم من هذا الحديث أن أصحاب الهوى يرضون الزنا لأمهاتهم ولأخـواتهم ولخالاتهم ولعماتهم؛ بينما المؤمن الذي لا يتبع هواه يغار ولا يرضـى الهوى، ولا يرضى الخنا، ولا يرضى الزنا، ولا يرضى الجرائم لأهله وأقاربه، لا يرضاه للمسلمين كلهم.

من صور اتباع الهوى -يا عباد الله- أن صاحب الهوى عنده استعداد أن يبيع دينه من أجل لذة عاجلة من متاع الدنيا، فهو لا يجد غضاضة في أن يسرق أو يزني أو أن يشهد الزور أو أن يفعل الحرام من أجل لذة عابرة، من أجـل أن يشبع هوى نفسه والعياذ بالله.

أورده الإمام القرطبي في كتابه (التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخـرة) في باب (ما جاء في سوء الخاتمة وما جاء أن الأعمال بالخواتيم) فقال: روى أنـه كان بمصر رجل ملتزم مسجداً للأذان والصلاة، وعليه بهاء العـبادة وأنوار الطاعة، فرقي يوماً المنارة على عادته للأذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطلع فيها فرأى ابنة صاحب الدار فافتتن بها وترك الأذان، ونـزل إليها ودخل الدار فقالت له: ما شأنك ما تريد؟ فقال: أنت أريد. قالت: لماذا؟ قال لـها: قد سلبت لبي وأخذت بمجامع قلبي، قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك، قالت له: أنت مسلم وأنا نصرانية وأبي لا يزوجني منك. قال لها: أتنصر، قالت: إن فعلت أفعل. فتنصر ليتزوجها وأقام معها في الدار، فلما كان في أثـناء ذلك اليوم رقي إلى سطح كان في الدار فسقط منه فمات. فلا هو بدينـه ولا هو بها، فنعوذ بالله ثم نعوذ بالله من سوء العاقبة وسوء الخاتمة. انتهى.
وذكرها ابن الجوزي في كتابه -ذم الهوى- في ذكر من كفر بسبب العـشق، وذكرها ابن حجر الهيتمي في كتابه الزواجر عن اقتراف الكبائر في كبـيرة (الكبر والعجب والخيلاء)، وليست هذه قصة وحيدة في هذا الباب، فقد ذكر ابن حبان في كتاب (المجروحين) في ترجمة حبيب بن أبي الأشرس أنه عشق امرأة نصرانية وقد قيل: إنه تنصر وتزوج بها، فأما اختلافه إلى البيعة من أجـلها فصحيح. انتهى.
وذكر ابن حجر في ترجمته من (لسان الميزان) عن عبد الله بن سلمه الأفطس قال: تزوج ابن أبي الأشرس جارية نصرانية وكان يعشقها فتنصر. انتـهى.

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)، عندما يجعل الإنسان هواه قائداً لا يدري قد يفاجئه ملَكُ الموت وهو في تلك اللذة العابرة، وهو في تلك الشهوة – والعياذ بالله!- فليتصور كل إنسان أن ملك الموت ربما ينزل به في أي لحظةٍ فلا تدعوه نفسه الأمَّارة بالسوء لشهوةٍ عابرةٍ -والعياذ بالله!- وينسى جنة عرضها السماوات والأرض.

من صور إتباع الهوى أخي القارئ : أن يحرص العبد على الدنيا، وعلى المال، وعلى الربح، بدون أن يبحث عن الحكم الشرعي في ذلك، أيما جسد نما من سحت فالنار أولى به. كما قال النبي -ﷺ-.

إن الذين يبحثون عن المال بدون أن يبحثوا عن الحكم الشرعي في ذلك هم الرأسماليون أعداء الله الذين همهم الدرهم والدينار، والذين عناهم النبي – ﷺ- بقوله: "تعِس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم".

إن من يبحث عن الربح بدون أن يبحث عن الحكم الشرعي فهو متبع لهواه؛ لذا، يا عباد الله، ينبغي أن ننتبه لهذه القضية حتى لا نكون عُبَّادَاً للهوى من حيثُ لا نشعر، كم هي المشاريع الربحية التي تخرج بين الناس في كل يوم، ومنها ما هو مخالف لشرع الله، سواء في البيع والشراء، أو في صور من صور الاستثمار الجديدة التي بدأت تغزو أسواقنا، وبدأت تغزو منتدياتنا.

من منا قبل أن يساهم في مؤسسة ما أو في اكتتاب معين أو في بيع سلعة معينة سأل أهل العلم: هل يجوز لي ذلك؟ هل بيع هذه السلعة موافق لشرع الله أم لا؟ هل المساهمة في هذه المؤسسة أو في هذه الشركة موافق لشرع الله أم لا؟ أم كان همّ الإنسان الدرهم والدينار، همه الريال، همه الربح، فيكون عبداً للدرهم، وعبداً للدينار، والعياذ بالله تعالى، هذه من صور الحرام، من صور إتباع الهوى والعياذ بالله .

ومن صور اتباع الهوى -يا عباد الله- سقوط العالِم وطالب العلم عندما يبيع دينه بسبب منصب أو وظيفة، أو بسبب اتباع شيء من متاع الدنيا الزائل، والعياذ بالله { وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ } (١١) .

كم من الناس عندهم علم ولكنهم يتبعون أهواءهم من أجل دنيا زائلة والعياذ بالله! مر أبو حنيفة -رحمه الله- ذات يوم بغلام يلعب في الطين، فقال له: يا بني، انتبه، لا تسقط في الطين. فأجرى الله الحق على لسان هذا الفتى الصغير فقال له: بل أنت يا إمام انتبه لا تسقط، فإن سقوط العالِم سقوط للعالَم، هكذا يجري الله الحق على لسان فتى صغير، يقول له: بل أنت أيها العالم انتبه، لا تسقط، فإن سقوطك سقوط للأمة كلها . سقوط للعالَم، فكان الإمام أبوحنيفة -رحمه الله تعالى- بعد ذلك لا يفتي في أي مسألة حتى يستشير أصحابة ويستشير أهل العلم خشية أن يقع فيما يسخط الله -سبحانه وتعالى-.

ومن صور إتباع الهوى يا عباد الله الجور في الحكم، أن يحكم الإنسان بغير شرع الله تعالى، يقول الله تعالى: {فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا} (١٢)،
فمن يحكم بغير شرع الله فقد اتبع الهوى، واتبع النفس الأمارة بالسوء، واتبع المصلحة والعياذ بالله تعالى. مَن يجُرْ في الحكم وهو يعلم أنه مخالف لحكم الله فهو متبع لهواه، رضي بذلك أم لم يرض.

تحاكم علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- هو ورجل من اليهود سرق درعه تحاكما إلى شريح القاضي، فقال القاضي شريحٌ لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه-: اجلس هاهنا يا أبا الحسن، وقال لليهودي اجلس هاهنا يا فلان، فغضب علي -رضي الله عنه- غضباً شديداً، وقال: يا شريحُ، لقد أخطأتَ في الحكم. قال: وَلِمَ؟ قال: فضلتني على خصمي كنيتني وقلت يا أبا الحسن، فضلتني عليه وناديته باسمه.

ثم طلب من كل منهما أن يبين حجته وبيّنته، فعلي -رضي الله عنه- لم تكن عنده بينة، اليهودي لم تكن عنده بينه، قال: يا علي، هل عندك شهود؟ قال: نعم، يشهد معي ابني الحسن أن هذا درعي اشتريته بمالي، -الحسن بن علي المشهود له بالجنة!- قال: لا أرضى شهادة الابن لأبيه، لا أقر شهادة الابن لأبيه، هل معك شهادة أخرى؟ قال: لا، فحكم القاضي بالدرع لذلك اليهودي.

عند هذا قال ذلك اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. أمير المؤمنين يحاكمني إلى قاضيه فيحكم قاضيه عليه، والله ما هذا بِدينِ بشَرٍ أبداً .

أخي القارئ:

لقد ظهر لنا خطر إتباع الهوى، وأن الهوى إله يعبد من دون الله تعالى، وأن مَن وقع في عبادة الهوى فهو على شفا جرف هار، عليه أن يراجع نفسه، وأن يعود إلى ربه -عز وجل-، وأن لا يكون ممن أضلهم الشيطان من حيث لا يشعر.

إن ثمة أمور ذكرها العلماء -رحمهم الله- تعالى تحول بين الإنسان وبين إتباع الهوى، فمن ذلك

أن يتأمل الإنسان في العاقبة، في عاقبة هذه الحياة، وفي نهايتها، ويتأمل في الآخرة وما أعد الله فيها للمحسنين، وما أعد فيها للعصاة - والعياذ بالله .

وأن هذه الدنيا لا تسوى شيئاً أمام الآخرة التي فيها كل شيء، وأمام الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فمهما ملك الإنسان من أموال، ومهما ملك من متاع، فإنه شيء يسير في جنب ما أعده الله تعالى للمؤمنين.

ثبت في صحيح مسلم أن النبي -ﷺ- قال: { يؤتى بأنعم أهل الدنيا - ممن تبع هواه- من أهل النار فيغمس فيها غمسة واحدة فيقال له بعد ذلك: يا ابن آدم، هل مر بك نعيم قط؟ هل رأيت نعيماً قط؟ فيقول: لا يارب } . (١٣) .

هذا أنعم أهل الدنيا، لما غمس في النار غمسة واحدة نسي ذلك النعيم، ويؤتى بأبأس أهل الدنيا من أهل الجنة ممن لم يعرف نعيماً، قط ولكنه من الصالحين، فيغمس في الجنة غمسة واحدة، فيقال له بعد ذلك: يا ابن آدم، هل مر بك بؤس قط؟ هل رأيت شقاءً قط؟ فيقول: لا يارب ، لقد أنسته تلك الغمسة كل شيء، الجنة والنار ينبغي أن يتفكر فيها المسلم فيثنيه ذلك عن إتباع الهوى.

من ذلك أن يتأمل في فضيلة الصبر، وأن الجنة حفَّتْ بالمكاره، وأن النار حُفَّتْ بالشهوات، وأن الصبر هو عاقبة المتعففين، فماذا كان يوسف -عليه السلام- ماذا كان سيكون لو أنه اتبع هواه؟ لكن لما خالف هواه واتبع منهج الله تعالى كان إماماً للمتعففين، كان إماماً للصابرين، كان إماماً للمتبعين لمنهج الله تعالى { قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ} (١٤)، هكذا ينبغي أن يفكر الإنسان في الآخرة.

من ذلك - يتأمل المسلم أن الهوى لا يدخل في شيء إلا أفسده، فلا يدخل في عبادة إلا أفسدها وأبطلها وأخرج الإخلاص منها، وأدخل الرياء فيها، ولا يدخل في مال إلا أدخل فيه الحرام، ولا يدخل في علم إلا أدخل فيه الجهل، ولا يدخل في شيء إلا أفسده كما قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تعالى-، فصاحب الهوى لا يعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه.

وأخيراً، ينبغي أن نفهم -يا عباد الله- أنه لا يستقيم إيمان العبد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به النبي -ﷺ- كما جاء في الحديث: { لا يؤمن أحدكم حتى يكتون هواه تبعاً لما جئت به}، فهوى المؤمن متبع لهوي النبي -ﷺ-، ولما جاء به النبي -ﷺ-، لا يستقيم إيمانُ العبد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به النبي -ﷺ-، يكفينا ذلك.

أخي القارئ : تعال معي نتعرف على آفات النفس :

المقصود بالآفات:

الآفات: جمع آفة، والآفة - كما عرفها أهل اللغة - هي: العاهة، وفي المحكم: عَرَضٌ مفسد لما أصاب من شيء، ويُقال: آفةُ الظرف الصَّلَفُ، وآفةُ العلم النِّسيانُ، وطعامٌ مَؤُوفٌ: أَصابته آفةٌ (١٥) .

إذن فالآفات أمور مفسدة؛ ولكنها هنا معنوية، نلمح آثارها في المجتمع وفي الأفراد، تطرأ على النفس بسبب تقصير في حق الله من جانب، أو غفلة، أو اتِّباع الأهواء وحب النفس، وقد يكون سبب وجود هذه الآفات البيئة التي نشأ وتربَّى فيها الإنسان بين صدور تحمل الأحقاد ولا ترضى بما قسمه بينهم ربُّ العباد، أو ما يطرأ بعد حادث، وتتفاوت درجاتها بين الأشخاص؛ فمنهم من تجتمع فيه آفات كثيرة، ومنهم من يصاب ببعضها، وإذا أردنا أن نُعدِّد الآفات التي قد تصيب بعض النفوس وأسبابها وعلاجها، فإننا نحتاج إلى أبحاث وأبحاث؛ لأن أمرها عظيم، وأعدادها كثيرة، وذكرها يحتاج إلى ذكر كيفية الخلاص منها، والمقام ليس مقام إطالة، ونكتفي هنا بالإشارة فقط إلى بعض هذه الآفات دون تحليل أو حديث عنها، ثم نفصل القول عن واحدة من هذه الآفات لو تغلَّب الفرد عليها، سهل عليه التغلب على غيرها، والسلامة منها، ومن هذه الآفات: (الحسد - الكبر - الغدر - الخيانة - الاستكبار - الغش - الحقد - البخل - عدم الرضا - حب التزكية - الرياء - حب الظهور - النفاق - الغرور - الغضب - الغفلة - الغل - الغي والإغواء - الفجور - الفضح - الهوى...) فهذه بعض الآفات التى أردت أن أشير إليها، أمَّا ما أردت أن أفصِّل فيه القول هو (الهوى)، والحديث عنه تحت هذا العنوان:

(الهوى)

تعريف الهوى في اللغة: هو ميلان النفس إلى ما تستلذُّه من الشهوات من غير داعية الشرع (١٦) .

وهوى النفس: إرادتها، والجمع الأهواء، وقال اللُّغويون: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، والهوى إذا أطلق انصرف إلى ما كان شرًّا أو إلى ما كان مذمومًا، فإذا أريد به ما كان خيرًا أو ما كان محمودًا فلا بد من تقييد ذلك بوصف أو نحوه كأن يقال: هوى حسن، وهوى موافق للصواب .

أما تعريفه اصطلاحًا:

فقد قال العلماء: الهوى: شعور في النفس يميل بها إلى ما تحب من مطالب وحاجات، أو متع ولذات وشهوات، أو عواطف وانفعالات، ويقول الإمام بن الجوزي: الهوى: ميل الطبع إلى ما يلائمه .

النفس والهوى:

عرفت قبل أن الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه، وهذا الميل قد خلق في الإنسان لضرورة بقائه؛ فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذمُّ الهوى على الإطلاق؛ وإنما يُذمُّ المفرط من ذلك؛ وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار

وقد يكون ما تهواه النفس شرًّا لها أو أذًى أو ضرًّا؛ قال الله تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى } (١٧)؛ أي: ما تهواه وترغب فيه قوى النفس الشهوية والغضبية ممَّا يخالف الحق والنفع الكامل، وشاع الهوى في المرغوب الذميم، وقال تعالى في معرض الكلام عن المشركين: { إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى } (١٨)، وخاطب اليهود بقوله تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ } (١٩)؛ أي: بما تميل إليه أنفسهم من الانخلاع عن القيود الشرعية، والانغماس في أنواع اللذات، والتصميم على العقائد الضالة .

فالمراد باتباع الهوى: هو السير وراء ما تهوى النفس وتشتهي، أو النزول على حكم العاطفة من غير تحكيم العقل، أو رجوع إلى شرع، أو تقدير لعاقبه، والهوى عن الخير صاد، وللعقل مضاد، لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكاً، ومدخل الشر مسلوكاً. قال عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما-: "الهوى إله يعبد من دون الله، ثم تلا قوله تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (٢٠).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أخاف عليكم اثنتين: إتباع الهوى، وطول الأمل؛ فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة ، وقال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى؛ لأنه يهوي بصاحبه .(٢١) .

وقال الإمام ابن الجوزي: اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل، فأمَّا العاقل، فإنه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألَمًا، وشهوة تُورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى، ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف، فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك، وقد يقع التساوي بينهما في الميل بالهوى، وبهذا القدر فضل الآدمي على البهائمِ- أعني: ملكة الإرادة - لأن البهائم واقفة مع طباعها، لا نظر لها إلى عاقبة، ولا فكر في مآل، فهي تتناول ما يدعوها إليه الطبع من الغذاء إذا حضر، وتفعل ما تحتاج إليه من الروث والبول أي وقت اتفق، والآدمي يمتنع عن ذلك بقهر عقله لطبعه، وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالِبًا، وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمالِ الأحوط في كفِّ الهوى، إلى أن يتيقَّن السلامة من الشر في العاقبة، وينبغي للعاقل أن يتمرَّن على دفع الهوى المأمون العواقب؛ ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته .(٢٢) .

أسباب إتباع الهوى:

أسباب اتِّباع الهوى كثيرة؛ ولكنها كلها تجتمع في مســـائل قليلة؛ وهي حب الدنيا، ونسيان الآخرة، وعدم معرفة الله ـ جل قدره وتعالى شـــأنه ـ حق المعرفة، ونسيان الرقيب، وعدم النظر إلى قبح أثر المعصية وشدة ضررها، وطول الأمل، وعدم الرضا، فمن اتَّصف بهذا اتَّبع ما تمليه عليه نفسه، والله أعلم.

ومن أسباب غلبة الهوى على النفس أيضًا ما أشار إليه صاحب كتاب أدب الدنيا والدين بقوله: أن يقوى سلطان الهوى بكثرة دواعيه حتى يستولي عليه مغالبة الشهوات، فيكلُّ العقل عن دفعِها، ويضعف عن منعها، مع وضوح قبحـــها في العقل المقهور بها، وهذا يكون في الأحداث أكثر، وعلى الشباب أغلـــب؛ لقوة شهواتهم، وكثرة دواعي الهوى المتسلط عليهم .

أثر الهوى في النفس:

إذا أتبع الإنسان نفسه هواها، فهو يسير في طريق لا يسلم معه من الآفات، ولا ينجو في نهايته من الهلاك، ولا بد من آثار ضارة لهذا الإتباع، وعواقب مهلكة، نكتفي بذكر بعضها؛ وهي كالتالي:

١ـ تمكن الهوى من النفس:

إذا اتبع الإنسان هواه، وعمل ما يرضيه، فلن يبتغي رضا الله أو يخشى سخطه، فقد تمكَّن من النفس هواها، فصدَّها عن سبل الرشاد، فهو كما يقول صـــاحب كتاب أدب الدنيا والدين: عن الخير صادٌّ، وللعقل مضادٌّ؛ لأنه ينتج من الأخلاق قبائحها، ويظهر من الأفعال فضائحها، ويجعل ستر المروءة مهتوكًا، ومـدخلَ الشرِّ مسلوكًا .

وقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا أصبح الرجل، اجتمع هواه وعـــمله، فإن كان عمله تابع لهواه؛ فيومه يوم سوء، وإن كان هواه تبعًا لعمله؛ فيومه يوم صالح ، وقال ابن عطاء: من غلب هواه عقله، وجزعه صبره افتـــضح .

٢- قسوة القلوب والاستهانة بالذنوب:

وذلك أن المتَّبِع لهواه يقسو قلبه ويموت، ويوم تقسو القلوب وتموت تكون الاستهانة، فلا يفكر في عاقبة أمره ويدرك ثقل الذنب، وقد أشار النبي ﷺ إلى ذلك بقوله: (إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يري ذنوبه كذباب مرَّ على أنفه، فقال به هكذا) (٢٣) .

٣- يلقي بصاحبه إلى الضلال:

إذا تأملنا في أحوال أصحاب الضلالات، رأينا الدافع فيها اتباع الهوى، وما تشتهيه النفس من حرام أو حلال حصل عليه بطريق مشروع أو محرم بمكر وخديعة أو بحسن سؤال، فلا يهمه إلا أن يحصل على المراد، وما يكون ذلك إلا ممن اتبع هواه؛ لأن المتبع لهواه صار عبدًا لشهواته؛ قال تعالى:
{ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (٢٤)، فإتباع الهوى مع إلغاء إعمال النظر ومراجعته في النجاة، يلقي بصاحبه إلى كثير من أحوال الضُّرِّ بدون تحديد، ولا انحصار فلا جرم أن يكون هذا الإتباع المفارق لجنس الهدى أشد الضلال، فصاحبه أشد الضالين ضلالًا (٢٥) .

٤- الابتداع في دين الله تعالى:

فصاحب الهوى يميل إلى إثبات ذاته ووجوده، وهو لا يرضى بمنهج الله تعالى، فيبتدع منهاجًا يُوافق هواه وشهواته، أو يرفض الانقطاع عن بدعة ورثها يرى فيها لذته، وإن خالفت شرع الملك تبارك وتعالى، والابتداع ضلال، وكل ضلال في النار، وقد أخبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله: (أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد، وكل بدعة ضلالة) (٢٦) .

٥- الإعراض عن مصدر الهداية:

وذلك أن صاحب الهوى بعبوديته لشهوته وميوله، قد أعرض عن مصدر الهداية، فمن أين يأتيه التوفيق قال تعالى: { أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } (٢٧)، اتخذ هواه إلهًا له، لا يخالف له أمرًا.

٦- يؤدي بصاحبه إلى الهاوية:

عواقب الهوى وخيمة؛ قال تعالى: { فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى } (٢٨)؛ أي: إن من تجرَّأ على الله تعالى وعصاه، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، فصار سعيه لها مستغرقًا في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة والعمل لها، فمأواه ومسكنه جهنم.

كيفية الخلاص من هوى النفس:

إذا كان هوى النفس المذموم يقودها إلى المهالك، فلا بد له من خلاص، ولا بد من معرفة كيفية التغلب عليه، وقد بيَّن هذا أبو الحسن الماوردي بقوله: وحسم ذلك أن يستعين بالعقل على النفس النفورة، فيشعرها ما في عواقب الهوى من شدة الضرر، وقبح الأثر، وكثرة الإجرام، وتراكم الآثام؛ فقد قال النبي ﷺ:
(حُفَّت الجنة بالمكارِه، وحُفَّت النار بالشهوات)، أخبر أن الطريق إلى الجنة احتمال المكارِه، والطريق إلى النار إتباع الشهوات.

وقال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه: إياكم وتحكيم الشهوات على أنفسكم، فإن عاجلها ذميم، وآجلها وخيم، فإن لم ترها تنقاد بالتحذير والإرهاب، فسوِّفْها بالتأميلِ والإرغاب؛ فإن الرغبة والرهبة إذا اجتمعا على النفس ذلت لهما وانقادت"، وقد قال ابن السمَّاك: كن لهواك مسوِّفًا، ولعقلك مسعفًا، وانظر إلى ما تسوء عاقبته، فوطِّن نفسك على مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوى داؤها، وترك ما تهوى دواؤها، فاصبِر على الدواء، كما تخاف من الداء .

فإذا انقادت النفس للعقل بما قد أشعرت من عواقب الهوى، لم يلبث الهوى أن يصير بالعقل مدحورًا، وبالنفس مقهورًا، ثم له الحظُّ الأوفى في ثواب الخالق وثناء المخلوقين؛ قال اللَّه تعالى: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى } (٢٩) .

الهوى المحمود:

ذكرنا قبل قول الإمام ابن الجوزي أنه لا يصلح ذمُّ الهوى على الإطلاق؛ وإنما يُذمُّ المفرط من ذلك؛ وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار ، ونبيّن هنا متى يكون الهوى محمودًا، فنقول: يكون الهوى محمودًا إذا كان موافقًا لما

أمر الله به، فإن السعادة والراحة والطمأنينة والفوز إنما يكون في إتباع ما أمر الله باتباعه في كتابه العزيز، واجتناب ما نهى الله عنه، وتحكيم شرع الله تعالى والسنة الشريفة، لا في اتِّباع هوى النفس وما تمليه عليه، وهذا هو الهوى المحمود الموافق لشرع الله تعالى ورسوله، وبيَّن الله ذلك في كتابه، فقال تعالى: { فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } (٣٠)، فبيَّن سبحانه أن الهوى يكون محمودًا إذا كان هوى المرء عن هدى،

وصدق الله تعالى إذ يقول: { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى } (٣١)؛ أي: فمن اتبع ما أمر الله به، واجتنب ما نهى عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة، ومن خالف ما ذكرناه، فهو الهوى المذموم، وقد سبق الحديث عن آثاره، والله أعلم.

المراجع: للباب التاسع : الفصل الأول :

---

(١) (سورة هود ، آية : ٦)
(٢) (سورة النازعات ، آية : ٣٧ - ٤١)
(٣) (رواه مسلم)
(٤) (سورة الجاثية ، آية : ٢٣)
(٥) (سورة المائدة ، آية : ٤٩)
(٦) (سورة المائدة ، آية : ٥٠)
(٧) (سورة الجاثية ، آية : ٢٣)
(٨) (سورة التوبة ، آية : ٣١)
(٩) (صحيح البخاري ٦٤٨٧ – ومسلم ٢٨٢٣)
(١٠) (رواه الإمام احمد عن أبي إمامة)
(١١) (سورة الاعراف ، آية : ١٧٥ - ١٧٦)
(١٢) (سورة النساء ، آية : ١٣٥)
(١٣) (صحيح مسلم)
(١٤) (سورة يوسف ، آية : ٣٣)
(١٥) (انظر: لسان العرب للمؤلف: محمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ).)
(١٦) (انظر: التعريفات؛ للجرجاني.)
(١٧) (سورة النازعات ، آية : ٤٠)
(١٨) (سورة النجم ، آية : ٢٣)
(١٩) (سورة البقرة ، آية : ٨٧)
(٢٠) (سورة الجاثية ، آية : ٢٣)
(٢١) (انظر: أدب الدنيا والدين؛ لأبي الحسن علي بن محمد حبيب البصري الماوردي (٤٥٠هـ).
(٢٢) (كتاب ذم الهوى.)
(٢٣) (رواه الإمام البخاري.)
(٢٤) (سورة القصص ، آية : ٥٠)
(٢٥) (انظر: التحرير والتنوير؛ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).
(٢٦) (رواه الإمام مسلم.)
(٢٧) (سورة الجاثية ، آية : ٢٣)
(٢٨) (سورة النازعات ، آية : ٣٧-٣٩)
(٢٩) (سورة النازعات ، آية : ٤٠ - ٤١)
(٣٠) (سورة القصص ، آية : ٥٠)
(٣١) (سورة طه ، آية : ١٢٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوكل عليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وخاتم رسله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حَقَّ جهاده، فعليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وجزاه الله خير ما جزى به نبياً عن أمته.

قيل: «لكل شيء آفة وللعلم آفات» وهذا القول يؤيده الاعتبار، أي أنّه صحيح خارجاً. فإنّنا نلاحظ في الواقع الخارجي أنّ أكثر من ٦٠٪ ممّن بدأوا طريق العلم والدراسة بإصرار وصدق وإيمان لم يواصلوا الشوط حتى نهايته، وإنّ أقل من ٤٠٪ هم الذين استطاعوا التغلّب على المشكلات الكثيرة الموجودة في طريق طلب العلم.

لقد كانت المشكلات في هذا الطريق كثيرة، ولا تزال كذلك، بل إنّها اليوم أكثر مما مضى. فأكبر مشكلة في السابق كانت تتلخّص بعدم وجود الكتاب، وكون الكتب مخطوطة. فكان طالب العلم الذي يريد أن يقتني كتاباً كالشرائع مثلاً، أمام أحد خيارات؛ إما أن يستعير نسخة خطية أو مستنسخة ثم يقوم بنسخها من أوّل الكتاب إلى آخره؛ أو أن يدفع ثمناً باهضاً لشراء نسخة من الكتاب، وهذا لم يكن ميسوراً لأكثر الطلاّب، فلا نبالغ إذا قلنا: إنّ تسعين بالمئة منهم لم يكونوا قادرين على توفير هذا الثمن؛ أو أن يجد مَن يتبرع له بثمن الكتاب، وهذا أصعب الخيارات وأندرها تحققاً.

أما اليوم فبإمكان كل طلبة العلوم الدينية اقتناء نسخة من الكتاب الذي يرغبون وبأثمان يستطيع أغلبهم دفعها. إذن يمكن القول: إنّ مشكلة صعوبة الحصول على الكتاب لم تعد اليوم موجودة.

ومن المشاكل التي كانت موجودة في السابق وقد قلّت اليوم إلى درجة كبيرة هو الحصول على مدرّس. أما اليوم فقد زالت هذه الصعوبة إلى حدٍّ كبير وخاصة في الحواضر العلمية التي نعيش فيها.

أجل هناك مشكلات استجدّت ولم تكن في السابق؛ ومنها مثلاً كثرة العـطل. فلم تكن بهذه الكثرة، ولم تتجاوز ـ على ما أتذكر ـ

لقد عبّأنا كل طاقاتنا ولم يصل أغلبنا إلى الغاية المرجوة، فكيف بالوضع اليوم، حيث قد نقل لي أحد المدرّسين أنّه أحصى كل الأيام التي درّس فيها خلال إحدى السنوات الأخيرة فوجدها لا تزيد على التسعين .

فإذا كانت المشكلات في طريق طالب العلم كثيرة، وكان طالب العلم لا يـــــريد صرف عمره هكذا عبثاً ثم يكتشف بعد مرور ثلاثين سنة أو ربما خمسين سنة أنّه لم يصل إلى شيء ولم يحصل على نتيجة، فما هو الحل العملي للتغلب على هذه الصعاب؟

الحل الجذري يتمثّل بالآية الكريمة: «ألا بذكر الله تطمئن القلوب». والمقصود بذكر الله تعالى في الآية ـ كما قال المفسّرون ـ الذكر اللساني والقلبي مـــعاً. والمقصود بالذكر القلبي التوجّه إلى الله تعالى، فإنّ الممارسات العبـادية التي نؤديها لله تعالى لا ينبغي أن تكون طقوساً جامدة لا روح فيها بل علينا أن نتفاعل معها، ونشعر من خلالها أنّنا نقف بين يدي الله تعالى ونتعامل معه.

أخي القارئ : أعلم إن ادعاء المعرفة آفة تتـوغل في مجتمعاتنا وفي حياتنا :

ادعاء المعرفة بات ظاهرة في وقتنا الحالي وأصبح يشكل خطراً على مجتمعاتنا وعلى النشء تحديداً ممن قد يستقون معلوماتهم من مصادر مضللة، للـوقوف على أسباب هذه الظاهرة، ومحاولة طرق ناقوس الخطر الذي قد يصـيب أمتنا نطرح هذا الملف مع متخصصين وأكاديميين ومواطنين.

وذلك حتى يعي أفراد المجتمع والقائمين على العملية التعليمية، و«المدعـين» أيضا أهمية التصدي لهذه الآفة، حيث إنه أصبح يصعب على الكثيرين التفريق بين من يدعي المعرفة وصاحب العلم الحقيقي، نظرا لتطور المـــنصات التكنولوجية؛ وسهولة الحصول على المعلومات الصحيحة منها والمـغلوطة، وبالتالي أصبح هناك خيط رفيع يفصل في ظاهره بين العارف ومدعي المعرفة على الرغم من الفجوة الهائلة بينهما، وهو ما أدى إلى انتشار ظاهرة ادعـاء المعرفة، وظهورها على الساحة بشكل أصبح يهدد ثقافة المجتمع، خاصة وأن من يدعون المعرفة أصبحوا يرتدون أقنعة زائفة، ويجزمون بأنهم يعرفــون الصواب عن كل شي وأنهم هم مركز الأرض ومحورها، وأن جميع الأشياء هي من تتحرك بالنسبة لهم أو تقف لهم وحدهم، وهم كبائعين الأوهام يسـتخدمون حلو الكلام، لا يعطونك شيئا ملموسا، ولا يقنعوك بفكرة ما بالمنطق.

المنظومة التعليمية :

أن ظاهرة أدعياء المعرفة انتشرت في المجتمعات العربية مع توســع قاعدة مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي وأجهزة الهاتف الجوال الذكيـــة، التي أصبح من خلالها يتم تداول الكثير من المعلومات التي غالبا ما تتســـم بعدم المصداقية والتوثيق، وبالرغم من أن الغرب لديه تلك التكنولوجيات أيضا؛ إلا أنهم لم ينجرفوا وراء هذه الآفة، وهو ما يعود في الأساس إلى أسلوب وطريقة التعليم التي اعتادوا عليها منذ الصغر، وهي البحث والتقصي والإثبات من خلال المعطيات والبراهين، حتى في الاختبارات المدرسية؛ الطالب ليس ملزمـــا أن يكتب ما هو مدون في الكتب الدراسية حرفيا؛ ويكفي أن يعطي المعنى والهدف المطلوب، بما يثبت أنه واع لما قام بدراسته، ولكن على النقيض فإن مدارسنا

العربية لا تعترف سوى بـ«الحفظ»، وما هو داخل الكتب المدرسية فقط، ولذلك لا بد من إعادة النظر في المنظومة التعليمية وتطويرها بما يسهم في الارتقاء بالنشء والمجتمع.

مصداقية المحتوى :

أن ادعاء المعرفة أحد أخطر الظواهر التي أصابت المجتمع كونها تهدم المعارف الحقيقية وتطفو بالأدعياء على الساحة خاصة هؤلاء الذين لديهم قدرة على الإقناع والتسويق لأفكارهم أو لمعلوماتهم، ولكن أيضا نحن نتحمل جزءا من المسؤولية عن ظهور هؤلاء كوننا نتناقل ما ينشرون ونقوم بإرساله لأصدقائنا وعائلاتنا؛ دون التأكد من مصداقية المحتوى، وإن كان البعض يقوم بذلك بحسن نية إلا أن ذلك أمر يحتاج إلى وقفة وإعادة نظر،

وأوضح أن انتشار هذه الظاهرة يعود إلى أسباب تتعلق بالشخص نفسه وهي حب الظهور والشهرة وأسباب غير مباشرة كانتشار وسائل التواصل الاجتماعي وسهولة انتقال المعلومات بينها، وبالتالي فإن الأسباب مشتركة بين المجتمع والأفراد وبين المدعين، ولا يمكن إلقاء اللوم على أحد دون الآخر.

ويبين أن أحد أفضل الطرق للتعامل مع المدعين هو مواجهتهم بذلك ومطالبتهم بمصادر هذه المعلومات ومدى مصداقيتها؛ حتى وإن كان هذا محرجا؛ إلا أنه أقل ضررا من تركهم ينشرون جهلهم بهذا الكم الهائل.

وسائل التواصل :

نرى أن حجم مدعي المعرفة في المجتمع الإسلامي ليسوا كثر، وذلك نتيجة لتوجهات الكثير من المؤسسات التعليمية والقائمين عليها، للحث على مواجهة هذه الظاهرة، بالإضافة إلى الدور الذي يلعبه الإعلام في محاربة هؤلاء، وما يكتب من توعية وتحذير، وبالتالي قد لا تجد هؤلاء سوى في وسائل التواصل الاجتماعي؛ والتي يصعب السيطرة عليها كونها فضاء مفتوحا يكتب وينشر فيه من يشاء، وبالتالي لا يمكن القضاء على المدعين الإلكترونيين، ولكن يكفي تجاهلهم أو عدم الانصياع لما يقولون،

وليس معنى ذلك هو عدم الحصول على معلومات من خلال هذه الوسائل، ولكن يجب التأكد من كل معلومة، والبحث وراءها، قبل أن يضعها الفرد في خـــزينة عقله، وقبل أن يعيد نشرها على الآخرين، لأن المعرفة أمانة، ومن لا يضـــع اعتبارا لذلك؛ ويقوم بنشر ما يجهله دون التأكد منه فهو مذنب في حق المجتمع وفي حق نفسه .

خطــرهم يهدد الأجيال الجديدة :

مواقع التواصل الاجتماعي أنجبت أعداداً لا بأس بها من مدعي المـــعرفة الذين يغذون أفكارهم بمعلومات مشوهة أو مغلوطة، والكثير منها مجرد مــــبالغات ممثلة في مجموعة من المتفرقات المعرفية، للأسف، معظمها تفتقـــد للأصول وتخالف الحقيقة، والسبب في انتشار تلك المعلومات هم مدعو المـــعرفة الذين يساهمون في إعادة نشر وتداول تلك المعلومات بين الأفراد سواء في المجالس، أو عبر منصات مواقع التواصل الاجتماعي.

أن مدعي المعرفة ليسوا بالضرورة قراءً أو من أصحاب الدراســـات العلمية، لذلك فهم ليسوا أصحاب معرفة سليمة، بل تستند معرفتهم إلى ما ينـــشر على مواقع التواصل حول مختلف الأمور، وهناك بالفعل عدم احترام للتـــــخصص؛ بالرغم من أن الفلاسفة أنفسهم لا يحيطون علما بكل الأمور، لذا لابـــــد من احترام التخصصات ومواجهة تلك الظاهرة من خلال عدم السماع ســـــوى لأصحاب التخصص، لكن الحاصل أن تلك المواقع أصبحت «بيئة حاضنة» لمدعي المعرفة مع ضحالة معلوماتهم ووفرة أوقات فراغهم .

علما أن الجهل وادعاء المعرفة وجهان لعملة واحدة، إلا أن الجهل هو الأخطر لأنه السبب الرئيسي في انتشار تلك الظاهرة وفي بلاء الأمة بشكل عــام، لأن الإنسان إذا تعلم سيلفظ تلك المعلومات المغلوطة وسيكون مؤهلا لكشـــــف ادعاءاتهم ما يؤدي تلقائيا إلى اختفائهم لأنهم لن يجدوا البيئة والأرضـــــية الممهدة لنشر المعلومات المزيفة وهم لا يخدعون سوى الجهلاء، لذا محاربة الجهل والتسلح بالعلم هما الوسيلتان الأفضل لمواجهة تلك الظاهرة.

أخي القارئ :

أعلم أن هناك مسؤوليات عدة تقع على الأسرة والمجتمع بشكل عام، فضلا عن الإعلام وغيرها من الجهات المسئولة في انتشار تلك الظاهرة مما يتـــــطلب التركيز والدعوة إلى القراءة، وعودة الأمة إلى أمة اقرأ لأنها باتت أمـة وسائل التواصل الاجتماعي، بخاصة أن الأبحاث العلمية الحديثة أكدت أن مركز القراءة في الدماغ هو المركز الذي يؤثر على كافة المراكز الأخرى.

وتمنى على الشباب ضرورة القراءة، وتحصين أنفسهم بالعلم.

المؤلف والمدرب في إعداد القادة، أن مدعي المعرفة الشاملة يبرزون داخـــل المجتمعات التي تعاني من الجهل، فهو الأرضية المناسبة للانتشار والـــتوغل داخل العقول، أما المجتمعات السوية فإن مدعي المعرفة يقومون بذلك من باب الغرور، وهم في الأساس لا يملكون من العلم شيئاً، وبالتأكيد تلك من ضـــمن الظواهر والإشكاليات الآنية التي تعيشها الكثير من المجتمعات العربية، بخاصة أن مدعي المعرفة لا يعترفون بعلم الآخرين ويدعون دوماً بأنهم على صـــواب وعلى علم مسبق بالمعلومات، لذا هناك ضرورة لتعلم أدب الحوار والإنـــصات الجيد للمعلومات وعدم الحديث عن الأمور التي قد يجهلها الفرد أو يعرف جزءاً منها حتى لا ينقلب حديثه إلى فتن داخل المجتمعات.

وعن الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتشار الظاهرة :

سهولة الحصول على شهادات علمية خاصة ببعض التخصصات دون وجه حق عبر شرائها من بعض الجهات، فضلاً عن اعتماد البعض على الغش كوســيلة لتجاوز الامتحانات الدراسية، لذا بات هناك دكتور مزيف والأمر ينطـــبق على مهن المحاماة والهندسة وغيرها من الأمور التي تلحق الأضرار بالمجـــــتمع،

أيضاً بات هناك من هم غير مؤهلين لتقلد المناصب الوظيفية نتيجة عدم تأهيلهم علمياً بما يتناسب مع تلك المناصب، والملاحظ أن تلك الفئة سرقت جهد الآخرين نتيجة جهلهم المسبق وعدم جدارتهم بالمناصب التي أوكلت أليهم، لذا فادعـــاء المعرفة من الظواهر التي تساهم في تدمير المجتمعات وتخريبها كذلك.

وأنصح الشباب بضرورة مراعاة ضمائرهم أثناء تأدية الامتحانات، وعـــــــدم اللجوء إلى الغش خاصة أن الشهادة الدراسية من المفترض أن تعكس ما يتمتع به الفرد من مهارات وعلم، وتفتح كذلك الأبواب الوظيفية بهدف نشر ذلك العلم داخل المجتمعات وليست مجرد وسيلة احتيال للوصول إلى مراتب وظيفـــية لا يستحقها الفرد ولا تعكس القدرات العلمية والمهارات، بخاصة أن تلك الشهادات تساعد على تولي المناصب الوظيفية التنفيذية مما قد يؤدي إلى القضـــاء على مؤسسات الدول وعلى الخدمات المجتمعية وعلى الميزانيات وغيــــرها من الأمور، لذا على الشباب الإخلاص في دراستهم وتطوير ذاتهم بصـــورة سليمة وشريفة حتى يصبحوا أداة من أدوات ارتقاء المجتمعات في المستقبل، وليسوا وسيلة من وسائل التدمير عبر ادعاء المعرفة فيما لا يفقهون.

نوضح أن ادعاء المعرفة مرتبط بثقافة المجتمع؛ بحيث أن الأفراد الذين اعتادوا من لبناتهم الأولى على القراءة والبحث المستمر؛ يصبح لديهم حاجة ملـــــحة للحصول على المزيد، وعدم الوقوف عند حد معين من الثقافة والعلم، أما من لا يقرأ؛ ولم يعتد على البحث والمتابعة؛ سيعتقد بمجرد قراءته لأمر ما أو استماعه له عن طريق إحدى وسائل التواصل أو الإعلام؛ بأنه امتلك المعرفة وأصبح على دراية بهذا الأمر، وهنا المشكلة، حيث أن المعرفة هي عملية ديناميكية متحركة ولا يمكن الحصول عليها أو الوصول إلى مراحلها النهائية.

نماذج سلبية :

أن الشخص المدعي للمعرفة يتصف بالتسلط والجمود وعدم الــــــمرونة في النقاش، ويكون معتقدا في أغلب الأحيان بأنه هو الصواب ولا ينـصت لما يقوله الآخرون وهو نموذج سلبي في المجتمع يجب التخلص منه، نظـــرا لأن بعض هؤلاء المدعين لديهم من يسيرون وراءهم ويستمعون لهم وهو ما قد يؤدي إلى فساد الكثير من أفكار المجتمع، ولذلك يجب على الأفراد عدم الحــــصول على المعلومة واعتمادها قبل عملية البحث والمتابعة من خلال المتخـــــــصصين والباحثين الذين لهم دراسات معتمدة ومن مصادر عدة، على أن تكـــون مصادر علمية موثوقة، وليس من آراء شخصية أو من منتديات الإنترنت.

أخي القارئ :

إن ادعاء المعرفة أصبح ظاهرة وثقافة منتشرة في المجتمعات لـــــعدة أسباب، منها كثرة الوسائط التكنولوجية وتنوعها، وهي وإن كانت إيـــجابية من جهة التيسير واختصار الزمن إلا أنها تشيع عدم التمحيص والتدقيق من جهة ثانية، ويستخدمها البعض بهدف نقل المعلومات وتمريرها لأكبر شريحـــة ممكنة من الأصدقاء ليظهر ناقلها بصورة العارف.

توظيف العقل :

وإذا ما أردنا التفريق بين العارف والمدعي، فالأول من لديه كم من المـــعرفة والمعلومات الصحيحة وهو قادر على نقدها وتوظيفها في المكان الـــمناسب، وهو شخص عقلاني يميل إلى الثوابت، ولا يغير رأيه بسرعة دون تثبت ودون هدف، فيما أن الثاني شخص يميل إلى الحصول على المعرفة بأبســـط الطرق والوسائل، ولا يعنيه الدقة ولا يكترث لشروط الأمانة العلمية، وهــــنا تكمن الخطورة؛ حيث أن هذا التناقل سيصبح له أثر سلبي مع الزمن، كما أن المدعي صاحب رأي متقلب ولا يوظف العقل بالقدر الكافي بقدر ما هو وعـــاء ناقل لسلسلة من المعلومات المتناقلة بين الناس، والمشكلة أن هذه الثـــقافة لها أتباع ولها مؤيدون يأخذون الظاهر؛ أو الصورة السطحية للمــــادة العلمية ويتركون الباطن متناسين قول الإمام مالك «من قال لا أدري فـقد أفتى»، وفي مقولة أخرى «نصف العلم لا أدري»، وفي شعر أبو نواس «قل لمن يدعي في العلم فلسفة. حفظت شيئًا، وغابت عنك أشياء»، وأغلب هؤلاء لا يفـــكرون بالتحليل؛ وإنما في عملية النقل فقط.

الكلام دون معرفة خطر :

أن الإنسان عليه أن لا يتكلم سوى في ما يعلمه فقط، وإلا فليصـــمت، حيث إن الحديث بغير علم قد يؤدي إلى عواقب وخيمة، فلا يمكن لأحد أن يتـــحدث عن الطب والهندسة إلا إذا كان دارسا لهما، وإلا أدى لقتل أرواح البشر، كـذلك في أمر الدين والفتوى لا يمكن أن يتحدث إلا من كان مؤهلا لذلك الكلام، وإلا لوقع في إثم عظيم، فالكلام دون معرفة، وادعاء العلم، من أخطر الأمور على الأفراد والمجتمعات، وفي ذلك روي أنه في عهد الرسول ﷺ كان هناك عــــــدد من

الصحابة على سفر، وأصيب أحدهم بجرح في رأسه وكان على جنابة وأراد أن يصلي وعندما سأل أصحابه قالوا له إننا لا نرى لك إلا الغسل، فاغتسل فمات، وعندما رجعوا أخبر الرسول بذلك فقال: «قتلوه قتلهم الله، ألم يكن شفاء العي السؤال»- أي أن شفاء الجاهل أن يسأل من يعلم- «إنما كان يكفيه أن يعصب على رأسه ويتيمم».

وبالتالي فقضية الكلام دون معرفة وادعاء العلم هي من أخطر الأمور على الأفراد والمجتمعات، خاصة في ظل الانفتاح الذي نعيش فيه وانتشار وسائل التواصل الاجتماعي والإنترنت بحيث أصبح كل من لديه معلومة يقوم بنشرها وإرسالها دون التأكد منها، ليتولد لدينا جيل كامل يعيش على قشور المعلومات، ولا يجب على الفرد أن يعلم كل شيء عن كل أمر وأن يكون له رأي فيه، فهذه مسألة خطيرة قد تفسد أكثر مما تصلح، وما أوقعنا في ما نحن فيه من تخبط وتراجع سوى هذه الأمور، وخير مثال على ذلك هم الجهلة المنحرفون كالدواعش وغيرهم الذين حللوا وفسروا الدين بدون علم وقاموا بإقناع العديد من الشباب الصغار بتلك الخبائث الهدامة فاستباحوا دماء المسلمين وتخطوا على حدود الله ونصبوا أنفسهم على الدنيا يوزعون فيها هذا للجنة وهذا للنار والعياذ بالله.

زمن هنا فعلى الأسرة والمؤسسات التعليمية في هذه القضية من خلال تضافر الجهود بين الآباء والمعلمين أن يوجهوا الناشئة نحو أن يتعلموا قبل أن يتكلموا، ولا يتكلموا سوى في ما يعلمون بالحق، وإذا ما جهل عليهم شيء فليسألوا من هو أعلم منهم ولا عيب في ذلك بل العيب هو الكلام بجهل، وأن يتعلموا قدر أنفسهم مع الاستمرار في البحث والاستزادة، ومعرفة أن العلم بحر لا ينتهي ولا يمكن أن يكون له حد.

وفي دروس الصحابة والسلف الصالح الكثير من العلماء الذين قالوا لا نعلم، أو لا ندري حينما سئلوا عن أمور لا يعرفونها، ولم يخجلوا من قول ذلك. وهناك الكثير مما قيل في هذا.

صفة لا تختلف عن النرجسية :

يعرّف الطب النفسيّ الحديث وأخصائي علم النفس والاجتماع ادعاء المـــعرفة بحالة نفسيّة مرضيّة تنتاب الشخص، وهي صفة لا تكاد تختلف عن النرجسيّة وحب الذات، التي يعتبرها أهل الاختصاص كمظهر من النرجسيّة المبهمة.

إنّ انتحال صفة المعرفة أو ادعاءها هي ظاهرة نفسيّة تجتاح المجتـــــمعات المعاصرة وتفتح باب الدراسات والتحليلات النفسيّة التي تعود إلى أطروحات كان قد عرضها مجموعة من الفلاسفة منذ القدم كأفلاطون.

ويأتي التعريف المعاصر لهذه الظاهرة بكونها صفة مرضيّة نفسيّة تـــــنتاب شخصيّات معيّنة تظافرت فيها عوامل وأسباب مختلفة لخلقها.

وقد أدلت الدراسات بمجموعة من العوارض، تمثّلت في ادعاء المــــعرفة، والافتخار بالذات بشكل مبالغ؛ يترجم مجموعة من التناقضات والصراعات النفسيّة الداخليّة ناجمة عن فقدان المرء لثقته في نفسه وضعف شخصيّته، كما يعرّفه الطب الحديث بأنه شخصيّة اعتماديّة تعتمد على الغير في جميع المجالات.

إنّ ارتداء عباءة المعرفة هو نتيجة لمجموعة من الصراعات النفسيّة الداخليّة التي تجتاح نفسيّة الإنسان خلال ظروف معيّنة كالبيئة التي نشأ فيها، المـحيط الذي تعايش معه، الأشخاص الذين قابلهم واحتكّ بهم؛ خلال مسيرته بـــشتّى مجالاتها.

إنّ مدعي المعرفة يستقي مبادئه وأفكاره بطريقة سطحيّة دون نقد خـــلاّق أو تحليل عقلانيّ، يستهلك المعلومات دون تبصّر، وينقلها دون تأكّد من صحّتها، وهو ما يجعله ضحيّة نفسيّة لمجموعة من التجاذبات النفسيّة التي تخرجه من دائرة العقلانيّة والتفكير الإيجابيّ إلى دائرة الأفكار المسلّمة وافتقار الــمعرفة الحقيقيّة التي تنعكس إيجابيّا على شخصيّته وتساهم في تطوير بنيـــته الذاتيّة

والفكريّة. ولا يخفى أنّ لهذه الحالة النفسيّة تأثيرا مباشرا على تلك العقول التي أصبحت تستهلك دون إنتاج أو تحليل حتى، وتسعى إلى تجميع المعلومات دون التأكّد من المصادر الأصليّة في عصر سيطر عليه تقدّم التقنيّات، وسـهولة الوصول إلى المعلومة غير معروفة مصادرها من خلال وسائل التواصـل الاجتماعي التي تفرض وجودها حاليًّا.

أخي القارئ : من واجبنا التصدي لهم فكيف ذلك :

١- إن ظاهرة ادعاء المعرفة باتت واضحة وبينة في الفترة الأخيرة، وللأسف الشديد تلك الظاهرة أخطر من الجهل نفسه، وأرجعت انتشار تلك الظاهرة إلى مواقع التواصل الاجتماعي التي تشكل إحدى المنابر الرئيسية للمعرفة داخل الأوساط الشبابية، فضلاً عن تراجع المستوى التعليمي في الآونة الأخيرة، لذا أصبح الطلاب يبحثون عن المعرفة من خلال شبكات الانترنت ومواقع التواصل الاجتماعي؛ التي تعد البيئة والأرضية الممهدة لهؤلاء المدعين لنشر ادعاءاتهم المعرفية.

٢- إن التوعية المجتمعية تظل السلاح الأنسب لمواجهة تلك الظاهرة، فضلاً عن زيادة وعي الأفراد بأهمية القراءة التي تشبع حاجة الفرد من المعرفة.

٣- إن المجتمع حين يستند إلى المعرفة الوهمية يصبح هشاً وغير قادر على مواجهة مشكلاته بل مستعداً للسقوط أثناء المواجهة، في حين إن المجتمع المستند على المعرفة الحقيقية يكون راسخاً وثابتاً في مواجهة المشكلات والتحديات.

٤- إن ادعاء المعرفة من الظواهر المنتشرة بالفعل خلال الفترات الأخيرة في المجتمعات العربية، والتي تهدد تطوير التعليم بشكل عام، خاصة وان مدعيها لا يستندون إلى مرجعية علمية أو ثابتة ولا يعترفون كذلك بجهلهم لاقتناعهم بأنهم على صواب.

٥- «ادعاء المعرفة أخطر من الجهل»، لان الاعتراف بالجهل هو الخطوة الأولى لبداية المعرفة أما ادعائها فسيؤدي إلى تدمير الفرد، وسيحول بينه وبين اكتساب المعرفة الحقيقية مما سيؤثر بالسلب على الفرد نفسه وعلى المجتمع بشكل عام.

٦- إن المرء حين يدعي المعرفة يحرم نفسه من تحصيل العلم وقد أصبح المجال مفتوحاً أمام الجميع لنشر المعلومات والأفكار والآراء دون قيود ودون استخدام مراجع ومصادر علمية موثوقة، وللأسف فإن الكثير من مستخدمي مواقع التواصل لا يفرقون بين العالم الحقيقي ومدعي العلم الذي يخدع الناس بمعرفته الزائفة؛ ليصل إلى نجاحات مزيفة، وهي سلوكيات تنم على عدم مسؤولية الفرد.

٧- « للأسف لم يكونوا مدعين فحسب بل مصرون على إنهم عالمون»، فانه لا يمكن التعامل مع تلك الظاهرة سوى برفع مستوى الوعي المجتمعي ليتصدى المجتمع ذاتياً إلى تلك الظاهرة.

٨- إن مدعي المعرفة تكاثروا داخل الأوساط الشبابية العربية، فعلى سبيل المثال إذا سألت أحدهم عن انجازات أحد الأفراد الوهميين، ستجده يجيب، ويعدد تلك الانجازات، بخاصة إن أدعياء المعرفة ينزعجوا كثيراً إذا لم يجيبوا على الأسئلة حتى وان كانت الإجابات غير صحيحة، مضيفة إن بعض البرامج التليفزيونية باتت تسعى إلى كشف أدعياء المعرفة، ومن خلال تلك البرامج نرى العديد من الإجابات الغريبة على أسئلة غير حقيقية وغير منطقية كذلك.

الأسباب الرئيسية التي أدت إلى انتشار الشائعات في المجتمعات العربية والتي مصدرها هم أدعياء المعرفة وقد ترب العديد من الأجيال العربية مثلاً على إن الجمع بين البيض والحليب في الأكل يؤدي للتسمم الغذائي وهي معلومة غير صحيحة على الإطلاق .

الباب التاسع : الفصل الثالث : آفة كل شيء من جنسه - فهل من متعظ :

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونتوكل عليه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضِلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا هو وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وخاتم رسله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حَقَّ جهاده، فعليه من ربه أفضل الصلاة وأتم التسليم، وجزاه الله خير ما جزى به نبياً عن أمته.

أما بعد :

إن من أكبر نعم الله على الإنسان هي فصاحة لسانه بالبيان والتبيان ، وان من أحسن الحلل التي يتحلى بها الإنسان حجة دامغة ، أو حكمة بالغة ، أو مثل شريف ، أو قول لطيف ، وقد قال الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه العزيز :

{ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا } .(١) .

إنها حقا لكلمات تكتب بحروف من ذهب ، وقول واسع في معانيه ، قد أتى من رزانة عقل صاحبه ، ومن تجارب مرة قد مر بها الإنسان فحكم عليها بعقل متزن .إنها الحكمة التي تضع الشيء في موضعه ، وتصوب الأمر وتسدده ، والقول الرشيد الموجز الذي يصيب الحق باستخدام ما يملكه الإنسان من ملكة عقلية يوزن بالذهب ، وحكمة ذات مضمون عميق نابع عن فلسفة ورؤيا ثاقبة للأمور ، ينطق بها عالم مطلع استنبط كلامها ولغتها من دراسة وبحث عميقين ، تحمل في ثناياها التوجيه والنصح والإرشاد والصلاح .

إنها عصارة تجارب إنسانية حياتية، وإفرازات لحوادث ونوازل ألمت بالناس والهام بعد تفكير وتدبر للأمور . ولهذه الحكمة ذاتها ، فقد ألقى الله في أوساطنا بأعداء من جنسنا حتى تكون حافزا لنا لحشد طاقاتنا ، واستغلال إمكانيات ما وهبه الله لنا ، لمواجهة كل الصعاب وقهرها بعزيمة صادقة وتصميم على تحديها بكل ما أوتينا من قوة ، وحتى نفوق من سباتنا العميق الذي تغلغل في أحشائنا ، وننتفض مما نحن فيه من بلاء التأخر والتخلف والانحدار في مختلف

الأوجه والمستويات . وبناء على هذه الحكمة الربانية ، فقد خلق الله الإنسان ومعه جيشا من الأعداء من مختلف الحشرات الضارة المتعددة التي تحمل أمراضا فتاكة قادرة على إهلاكه والقضاء عليه ، وخلق للإنسان الحر والبرد والصقيع والصواعق والعواصف الشديدة والمد واجزر وهيجان البحر بأمواجه المتلاطمة التي تلتهم الأرض وما عليها عند ارتفاعها ، مما تحدث الفيضان الذي لا يرحم الإنسانية ، بل يدمر كل ما يصادف طريقه ، وبشكل عام ، إنها إرادة الله وحكمته التي لم يرد لهذه الدنيا أن تكون دار سلام ووئام دائمين ، بل دار حرب وصراع وبلاء وشد وجذب وكر وفر ، إنها تلك الحكمة الربانية التي من خلالها علمت البشرية درسا في أن لا يخلد إلى الراحة والدعة والأمن والسلام والتواكل ، لأن من شأن ذلك سيؤدي إلى الترهل والضعف والانقراض .
والله سبحانه وتعالى لم يخفي هذه الحقيقة ، وإنما أعلنها في محكم تنزيله على أنها أمر مقصود ، فقال جل في علاه { لقد خلقنا الإنسان في كبد }(٢) .

أي مكابدة وعناء وتعب شديد ، فقد أراد الله أن يمتحن كل شيء فيسلط عليه ضده ، وأن يبتلى كل شيء بنقيضه ، حيث قال الله تعالى { ولولا دفع الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض } ، (٣)
إنها القانون الذي يعمل منذ بدء الخليقة ، منذ أن هبط آدم إلى الأرض فقال الله تعالى { وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين } ،
إنها السنة الإلهية التي لم يسلم حتى الأنبياء منها ، فقد قال الله تعالى { وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ} . (٤) .

فالآفة قد تسبب مرضا ، أو ضررا ميكانيكيا ، أو خللا فسيولوجيا ، أو نقصا إنتاجيا نتيجة تغذيتها على الكائن المعيل ، وتشمل مثل هذه الأمثلة تلك الكائنات التي تنقل الأمراض التي تصيب الإنسان ،مثل الجرذان والبراغيث التي تحمل مرض الطاعون ، والبعوض التي تنقل الملاريا ،وغيرها الكثير ، فقد خلق الله القطن وخلق له دودة القطن ، وخلق الأسنان وخلق لها السوس الذي ينخرها ، وخلق العين وخلق لها الرمد ، وخلق الأنف وخلق له الزكام ، وخلق الثمرة وخلق لها العفن ، وخلق الحديد وخلق له صدأ الحديد ليأكله وينهك صلابته ،

وخلق الإنسان وخلق معه جيشا من الأعداء لاغتياله من ميكروبات وجراثيم وفيروسات متعددة ، وأوجد العداوة التي تحدث بين مخلوقاته للتصارع من أجل البقاء ، والتي تعد أكبر تحدي لها ليشحذ كل مخلوق وسائله ، ويبدع ويبتكر ويخرج بأحسن ما يستطيع صنعه ، إذ أنه بدون ذلك الصراع والكفاح من أجل (الصيرورة والبقاء) (٥)، فستكون الحياة مصيرها إلى الزوال والضمور والتخاذل والتكاسل والانقراض التدريجي ، وكما خلق الله أيضا المرض ، فقد خلق له الدواء يصنعها الانسان بنفسه من الأعشاب التي تنبت في أرضه ويدوس عليها تحت قدميه .

لذا يجب أن نقاوم كل الآفات التي حلت بنا على امتداد تاريخنا الإسلامي، ومن تلك الأمثال ما حل بالأمة من غزو عثماني واستعمار انجليزي حكمها فترات زمنية طويلة ، ومن بعدها ظهور أحزاب متعددة الانتماءات ،فمنها ما كانت تنتمي شعاراتها إلى كل من الشرق والغرب ، ومنها ما كانت تنتمي إلى الشيوعية والبعثية والإسلامية بشتى أشكالها .
وأخطر ما على المرء أن يأتيه الداء من داخله، والأخطر الأكبر من ذلك هو لو تحول هذا الداء إلى خلايا سرطانية تتمرد على شيفرة الأوامر الوراثية لتلك الغدة المسماة ب (النخامية) ، والتي صنفها علماء الطب بأنها من تدير الجسم كاملا ، والتي إن لم تصل أوامرها بصورة طبيعية ، فان بعض الخلايا تتمرد ، وتصنع ما نسمع عنه بالخلايا السرطانية التي تنتشر في الجسم حتى تجهز عليه .

إن ما يحدث في بلدنا الحبيب وما يحل بنا في هذه الأيام هو صنيع أيادي خفية قذرة من بعض المندسين من بني جلدتنا أوصلهم القدر باستخدام طرقهم الالتوائية إلى استلام بعض من المناصب الإدارية الحساسة ، ليتحكموا بها كما تشاء أهوائهم بأمور المواطنين المسالمين الأحرار ، فأساءوا استخدام ما كلفوا به لرعاية شؤون البلاد ، ولم يكونوا هؤلاء على مستوى الحدث والمسؤولية ، فانتشر تبعا لذلك ، ذلك السرطان بالجسد العراقي الذي كشفته أعين النشامى التي لا تنام ، والأيادي الشريفة من أبناء هذا الوطن الشرفاء ، والذي لن يدوم وسيندثر إن شاء الله تعالى .

إن أخطر ما يواجه العالم الإسلامي هو سرطان انعدام الوطنية من بعض أبنائه الوصوليين الأقلاء ،الذين لا يهمهم سوى المحافظة على مصالحهم الخاصة وتحقيق مآربهم ، فترى الواحد منهم يظن بأنه مخلد في وظيفته ، يتحكم بالناس كما يشاء دون وازع ديني أو خلقي أو تأنيب ضمير حي أو حتى أنفة توقف جموح انفلات غريزته التي تحولت إلى بهيمة مشينة ، لا يحد من خطورتها إلا رجوعنا الى الله سبحانه وتعالى وشريعة نبينا محمد ﷺ. أو قانون تحميه قوة فتاكة ، لأن مثل هؤلاء قد توقفت عندهم كل القيم وداسوا عليها بنعالهم بكل جبروت وقسوة ، وهم ما شاء الله يتشدقون ولا يزالون يصرخون ويتحدثون باسم الوطن والوطنية . انه لمن المؤسف جدا أن نرى غياب تلك القيم الأخلاقية الأصيلة عندهم ، فلا قوانين يعترفون بها بل قد يسخروا منها ، وإنهم لا يعترفون منها إلا بتلك الجزئية التي تهم مصالحهم ، فهم يحاولون ويسعون دائما أن يبتعدوا كليا عن كل قانون يضرهم ويحيدون عن تلك التي تمسهم بسوء ، فهم والحالة هذه يجعلون من النظام والقوانين عبارة عن قطعة قماش يفصلونها على مقاسهم . وقديما قالوا (صيد الجمل قامته) في تصوير بليغ للعلاقة الطردية بين مسافة الارتفاع وحجم أضرار السقوط ... وهي المقارنة ما بين أثر انقلاب (خنفسة) ووقوع (فيل) .

لقد خلق الله الكون والخلائق كلها ، مما تراه العين المجردة ومما لا تراه بدقة بالغة ، يعجز أي مخلوق عن وصفها ، وجعل فيه أسرارا قد تقوم القيامة قبل أن نعرفها ، وكل ما عرف عنها لا يكاد أن يكون إبرة في محيط ، كما جعل الله التوازن البيئي في هذه الحياة لحكمة هو يعلمها وذلك لخدمة الإنسان ، ولو تأملنا هذا الكون الواسع لوجدنا أن الله خلق لكل شيء آفة تعتدي عليه ، ولكل شيء من وما يتسلط عليه ، وقد قيل (ما تكسر الحجر إلا أختها)، وقيل أيضا (كل امرئ فيه ما يرمي به)، وأن أي معضلة تحل من نفسها أو بمثلها .

إن الجزاء من جنس العمل وهي سنة من سنن الله في خلقه ، ولهذا اخبرنا ربنا تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية الكريمة أنه يعامل خلقه بجنس عملهم ، إن خيرا فخير وان شرا فشر ، وهذا مظهر من مظاهر العدل الإلهي في الدنيا والآخرة ، فمن أنواع هذا الجزاء الرباني تسليط الظالمين بعضهم على بعض كما قال سبحانه وتعالى في سورة الأنعام { وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون } . (٦) .

وكما أن الحديد يتآكل من المبرد الذي صنع من نفس مادته المعدنية ، والذي كان ومازال يعد في ثقافتنا العامة ، رمزا للقوة والصلابة والبأس الشديد ، وأنه لا يهزم أو يصرع إلا من طرف الحديد نفسه ، فكذلك لا يمكن أن تقهر أمة إلا بإخضاعها لقوة أخرى لا تقل عنها صلابة وبأسا،

وكذلك أيضا يحدث مثل هذا مع الإنسان حيث يوجد من بعضهم من يتصف بالقسوة والجبروت وحب الامتلاك والهيمنة والتسلط على الغير من بني جلدته ليأكلوا حقوقهم ويجعلوهم عبيدا لهم ، ويكيدون لهم كيدا ، وهذا مما يؤشر على أن آفة الإنسان من جنسه حيث يسلط الله أعدائهم من الإنس على غيرهم بأساليب مختلقة ، إما يكون ذلك عن طريق زرع الفتنة ،أو بث روح التفرقة ، أو استعداء العالم لتحقيق مطامعهم ، أو بإحداث الانفعالات والضغوطات النفسية والمادية التي تلازم حياتهم والتي أصبحت في أيامنا هذه من أكبر تحديات الحياة لبني البشر ، أو الإصابة بآفة عمر الإنسان التي تشمل حب الدنيا وكراهية الموت وطول الأمل الذي يستنزف العمر كله . وعلينا أن نعلم أنه كما خلقنا الله من طين ، فإننا بالطين نعذب ، وكما خلق الجان من نار فسيعذبه

بالنار ، ولإثبات ذلك ما روي عن الإمام الشافعي رحمه الله ، أنه في يوم من الأيام ، ذهب أحد المجادلين إليه وقال له : كيف يكون إبليس مخلوقا من النار ويعذبه الله بالنار ؟! ففكر الإمام الشافعي قليلا ، ثم أحضر قطعة من الطين الجاف وقذف بها الرجل ، فظهرت على وجهه علامات الألم والغضب .... فقال له حينها ، هل أوجعتك ؟ قال نعم : لقد أوجعتني ، فقال الشافعي : كيف تكون مخلوقا من الطين ويوجعك الطين ؟! فلم يرد الرجل وفهم ما قصده الشافعي ، وأدرك أن الشيطان كذلك ، خلقه الله تعالى من نار ، وسوف يعذبه بالنار.

فهل لو غرق الإنسان بالطين ، أما تتوقع أن يحدث له شيئا ما فيختنق ويموت ؟ وهناك من الحيوانات من تتسلط على غيرها لتصارعها على بقائها ، فالأفاعي والحيات تهاجم الفئران والجرذان وبعض السحالي لتتغذى عليها ، والفئران تتغذى على جذور النباتات ومحاصيل الحبوب ، والقنفذ والورل يتغذى على الحشرات والخنافس والعقارب ، فالقنفذ مثلا يأكل الحية ، ولأن القنفذ قد حماه الله بأشواكه وتكوره ، فمن الصعب أن يأكله أي حيوان آخر ، فتجد أن حكمة الله قد خلق لهذا القنفذ عدوا طائرا يسمى(الحدأة) الذي هو الوحيد الذي يعرف كيف يأكل ذلك القنفذ ، فيمسكه ويرتفع به لأعلى مسافة ، ثم يلقي به للأرض ويتبعه طيرانا ، فما أن يضرب الأرض حتى يموت ، وينفك تكوره ويبدأ بالتهامه . وانظر أيضا إلى عالم المخلوقات من حشرات ونبات وبشر وطبيعة ، فترى حكمة الله في خلقه ، حيث خلق توازنا فيه يفتح المجال لجميعها فرصا متكافئة للحياة ، فكلما تكاثرت حشرة ما وتجاوزت حدود معدل كثرتها ، أوجد الله لها حشرة مضادة عدوا من الطبيعة ، يلتهمها ليعود التوازن إلى البيئة مرة أخرى .

إن الله قد بنى هذا النظام الكوني على أساس تعاون الناس مع بعضهم البعض ، لأن الإنسان مدني بالطبع ، فإذا لم يأمن أفراد المجتمعات الإنسانية بعضهم بعضا ، عندها سيصبح كل منهم يتنكر الآخر ، ويسعى للمكر به لكي ينال منه ، ويحقق ما تشتهيه نفسه ، وما يطيب لها ، فيبادر كل منهم بإضرار ومحاولة إهلاك الآخرين ، ليفوز كل واحد بكيد الآخر قبل أن يقع فيه ، فيقضي ذلك الأمر إلى فساد كبير في العالم ، والله لا يحب الفساد ، ولا يحب أن يضر عبيده إلا حيث تأذن شرائعه بشيء ، ولهذا قيل في المثل (وما ظالم إلا سيبلى بظالم) ،

وقد قيل أيضا (من حفر لأخيه جبا وقع فيه منكبا) . ومن هنا نـقول أن على الإنسان أن يكون بارا ، وفي العهد ، بريء الذمة ، صادق الوعد لا يـغدر ولا يخون ، وأن يبتعد عن كل رذيلة ودنيئة ، ولا سيما المكر والخـداع وإيذاء الناس ، وانتهاك حرماتهم ، وأكل حقوقهم بغير حق . واليكـم هذه الحكاية المعبرة رغم بساطتها، لكنها تحمل في طياتها معان كثيرة فيها الموعظة لمثل هذا النوع من البشر :

وقف رجل بجانب أفعى سامة وقال لها : ما أغدرك . تقتربين من الإنـسان وتلدغينه بهدوء وتبثين السم في جسده ! فنظرت اليه بازدراء وقالـت : اصمتوا يا بني البشر فأنا ألدغ ، ولكن لا ألدغ أفعى مثلي يوما ما ، أمـا أنتم فتلدغون بعضكم بعضا كل يوم ، ما أروعه من موقف أخرسـت من خلاله الأفعى ذلك الرجل ، فما لنا لا نتعظ ....

فالدلالة واضحة تتعدى معناها الحسي لتخاطب السلوك البشري ، وتـهذيب النفس الإنسانية ، وتعطي العبرة لأولئك النوع من الكبار الذين لا يحسـبون لهفواتهم وزلاتهم وأخطائهم ، ولا يدركون عواقب هذه الأخطاء وآثارهـا عليهم وعلى الآخرين من بني جنسهم . وعندما تقاس فداحة الأقوال والأفعال غير السوية بمكانة الإنسان ووضعه الاجتماعي ، أو موقعه الاعـتباري ، أو السياسي ، فالخطأ الذي يرتكبه المسؤول قد يكون مدمرا وكارثيا خاصـة إذا كان المسؤول يتعاطى مع قضايا وطنية ويحتل موقع قرار .

كثيرون من يدركون هذا الأمر ، ويقعون في آفاتها ، ولكن ما يهـمنا هو استنباط الحكمة من كل ذلك والتعقل والحذر الشديد والعمل الـصالح المفيد لبني البشر ، وتحكيم الضمير في سلوكنا وعلاقاتنا مع الغـير ، والوقفة مع الذات بين الفترة والأخرى ، تجنبا من تأثير تلك الآفات والوقـوع بها . كم هو جميل أن نعطي الغير اهتمامنا ، ونحذر جميعا من تلك الآفـات التي تفتك بنا وتقطع شريان حياتنا ، لأننا نحن من سنحصد نتائج ما نـزرع ، ونحن من نود أن تكون النتيجة بمقدار أمانينا ، ولنعلم بأن آفة الضـمير هي من أقبح الآفات وأشدها خطرا فمنها تضيع القيم الأصيلة النـبيلة التي

تكون سببا في انتشار الفساد في العالم أجمع ،وتضيع في حـــضورها روح المحبة وروعة إنسانية الإنسان ، فلنحب بعضنا بعضا ، لأن في الحب يحصل ضياع وغياب كامل لما يسمى ب (الآفة) القاتلة ،وهكذا يبقى ويستمر الحب الذي يخلو من أي آفة ، بل بمثل هذا الحب تستمر حياة البشر .

وكما قال الشاعر : كشاجم :

ويأبي الذي في القلب إلا تبيـــنا   وكل إناء بالـــــذي فيه ينضح

فلا تنضح في الخفاء ، فما تخفيه من لؤم وحقد ، وما تحمله من فيروسات مؤذية ، لا بد أن يكشفها الله ولو بعد حين ، سواء كان بالأقوال أو الأفعال أومن فلتات الكلام أو زلات اللسان التي تعتبر من الآفات المدمرة لـــحياة الإنسان .

وكما قال الإمام الشافعي :

وما المرء إلا حيث يجعل نفـــسه   ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل

ما أجمل أن يرتب المرء نفسه ، ويجند حياته لعمل الخير ، فلا حاجة للمرء أن ينحني لما يصيبه من نكبات الدهر ويذل لغيره ، حتى لا يكون مطية يســـهل ركوبها ، فان جعل نفسه كالدودة على الأرض ستدوسه الأقدام ، فليكن الإنسان قويا يتحدى كل الآفات التي تحيط به .

وكما قال : عنتر بن شداد :

إن الأفاعي وان لانت ملامســـها   عند الــــتقلب في أنيابها العطب

فلا يكن الإنسان منا كالثعبان الذي يتصيد لغيره ، فيبث ســـمومه القاتلة لتصل عبر الشرايين إلى قلبه ، مما يجعله يعانق فراش الموت ، فليحرص كل منا من هذه النوعية من الناس الذين يرمون بسهامهم كل من يقف أمامهـــم في زرع

العدالة الحقة في أوساط مجتمعاتنا ، لأنهم هم الآفة التي تقلب المـــــوازين ، فتحول الأفراح إلى أحزان ... إنهم هم الذين من يكون ظاهرهم فيه الرحـــمة ، وباطنهم من قبله العذاب ، فما أكثر ما تظهر حلاوة لسان الإنسان التي تخفي ما يكنه قلبه من خبث باطني مسموم . وما أكثر ما يخفي جمال المنــظر من قبح المخبر ، بل ومن فقدان طيب الأصل والجوهر .

فلا تعتز بقوتك يا ابن آدم مهما وصلت من جاه وسلطان ، فهناك دائما من يكون أقوى منك ويتغلب عليك ، ولا يقطع الألماس إلا الألماس ، ولا يفل الـــحديد إلا الحديد ، واعلم أنه عندما تؤول أمور الناس لمثل هؤلاء وهم في مــكان القرار ، فان الوضع سيكون مأساويا بكل ما للكلمة من معنى . فاعتبروا يا أولي الألباب

المراجع: للباب الثامن : الفصل الثالث :

---

(١) (سورة البقرة ، آية : ٢٦٩)
(٢) (سورة البلد ، آية : ٤)
(٣) (سورة البقرة ، آية : ٢٥١)
(٤) (سورة الأنعام ، آية : ١١٢)
(٥) (الصيرورة : هو مفهوم فلسفي يتعلق في علم الفلسفة بالمفاهيم الوجودية، وهي مختلفة عن الفلسفة العملية عموماً، كما أن مفهومها مختلف عن الصيرورة في الدراسات ذات الصــلة بعلم اللاهوت. فمفهوم الصيرورة في علم الفلسفة مرتبط باتجاهين اخرين هما: تعاقـــــب الأحداث والنشوء. وأنها نهج أو حالة تعبر عن وجود الحدث والاتجاه حول الوقت والمسافة.
(٦) (سورة الأنعام ، آية : ١٢٩)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الباب الأخير :

انتباه للعاقلين : أفلا تعقلون

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله معز من أطاعه ومذل من عصاه، الحمد لله الذي خـــلق الكون ومن عليه بالحكمة ابتداء وبالقدرة اعتلاء، وبالعمل ابتلاء، وبالعطاء فضلا ونعمة ومنة. نحمده حمد الشاكرين له، المنقادين لحكمه، المتمثلين لأوامره المنتهين بنواهيه. ونشهد أن لا إله في الأرض ولا في السماء إلا هو. ونصـــلي ونسلم على من بعثه الله بالحق بشيرا ونذيرا، وهاديا إلى الله بإذنه وسراجا منـــــيرا. صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَـــى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِـــلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } (١) .

اتلوا تلك الآية القرآنية الكريمة، ورددوا تلاوتها فلسوف تبصركم بحقيقـــتكم وحقيقة وجهدكم على هذا الكوكب الكوني، وإن سر الخلق والإبداع يكـــمن في حقيقة الخالق الواحد، وإن سر هذه الحقيقة قائلة للخلق أجمعين، إنكم عباد الله وعبيده فاتقوه وحده. عباد الله ما أحوجنا نحن المسلمين في هذه الحقــــــبة الزمنية من تاريخ العصر الحديث. بل ما أحوج إنسان هذا العصر من أي جنس ولون. ما أحوج خلق الله جميعهم إلى منهج الله الذي ارتضاه للــــــناس، ما أحوجهم إلى عقيدة الإسلام وتطبيقها في حياتهم حكما وسلوكا ومظهرا.
ما أحوجهم إلى الرجوع إلى الله وإلى سنة نبي الله محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. ما أحوجكم وقد استفحل شيوع الإلحاد في العالم الإسلامي، فانقلب كل فرد، بل كل مجتمع على عقبه خسر الدنيا والآخرة.

في صحيح مسلم يقول ربنا سبحانه في الحديث القدسي: {إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا}.(٢) .

أحد المشركين سمع النبي ﷺ يقرأ في صلاة المغرب: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ} (٣) .
فقَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ. فأسلم بعدها، وهو جبير بن مطعم رضي الله عنه.

يا معشر الملاحدة: حدثونا عما يلي:

١- ٦٥٠٠ لتر من الدم يضخها القلب إلى الجسم يوميا..
٢- في حالة الحمل يضخ القلب يومياً ١٥ ألف لتر من الدم..
٣- في دم الإنسان الواحد ٢٥ مليون كرية حمراء ويستهلك الإنسان في الثانية ٢ مليون كرية حمراء.
٤- دقات القلب إلى ألفي مليون دقة في متوسط العمر دون توقـــف ودون أن يحصل القلب على قسط من الراحة
٥- ٤٠٠ مليار خلية في الكبد وتقوم بأكثر من ٥٠ وظيفة..
٦- استهلاك الجسم ٧٥٠٠ مليون خلية في الدقيقة
٧- يوجد بالمعدة ٣٥ مليون غدة لإفراز ما يهضم لنا الطعام
٨- في الرئة ٧٥٠ مليون حويصلة رئوية و يتنفس الإنسان في اليوم الواحد ٢٣ ألف مرة بمعدل يصل علي مدي العمر قرابة ٢٠٤٠ مليون مرة.
٩- في جسم الإنسان من ٣-٤ مليون جهاز يشعره بالألم.
١٠- وفي كل ثانية تتم ٦٦٠ مليون إشارة من الأعضاء الحسية يتلقفها الجهاز العصبي.

{هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} (٤) .

أكل هذا جاء صدفة؟ ...

أخي القارئ :انتبه لهذه المعلومة :

الأرقام التي أعلنت، والتي يتم تداولها الآن حول أعداد الملحدين أو الذين اتفق على تسميتهم بالـ(لا دينيين) أو الـ (لا أدريين) جد مفزع، وتدعو إلى القلق والخشية من انتشار موجات الإلحاد في الأجيال القادمة. فقد صدرت أحـــــدث الاحصائيات والتي تقول بأن فيلق الملحدين بلغ أكثر من مليار ومئة ملـــــيون ملحد حول العالم.

الأرقام تقول بأن الإلحاد أصبح الديانة الثالثة بالعدد في العالم بعد المسيحية والإسلام. وهذا يعني أن واحدا بين كل ٦ أشخاص ملحد لا يؤمن بشيء. وأن أكثر من ٨٤% من سكان العالم هم من أتباع الأديان السماوية، أو مـــــــن المؤمنين باعتقاد ما أو بشيء ما. أما الباقي فلا يؤمنون بشيء على الإطلاق، ومنها اتضح أن سكان الشرق الأوسط هم أكثر شعوب الأرض إيماناً. كـــــما أظهرت الإحصائيات أن ملحدي العالم: باتت الصين موطنهم وفي الشــــــرق الأوسط أقلهم.

كما كشفت الإحصاءات عن وجود ٥٨ مليون نسمة، أي أقل من ١% من سكان العالم، ممن يمكن اعتبارهم . حيارى. في أي دين ينتمون، ومنهم البهائيــــــون والسيخ والزرادشت المجوس و. الويكا. وهي ديانة تأسست في بريطانـــــــــيا بخمسينات القرن الماضي، كما منهم . الجاينيين. المنتشرة اعتقاداتهم في الهند بشكل خاص، وكذلك أتباع . الطاوية. المنتشرين في الصين وما جاورهـــــــا، وأيضا أشباههم من أتباع معتقد . التنريكيو. المستمد فلسفته من امرأة اسمــها ميكي عاشت في القرن ١٩ ويكتبون أنها كانت . تتلقى وحياً من السماء. بحسب ما يزعمون.

يصف الملحدون أنفسهم بأنهم لا دينيين، ولا يؤمنون بأي معتــــــــــقد، أي . عدميين. بلا أي ارتباط مع الماورائيات وعليه يمكن القول بأن الإلحاد مذهب فلسفي يقوم على إنكار وجود الله سبحانه وتعالى، ويذهب إلى أن الكـون بلا خالق،

ويعد أتباع العقلانية هم المؤسسون الحقيقيون للإلحاد الذي ينكر الحياة الآخرة، ويرى - المذهب - أن المادة أزلية أبدية، وأنه لا يوجد شيء اسمه معـــجزات الأنبياء فذلك مما لا يقبله العلم في زعم الملحدين، الذين لا يعترفون أيضاً بأية مفاهيم أخلاقية ولا بقيم الحق والعدل ولا بفكرة الروح. ولذا فإن التاريـــخ عند الملحدين هو صورة للجرائم والحماقات وخيبة الأمل وسرد قصته أمر لا يعني شيئاً، والإنسان مجرد مادة تطبق عليه كافة القوانين الطبيعية.

ويشير غير نفر من الباحثين إلى أن أتباع العلمانية هم المؤسسون الحقـــيقيون للإلحاد، ومن هؤلاء: أتباع الشيوعية والوجودية والداروينية (نـــــسبة إلى داورين في مؤلفه أصل الأنواع). كما يشير الباحثون إلى أن الحركة الصهيونية حين أرادت نشر الإلحاد في الأرض عمدت إلى نشر العلمانية لإفساد أمم الأرض بالإلحاد والمادية المفرطة والانسلاخ من كل الضوابط التشريعية والأخلاقية كي تـهدم هذه الأمم نفسها بنفسها .

ونخلص من ذلك إلى القول :

بأن فكر الملحدين يقوم على إنكار وجود الله سبحانه، الخالق البارئ، المصور، تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. مع النظرة الغائية للكون والمفاهيم الأخلاقية تعيق تقدم العلم. فضلا عن إنكار معجزات الأنبياء لأن تلك المعجزات لا يقبـلـها العلم، كما يزعمون. ومن العجب أن الملحدين الماديين يقبلون معجزات الطفرة الوحيدة التي تقول بها الداروينية ولا سند لها إلا الهوس والخيال. والنـــــظر باعتبار أن الكون والإنسان والحيوان والنبات وجد صدفة وسينتهي كما بدأ ولا توجد حياة بعد الموت. وإن المادة أزلية أبدية وهي الخالق والمخلوق في نفس الوقت. مع عدم الاعتراف بالمفاهيم الأخلاقية ولا بالحق والعدل ولا بالأهـــداف السامية، ولا بالروح والجمال. والمعرفة الدينية تختلف اختلافاً جذريًّا وكليًّا عن المعرفة بمعناها العقلي أو العلمي، ناهيك عن أن الإنسان مادة تنطبق عليـــــه قوانين الطبيعة التي اكتشفتها العلوم كما تنطبق على غيره من الأشياء المادية. كما أن الحاجات هي التي تحدد الأفكار، وليست الأفكار هي التي تحدد الحاجات. وأخيرا فإن الملاحدة ينظرون للتاريخ باعتباره صورة للجرائم والحماقة وخيبة الأمل وقصته لا تعني شيئاً،

وقد ساهم في نشأة الإلحاد الحديث نظريات ومذاهب وأفكار العقلانية والشيوعية والوجودية. وقد كانت أوروبا مرتعا خصبا لنشأة الإلحاد بمعناه المعروف الآن. ثم انتقل بعد ذلك إلى أمريكا ومن بعد انتشر إلى بقاع الأرض، لتحتل الصين القائمة في أعداد الملحدين وسرعة انتشار الإلحاد على أراضيها .

وأيضاً نقطة مهمة أقولها :

ظهرت فكرة العلمانية التي بدأت بضرورة منع تدخل الدين في السياسة وشؤون الحكم، وقصره على المعاملات الخاصة فقط، وبدأ الناس ينصرفون عن الدين شيئا فشيئا مع دخول الثورة الصناعية وتكشف كثير من المعارف والعلوم، وانزوى سلطان الكنيسة على عتبات أبوابها.

ثم بدأت العلمانية في الانتشار والرواج بين أوساط الأوروبيين، وانتقلت عدواها إلى المستعمرات التابعة لها، وصارت هناك تربة خصبة مواتية لظهور أفكار أشد تطرفا من العلمانية الأولى، وظهرت لأول مرة الأفكار الإلحادية ممزوجة بصبغة البحث العلمي والنظري، فظهرت أفكار نيتشه وإنجلز، ثم ظهرت المذاهب الاقتصادية الإلحادية وخاصة الشيوعية التي بشر بها كارل ماركس وعلى الرغم من أن هذا المذهب ينطلق من منطلق اقتصادي ويستهدف معالجة المظالم الرأسمالية الفردية، إلا أن القائمين على هذا المذهب الاقتصادي صبغوه بالصبغة العقائدية وأعطوه أبعاداً أخرى غير اقتصادية فزعموا أن الحياة التي يعيشها الناس حياة مادية فقط وأنه لا يوجد روح ولا بعث ولا إله، وأن ظهور الأديان إنما كان من فعل الأغنياء ليدلسوا على الفقراء ويستغلوهم، وبهذا أصبح هذا المذهب الاقتصادي بفلسفته التي أطلقها على الأديان موجة جديدة من موجات الإلحاد والزندقة.

يطالب العلمانيين بحرية التهجم على الدين، وفصل الدين عن الدولة، ورفض تطبيق الشريعة، وحماية الروايات الجنسية بحجة الإبداع الأدبي، وتقليد الغرب في بعض عقائده وعاداته واحتفالاته... أدت إلى فتن عقائدية واجتماعية وإلى إشغال الشعوب بقضايا محسومة، ومن المعروف أن الاختلاف العقائدي هو أكثر

الأنواع تدميرًا للوحدة الشعبية، وأكثرها زرعًا للكراهية والتنافر، وتم استغلال هذه الاختلافات مِنْ بعض مَنْ فسدت ضمائرهم وأخلاقهم، فزادوا في انحرافاتهم واعتداءاتهم على مصالح الوطن والأمة .

أما العلمانيون العرب الحقيقيون قلة قليلة وضعيفة جدًّا:

ولكنهم نجحوا في الهدم وإثارة الشبهات، والتشويش على أبصار وعقول فئات أخرى نتيجة جهل الشعوب، وضعف وعيهم واتصالاتهم، فإذا كنا كمسلمين عرفنا بفضل الله سبحانه وتعالى الحق من الباطل، والهداية من الضلال في القضايا العقائدية والتشريعية، فإن العلمانيين يريدون أن نقف ونفكر ونتساءل: أين الحق؟ وأين الباطل؟ وما هي الحرية؟ وما هو العدل؟ وهذا بحد ذاته فتنة ناهيك عن إضاعة الجهد والوقت .

ما الأهداف والخطط الدعوية للقضاء على فتنة العلمانية واسترداد الواقع الشرعي؟

دور العلماء الربانيين العاملين الذين يحملون همَّ الدين، هم أمل هذه الأمة فدورهم هو سد الثغور، والتوغل في ساحة الجهاد بالعلم والعمل، وتوعية الناس والأخذ بأيديهم.

أولًا: تعزيز مركزية الله في قلوب الناس، وتعظيم شرعه في قلوب المسلمين، والتذكير بأن الله عز وجل اصطفى للناس جميعًا دينًا كاملًا تامًّا، وأتم به نعمته على عباده، وجعله الدين الخاتم، وجعل رسالته الرسالة الخاتمة .

ثانيًا: التذكير والتكرار أن الله اصطفى لهم القرآن كتابًا هو آية أنه كتاب الله لا كتاب من بشر، بما فيه من وجوه إعجاز تجعل أولي الألباب يؤمنون بأنه تنزيل العزيز الحميد، وجعله هو الكتاب الرباني الخاتم .

ثالثًا: التذكير أن الله اصطفى من الناس لتلقي الوحي بهذا الدين الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ من عرب قريش، الذين هم من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما

السلام، واصطفى الله عز وجل لرسوله محمد ﷺ جمهورًا من الصادقـــــين المجاهدين، الذين آمنوا واتبعوه بعضهم من قومه، وبعضهم من غـير قومه، فكانوا أصحابه وأنصاره فحملوا رسالته عاملين بها، داعين إليها، وناشرين لها، ومجاهدين في سبيل الله حق جهاده، وحافظين لكتابه وسنة رســـولـه ﷺ .

رابعًا: إنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، فلا بـــد من الاستنان برسول الله في: إحياء الهوية الإسلامية؛ بتجريدها وقيامهـا على التوحيد الخالص، ومنع الافتراق الديني والدنيوي، وذلك بإحياء الـــهوية الإسلامية في قلوب أبناء هذه الأمة، بتقوية الشعور الديني، والانتـــماء للإسلام، واستخراج هذه الهوية من اللاشعور .

خامسًا: المحافظة على قوة الشعور الديني مع قوة التأصيل الشرعي، وقوة البصيرة الدينية، لرفض العلمانية اللادينية، والقومية، والتبعية لمعسكرات الشرك الدولية، وأي التباسات أخرى تطرأ على مفهوم الإسلام .

سادسًا: القضاء على ظاهرة الشرك في الحكم والـولاء والنسـك، وإخراج من أراد الله له النجاة من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، لتتحقق له النجاة الأخروية من الخلود في النار؛ (سُئل رسول الله: ما الموجـبتان؟ فقال: من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا دخل النار) .

سابعاً: الهوية الإسلامية التي تميز المسلم هي الانتماء إلى الله ورســـوله، وإلى دين الإسلام، وعقيدة التوحيد، فبها يعتز المسلم، وفيها يوالي، وفيـــها يعادي ويحب ويكره، وهي منهج المسلم الذي يتابع فيه سنن من تقدمه مـن النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، ويسأل الله الهداية والثبات علـيه في دعائه في الصلاة؛ حيث يقول: { اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِيـنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } (٥)، وأهمية هذه الهوية في حياة المسلم مثل أهمية الدين في حياته، وتنكر الـــمسلم لها خطير على معتقده ودينه .

نصيحة: لا تدخلوا إلى مواقع الملحدين

هل تعلم عزيزي القارئ أنك عندما تتصفح موقع للملحدين تخالف أمر الله تعالى؟ دعونا نقرأ ونتأمل ما يجب فعله في هذا العصر ....

كثير من القراء يحاولون تصفح مواقع مخصصة لمهاجمة الإسلام والاستهزاء بنبي الرحمة عليه الصلاة والسلام، وتردني باستمرار أسئلة عن بعض الشبهات التي يثيرها الملحدون وكيفية الرد عليها....

وبعد سنوات من البحث تبين أن معظم الذين يتصفحون مثل هذه المواقع ليس لديهم خلفية إيمانية قوية، فتجد بعضهم يتأثر والبعض يشك والبعض يلحد للأسف... وسبب ذلك عدم تمكنهم من علوم القرآن والسؤال:

ما موقف القرآن من هذه المواقع الإلحادية، وهل يجوز تصفحها ومناقشة القائمين عليها، وهل يعتبر هذا العمل من أعمال الدعوة إلى الله تعالى؟

لنتأمل هذه الآية العظيمة التي تلخص لنا ما نريد قوله بكلمات قليلة وبليغة:

{ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}(٦)
في هذه الآية أمر من الله تعالى لكل مؤمن عندما يرى أو يسمع أحداً يشكك في آيات الله أن يعرض عنهم، قال تعالى: (فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ).

وبناء على ذلك فلا يجوز للمسلم أن يخوض في مثل هذه المواقع الإلحادية أو أي موقع يعادي الإسلام... هذا الأمر الإلهي تكرر في آية أخرى في قوله تعالى:
{ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا } (٧) .

وهنا يأمرنا ليس بمجرد الإعراض بل بمغادرة الموقف نهائياً:
{ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ}، وهذه الآية تشدد على أن كل من يقرأ أو يسمع أو يطلع على استهزاء الملحدين بآيات الله تعالى فهو إذاً مثلهم والعياذ بالله . قال تعالى: { إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ}... وأن كل من يقعد أو يستمع لأمثال هؤلاء الملحدين والمشككين هو منافق سيجمعه الله معهم في نار جهنم يوم القيامة: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}. (٨) .

ولكن متى يجوز الاستماع إلى حجج الملحدين والمشككين؟
هناك حالة واحدة يمكن للمؤمن أن يستمع ويناقش أفكار الملحدين وهي الدعوة إلى الله تعالى، أي دعوتهم إلى طريق الله والإسلام. ولكن من شروط الدعوة إلى الله أن تكون على علم بالقرآن والسنة والحقائق العلمية، وإلا سوف تَضل وتُضل من دون علم وسوف تسيء للإسلام بدلاً من أن تنفعه .

إن رواج المواقع الإلحادية يعتمد على عدد القراء أو الزوار الذين يتصفحون هذه المواقع، وعندما نعرض ونبتعد عن مثل هذه المواقع فإنها ستموت موتاً بطيئاً وينتهي أثرها وبالتالي فإنك عندما تكتشف موقعاً يهاجم الإسلام وتتركه وتعرض عنه فإنك بذلك تستجيب لنداء الله تعالى: { فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}..
وهذا الإعراض هو عمل تتقرب به إلى الله تعالى...

لأنك سوف تستغل وقتك في شيء مفيد من خلال الاستماع إلى القرآن، تدبر القرآن، زيادة الاطلاع على الحقائق العلمية... أما إذا جلست تتصفح مواقع الإلحاد فإنك بذلك تضيع وقتك وتشوش تفكيرك.. وبالنتيجة لن تحصد إلا السراب والوهم... لأن الإلحاد مجرد وهم لا أكثر!

وأود أن أقول لك عزيزي القارئ إن الوقت هو نعمة من الله تعالى، وكل ثانية تمر محسوبة عليك وهي جزء من عمرك.. فلا تضيع أي ثانية من عمرك في غير ذكر الله والدعوة إلى الله وإقناع المشككين.. ولكن أولاً اطلع وأحفظ القرآن كاملاً واطلع على السنة المطهرة.. وبنفس الوقت اطلع على حقائق العلم الحديث.. وبعد ذلك ستكون داعية إلى الله تعالى الذي قال: {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (٩) ..

وخلاصة القول:

لا تدخلوا إلى مواقع الملحدين، وإذا أردتم ذلك فاحفظوا القرآن الذي هو كلام الله تعالى، وتعمقوا في حقائق العلم اليقينية.. وبعد ذلك يمكنك الحوار والمناقشة ولكن بالتي هي أحسن كما أمرنا الله تعالى... ولا تضيعوا وقتكم لأن هذا ما يريده الملحدون منكم... وهذا دعاء ننصح بتكراره لكل من يجد في نفسه شيئاً من الشك أو ضعفاً في إيمانه أن يقول كما علمنا الله تعالى: {رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (١٠).

كيف ترد على شبهات الملحدين

يقتات الملحدون في وسائل التواصل الاجتماعي على طرح الشبهات حول الإسلام أو القرآن أو النبي ﷺ، ولا يناقشون أو يطرحون وجهة نظرهم المتعلقة بالإلحاد، وذلك لأن موقفهم ضعيف جدا. فليس أمامهم إلا أن يهاجموا ويلبسوا على المسلم ليبقى المسلم في موقف دفاعي دائم!

المطاردة والاستجابة

في بعض الأحيان نجد أن المشكلة لا تكمن في الملاحدة، فهم أهل جحود وكبر على أية حال، وإنما المشكلة في بعض الأفاضل ممن يتوهم أنه كلما جاءه ملحد بسؤال: ما تأويل هذه، وما تأويل تلك، فإنه يتعين عليه أن يجد له الجواب المفصل على نحو ما يريد هذا الملحد، وإلا كان الإشكال.

ويجب إدراك أمر مهم، هو أن الإيمان بالخالق وبنسبة رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إليه ليس مشروطا عند العقلاء بمعرفة جواب كل شاردة وواردة ترميها الشياطين في خواطر الناس بشأن أفعال الله جل وعلا. فهذا جهل لا يضر، لأن العلم بتلك التفاصيل ليس واجبا في العقل ولا شرطا لازما للتسليم بالقواطع العقلية التي يجحدونها جملة واحدة.

بل ليس لازما للتسليم بشيء مما أخبرنا به الرب من صفاته سبحانه وتعالى. هذا أمر يعلمونه تمام العلم.

ولو جئناهم بعشرات التأويلات والتفسيرات والتعليلات والأجوبة فلن يكتفوا، لأن الغاية عندهم ليست تحصيل المعرفة بالأساس، وإنما البقاء على الإلحاد والتذرع له بكل ذريعة، ولهذا لزمهم تعليق الإيمان بالحق على شرط معرفي باطل لا يشترطه عاقل .

والملاحدة يتواصون دائما باستخدام أسلوب الهجوم والإغراق بالشبـــــهات والأسئلة، وهذه عينة من إحدى الوصايا بينهم:

فهم لا يناقشون موضوع الإلحاد أصلا، بل إنهم أقل الناس مناقـــــــشة لهذا الموضوع، وإنما هم في الحقيقة يتحدثون عن الإسلام أكثر مما يتحدثون عن عقيدتهم (الإلحاد).

وهذا أسلوب بائس يدل في حد ذاته على ضعف الطرح الإلحادي، فعندما يطرح الملحد مثلا شبهة (خلق الشر)، فإن طرح هذه الشبهة أصلا يفــترض أن هناك خالق وأن هذا الخالق قد خلق الشر. وعندما يطرح شبهة حول نصوص القرآن فإن الهدف من هذا هو التشكيك بأن القرآن وحي من الله، ولننظر إلى النــتيجة على افتراض أن هذا هدفه: هل لإثبات عدم صحة القرآن أية علاقة بوجـــــود الخالق؟

فالملحد عموما ليس لديه أي طرح إلحادي، فكيف يكون الرد عليه؟

لا تشغل نفسك أبدا بالرد على شبهته، لأنك إن رددت عليه فسوف يعطيك شبهة أخرى.. ثم أخرى.. وهكذا، حتى يستهلك جهدك، أو يأتيك بشبهة يصــعب عليك ردها. لا ترد على شبهته إلا عند الضرورة، وعندما ترى أن الرد مهم جدا.

بماذا ترد عليه؟

عندما يطرح الملحد شبهته أو تعليقه طالع في نبذة الحساب عنده لتتعرف على توجهه بشكل أفضل، ثم استئذنه بطرح بعض الأسئلة فقط إن كان لا ينزعج من الأسئلة، وسأخبرك لاحقا لماذا يجب أن تستأذنه.. فإذا وافق بادره بالســـــؤال التالي:

هل أنت ملحد أم لا أدري؟

هذا السؤال هو الذي يخص الإلحاد وليس طرح الشبهات والرد علـــــــــيها.

إن رفض الإجابة فإن لديه إشكاليات قوية ونقاط ضعف يخشى من نقاشـــــها، ويمكنك حصاره وملاحقته في النقاش حتى يجيب.

فإن أجاب بأنه (ملحد)، فهو هنا قد وضع نفسه في موقف بائس، وهو أضعف موقف يمكن أن يضع الملحد نفسه به. بادره فورا بسؤال مثل:

أنت إذن تقول إنه لا يوجد خالق؟ (ملاحظة: الخالق هو الله، لكن دائما ناقشه باستخدام لفظة (الخالق) وليس (الله)، لأنك إذا استخدمت لفظ الجلالة (الله) فإنك تعطيه مخارج يهرب منها في النقاش، كصفات الله.. الخ.)
فإذا أجابك بنعم، أو قال أرجح ذلك، فقد وقع في مشكلة منطقية كبيرة. إذ أنه يتحمل عبء الدليل على هذا الادعاء.. فيمكنك حينئذ أن تسأله بسؤال كـــهذا:

هل لديك دليل على عدم وجود الخالق أم أنك تؤمن بذلك بلا دليل؟

الملحد المتمرس في النقاش سيهرب أصلا إلى ادعاء أنه لا أدري، فيجعل نفسه بلا موقف لكي لا يلزم نفسه بأي إثبات أو نفي.. ولكن يكفي من هذا أنه لا يمكنه أن يدعي أي شيء، فما عليه سوى الاستماع وطرح الأسئلة. وهنا يمكـــــــــنك مراجعة تغريداته وستجد فيها عادة ما يدل على إلحاده التام.. ويمكنك حيـــــنئذ كشف تناقضه..

ولكن عموما ما دام وصل إلى اعترافه بأنه ملحد فسوف يجيب على سؤالك بقوله: إنه يرى عدم وجود خالق لأنه لا يوجد دليل على وجود الخــــــالق..

وهذا هو المطب المنطقي، لأن هذه مغالطة منطقية شهيرة اسمها مغالطـــــــة الاحتكام إلى الجهل fallacy of ignorance، وملخصها هو أن الاحتـــجاج بعدم وجود دليل لا يصح. بمعنى آخر: إن عدم وجود الدليل لا يعتبر دليلا على العدم. فإذا قلت مثلا إنه ليس لديك دليل على وجود شخص خلف الجـــدار فلا

يصح أبدا أن تدعي بناء على ذلك أنه لا يوجد شخص خلف ذلك الجدار. ولو كان هذا الأسلوب في الاستدلال صحيحا فإن هذا يعني أن القارة الأمريكية لم تكن موجودة قبل ألف عام، لأنه لا أحد لديه دليل على وجودها في ذلك الوقت..

وبهذا تكون قد أسقطت دعواه بعدم وجود الخالق تماما عن طريق إثبات المغالطة المنطقية التي قامت عليها دعواه.

طيب لنفترض أنه لا يعتبر نفسه ملحدا وإنما أجاب على السؤال الأول بأنه لا أدري.. فكيف تتعامل معه؟

هنا تسأله ببساطة:

ما نسبة احتمال وجود خالق وما نسبة احتمال عدم وجوده؟

فإذا قال ٥٠% و ٥٠%، فهذا يعني أنه ليس لديه موقف من ناحية وجود الخالق، ولك أن تلزمه بعدم الاعتراض على وجود الخالق لأنه ليس لديه موقف، وأن الاعتراض يجب أن ينطلق من موقف يتضمن معارضة الآخر المخالف.. فعليه أن يحزم أمتعته ويذهب ليقرر له موقفا واضحا من وجود الخالق وحينها يمكنه أن يعترض أو يوافق. وجواب الـ (٥٠-٥٠) يأتي غالبا من الملاحدة واللاأدريين المتمرسين في النقاش والمطلعين على المغالطات المنطقية.. وإن شئت فإنك تستطيع أن تطالبه بدليل ال ٥٠% التي بنى عليها وجود الخالق، وتدخله في متاهات منطقية، لأن دليل الإثبات لا يتجزأ، إما أن يكون دليلا أو لا قيمة له.

ولكن في الغالب ستجد أن من يناقشك من الملحدين أو اللاأدريين العرب هم من الشباب الغر المغرور الذي ليس لديه أي عمق في النقاش، وإنما هو يردد تلك الشبهات كالببغاء، ويعتقد أن الناس جهال لا يفقهون. وستجد أنه يعطيك رقما يفيد ميله إلى ترجيح عدم وجود الخالق، ويتراوح هذا الرقم من ٥١% إلى ٩٩%.. وبعضهم لشدة جهله تجده يعطيك احتمالا لعدم وجود الخالق هو ٩٩.٩٩%، وهو بترجيح عدم وجود الخالق يحاول أن يبرر لنفسه الهجوم على الإسلام، ولا يعلم أنه وقع في المغالطة، وأن عليه عبء الدليل لإثبات دعواه.

فإذا اتضح أنه يميل بأية درجة إلى ترجيح عدم وجود الخالق، هنا يمـــــكنك أن تتبع معه نفس الأسلوب مع الملحد، كل ما عليك هو أن تطالبه أن يخبرك بسبب هذا الترجيح.. لابد أن هناك دليلا أو مبررا منطقيا لهذا الترجيح.. فإن عجز عن الإتيان به فمعنى هذا أنه يرجح بناء على هواه ورغبته الشخصية وليـــس على أساس منطقي أو عقلي.. وهذه ضربة قوية تهدم طرحه كاملا، وتكشف أنه ملحد نفسي.

ستلاحظ عند المناطق المحرجة في النقاش أنه سيتذمر ويطرح شبهات خارجة عن الموضوع، وقد يطالب بطرح الأسئلة مثلك، أو يتهمك بأنك تحـــــقق معه.. ولهذا قلت إن الاستئذان منه ضروري في البداية.. حتى لا يكون لديه مــــجال للهروب من النقاش.

ستجد مثلا أنه سيطالبك بإثبات وجود الخالق، هنا لا تتجاوب معه، وقل إنــك لم تدّع وجود الخالق حتى الآن، وإنما هو الذي ادعى عدم وجود الخالق فـــــعليه عبء الإثبات.. وعندما يحين الوقت مثلا، أو تحتاج إلى إثبات وجود الخالق فإن هذا الموضوع ، وأيضا هذا الموضوع قويان ومفيدان جدا.

طريقة أخرى لنقاش الملحد

قد يسلك الملحد أسلوب الهجوم، ويطرح عليك هذا السؤال: هل من دليل عــلى وجود الله؟
فتسأله إي دليل تبحث عنه؟
فيرد عليك: أُريد رؤيته..
فترد: ماذا لو رأيته؟
فيقول: سأسلم وأؤمن بوجوده.
وهنا يكون التساؤل منك: كيف ستعرف أنه إله؟
هو إذن أقر بإجابته بإمكانية وجود الإله وإمكانية التعرف عليه، فالمشكلة ليست في استحالة وجوده وإنما في رؤيته.
وكأنه بهذا النقاش يقول صراحة: ليس لدي مانع من الإيمان بوجود إله ولكني أريد أن أراه.

هنا تكون أسقطت إنكاره لوجود الإله، ويمكنك بعدها أن تستطرد معه في سؤالك: لو رأيته فكيف تعرف أنه إله.. وسترى كيف يسقط في يده ويحتار.. فالله سبحانه ليس كمثله شيء.

وقد يبدأ الملحد النقاش بسؤاله مثلا: أثبت أنت أن إلهك على العرش في السماء؟ من خلال قوله هذا فهو مؤمن بالله وهو لا يدري.. فكيف يكون ذلك؟

قل له: بما أنك تريد إثباته بتصور محدد فهذا يعني أن مشكلتك في تصوره لا في وجوده، وهذا جيد..

والإلحاد هو (لا إله) ، أي لا وجود لله، وليس لا صفات لله. فرفض الصفات هو إيمان مسبق بالإله.

يمكنك أيضا أن تسأله: ما قولك لو أخبرك شخص ما أنه هو إلهك الذي خلق الكون؟

سيخبرك أنه لن يصدقه، ولو سألته لماذا؟ سيقول إن الإنسان لا يستطيع فعل ذلك.

فهو الآن قام بحصر نفسه من حيث لا يدري.

فكونه رفض ذلك الشخص لأنه لا يستطيع يدل على أن استبدال ذلك الشخص العاجز بإله قادر على كل شيء سيكون معقولاً مقبولاً.

ماذا إن كان ربوبيا؟

الربوبي هو الذي يؤمن بوجود الخالق لكنه لا يؤمن بالأديان ولا بالأنبياء، وهو من أغبى خلق الله، حيث يمكنك بسهولة أن تهدم عقيدته. فهو شديد الحيرة في الرد على الأسئلة، ولهذا تجد أكثرهم يدعي أنه لا يهتم بمعرفة شيء عن الخالق لكي يريح نفسه من الرد على الأسئلة المحرجة.

وتكمن الصعوبة في النقاش مع الربوبي في أن لكل ربوبي اعتقاداته الخاصة التي يؤلفها من رأسه، والسبب هو عدم وجود إجابات لديهم على الأسئلة الحاسمة.. اسأله مثلا:

ما هي صفات الخالق؟

فإذا أعطاك أي صفة من الصفات طالبه بالأدلة عليها، وخصوصا الصفات الغيبية.

ويمكنك أن تطرح عليه أسئلة محرجة جدا ولا يوجد لها إجابة إلا عند المسلمين، مثل سؤال وجود الشر، وهل هناك آخرة أم لا؟ وإذا لم تكن هناك آخـرة وعقاب وثواب فكيف تتحقق صفة العدل عند الرب والعدل غير متحـقق في هذه الدنيا.. الخ. أما إذا كان لا يعرف أي صفات عن الخالق فهو يؤمن بمجهول، وهذا يكفي لإسقاط إيمانه. فمفتاح النقاش مع الربوبي هو إقراره بالغيبيات من دون مصادر، أو جهله بما لا يسعه الجهل به منها.

ويمكنك أيضا أن تنطلق من أسئلة مثل:

هل الربوبية تقوم على وجود الخالق ومعرفته أم يمكن أن تقوم عـلى وجوده والجهل به؟ (الإيمان بوجود مجهول)

هل يكفي العقل لمعرفة الخالق وصفاته والغيبيات الأخرى أم يلزم الوحـي؟ (إذا كان الوحي ضروريا فهو موجود حتما فمتنع إنكاره ويجب إيجاده وتـحديده، ويلزم أن تكون معايير الاستبعاد في تحديد الوحي الصحيح منطقية. أما إذا ادعى عدم وجود وحي فإن وجود العقل الباحث عن الغيبيات دون توفيرها ينـاقض اتصاف الخالق بالحكمة وينسب إليه العبث وهذا ممتنع).

لماذا خلقنا؟ (هنا سيشعر الربوبي بالإشكال، فإذا كان الخلق من أجل الـعبادة أو الإيمان فسوف يسقط أي افتراض لاحق للربوبي أن الخالق قد غرس معـرفة صفاته في قلب كل مؤمن، وسيقع الربوبي في إشكالية أخرى هي عـبادة إله مجهول، أما إن كان الجواب هو عدم وجود أي هدف من الخلق أو عدم إمكانية الجواب فهذا قول بالعبث في الخلق، وهو يناقض حكمة الخالق أيضا).

ويجب أن نؤكد على السؤال المهم: هل يتفق مع حكمة الخالق أن يهبنا عـقلا ليس لديه عن الخالق سوى الأسئلة ثم لا يعطينا مصدرا يخبرنا عن تلك الصفات؟ (لقد خلقَنا الخالق بكل احتياجاتنا ثم وفرها لنا من هواء وماء وطعـام وأمن ولباس.. الخ، فمن المنطقي عندما خلق لنا عقولا تسأل أن يوفر لها الإجابة من خلال الوحي، ومن هنا يأتي التكامل: العقل يدرك وجود الخالق والوحـي يعرفنا به وبالحساب وبالغاية من خلقنا.. هنا تظهر أهمية الدين).

ماذا بعد الموت؟ (يمكن النقاش هنا بنفس طريقة السؤال الســـــابق، مع إثارة مسألة العدل الإلهي ومعضلة الشر كما أشرنا سابقا)

قد يتذرع الربوبي بأهمية الشك، وهذه إشكالية لديهم، فإذا كان الشــــك محمودا لديهم فما نقيضه؟ إنه اليقين.. وبالتالي فإن النتيجة هي أن اليقين مذموم.. وهذا انتكاس في العقل والفطرة.

عندما تحيرك شبهة :

قد يطرح الملحد أو اللاأدري أو الربوبي شبهة لم يسبق لك أن عـــرفتها.. وكل شبهاتهم تقوم على المغالطات والتدليس.. فإذا احترت في شبهة فما عليك إلا أن تفتح محرك البحث Google وتبحث عن الردود عليها، فهناك ردود عديدة على جميع الشبهات تقريبا، وهي ردود تكشف المغالطات والتدليس في تلك الشبهات.. اكتب كلمة (شبهة) ثم بعدها وصف الشبهة..

إذا سب أو شتم:

غالب بضاعة الملاحدة والربوبيين هي السب والشتائم والســـخرية بالله ودينه ونبيه وكتابه.. فإذا لاحظت أن المناقش قد يمارس هذه العادة البــــذيئة أثناء النقاش نبهه في البداية إلى أن يناقش باحترام، أما إذا لاحظت أنه بدأ بالسخرية والسباب، فلا أنصحك أبدا بمواصلة النقاش، وإنما كل ما عليك هو حظره.. وهو في الغالب يلجأ لذلك عندما يتورط، وهو يعلم أنك ستنهي النقاش وتحظره، وذلك أفضل عنده من انكشاف جهله.

أخي القارئ : إليك نقطة بغاية الأهمية : وانتبه لهذه المعلومة :وهي
رد القرآن و العلم على المُلحد ستيفن هوكينغ في نفي الروح والخالق :

الملحد ستيفن هوكينغ يقول تحت عنوان (لا وجود للجنة، والحياة الآخرة قصة خرافية)،
نشرت السي أن أن قول عالم الفيزياء المُلحد ستيفن هوكينغ (أنا أعتبر الدماغ كجهاز كمبيوتر يتوقف عن العمل عندما تفشل مكوناته)،
و قال أيضا (ليس هناك من جنة أو حياة آخرة لأجهزة كمبيوتر محطمة، وهي أشبه بقصة خرافية للناس الذين يخشون من الظلام).
و نشرت له أيضا السي أن أن تحت عنوان (هوكينغ يجيب على أسئلة الخلق فيزيائيا: الله لم يخلق الكون)، قوله (بناء على المعطيات المتاحة المتمثلة بوجود الجاذبية ، فإن - الكون يمكنه وسيظل قادراً على خلق نفسه من العدم).

أخي القارئ :
في البداية أود أن أشير إلى أن نفي الخالق و البعث من بعد الممات، ليس ظاهرة حديثة، بل قديمة قدم جُهد إبليس في دعوته مع البشر حيث علمهم أن يقولوا {مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} (١١).
و سُبحان الله في هذا العالم الذي أفني عمره في علوم الدنيا، ثم يفكر و يتكلم عن الآخرة بعقل الغافل، فيضع مُقارنة جائرة بين الإنسان و الكمبيوتر، فيجعل الدماغ كالكمبيوتر يتوقف عن العمل عندما تفشل مكوناته، و يعتمد في نفيه للجنة و الحياة الآخرة على أن جهاز الكمبيوتر المحطم ليس له جنة أو حياة آخرة، و صدق الله إذ يقول فيه و في أمثاله
{يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ} (١٢) .

(ستيفن هوكينغ يدعي أن الدماغ يتوقف عن العمل عندما تفشل مكوناته)

فهنا أقوله له: ولو كان عالم مُنصف لعلم أن الكمبيوتر الذي ينتهي بفشل مكوناته، صنعه إنسان ذو عقلٍ محدود و لم يأتي إلي الدُنيا صُدفة، و لقال بأن صانع الكمبيوتر و هو الأكثر تعقيداً لم يأتي إلى الدنيا صُدفة و أنه لابد له من

صانع، و إذا كان الكمبيوتر عند هوكينغ لا يجد من يُعيده إلى الحياة فذلك لضعف قدرات صانعه، و لو تدبر في خلق نفسه و خلق الكون من حوله بــــما فيه من بديع الصُنع، لعلم قوة خالقه و لأيقن بقدرته على إعادته من بعد فنـــــاءه، قال تعالى {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَـــــى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } (١٣) .

و إذا كان صانع الكمبيوتر يُعيد صناعة بلايين الأجهزة من الكمبيوتر بطُرق هي أيسر عليه من أول مرة صنع فيها الجهاز الأول بل و يصنع ما هو أفضل مــنه، و لله المثل الأعلى، فكيف بمن بدأ خلق الإنسان و خلق الكون كله بهذه القدرات الهائلة أن يعجز عن إعادة الإنسان أو الكون بذاته أو يخلق ما هو أفــضل منه، قال تعالى {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُــمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} (١٤) .

و لو أحسن هوكينغ المقارنة بين الكمبيوتر و الإنسان، لأدرك أن الكــــمبيوتر بمكوناته المادية لا قيمة له بدون طاقة و برنامج تشغيل يربطه بما حـــوله من مُدخلات علمية، و كذا الإنسان لابد له من طاقة تحركه و تبعث فيه الـــحياة، و تجعله قادراً على التعرف على ذاته و على ما حوله، و تجعله يختلف عن الحجر و الشجر و سائر الحيوان، إختلافاً شاسعاً في الإدراك و القدرات، فـــإذا غابت عنه تلك الطاقة غاب الإدراك، و هذا ما نشاهده في الجنين في بـــــطن أمه في الشهور الأولى من الحمل حيث يكون كتلة لحم لا إدراك فيها، و ما نشـاهده في الإنسان بعد الموت حيث يصير كتلة لحم لا إدراك فيها، و ما بينهما نـجده مفعم بالحياة و الإدراك، و العقل يُحتم أن الحي يزيد عن الميت بشيء ما يهبه الحياة و الإدراك، كما أن الكمبيوتر الذي يعمل يزيد عن الذي لا يعمل بالطاقة المحركة، هذا الشيء أسماه المُلحد الوعي، و أسماه الله الروح.

و معلوم أن إدراك الكمبيوتر للمُدخلات العلمية ناتج عن برمجة ســـــابقة من الإنسان، فهل يمكن للإنسان أن يدرك ما حوله بدون برمجة سابقــة، فما تنقله لنا الحواس الخمسة ليس إلا إشارات كهربائية تنتقل من الـــحواس إلى العقل عبر الأعصاب فيتم التعرف عليها في العقل، فكل ما نشعر به مـــن هذا الكون ليس إلا إشارات كهربائية بداخل الدماغ، فما الذي جعل الدماغ يتعرف على كل

ما تدركه الحواس و يُفرق بينها بدقة شديدة، فهذا كبير و هذا صغير، هذا أصفر و هذا أخضر، هذا صوت حسن و هذا سيء، هذا ناعم و هذا خشن، هذا حلو و هذا مر، و عديد من الفروق التي لا يحصيها إلا من أوجدها، فما هي الآلة التي تعمل بداخلنا لتُدرك المحسوسات بكافة اختلافاتها، ليس بعد الولادة فحسب بل و قبل الولادة أيضا، فالجنين في بطن أمه بعد نفخة الروح يشعر بنفسه فيضحك و يضع إصبعه في فمه و يحرك أعضائه، كما يشعر بغيره فيمكنه السمع و الاستجابة للأصوات و التفريق بين فرحة الأم و حزنها، فمن علمه و برمجه ليفعل كل ذلك، إذا قلنا كما يقول الملحدون إنها الطبيعة، قلنا لهم الطبيعة مفتقرة إلى من أوجدها و جعلها بهذا التعقيد الشديد والفروق الكبيرة بين مكوناتها و اختلاف طبائعها و ألوانها، ثم كيف أدركت الطبيعة أن العقل الإنساني ينبغي أن ينتبه لكل هذا الكم الرهيب من تفاصيل الكون فزودته بآلة الإدراك التي تميز بين الأشياء مع أنها لا تعدو أن تكون مجرد إشارات كهربائية تنتقل من الحواس إلى الدماغ، فالربط بين تعقيد الدنيا و تعقيد الإدراك لابد أنه أمر مُبرمج بحسابات دقيقة و ليس صدفة، و لو كان صدفة لمكنته الطبيعة من إدراك كل شيء فيها فلا يغيب عنه شيء، أو لحرمته الطبيعة من إدراك أي شيء، و لكن لأن آلة الإدراك مُبرمجة فهي تعمل في إطار مُحدد، و هكذا كل كائن حي له برمجته الخاصة التي تمكنه من إدراك أشياء معينة و تغيب عنه أشياء أخري.

و لو قلنا بقول هوكينغ بأن نهاية الحياة مرتبطة بتلف العقل، فمن المنطقي أن نقول بأن العقل السليم هو الذي يُعطي الحياة للجسد، فيجعل القلب ينبض والرئة تتنفس، و بالتالي إذا قمنا بنقل هذا العقل السليم إلى جسد ميت فسوف تدب فيه الحياة. و لكن العلم يخالفك في ذلك، فهناك عُلماء يعكفون على دراسة نقل عقول أمثالك المتهالكة إلى أجساد الشباب الذين ماتوا إكلينيكياً، ظناً منهم أنهم قد يُطيلوا عُمر عقلك إلى أجلٍ غير مُسمي، و سؤالي لك يا ابن السبعين هل تبحث عن جسد ميت ليحمل عقلك، فتُحييه بالعقل من بعد الموت، أم تبحث عن جسد حي لتُحيي به عقلك؟.

والفرق بين الاثنين كبير، فإذا كنت تبحث عن أي جسد فأجساد الأمـــوات كثير، ولكنك تعلم أنها لن تصلح كوعاء لعقلك لأن ذلك سوف يكون بمثابة مـيت زُرع بميت فلا قيمة له من دون الروح التي خرجت منه، و لهذا فأنت تبحث عن جسد حي به الروح، به قلبٌ ينبض و رئة تتنفس، و لكن عقله قد أصابه التلـــف لأي سبب من أسباب الهلاك، فتحتل أنت هذا الجسد بعقلك طاردا عقل صاحب الجسد إلى الخارج، و لولا ما تجده أنت و العلماء العاملين في هذا المجال من صعوبات كثيرة لكنت قد فعلتها في الحال، و هذا إقرار ضمني بمعرفتك للفرق بين الـجسد الحي و الميت و أن الحي يختلف عن الميت و إلا لقبلت بأجساد الأموات لتُحييها بعقلك الذي لم يتلف بعد، و تنقذ عقلك من جسدك الذي سوف يقبل عليه الموت فينتزع منه مادة حياته التي لا تريد أن تعترف بوجودها مع أنك تبحث عنها، ثم تقول الموت هو تلف العقل، و حتى لو لم تعترف أنت بالروح التي تبـــحث عن أثرها دون اعتراف بوجودها أو بفضل خالقها، فيكفي أن تجارب العـــــــلماء العاملين في مجال نقل الدماغ أو الرأس تعترف بذلك.

يُعتبر د. روبرت هوايت (ROBERT J. WHITE)، من أكبر العاملين في مجال زراعة المخ أو الرأس منذ عام ١٩٦٠، و في تجربة فريدة استطـــاع أن يحصل على مخ قرد و يبقيه خارج الجسد حي و ذلك بالتبريد مع استخدام آلات خاصة تعمل على وصول الدم إلى هذا المخ فما يشبه القلب الصـــناعي ، وبهذا يمكن إبقاء المخ في حالة سليمة و جاهز للنقل إلى (مخ قرد تم عزله حيا خارج الجسد باستخدام دورة دموية صناعية)

و هذه التجربة السابقة ترد على هوكينغ الذي يقول بان الحياة تنـــــتهي بتلف الدماغ، حيث مات القرد و بقي المخ سليم لم يتلف، و سؤالي لك يا هوكينـغ هل تستطيع أنت و كل علماء الأرض أن تعيدوا هذا المخ السليم إلى جسد القرد الذي مات فتُعيد إليه الحياة، بالطبع مُحال، لأن د. روبرت هوايت نفسه اشـــترط لنقل المخ أو الرأس أن يكون الجسد المُستقبل ميت إكلينيكيا، حيث يتم الحـــفاظ على كامل الجسد حي لم يتلف، من خلال أجهزة معينة تحافظ على وصـــــول الدم والأكسجين و الغذاء لكل أجزاء الجسد، أي ربما يكون صاحب هذا الجـــسد حي و نحن لا ندري، و قصص الذين عادوا إلى الحياة بعد الموت الإكلينيـكي ليست

قليلة، و خلاف العلم حول الموت الإكلينيكي لم يتم حسمه حتى الآن بتجربة حقيقية تثبت أن الجسد قد غادرته الحياة للأبد. و عليه فعدم قدرة العلم على نقل مخ سليم إلى جسد ميت يعتبر اعترافاً ضمنياً بأن المخ السليم ليس هو مفتاح الحياة كما يزعمون، و أن هناك شيء آخر يهب الحياة غير العقل السليم، وهم يبحثون عن هذا الشيء في الأجساد التي ماتت إكلينيكيا (ربما تكون حية طالما لم نثبت أنها ماتت) و هذا ما سوف نلحظه في التجارب التالية.

قام د. روبرت هوايت بتجربة فريدة نقل فيها رأس قرد إلى جسد قرد آخر، و بالطبع استخدم في التجربة قرود حية، فكانت النتيجة أن عاش جسد قرد برأس قرد آخر لبعض الوقت، فظن د. روبرت و كثيرون غيره بأن الوعي مصدره العقل فقط و أنه لا يوجد ما يسمي بالروح، و لكن هذا الاستنتاج يخالف مبادئ العلم لأنه لم يُجبعلى سؤال مهم قبل الجزم بما يقول، و السؤال هو (هل يمكن للرأس أن يعيش بعد فصله عن الجسد مع عدم نقله إلى جسد آخر؟، و هل يمكن لهذا الرأس أن يحيي جسد قرد ميت؟). فإذا كان الرأس هو مصدر الوعي و الحياة كما يدعي أهل الإلحاد، فمعنى ذلك أنه يمكن نظريا للرأس أن يعيش من دون الجسد إذا فصلناه لوحده و حافظنا على تغذيته بالدم و الأكسجين، و لنري كيف أجاب العلم على هذا السؤال.

(عملية نقل رأس قرد حي إلى جسد قرد حي آخر)

و في تجربة فريدة قام أحد العلماء لفصل رأس كلب عن الجسد و تغتذيته بالدم من خلال مضخة قلب صناعي .وقد تمكن ذلك الرأس من العيش قليلاً ثم مات، مع أن مخ الكلب سليم و تصله التغذية، و لكن يبدو أن هناك ما هو أهم من الدم و الغذاء، مما يؤكد على أهمية الروح للحياة و ليس العقل السليم كما يزعم روبرت هوايت و هوكينغ و كل أهل الإلحاد.

(عملية فصل رأس كلب عن الجسد و تغذيته بالدم من خلال مضخة قلب صناعي)

و في تجربة أخري تؤكد علي أن الحياة ليس منشأها العقل السليم و لكن شيء خفي اسمه الروح، في أوائل عام ١٩٠٨ نجح الطبيب تشارلز جوثري

(Charles C. Guthrie) في زراعة رأس كلب من النوع المـختلط الصغير على رقبة كلب آخر من النوع الكبير مع بقاء رأس الكلب الكبير متصلاً بجذعه ليصبح كلب ذو رأسين، و الغريب أن هذه الرأس عاشت مع الكلـــــب الآخر و تناولت الطعام، مما يدل على أنها حصلت علي شيء آخر غـــــير الدم والمغذيات، لقد حصلت على مادة الحياة و الإدراك من جسد الكلـــــب الحي، فالرأس مثلها مثل كل الأعضاء يمكن نقلها من جسد إلى آخر بشـــرط أن تجد الروح في انتظارها لكي تعيش، أما إذا تم فصلها كُليا عن الجســد أو نقلت إلى جسد ميت فلا قيمة لها و إن حصُلت على الدم و الغذاء لأن هناك مــا هو أهم وهو الروح .

و قد تم إعادة هذه التجربة أكثر من مرة باستخدام الكلاب و الفـئران و غيرها من الحيوانات الحية، و لكن حتى الآن لم يحدث أن تم زرع الرأس في جـــسد حيوان ميت، مما يثبت أن الرأس لا قيمة لها بدون الحياة التي في الجسد.

و يبدو أن ما دفع هوكينغ مؤخراً إلى قول هذه العبارة (أنا أعتبر الدماغ كجهاز كمبيوتر يتوقف عن العمل عندما تفشل مكوناته) ،

هو موت صاحبه العالم الكبير د. روبرت هوايت في نهاية الـعام ٢٠١٠ دون أن ينجح في نقل رأس إنسان إلى جسد إنسان آخر، مما جعل هوكينغ يفقد الأمل في الإبقاء على عقله في هذه الحياة و يعاني الليل قبل النهار من التفكير فـــيما بعد الموت، فالعقل السليم إذا افترض أنه لا يوجد شيء اسمه الروح و لا يوجد بعث من بعد الممات، ينبغي لـه أن يفترض أيضا و بنفس النسبة أن هناك شيء اسمه الروح و هناك بعث من بعد الممات، و إذا كان العلم قد فشل حـــتى الآن في نفي الروح بدليل قاطع، إلا أنه قد ظهر للعلم أن نقل الأعضاء يتطـــــــلب شرطين أساسيين،

الأول سلامة العضو المنقول حتى و إن كان هذا العضو هو العقل،

و الثاني وجود جسد حي يستطيع أن يهب الحياة لذلك العضو المنقول، ولا أقصد بالحياة القدرة على تغذية العضو بالدم و الأكسجين و الغذاء، بل اقـصد ما وراء ذلك من مادة الحياة التي يسميها الإسلام بالروح التي تحرك الجســـد و تعطيه الإدراك.

و لذا فلو قالوا لك يا هوكينغ سوف نقطع رأسك و نحافظ عليها حية، ثم ننقلها إلى جسد شخص قد مات (موت بيولوجي يتوقف فيه القلب و النفس، و ليس إكلينيكي) لكنت حتما سترفض لأنك تعلم أن هذا الجسد لن يهبك ما في جسدك العليل من روح تُبقي عليك حيا حتى الآن. و إذا قيل لك سنقطع رأسك و نقوم بزراعته قبل أن يموت في جسد شخص حي بحيث يكون ذو رأسين و بالتالي تضمن الحياة لرأسك و عقلك لاتصالهما بجسد فيه الروح، فسوف ترفض لسبب بسيط، و هو أنك لن تستطيع السيطرة على ذلك الجسد برأسك لأنك لا تملك اتصال عصبي بهذا الجسد كما أنك لا تملك الآن الاتصال العصبي بجسدك الحقيقي العليل، كما أنك لا تضمن أن تظل كما أنت هوكينغ فربما عاشت رأسك على هذا الجسد الغريب كقطعة زائدة لا قيمة لها، و لهذا فأنت تفضل أن تعيش بجسدك العليل و لكنك بروح هوكينغ عالم الفيزياء و الملحد الشهير على أن تكون مجرد زائدة لا قيمة لها على جسد آخر.

و كون العلم لا يستطيع إمساك الروح بالدليل المادي حتي الآن لا ينفي وجود الروح، فيكفي أثرها للاستدلال عليها و إلا لما بحث العلماء عن هذا الأثر في أجساد الأحياء، و صدق الله إذ يقول {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً } (١٥) .

و الإقرار بوجود روح مُبرمجة للإدراك في الإنسان تختلف عن غيره من الكائنات الحية، يجعلنا نقر بأن الله هو الذي أوجد الخلق و برمجهم علي التفاعل مع الطبيعة كُلٌ بطريقته و هدايته الخاصة و لذا قال تعالى
{قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } (١٦) ،
أي خلق كل مخلوق بأعضائه الخاصة، و هداه و هدي أعضائه إلى المعيشة بكيفية خاصة تتلاءم مع تكوينه الذي خلقه الله عليه، فكل مخلوق له مأكله و مشربه و طريقة تزاوجه و ما يشعر به و ما لا يشعر به، و الله هو الذي يهب الروح التي تسكن الجسد الهامد فتحوله إلى جسد حي له إدراك بذاته و بمن حوله، قال تعالي
{الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ} (١٧) ،

وتؤكد هذه الآيات على أن الله خلق آدم من طين و نسله من ماء مـــهين، و أن أعضاء السمع و البصر في هذا الكائن الإنساني لا قيمة لها إلا بعد نفخة الروح، فتصير الأذن سامعة لما أراد الله، و العين مبصرة لما أراد الله، فالإنسان يستخدم حواسه في تعلم كل شيء عن نفسه و ما حوله، و لكن هذه الحواس العضـــوية بدون الروح لا قيمة لها، و لذا فقد امتن الله علي العباد بالسمع و البـــــصر و الفؤاد، و لم يمتن بذات الأعضاء من الأذن و العين فقال تعالي

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} (١٨)،

فما فائدة الأذن أو العين أو الفؤاد إذا لم ترتبط هذه الأعضاء بالروح المحركـة و المدركة لكل ما تشعر به الحواس، و كما أن المرض إذا أصاب هذه الحواس ينعدم إدراكها فلا تنقل المحسوس إلى الروح، فكذا الروح إذا انعدمت فلا نشعر بالمحسوس و لو صار كهرباء في الأعصاب و الدماغ، فالروح طالما موجودة بالجسد يستمر الإدراك للموجودات فإذا خرجت من الجسد عاد كما كان لا قدرة له على إدراك الموجودات، فالإدراك بدأ مع دخول الروح للجسد الجنيني فيدرك و هو في الرحم و ينتهي الإدراك بخروج الروح من الجسد مع بقاء الجـــسد بكافة أعضائه، و حتى لو حافظنا على سلامة الجسد كما في الموت الإكلينيكي فلن يدرك الجسد شيء طالما فارقته الروح .

و سبحان الله لو أن هذا الرجل قرأ النصف الأخير من سورة الواقعة لعلم صدقا و يقينا أنها نزلت من عند الله لتخاطب عقول أمثاله، فتربط الآيات بـــين إنكار أصحاب الشمال للبعث من بعد الممات، و بين قدرة الله علي الـــخلق و على الإحياء و بالحُجج العقلية التي ترُد علي إنكارهم، و تثبت لهم أن الله جامـعهم ليوم الحساب لا محالة و بأنهم لن ينالوا بإنكارهم إلا العذاب المـــــهين

{ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ. قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ. لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ. ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَـــا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ. لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ. فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُـــونَ. فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ. فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ. هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ. نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ} (١٩) .

فإذا لم تصدقوا أن الله هو الذي خلقكم و هو القادر علي بعثكم فتفكروا في المني الذي تُمنون، هذا المني الحقير في نظركم، و مع ذلك فقد جعل الله فيه سـبب وجودكم، و القوة على إعادة الحياة جيل من بعد جيل، فيخلُق الله بإذنه مـن هذا المني المهين إنسان كامل يعيش و يفكر كما تفكر و ربما أبدع ما لم تـبدع أنت. هذا المني الذي لا يمثل إلا مجموعة من المركبات الكيميـائية التي لا روح فيها، و مع ذلك يخرج منه كافة الأحياء من أمثالك، فكـيف بعد ذلك تظن أن الله ليس بقادر على أن يعيدك إلى الحياة بعد أن صرت تـراب لا روح فيه، و قد أوجد من هذا المني الذي لا روح فيه مليارات من البشر من آدم و إلى أن تقوم الساعة لا يعلمها إلا الله، قال تعالي {نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ. أَفَرَأَيْتُم مَّـا تُمْنُونَ. أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ} (٢٠) .

فهل أنت يا عدو الله قادر على أن تخلق هذا المني من تـراب الأرض و من دون خلق الله، بكل ما أوتيت من عقل و علم و آلات حديثة لها من الـقدرات الشيء الكثير، فإذا عجزت أنت و من خلفك عن ذلك، أتنتج الطبيعة و هي لا تعقل و لا تملك ما تملك، في أن تنتج و لو حيوان منوي واحد فيه ما فيه من الـقدرة على الإيجاد، فسبحان من برأ و صور و أوجد، فأحسن كل ما أوجد.

و هذه نباتاتك التي تزرعها تشهد على بعثك من بعد الممات، فنـبتة تموت و تخلف وراءها ثمار، تُعيد قصة الآباء من بعد الممات، فمالك لا تري و لا تعقل، أم أن كثرة رؤيتك لعملية الحرث و الزراعة جعلتك تظن أنك أنت البـشري قليل الحيلة هو من يستطيع الزرع، و ما أنت يا مسكين إلا مُنتظر غلبان، يـضع البذرة في الأرض و على الله الإنبات، و لولا فضل الله عليك لما نبتت بذرتك في الأرض، و لا نبتت نطفتك في أرحام الأمهات .
{أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ. أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ. لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ } (٢١) .

و حتى النجوم التي أفنيت عمرك في دراستها لتعرف أصل الكون و كيف نشأ، تشهد على إحيائك من بعد الموت، فهذه النجوم تولد كما تولد أنت و تشب كما تشب و تشتد كما يشتد عودك، ثم يصيبها الهرم كما هرمت ثم تموت، و يولد غيرها، عبر مليارات من السنوات لا يعلمها إلا الله، نجوم تعددت مواقعها و تشابهت قصصها بين مولود و ميت، فكيف تدعي أنك لست بمبعوث من بعد الموت {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ } (٢٢).

فسُبحان من خلق الموت و جعله بين العباد قدرٌ محتوم {نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ. عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ} (٢٣) فالموت آتيك لا محالة {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ} (٢٤) ، فإذا بلغت الروح الحلقوم و الكل ينظر إليك شفقة عليك، فهلا سألتهم أن يعيدوها إليك بدلا من البحث عنها في جسد غيرك
{فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ. فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ}(٢٥)
. فلماذا أيها المسكين تموت، و من أجبرك على الموت ،
و أنت تحب الحياة، و إذا كانت الطبيعة الباقية من حولك لمليارات السنين قد أوجدتك كما تقول فلماذا لم تهبك مثلها البقاء لدهور، أو فضلتك عن نفسها فمنحتك الخلود، لماذا الموت على العباد كأسٌ يدور، يأخذ الكبير و الصغير، يأخذ الغني و الفقير، يأخُذ الصحيح قبل السقيم، لم يُبقي و لن يُبقي أحد، فلماذا البشر في كل شيء مختلفون إلا في الموت مُتساوون، يا أيها المسكين قل ما شئت و افعل ما شئت فأنت إلى الموت سائر شئت أم أبيت، و الديان حي لا يموت. و كما تفاوتت أحوال البشر في الدنيا تتفاوت أحوالهم في الآخرة كُلٌ بعمله، فمن أحسن الظن بالله و أيقن بلقائه كان في جنات النعيم .
{فأما إن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ} (٢٦)،
و أما من أساء الظن بالله و نفي لقاء الله كان في جحيم لا ينقضي {وأما إن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ} (٢٧) .

و لكن مشكلة كُل ملحد و إن كان من أكابر العلماء هو البعد عن المنطق السليم عند مناقشة قضية وجود الخالق، فلو أنصف كعالم لوضع لفرضــية وجود الله نسبة ٥٠ %، و لفرضية عدم وجود الله ٥٠ %، ثم يسعي لإثـــبات أو نفي فرضية وجود الله أولا لبساطة الاستدلال عليها، قال تــعالى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ} (٢٨) ،
فكل مخلوق له خالق، و في غياب الخالق نجد مشـــكلة كبيرة لا حل لها و هي من أوجد الحدث الأول الذي تسبب في إيجاد الكـــون، هوكينغ يقول الجاذبية و لكن يظل السؤال الذي لا يستطيع له إجـــــــــابة
(و من أوجد الجاذبية؟ و من أوجد المادة التي خضعت للجاذبية؟).

و للأسف فان المُلحد يترك الفكر الايجابي و يسير وراء الفكر السلبي الذي يقول لا خالق و لا إله، مع أنه لا يوجد عليه دليل تجريبي إلا أنه يوافق أمانيـهم، و لو أنصف أحدهم لما نفى وجود الخالق إلا بعد الخروج من الكون المنظور للبـحث عنه، فان وجده آمن به و إن لم يجده أكد للعالم بنسبة ١٠٠% أنه لا خـــالق، وهذا هو ما فعله فرعون عندما أراد أن ينفي وجود اله غيره فأمر أعوانه ببناء صرح شامخ ليبحث في السموات عن إله موسي عليه السلام
{وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ. أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِباً وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ} (٢٩) ،

وسبحان الله في إنصاف فرعون حين أراد أن ينفي وجود الإله الذي يتـكلم عنه موسي، فقال فرعون (و إني لأظنه من الكاذبين)، فبني كلامه على الظن و ليس على اليقين، إذ التيقن من عدم وجود الله لا يكون إلا من بعد المشاهدة الكـاملة لكل أرجاء الكون، و لما كانت هذه المشاهدة مستحيلة لأن العلم اثبت أن الكون المنظور أكبر بكثير من قدرات أي علم على الوصول لحوافه البعـيدة عنا، فما بالكم لو علموا أن وراء الكون المنظور أكوان لا يعلمها إلا الله، و أن كـــوننا المنظور و غير المنظور لا يمثل إلا حلقة في فلاة بالنسبة لكُرسي الله، والكُرسي حلقة في فلاة بالنسبة للعرش، قال تعالى { فلا أقسم بما تبـــصرون. و ما لا تبصرون} (٣٠) .

فسبحان من أوجد الوجود و جعله الدليل علي وجوده
{فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (٣١) ،

و قديماً قال الأعرابي الذي لا يملك من العلم ما يملكه هوكينغ و غـــــيره من المُلحدين (البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير)، ففي كُل شيءٍ له آية تدلُ على أنه الواحدُ.

أخي القارئ : أختم كتابي الجزء الأول بهذا التعبير وأقول :
إن دين الإسلام هو دين إنساني اجتماعي عالمي :

وجده في الإسلام وتعاليمه: الوضوح والتوازن والوسطية والشمولية والواقعية والإنسانية والمرونة والقابلية لاستصحاب مستجدات العصر. وشرائعه وشعائره (ذات نفع اجتماعي)
كما تشبع حاجات الإنسان: الروحية، والمادية، والأخلاقية، والمعرفية، والاجتماعية، والعاطفية، والجمالية، والبيئية، والرياضية، والترفيهية.
وأنظر فيه ـ بثبات ومعصومية مصدرية: القرآن الكريم والسنة النبوية ـ للقيم والأخلاق والمعاملات. وبذا تحل أزمات ثقافة المادة والشك والعدمية، والسيولة القيمية، والنسبية الأخلاقية، والواقعية البراغماتية. وتأكد فيه الكرامة الإنسانية التي تكسب البشرية هدايتها للمعروف، ونهيها عن المنكر، وتمتعها بالطيبات، واجتنابها الخبائث واضعة، عنها، أصرها والأغلال التي كانت عليها: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (٣٢).

وتبين حث الإسلام على القول الحسن، والعمل الصالح المُصلح للحياة. وإنكاره على من يخالف قوله فعله، ولا يسلم الناس من لسانه ويده، فعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: { المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه} (٣٣).

ووجدته يفرض على أن أسمو على مشاعري ومصالحي، فلا اجعل بغضي لقوم سبباً يمنع من العدل معهم وإعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم. فالإسلام خصم للظلم والعدوان والفساد والإفساد، وغايته (العدل) الذي هو اقرب للتقوي،غاية التدين الصحيح.

فإن أصلنا الواحد ـ مع اختلاف الشعوب والقبائل والألوان واللغات ـ مدعـاة للتعارف. فالتنوع سبيل التعاون والتكامل وفق معيار إنساني: التقوى والعمل الصالح، وهما ،أعمال كسبية، يتسابق فيهما الناس.. مرضاة لربهم:
{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (٣٤).
ولقد آمنت بالإسلام ديناً عالمياً، لا ينحصر في بيئة خاصة ولا هو مقـصور على جنس أو عصر بعينه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ} (٣٥).

إنه :حقيقة إنسانية مطلقة، تسع التاريخ، والأزمنة، والأمكنة كلها. فالمسلم لا يكتمل إيمانه إلا بالإيمان بالأنبياء والرسل السابقين:
{آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (٣٦).

كما أنه مرن في تشريعاته وآدابه العملية وقواعده العامة التي تترك المسلمين أحراراً في وضع القوانين الملائمة لأقطارهم وأزمانهم وفاقا للصالح العام والاجتهاد المقبول. وشعاره الرقي والتقدم، وعدم الحَجْرِ على المعارف والحريات المنضبطة بأخلاقياته. ويحث علي العلم والتعقل والتدبر والتفكر والتجريب. فكثير من الملل تحصر المعرفة في المنقول عـندها، أما هو فيقر وسائل معرفية: الوحي، والإلهام، والمعقول، والتجربة.

دين مقنع إيمانياً

لم أجد الإسلام (ديناً كهنوتياً غامضاً، له طلاسمه ورجاله العارفـين أسراره).
إنه لا يقر أية واسطة بين الإنسان وربه،: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (٣٧).

ويحترم الشخصية الإنسانية ويؤمن بترقيها إذا استجابت للإيمان والفطرة. فكل خصائصه موائمة لتلك الفطرة، ووضوحه جلي بادٍ في عقائده، وشـــرائعه، وشعائره، وتعاليمه. فعقائده تتسم بالبساطة واليسر والوضوح، وتتخذ سبيلها إلى العقل والقلب معاً. عقيدة سهلة تتفق مع المنطق أساسها: الإقرار بإله واحد أبدع الوجود ودبر أمره على سنن حكيمة شاملة ومطردة. وتصوير .العظـــمة الإلهية. في الإسلام جمع بين الحقائق العلمية الثابتة والفلسفات النفســـية والتربوية. فيرفض الإشراك بالله في كل صوره فذلك امتهان صارخ للعـــقل، وسقوطٌ بالإنسانية. وغالباُ ما تنسب الملل والنحل لمؤسسها أو لأقوامهـــا، وتربط بين كرامة الإنسان وبين الانتماء الحصري لها. لكن الإسلام - كـــونه للبشرية جمعاء - ينسب لمبدأ مجرد عام وصفة لمن اسلم وجهه لله.

ولما تابعت بحث ما يكتبه غير المسلمين عن (الله)، و(الدين)، و(الرســـل السابقين)، ومقارنة الرسائل التي يروجونها، وبين أخبار وتقارير وقصص القرآن، فوجدت سياق القرآن والسنة المشرفة أحكم وأدق وأعـــمق وأشمل. ومعجزة الإسلام: القرآن، معجزة بيانية موضوعية مجردة خالدة، نزلت على شخص ليس بكاتب ولا قارئ ولا شاعر ولا ساحر لكنه أتى بنص مـــعجز لا يجارى ولا يبارى من قومه المتميزين بالفصاحة والبيان.

ولقد عرفت هذا الإله العظيم عن طريق النبي محمد ﷺ. ودرست سيرته، فتجاوبت فطرتي مع رسالته، واستراح فكري وقلبي إلى دعوته. ولم لا..
فابلغ دليل عقلي تاريخي هو نهوضه، ﷺ، بالعرب. شعب جاهلي ضيق الأفق، فبعث إليهم نبي أمي، كامل البشرية وغير متصف يتأله أو تكبر أو تجبر، فلم يمض قرن حتى وصلوا إلى مغرب الشمس ومشرقها. وزاد احترامي للإسلام معرفتي أنه خاتم منهج النبوات كلها. والحقيقة التي تضافر على إبلاغها آدم، ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد عليهم الصلاة والسلام.
وصار كل يوم يمر يزيدني حباً - عقلانياُ - له، واحتراماً لتعاليمه، وثـــقة في صلاحيته للعالمين، وجدارته للبقاء أبد الآبدين:
{قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (٣٨).

وبعد كل ما سبق، وغيرها كثير من التجارب والتأملات والشواهد والأدلة التي لا يتسع المقام لذكرها، يبقي السؤال: لماذا جاءت كلمة (إنسان) قبل كلمة (مسلم) في عنوان هذا المقال؟. ذلك لأن (الإنسان) آية من آيات الله، وهو مؤهل بعقل برهاني، وقبس روحي، وحرية اختيار، وهداية للسبيل الحق سبيل إسلام الوجه لله رب العالمين.

كما إن الإنسانية والإسلام قرناء. ولذا فإننا نختار الإسلام نقلاً وتعقلاً، وقناعة متجاوزة التقليد والوراثة. وأننا لنعتز ونفاخر بأننا مسلمون نستوعب التلقي المتواتر ـ وإيماناً قلبياً ـ عن المبلغ عن ربه الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم، مع اليقين العقلي عبر قراءة آيات الله تعالى الهاديات في الآفاق وفي الأنفس: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (٣٩).

الدّعاء بحسن الخاتمة من القرآن والسّنة :

رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ
رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ
رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ
اللهمَّ أَصلِحْ لي دِيني الذي هو عِصمةُ أمري، وأَصلِحْ لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلِحْ لي آخرَتِي التي فيها مَعادي، واجعلِ الحياةَ زيادةً لي في كل خيرٍ، واجعلِ الموتَ راحةً لي من كلِّ شرٍّ
اللهمَّ أنت خلقْتَ نفسي، و أنت توفَّاها، لك مماتها ومحياها، وإن أحيَيْتَها فاحفظْها، وإن أمَتَّها فاغفِرْ لها، اللهم إني أسألُك العافيةَ
اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ منَ التَّردِّي والْهدمِ والغرَقِ والحَريقِ، وأعوذُ بِكَ أن يتخبَّطَني الشَّيطانُ عندَ الموتِ، وأعوذُ بِكَ أن أموتَ في سبيلِكَ مُدبرًا، وأعوذُ بِكَ أن أموتَ لديغًا
اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِك من عذابِ القبرِ وأعوذُ بِك من عذابِ النَّارِ وأعوذُ بِك من فتنةِ المحيا والمماتِ وأعوذُ بِك من فتنةِ المسيحِ الدَّجَّالِ

اللهمَّ بعلْمِك الغيبِ ، وقدْرتِك على الخلقِ أحْيِني ما علمتَ الحياةَ خـــيرًا لي، وتوفَّني إذا علِمْتَ الوفاةَ خيرًا لي، اللهمَّ وأسألُك خشيتَك في الغيبِ والشهادةِ، وأسألُك كلمةَ الإخلاصِ في الرضا والغضبِ، وأسألُك القصدَ في الفقرِ والغنى، وأسألُك نعيمًا لا ينفدُ وأسألُك قرةَ عينٍ لا تنقطعُ، وأسألُك الرضا بالقـــضاءِ، وأسألُك بَرْدَ العيْشِ بعدَ الموتِ، وأسألُك لذَّةَ النظرِ إلى وجهِك، والشـوقَ إلى

لقائِك ، في غيرِ ضرَّاءَ مضرةٍ، ولا فتنةٍ مضلَّةٍ، اللهمَّ زيّنا بزينةِ الإيمـــانِ، واجعلْنا هداةً مُهتدينَ

لبَّيكَ اللَّهمَّ لبَّيكَ لبَّيكَ وسعدَيكَ والخيرُ بينَ يدَيكَ ومنكَ وإليكَ اللَّهمَّ ما قــلتُ مِن قولٍ أو حلفتُ مِن حلِفٍ أو نذرتُ مِن نذرٍ فمشيئتُكَ بينَ يدَيهِ ما شــئتَ كان وما لَم تشأْ لَم يكنْ ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بكَ إنَّكَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ اللَّهمَّ ما صلّـيتُ مِن صلاةٍ فعلَى مَن صلَّيت وما لعنتُ مِن لعنٍ فعلَى مَن لعنتَ إنَّكَ وليِّي في الدُّنيا والآخرةِ توفَّني مُسلمًا وألحِقْني بالصالحينَ اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ الرِّضا بعدَ القضاءِ وبردَ العَيشِ بعدَ الموتِ ولذَّةَ النَّظرِ إلى وجهِكَ وشَوقًا إلى لقائِكَ في غـــــيرِ ضراءَ مُضرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضلَّةٍ وأعوذُ بكَ اللَّهمَّ أن أظلمَ أو أُظلَمَ أو أعتـــدي أو يُعتدَى عليَّ أو أكسِبُ خطيئةً أو ذنبًا لا تغفرُهُ اللَّهمَّ فاطرَ الســـمَواتِ والأرضِ عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ ذا الجلالِ والإكرامِ فإنِّي أعهدُ إليكَ في هذهِ الـــحياةِ الدُّنيا وأُشهدُكَ وكفى باللهِ شهيدًا أنِّي أشهدُ أن لا إلهَ إلَّا أنتَ وحدَكَ لا شــريكَ لكَ لكَ المُلكُ ولكَ الحمدُ وأنتَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عـــبدُكَ ورسولُكَ وأشهدُ أنَّ وعدَكَ حقٌّ ولقاءَكَ حقٌّ والجنَّةَ حقٌّ والسَّاعةَ آتيةٌ لا ريـب فيها وأنَّكَ تبعثُ مَن في القبورِ وأنَّكَ إن تكلُني إلى نفسي تكلُني إلى ضعيفٍ وعَورةٍ وذنبٍ وخطيئةٍ وإنِّي لا أثقُ إلَّا برحمتِكَ فاغفرْ لي ذنوبي كلَّها إنَّهُ لا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ وتُبْ عليَّ إنَّكَ أنتَ التَّوابُ الرَّحيمُ .

وجَّهتُ وَجهيَ للذي فَطَرَ السَّمواتِ والأرضَ حنيفًا مُسلِمًا، ومــــا أنا منَ المُشرِكينَ، إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحيايَ ومَماتي للهِ ربِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا أوَّلُ المُسلِمينَ

اللَّهُمَّ اغفِرْ لحَيِّنا ومَيِّتِنا، وصَغيرِنا وكَبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنْثانا، وشاهِدِنا وغائِبِنا، اللَّهُمَّ مَن أحْيَيْتَه منَّا فأَحْيِه على الإسْلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه منَّا فتَوَفَّه على الإيمانِ

المراجع: للباب الأخير :

---

(١) (سورة ، آل عمران ، آية : ١٩٠ ـ ١٩١)
(٢) (صحيح مسلم)
(٣) (سورة ، الطور ، آية : ٣٥ ـ ٣٦)
(٤) (سورة ، لقمان ، آية : ١١)
(٥) (سورة ، الفاتحة ، آية : ٦ ـ٧)
(٦) (سورة ، الأنعام ، آية : ٦٨)
(٧) (سورة ، النساء ، آية : ١٤٠)
(٨) (سورة ، النساء ، آية : ١٤٠)
(٩) (سورة ، فصلت ، آية : ٣٣)
(١٠) (سورة ، آل عمران ، آية : ٨)
(١١) (سورة ، الجاثية ، آية : ٢٤)
(١٢) (سورة ، الروم ، آية : ٧)
(١٣) (سورة ، الروم ، آية : ٢٦)
(١٤) (سورة ، إبراهيم ، آية : ١٩)
(١٥) (سورة ، الإسراء ، آية : ٨٥)
(١٦) (سورة ، طه ، آية : ٥٠)
(١٧) (سورة ، السجدة ، آية : ٦ ـ ٩)
(١٨) (سورة ، النحل ، آية : ٧٨)
(١٩) (سورة الواقعة ، آية : ٤٧ـ٥٧)
(٢٠) (سورة الواقعة ، آية : ٤٧ـ٥٧)
(٢١) (سورة الواقعة ، آية : ٦٣ـ٦٥)
(٢٢) (سورة الواقعة ، آية : ٧٥ـ٧٦)
(٢٣) (سورة الواقعة ، آية : ٦٠ـ١٥)
(٢٤) (سورة الجمعة ، آية : ٨)
(٢٥) (سورة الواقعة ، آية : ٨٣ـ٨٧)
(٢٦) (سورة الواقعة ، آية : ٨٨ـ٨٩)
(٢٧) (سورة الواقعة ، آية : ٩٢ـ٩٤)
(٢٨) (سورة الطور ، آية : ٣٥ـ٣٦)
(٢٩) (سورة غافر ، آية : ٣٧)
(٣٠) (سورة الحاقة ، آية : ٣٨ ـ ٣٩)
(٣١) (سورة الروم ، آية : ٥٠)
(٣٢) (سورة الأعراف ، آية : ١٥٧)

(٣٣) (رواه البخاري في صحيحه)
(٣٤) (سورة الحجرات ، آية : ١٣)
(٣٥) (سورة الأنبياء ، آية : ١٠٧)
(٣٦) (سورة البقرة ، آية : ٢٨٥)
(٣٧) (سورة البقرة ، آية : ٢٨٦)
(٣٨) (سورة الأنعام ، آية : ١٦١ ـ ١٦٣)
(٣٩) (سورة فصلت ، آية : ٥٣)

تم وبحمد من الله تعالى ويليه إن شاء الله تعالى
الجزء الثاني

١٤٤٤هجري --- ٢٠٢٣م
م/ ١٦٣/ت / ٣٢٤

أفلا تعقلون

تأليف

الكاتب والباحث والمؤرخ

ضياء فاضل محمد الخزرجي

تحت إشراف ومساعدة

الدكتور صباح حسن عباس

دكتوراه في البحوث الإسلامية

الجزء الأول

هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ

الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ

بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ